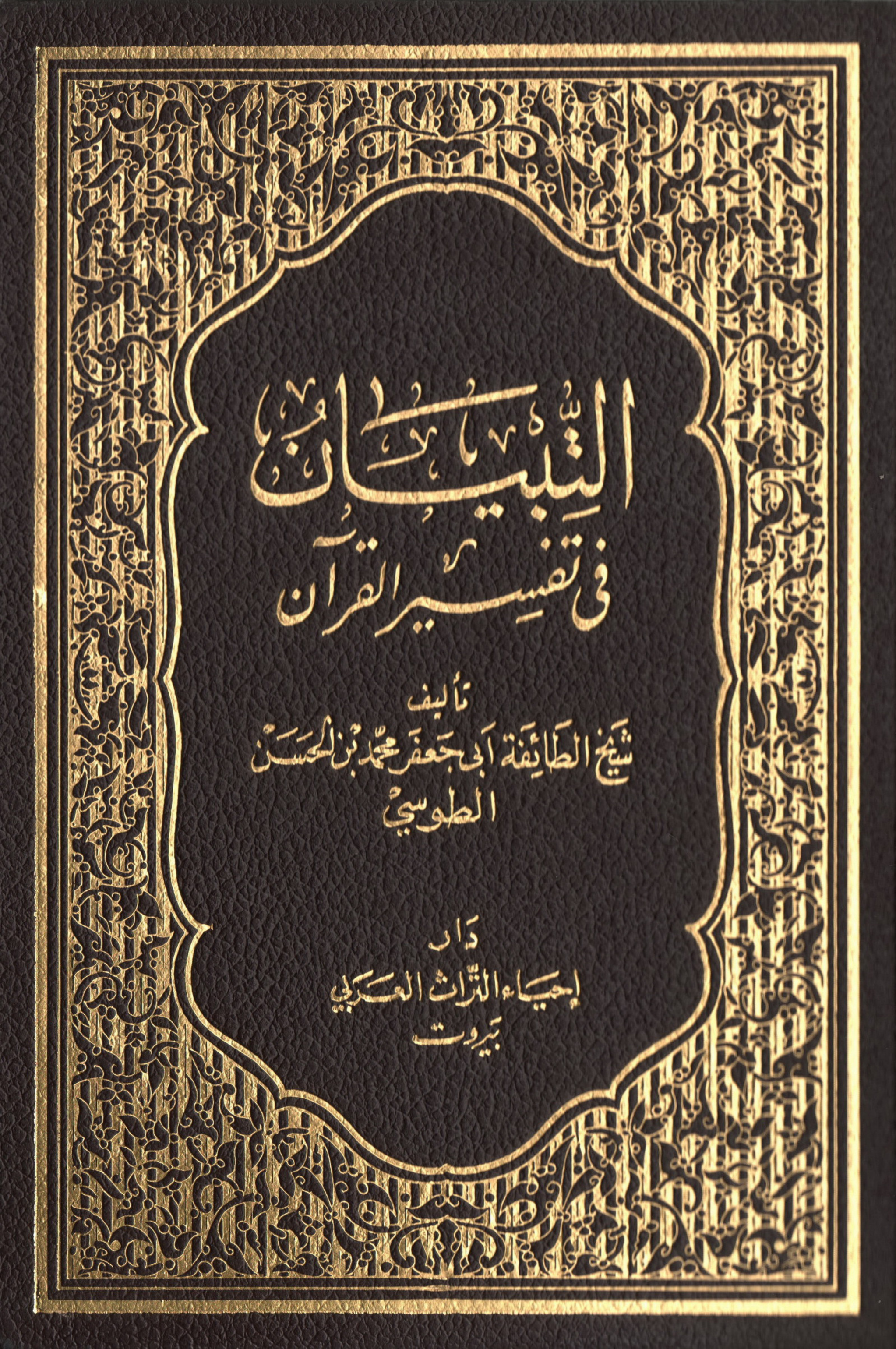


الطوسي

التبيان في تفسير القرآن

٩

دار إحياء التراث العربي



التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي
٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح
أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد التاسع

دار
احياء التراث العربي

٣٩ - سورة الزمر

وتسمى ايضاً (سورة الغرف)

وهي مكية - في قول مجاهد وقتادة والحسن - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ عدد آياتها خمس وسبعون آية - في الكوفي - وثلاث وسبعون - شامي - وسبعون حجازي وبصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ

عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وست في ما عداه ، عدّ الكوفي ﴿ يختلفون ﴾ رأس آية ، ولم يعده الباقون .

قوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ رفع بالابتداء ، وخبره ﴿ من الله ﴾ . ويجوز ان يكون رفعاً على انه خبر الابتداء . والابتداء محذوف ، وتقديره : هذا تنزيل . والمراد بالكتاب القرآن ـ في قول قتادة ـ وسمي كتاباً لأنه مما يكتب . و (العزيز) هو القادر الذى لا يقهر ولا يمنع ، و (الحكيم) هو العليم بما تدعو اليه الحكمة وما تصرف عنه . وعلى هذا يكون من صفات ذاته تعالى . وقد يكون بمعنى أن افعاله كلها حكمة ليس فيها وجه من وجوه القبيح . فيكون من صفات الأفعال ، وعلى الأول يكون تعالى موصوفاً في ما لم يزل بأنه حكيم ، وعلى الثاني لا يوصف إلا بعد الفعل . وقيل ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه من اعدائه ﴿ الحكيم ﴾ في ما يفعله بهم من انواع العقاب . والذي اقتضى ذكر (العزيز الحكيم) في إنزال الكتاب انه تعالى يحفظ هذا الكتاب حتى يصل اليك على وجهه من غير تغيير ولا تبديل لموضع جهته ولا لشيء منه . وفي قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ تحذير عن مخالفته .

ثم اخبر تعالى عن نفسه انه أنزل الكتاب الذي هو القرآن ﴿ اليك ﴾ يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي بالدين الصحيح .

ثم امره فقال ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ومعناه توجه عبادتك اليه تعالى وحده مخلصاً من شرك الأوثان والأصنام . وقوله ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ نصب

(مخلصاً) على الحال . ونصب (الدين) بأنه مفعول لـ (مخلصاً) . وقال الفراء : يجوز أن يرفع (الدين) ، ولم يجزه الزجاج ، قال : لأنه يصير ما بعده تكريراً .

ثم قال تعالى ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ والاخلاص لله أن يقصد العبد بطاعته وعمله وجه الله ، لا يقصد الرياء والسمعة ، ولا وجهاً من وجوه الدنيا ، والخالص ـ في اللغة ـ مالا يشوبه شيء غيره ، ومنه خلاصة السمن لأنه تخلصه . وقال الحسن : معناه الاسلام . وقال غيره : معناه ان له التوحيد في طاعة العباد التي يستحق بها الجزاء ، فهذا لله وحده لا يجوز أن يكون لغيره ، لاستحالة أن يملك هذا الأمر سواه .

وقوله ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ معناه الحكاية عما يقول الكافرون الذين يعبدون الاصنام فانهم يقولون : ليس نعبد هذه الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى أي قربى ـ في قول ابن زيد ـ وقال السدي : الزلفى المنزلة . و (الأولياء) جمع ولي ، وهو من يقوم بأمر غيره في نصرته ، وحذف (يقولون) لدلالة الكلام عليه ، وهو أفصح ، واوجز .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله يحكم بينهم يوم القيامة في ما هم فيه يختلفون ﴾ من إخلاص العبادة لله والاشراك به . ثم قال ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ معناه إن الله تعالى لا يهديه إلى طريق الجنة او لا يحكم بهدايته إلى الحق ، ﴿ من هو كاذب ﴾ على الله في أنه أمره باتخاذ الأصنام ، كافر بما أنعم الله عليه ، جاحد لاخلاص العبادة ، ولم يرد الهداية إلى الايمان ، لأنه قال ﴿ واما ثمود فهديناهم ﴾ (١) .

ثم قال تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴾ على ما يقول هؤلاء : من أن

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة ﴿ فصلت ﴾ آية ٧

الملائكة بنات الله ، او على ما يقوله النصارى : من ان عيسى ابن الله ، أو مايقوله اليهود : من أن عزيراً ابن الله ، ﴿ لاصطفى ﴾ أي لاختار مما يخلق ما يشاء . ثم نزه نفسه عن ذلك فقال ﴿ سبحانه هو الله الواحـد القهار ﴾ الذي لا نظير له ، القهار لجميع خلقه . ومن هذه صفته كيف يجوز أن يتخذ الأولاد ؟؟! .

ثم بين عن قدرته فقال ﴿ خلق السموات والارض بالحق ﴾ أي لغرض حكمي دون العبث وما لافائدة فيه . ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ أي يدخل كل واحد منهما على صاحبه ، ومنه كور العمامة . وقال قتادة : معناه يغشي . ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ بأن أجراهما على وتيرة واحدة وتقدير واحد ، وكل ذلك يجري ﴿ لأجل مسمى ﴾ يعني إلى مدة قدرها الله لهما ان يجريا اليها . وقيل : إلى قيام الساعة .

ثم قال ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ يعني الله الذي لا يقهر ولا يغالب ، الغفار لمعاصي عباده إذا تابوا واقلعوا عن ذنوبهم . وفائدة الآية أن من قـدر على خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر ، وإدخال الليل في النهار ينبغي ان ينزه عن اتخاذ الولد ، واضافة شريك اليه لأن جميع ذلك لا يليق به ، لأنه من صفات المحتاجين .

قوله تعالى :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ

لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٧) آيتان بلا خلاف ·

قرأ السوسي ، وابن فرج ، زهبة عن الأخفش والترمذي إلا ابن فرج ، ومدين من طريق عبد الله بن سلام ، والبرجمي وخلف ـ بضم الهاء ووصلها بواو في اللفظ · الباقون ـ بضم الهاء من غير اشباع ـ

وهذا خطاب من الله تعالى لجميع خلقه من البشر ، يقول لهم على وجه تعداد نعمه عليهم وامتنانه لديهم ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم لأن جميع البشر من نسل آدم ·

وقوله ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ قيل : أنه خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم · وقال قوم : خلقها من فضل طينته · وفي قوله ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ و (ثم) تقتضي التراخي والمهلة ، وخلق الوالدين قبل الولد ، وذلك يقتضي أن الله تعالى خلق الخلق من آدم ثم بعد ذلك خلق حواء ، وذلك بخلاف المعلوم ، لأن خلق حواء كان قبل خلق ولد آدم ، فيه ثلاثة اقوال:

احدها ـ ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر · ثم خلق بعد ذلك حواء من ضلع من اضلاع آدم ـ على ما روي في الاخبار ـ وهذا ضعيف لما بيناه في غير موضع (١) في ما مضى ·

والثاني ـ ان ذلك وإن كان مؤخراً في اللفظ فهو مقدم في المعنى ، ويجري

(١) انظر المجلد الخامس ص ٣٤ ـ ٣٥

مجرى قول القائل : قد رأيت ما كان منك اليوم ثم ما كان منك أمس ، وإن كان ما كان امس قبل ما يكون اليوم .

والثالث - انه معطوف على معنى واحدة كأنه قال من نفس واحدة بمعنى اوجدها .

وقيل : إنه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله ﴿ زوجها ﴾ غير حواء ، بل يريد المزدوج من نسل آدم من الذكور والاناث ، فكأنه قال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ وهي آدم عليه السلام ثم جعل المزدوج من نسل هذه النفس ، وهذا لا محالة متأخر عن خلق النفس الواحدة التي هي آدم . وقيل ايضاً : إن سبب دخول (ثم) أن الاعتداد بهذه النعمة ، والذكر لها على الامتنان ، انما كان بعد ذكر خلقنا من نفس واحدة ، فكأنه قال : هو الذي ذكر لكم واعتد عليكم بأنه خلقكم من نفس واحدة ، ثم عطف على هذا الاعتداد والامتنان ذكر نعمة اخرى ، وهي ان زوج هذه النفس المخلوقة مخلوقة منها . فزمان الخلق المزوج وإن كان متقدماً ، فزمان ذكره والاعتداد به متراوح ، وزمان الذكر للنعم والاعتداد بها غير الترتيب فى زمان الايجاد والتكوين ، كما يقول احدنا لغيره : لي عليك من النعم كذا اليوم ، ثم كذا امس ، وإن كان المعطوف متقدماً على المعطوف عليه إذا كان زمان الامتنان بذلك على خلاف ترتيب زمان ايصال النعم . وقيل : إن المراد بـ (ثم) الواو ، فانه قد يستعمل الواو بمعنى (ثم) و (ثم) بمعنى الواو ، لأن معنى الجمع الانضمام وإن أراد بعضه على بعض . قال الله تعالى ﴿ فالينا مرجعهم ثم الله شهيد ﴾ (١) ومعناه والله شهيد .

وقوله ﴿ وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ﴾ قال الحسن : معناه وجعل لكم منها . وقال : أنزلها بعد ان خلقها فى الجنة ويعني بها : الابل ، والبقر ،

(١) سورة ١٠ يونس آية ٤٦

والضان ، والمعز من كل صنف اثنين . وهما زوجان . وهو قول قتـادة ومجاهد والضحاك .

وقوله ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ قال قتادة ومجاهد والضحاك والسدي : معناه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يكسي العظام لحماً ثم ينشيء خلقاً آخر . وقال ابن زيد : معناه الخلق في بطون الأمهات بعد الخلق في ظهر آدم .

وقوله ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد : يعني ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وقيل : صلب الرجل وظلمة الرحم .

ثم خاطب خلقه فقال ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ يعني الذي خلق ما ذكره هو الذي أنشأكم وهداكم و يملك التصرف فيكم ﴿ له الملك ﴾ على جميع المخلوقات ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستحق للعبادة ﴿ فأنى تصرفون ﴾ المعنى تؤفكون أي كيف تنقلبون عن ذلك إلى اتخاذ الآلهة سواه .

ثم قال تعالى مخاطباً لهم ﴿ إن تكفروا فان الله غني عنـكم ﴾ ومعناه إن تجحدوا نعم الله فـلا تشكروه ، فان الله غني عن شكركم ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وفي ذلك دلالة على ان الكفر ليس من فعل الله ، ولا بإرادته ، لانه لو كان مريداً له لكان راضياً به ، لأن الرضا هو الارادة اذا وقعت على وجهه . ثم قال ﴿ وان تشكروا يرضه لكم ﴾ أي ان تشكروا نعمه وتعترفوا بها يرضه لـكم ويريده منكم ويثيبكم عليه . واشباع الهاء أجود ، لان الهاء أولها متحرك مثل

﴿ شراً يره و ... خيراً يره ﴾ (١) ، والهاء اذا انفتح ما قبلها في نحو الفعل لم يجز الا الاشباع كقولهم كهاهو والهاء ﴿ في يرضه ﴾ كناية عن المصدر الذي دل عليه (وان تشكروا) كقولهم : من كذب كان شراً له أي كان الكذب شراً له . وشكر الله لعبده هو اثابته على الشكر والطاعات ، والشكر من العبد الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . ومن أسكن الهاء قال ابو الحسن : هي لغة كقول الشاعر :

ونضواي مشتاقان له أرقان

فعلى هذه اللغة يحمل دون أن يجري الوصل مجرى الوقف .

وقوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ معناه لا يؤاخذ بالذنب الا من يفعله ويرتكبه ، ولا يؤاخذ به غيره ، وذلك نهاية العدل . وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة في ان الله تعالى يعذب اطفال الكفار بكفر آبائهم .

وقوله ﴿ ثم اليه مرجعكم ﴾ ومعناه إن مصيركم يوم القيامة إلى حيث لا يملك الامر والنهي سواه ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي يخبركم بما عملتموه ويواقفكم عليه ويجازيكم بحسب ذلك ، انه عليم بذات الصدور لايخفى عليه شيء لا سر ولا علانية .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ ـ ٨

عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَاعِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠) ثلاث آيات بلا خلاف ٠

قرأ ابن كثير ونافع وحمزة ﴿ أمن هو قانت ﴾ بتخفيف الميم ٠ الباقون بتشديدها ، من خفف أراد النداء وتقديره يامن هو قانت . قال ابن خالويه : سمعت ابن الانباري يقول : ينادي العرب بسبعة الفاظ : زيد اقبل ، وازيد اقبل ويا زيد اقبل ، وهازيد أقبل ، وأيا زيد اقبل ، وأي زيد اقبل ، وهيا زيد اقبل . وانشد :

هيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقاء أنت أم أم سالم

ويجري ذلك مجرى قول القائل : فلان لا يصوم ولا يصلي ، فيا من يصوم ويصلي ابشر . وقال ابو علي : النداء ـ هنا ـ لاوجه له . والمعنى أمن هو قانت كمن هو بخلاف ذلك ؟ ! لأنه موضع معادلة ، وإنما يقع في مثل هذا الموضع الجمل التي تكون اخبار وليس كذلك النداء . ويدل على الحذف قوله ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ لان التسوية لا تكون إلا بين شيئين وفي جملتين من الخبر ٠ والمعنى أمن هو قانت كمن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، وقال ابو الحسن : القراءة بالتخفيف ضعيفة ، لأن الاستفهام إنما يبني على ما بعده ، ولا

يحمل على ما قبله ، وهذا الكلام ليس قبله ما يبنى عليه إلا فى المعنى ومن شدّد احتمل أمرين :

احدهما ـ ان يريد أهذا خير أم من هو قانت .

والثاني ـ ان يكون جعل (أم) بمنزلة (بل) والف الاستفهام ، وعلى هذا يكون الخبر محذوفاً لدلالة الكلام عليه ، كما قال الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً(١)

والمعنى لو أتانا غيرك ما صدقناه ، ولا أهتدينا فحذف . وقال تعالى ﴿ افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ و « افمن يتقي بوجهه سوء العذاب » كل ذلك محذوف الجواب . والقانت الداعي ، والقانت الساكت ، والقانت المصلي قائماً وانشد:

قانتاً لله يتلو كتبه وعلى عمد من الناس اعتزل

وقيل القانت الدائم على الطاعة لله ـ فى قول ابن عباس والسدي ـ .

يقول الله عز وجل مخبراً عن حال الانسان وضعف يقينه وشدة تحوله من حال إلى حال إنه إذا مسه ضر من شدة فقر ومرض وقحط ﴿ دعا ﴾ عند ذلك ﴿ ربه منيباً اليه ﴾ أي راجعاً اليه راغباً فيه ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ فانه إذا أعطاه نعمة عظيمة ، فالتخويل العطية العظيمة على جهة الهبة ، وهي المنحة قال ابو النجم :

اعطى فلم ينجل ولم يبخل كوم الذرى من خول المخول (٢)

« نسي ما كان يدعو اليه من قبل ﴾ يعني ترك دعاء الله ، كما كان يدعو فى جال ضره ، قال الفراء : ويجوز أن تكون (ما) بمعنى (من) كما قال ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ (٣) .

---

(١) مر تخريجه فى ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٢٥٣ و ٧ / ٣٤١ (٢) مر فى ٤/ ٢٢٤

(٣) سورة ٤ النساء آية ٣

« وجعل لله انداداً » أي وسمى له تعالى أمثالا في توجيه عبادته اليها من الأصنام والاوثان « ليضل عن سبيله » فمن ضم الياء أراد ليضل بذلك غيره عن سبيل الحق . ومن فتح الياء اراد ليضل هو عن ذلك ، واللام لام العاقبة ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه وغرضهم أن يضلوا عن سبيل الله ، لكن عاقبتهم كان اليه . فقال الله تعالى لنبيه ﴿ قل ﴾ له يا محمد على سبيل التهديد ﴿ تمتع بكفرك قليلا ﴾ يعني مدة حياتك ﴿ إنك من اصحاب النار ﴾ في العاقبة ، وهم الذين يلزمون عذاب جهنم . ثم قال ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ فآناء الليل ساعات الليل واحدها آن ، وإنيٌ بالياء ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ أي في هاتين الحالتين ﴿ يحذر الاخرة ﴾ أي يخاف عذاب الاخرة ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ كمن خالف ذلك ، فانهما لايتساويان ابداً ، ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم على وجه الانكار عليهم ﴿ هل يستوي الذين يعلمون ﴾ الحق ويعملون به ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ولا يعملون به ، فانهما لا يتساويان أبداً ﴿ إنما يتذكر ﴾ فى ذلك ﴿ او لوا الالباب ﴾ أي ذوو العقول وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام فى تفسير هذه الآية انه قال : نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ يا عبادي الذين آمنوا ﴾ بالله وصدقوا بوحدانيته وأقروا برسله ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي عقاب ربكم باجتناب معاصيه . ثم قال ﴿ للذين احسنوا ﴾ يعني فعلوا الأفعال الحسنة وأحسنوا إلى غيرهم جزاء لهم على ذلك ﴿ فى هذه الدنيا حسنة ﴾ يعني ثناء حسن وذكر جميل ومدح وشكر، وقيل: صحة وسلامة وعافية، ذكره السدي ﴿ وارض الله واسعة ﴾ فتهاجروا فيها عن دار الشرك ـ فى قول مجاهد ـ وقيل : أرض الله يعني أرض الجنة واسعة ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم ﴾ وثوابهم على طاعتهم وصبرهم على شدائد الدنيا

﴿ بغير حساب ﴾ أي لكثرته لا يمكن عده وحسابه . وقيل : إن معناه إنهم يعطون من المنافع زيادة على ما يستحقونه على وجه التفضل ، فكان ذلك بغير حساب أي بغير مجازاة بل تفضل من الله تعالى .

قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٦) ست آيات بلاخلاف .

ست آيات في الكوفي وخمس بصري واربع في ما عداه عد الكوفيون والبصريون ﴿ له الدين ﴾ وعد الكوفيون ﴿ له ديني ﴾ ولم يعد الباقون شيئاً من ذلك .

هذا امر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم ﴿ إني أمرت ان اعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي اخلص طاعتي له وأوجه عبادتي نحوه ، دون الأصنام والأوثان . والآية وإن توجهت إلى النبي صلى الله عليه وآله فالمراد بها جميع المكلفين ﴿ وامرت ﴾ أيضاً ﴿ لأن أكون اول المسلمين ﴾ أي المستسلمين

لما أمر الله به ونهى عنه ، وإنما أمر بأن يكون اول المسلمين وإن كان قبله مسلمون كثيرون لأن المراد به أول المسلمين من هذه الأمة ، ففي ذلك أنه دعاهم إلى ما رضيه الله له ورضيه لنفسه ، وأن يقول لهم ايضاً ﴿ إني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يعني عذاب يوم القيامة . ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ الله اعبد ﴾ أي اعبد الله ﴿ مخلصاً ﴾ بعبادتي ﴿ له ﴾ تعالى ﴿ ديني ﴾ وطاعتي ﴿ فاعبدوا ﴾ أنتم معاشر الكفار ﴿ ما شئتم من دونه ﴾ من الاصنام والاوثان على وجه التهديد بذلك ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن الخاسرين ﴾ في الحقيقة هم « الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » بأن فعلوا المعاصي ، فخسروا بذلك أهاليهم الذين كانوا معدين لهم من الحور العين لو اطاعوه ـ في قول الحسن ـ وخسروا أنفسهم أي أهلكوها بالعذاب المهين الظاهر ، لمن أدركه ، ولا يخفى على احد الحال فيه .

ثم قال تعالى « ألا ذلك هو الخسران المبين » يعني الظاهر الذي لا يخفى ،

ثم بين ذلك الخسران بأن قال « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » فالظلة السترة القائمة ، وجمعها ظلل ، ولذلك قيل من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل إذ النار أدراك فهم بين أطباقها ـ نعوذ بالله منها ـ فما هو تحت هؤلاء ظلل لمن دونهم ويجوز أن يكون المراد من تحتهم مثل تلك الظلل لأن الظلة لا تسمى كذلك إلا إذا كانت عالية فوق من هي ظلة له ثم قال « ذلك يخوف الله به عباده » أي ما اخبركم به من الوعيد وما أعده للكفار يحذر الله به عباده من إرتكاب معاصيه ، ثم ناداهم فقال « يا عباد فاتقون » أي اتقوا معاصي وافعلوا طاعاتي والتخويف الاعلام بموضع المخافة لتتقى ومثله التحذير والترهيب . وقرأ رويس « يا عبادي » باثبات الياء ـ في الحالين ـ الباقون بحذفها ، لان الكسرة تدل على الياء .

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (٢٠) .

اربع آيات بلا خلاف ، في جملتها ، وقد اختلفوا في تفصيلها فعد العراقيون والشامي واسماعيل « فبشر عبادي » ولم يعدها المكي ، ولا المدني الأول ، وعد المكي والمدني الأول « من تحتها الانهار » .

لما اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار وما أعده لهم من انواع العقاب ، اخبر - ههنا - عن حال المؤمنين وما أعده لهم من الثواب فقال « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » يعني الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت والتقرب اليها بأنواع القرب . والطاغوت جماعة الشياطين في قول مجاهد والسدي وابن زيد . وإنما انث تأنيث الجماعة ، ولفظه لفظ المذكر . وقيل إن كل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت « وأنابوا إلى الله » أي تابوا اليه ، واقلعوا عما كانوا عليه « لهم البشرى فبشر عباد » جزاء على ذلك والبشرى والبشارة واحد وهو الاعلام بما يظهر السرور به في بشرة الوجه ، وضده السوءى وهو الاعلام بما يظهر الغم به في

الوجه بما يسوء صاحبه .

ثم امر نبيه صلى الله عليه وآله فقال « فبشر عبادي » فمن اثبت الياء وفتحها ، فلأنه الأصل ومن حذف الياء اجتزأ بالكسرة الدالة عليها ، ثم وصف عباده الذين أضافهم إلى نفسه على وجه الاختصاص فقال « الذين يستمعون القول » يعني يصغون إلى تلاوة القرآن والأقوال الدالة على توحيده « فيتبعون أحسنه » إنما قال «أحسنه» ولم يقل حسنه لأنه اراد ما يستحق به المدح والثواب ، وليس كل حسن يستحق به ذلك ، لان المباح حسن ولا يستحق به مدح ولا ثواب . والأحسن الأولى بالفعل فى العقل والشرع .

ثم اخبر تعالى فقال « أولئك » يعني هؤلاء الذين وصفهم من المؤمنين هم « الذين هداهم الله » يعني الى الجنة وثوابها ، وحكم بأنهم مهتدون إلى الحق « وأولئك هم أولوا الالباب » يعني اولوا العقول على الحقيقة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم من حيث اتبعوا ما يجب اتباعه ، والكفار وإن كان لهم عقول فكأنهم لا عقول لهم من حيث أنهم لم ينتفعوا بما دعوا اليه .

ثم قال تعالى على وجه التنبيه « أفمن حق عليه كلمة العذاب » أي وجب عليه الوعيد بالعقاب جزاء على كفره كمن وجب له الوعد بالثواب جزاء على ايمانه وحذف لدلالة الكلام عليه تنبيهاً على أنهما لا يستويان .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « أفأنت تنقذ من فى النار » وتقديره افأنت تنقذه ، لا يمكنك ذلك ، لان العقاب وجب له بكفره . واخبر تعالى انه لا يغفر له وإنما اتى بالاستفهام مرتين تأكيداً ، للتنبيه على المعنى ، قال الزجاج : معناه معنى الشرط والجزاء ، والف الاستفهام ـ ههنا ـ معناها التوقيف ، والثانية فى قوله « أفأنت

تنقذ » جاءت مؤكدة لما طال الكلام ، لأنه لايصلح أن يأتي بالف الاستفهام تارة فى الاسم والأخرى في الخبر ، والمعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب أنت تنقذه او في سياق الكلام حذف . وفيه دليل على المحذوف . والمعنى افمن حق عليه كلمة العذاب ، فيتخلص منه او ينجو منه افانت تنقذه أي لاتقدر عليه ان تنقذه ، وقال الفراء : هما استفهام واحد وتقديره : أفانت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب من النار . ومثله « أيعدكم أنكم إذا متم ..... أنكم مخرجون» (١) وتقديره أيعدكم إنكم تخرجون إذا متم . ثم فسر وبين ما أعده المؤمن كما فسر ما أعده للكافرين فقال « لكن الذين اتقوا ربهم » يعني اتقوا معاصيه « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » فى مقابلة ما قال للكافرين لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل لأنها تنقلب عليهم . وقيل : المعنى لهم منازل رفيعة فى الجنة وفوقها منازل ارفع منها ، فللمؤمنين الغرف « تجري من تحتها الأنهار » وتقديره تجري من تحت اشجارها الأنهار ، ثم بين تعالى أن الذي ذكره من ثواب المؤمن « وعد » من « الله » وعد به المؤمن « لا يخلف الله الميعاد » أي لا يخلف الله وعده ولا يكون بخلاف ما اخبر به ، ونصب « وعد الله » على المصدر .

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥

شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين على وجه التنبيه لهم على الأدلة الدالة على توحيده واختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره « ألم تر » يا محمد ومعناه ألم تعلم « أن الله انزل من السماء ماء » يعني مطراً « فسلكه ينابيع في الأرض » يعني أدخله في عيون الأرض ومنابعها . وقيل : السلوك دخول في الشيء، ولهذا حسن في صفة الماء الجاري ، فقيل فسلكه ينابيع في الأرض ، ويقولون : دخل في الاسلام ، ولا يقال سلك في الاسلام . والينابيع جمع ينبوع ، وهو خروج الماء من العيون . وقيل : الينبوع المكان الذي ينبع منه الماء تقول : نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه ، وعيون الماء مستودع الماء ، ونبع الماء إذا انفجرت به العيون .

وقوله « ثم يخرج به » يعني بذلك الماء « زرعاً » وهو كل ما نبت على

غير ساق ، والشجر ماله ساق واغصان . والنبات يعم الجميع ، يقال : تنبت النخلة والشجرة والحبة تنبت نباتاً . وقوله « مختلفاً ألوانه » يعني صنوفه وقيل : مختلف الالوان من اخضر واصفر واحمر وأبيض : من البر والشعير والسمسم والارز والذرة والدخن وغير ذلك .

وقوله « ثم يهيج فتراه مصفراً » معناه يجف ويضطرب ، فالهيج شدة الاضطراب بالانقلاب عن حال الاستقامة والصلاح ، هاج يهيج هيجاً وهياجاً وهاج البعير هيجاً . وقيل : معنى « يهيج » أي يحمى ويجف ، فكأنه عما يلحق الجميع يخرج إلى تلك الحال فيتغير عن لون الخضرة إلى لون الصفرة . وقوله « ثم يجعله حطاماً » فالحطام فتات التبن والحشيش . ثم قال « إن في ذلك » يعني في ما ذكره من انزال الماء من السماء وإنبات الزرع به ونقله من حال إلى حال « لذكرى » أي ما يتذكر به ويفكر فيه لاولي الالباب يعني ذوي العقول السليمة .

ثم قال تعالى على وجه التنبيه للحق « أفمن شرح الله صدره للاسلام » أي من لطف الله له حتى آمن وعرف الله ووحده وصدق نبيه « فهو على نور من ربه » يعني فهو على هداية من الله ودين صحيح ، كمن كان بخلاف ذلك ، وحذف لدلالة الكلام عليه . ثم قال « فويل للقاسية قلوبهم » يعني الويل والعقاب الذين قست قلوبهم « عن ذكر الله » حتى لم يعرفوه ولا وحدوه يقال قسى الشيء إذا صلب ، كما قال « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك » (١) ويقال : غسا وعسا وقسا بمعنى واحد ، ويقال ما اقسى قلبه إذا كان لا يلين لشيء . والمعنى كلما تلي عليه ذكر الله قسى قلبه . وقوله « عن ذكر الله » معناه غلظ قلبه عن ذكر الله . والقاسية قلوبهم هم الذين الفوا الكفر وتعصبوا له فلذلك قست قلوبهم . ثم قال

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٧٤

تعالى « أولئك » يعني القاسية قلوبهم عن ذكر الله « في ضلال » أي عدول عن الحق « مبين » أي واضح ظاهر .

ثم قال « الله نزل أحسن الحديث » يعني القرآن « كتاباً متشابهاً » نصب (كتاباً) على البدل من قوله (احسن) ومعناه « متشابهاً » في الحكم التي فيه من الحجج والمواعظ والاحكام التي يعمل عليها في الدين وصلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه « مثاني » أي يثنى فيه الحكم والوعد والوعيد بتصريفها في ضروب البيان ، ويثنى ايضاً في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه في القرآن « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » أي تقشعر جلود المؤمنين الذين يخافون عذاب الله لما يسمعونه فيه من الوعيد « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » وما ضمنه الله على ذلك من الثواب . ثم قال « ذلك » يعني ما وصف به المؤمن من اقشعرار قلوب المؤمنين تارة ولينها أخرى « هدى الله يهدي به من يشاء » أي لطف الله الذي يلطف به لمن يشاء من عباده الذين يعلم انه لطف لهم . وقال الجبائي : انه خص به أمة محمد صلى الله عليه وآله . ثم قال « ومن يضلل الله فما له من هاد » ومعناه من أضله الله عن طريق الجنة لايقدر احد على هدايته اليها . ويحتمل ان يكون المراد من حكم الله بأنه ضال لا يقدر احد ان يحكم بأنه هاد . ثم قال منبهاً لخلقه « أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » وتقديره كمن يدخل الجنة ؟ ! وجاء في التفسير أن الكافر يلقى في النار مغلولا ، لا يمكنه ان يتقي النار إلا بوجهه . ومعنى يتقي يتوقاها كما قال الشاعر :

إذ يتقون بي الأسنة لم اخم ... عنها ولكني تضايق مقدمي

أي يقدمونني الى القتال فيتوقون بي حرها . وحذف كمن كان بخلاف ذلك لدلالة الكلام عليه ، فان هذا لا يكون ابداً . ثم حكى الله تعالى ما يقال

للكافرين الظالمين نفوسهم بالكفر بالله يوم القيامة إذا دخلوا النار ﴿ذوقوا ما كنتم﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تكسبون﴾ من المعاصي . ثم اخبر تعالى عن الامم الماضية من أمثالهم من الكفار بأن قال ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ بآيات الله وجحدوا توحيده وكذبوا رسله ﴿فأتاهم العذاب﴾ جزاء لهم على فعلهم وعقوبة عاجلة « من حيث لا يشعرون » أي حيث لا يعلمون به ولا يحتسبون .

قوله تعالى :

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١) ست آيات بلا خلاف .

قال المبرد العرب تقول لكل شيء يصل اليك بجارحة من الجوارح : ذق أي يصل معرفته اليك ، كما يصل اليك معرفة ما تذوقه بلسانك من حلو ومر ومنه قوله ﴿فذاقوا وبال امرهم﴾ (١) وقوله ﴿ذق انك أنت العزيز الكريم﴾(٢) والخزي هو المكروه والهوان ، وخزي فلان إذا وقع في المكروه ، فالخزي افراط

(١) سورة ٦٤ التغابن آية ٥　　(٢) سورة ٤٤ الدخان ٤٩

الاستحيا ، يقال ما استحيا وما تخزى ، ورأيته خزيان نادماً ، قال الشاعر :

ولا أنت دياني فتخزوني

قرأ ابن كثير ، وابو عمرو ، ويعقوب ﴿ ورجلاسالمًا ﴾ على وزن ﴿ فاعل ﴾ معناه خالصاًلا يشركه فيه غيره لان الله تعالى ضرب مثلاالمؤمن والكافر، فشبه الكافر بشركاء متنازعين مختلفين ، والمؤمن من عبد إلهًا واحداً . الباقون « سلما لرجل » على المصدر من قولهم : سلم فلان لله سلماً بمعنى خلص له خلوصاً ، كما يقولون : ربح الرجل في تجارته ربحًا وربحًا : وسلم سلمًا وسلمًا وسلامـة ، وتقديره ذا سلم ، فمعنى « اذاقهم الله » أي جعلهم يدركون الألم ، كما يدرك الذائق الطعام ، والخزي الذل الذي يستحيا من مثله بما فيه من الفضيحة ، وخزيهم في الحياة الدنيا هو ما فعله بهم من العذاب العاجل من إهلاكهم واستئصالهم الذي يبقى ذكره على الأبد . ثم قال تعالى « ولعذاب الآخرة اكبر » مما فعل بهم في دار الدنيا « لو كانوا يعلمون » صدق ما اخبرنا به .

ثم اقسم تعالى بأن قال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » فالتذكر طلب الذكر بالفكر ، وهذا حث على طلب الذكر المؤدي إلى العلم ، والمعنى لكي يتذكروا ، ويتعظوا فيجتنبوا ما فعل من تقدم من الكفر والمعاصي ، لئلا يحل بهم كما حل بأولئك . وقوله « قرآنا عربياً » أي انزلناه قرآناً عربياً غير ذي عوج أي غير ذي ميل عن الحق بل هو مستقيم موصل إلى الحق ، ويقال في الكلام عوج ـ بكسر العين ـ إذا عدل به عن جهة الصواب . والمثل علم شبه به حال الثاني بالاول . والمثال مقياس يحتـذى عليه ، وإنما قال : ضربنا مثلا واحداً ، ولم يقل مثلين ، لأنهما جميعاً ضربا مثلا واحداً ، ومثله قوله

تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية »(١)ولو ثني لكان حسناً - في قول الفراء - وقوله « لعلهم يتقون » معناه لكي يتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه .

ثم قال تعالى « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون » فالتشاكس التمانع والتنازع ، تشاكسوا في الأمر تشاكساً ، وفي الشركاء تشاكس في البيع ، وتدبير المملوك ونحو ذلك « ورجلا سلماً لرجل » فضرب المثل الموحد بعبادته الله تعالى وحـــده - عز وجل - والمشرك بعبادته غير الله - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد - ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ في حسن الحال ، لا يستويان لان الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وحياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء المختلفين في امره .

ثم قال ﴿ الحمد لله ﴾ يعني المستحق للشكر والثناء على الحقيقية هو الله تعالى ﴿ بل اكثرهم لا يعلمون ﴾ حقيقة، لجهلهم بالله ومواضع نعمه . ثم قال لنبيه ﴿إنك﴾ يا محمد ﴿ ميت ﴾ أي عاقبتك الموت ، وكذلك هؤلاء لأن ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (٢) ﴿ ثم إنكم ﴾ يبعثكم الله ﴿ يوم القيامة ﴾ ويحشركم يوم القيامة فتختصمون عند الله . ومعناه كل طائفة منكم ترد على صاحبتها يوم القيامة وتخاصمها ، فالاختصام رد كل واحد من الاثنين ما اتى به الآخر على وجه الانكار عليه . وقد يكون احدهما - محقاً والآخر مبطلا كالموحد والملحد . وقد يكونان جميعاً مبطلين كاختصام اليهودي والنصراني ، وقد يكونان جميعاً محقين إذا قطع كل واحد منهما على صواب اعتقاده دون غيره ، ويكون اختصامهم في الآخرة بذم رؤساء الضلالة في ما دعوهم اليه ودفع اولئك عن أنفسهم ، فيقول الاولون : لولا أنتم لكنا مؤمنين

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥١   (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٥
وسورة ٢١ الانبياء آية ٣٥ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٧

ويقول الرؤساء ما كان لنا عليكم من سلطان إلا أن دعوناكم فاستجبتم لنا . واقبل بعضهم على بعض يتلاومون . وقال ابن زيد : الاختصام يكون بين المؤمنين والكافرين . وقال ابن عباس : يكون بين المهتدين والضالين ، والصادقين والكاذبين وقال ابو العالية : يكون بين أهل القبلة . ورجل مشكس إذا كان سيء الخلق . وقال السدي : هذا مثل ضربه الله لأوثانهم . وقال قتادة : هذا المشرك تنازعه الشياطين مغريين بعضهم ببعض ﴿ ورجلا سالمًا ﴾ وهو المؤمن أخلص الدعوة لله والعبادة ، وقال ابو عبيدة : متشاكسون الرجل الشكس ورجلا سالمًا الرجل الصالح . وقال ابو عمرو : معناه خالصاً لله . وقال ابو علي : رجلا فيه شركاء يعني في إتباعه أو فى شيعته.

قوله تعالى:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزَاؤُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٥) أربع آيات بلاخلاف .

قوله ﴿ فمن اظلم ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التقريع والتوبيخ ، والمعنى فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً فادعى أن له ولداً وصاحبة ، او أنه حرم ما لم يحرمه ، او أحل ما لم يحله ، وإنما كان من كذب على الله وكذب بالحق أظلم الخلق ، لأنه ظلم نفسه بأفحش الظلم من جهة كفره بربه وجحوده لحق نعمه حين أشرك به

تعالى من لا نعمة له يستحق بها عبادته . وقال قتادة : ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ يعني بالقرآن .

ثم قال تعالى مهدداً لمن هذه صفته ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ والمثوى المقام يقال أثوى يثوي اثواء وثوى يثوي ثواء قال الشاعر :

طال الثواء على ربع بيسؤدي   أردى وكل جديد مرت مود

وقوله ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ قال قتادة وابن زيد : المؤمنون جاؤا بالصدق الذي هو القرآن وصدقوا به ، وهو حجتهم في الدنيا والآخرة . وقيل الذي جاء بالصدق جبرائيل وصدق به محمد صلى الله عليه وآله . وفي قراءة ابن مسعود ﴿ والذي جاؤا بالصدق ﴾ قال الزجاج : الذي ـ ههنا ـ والذين بمعنى واحد يراد به الجمع . وقال : لأنه غير موقت . وقيل : الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وآله من قول لا إله إلا الله ، وصدق به ايضاً هو صلى الله عليه وآله والصحيح أن قوله ﴿ وصدق به ﴾ من صفة الذين جاؤا بالصدق ، لأنه لو كان غيرهم لقال والذي جاء بالصدق والذي صدق به .

وقوله ﴿ اولئك هم المتقون ﴾ يعني من جاء بالصدق وصدق به هم المتقون معاصي الله خوف عقابه ، وإنما جاء بلفظ الجمع ﴿ هم المتقون ﴾ مع أن لفظ (الذي) واحد ، لأنه أراد به الجنس . ومعناه الجمع كقوله ﴿ والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾(١) وقال الأشهب بن رميلة :

إن الذي حلت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

ثم بين ما اعد لهم من النعيم فقال ﴿ لهم ما يشاؤن عند ربهم ﴾ جزاء على تقواهم ، وبين أن لهم ﴿ ذلك ﴾ وانه ﴿ جزاء المحسنين ﴾ الذين يفعلون الطاعات .

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ١ ـ ٢

وقوله ﴿ ليكفر الله عنهم أسوء الذي عملوا ﴾ أي يسقط عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بتوبتهم ورجوعهم إلى الله ﴿ ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ يعني يثيبهم على طاعاتهم من الفرض والنفل ، وهي أحسن افعالهم لان المباح وإن كان حسناً لا يستحق به ثواب ولا مدح لان الثواب والمدح إنما يستحق على الطاعات .

قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ٱللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ٱللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٤٠)

خمس آيات كوفي وثلاث في ما عداه عد الكوفيون ﴿ من هاد ﴾ وعدوا ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ولم يعده الباقون . قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ بكاف عباده ﴾ على الجمع . الباقون بكاف عبده على التوحيد . من قرأ على التوحيد أراد النبي ﷺ لقوله ﴿ ويخوفونك ﴾ ومن جمع اراد النبي وسائر الانبياء ، لأن أمة

كل نبي خاطبوا نبيهم بمثل ذلك ، كما قال تعالى مخبراً عن قوم هود ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ (١) وقرأ ابو عمرو والكسائي عن أبي بكر ﴿ كاشفات ضره ... ممسكات رحمته ﴾ منون فيهما . الباقون بالاضافة . فمن أضاف فللتخفيف . ومن نون ، فلأنه غير واقع ، واسم الفاعل إنما يعمل إذا كان لما يستقبل قوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ (٢) على الحكاية .

وقوله ﴿ اليس الله بكاف عبده ﴾ لفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يقرر عباده ، فيقول : اليس الله الذي يكفي عبده كيد اعدائه ويصرف عنه شرهم ، فمن وحد ـ اراد محمد صلى الله عليه وآله وهو قول السدي وابن زيد . ومن جمع ـ أراد انبيائه كإبراهيم ولوط وشعيب).

وقوله ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله بأن الكفار يخوفونه بالأوثان التي كانوا يعبدونها ـ في قول قتادة والسدي وابن زيد ـ لأنهم قالوا له : أما تخاف ان تهلكك آلهتنا . وقيل : إنه لما قصد خالد الكسر العزى بأمر النبي صلى الله عليه وآله قالوا له سادانها : إياك ياخالد إن بأسها شديد .

ثم قال ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ يحتمل معناه شيئين :

احدهما ـ من أضله عن طريق الجنة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه اليها .

والثاني ـ ان من حكم الله بضلالته وسماه ضالا إذا ضل هو عن الحق فليس له من يحكم بهدايته وتسميته هادياً . ثم عكس ذلك فقال ﴿ ومن يهدي الله فما له من مضل ﴾ وهو يحتمل امرين :

احدهما ـ من يهديه الله إلى طريق الجنة فلا احد يضله عنها .

---

(١) سورة ١١ هود آية ٥٤ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ١٨

والثاني ـ من يحكم بهدايته ويسميه هادياً فلا احد يمكنه ان يحكم بضلالته على الحقيقة .

ثم قرر خلقه فقال ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ اي قادر قاهر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ ذي إنتقام ﴾ من اعدائه والجاحدين لنعمته .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يا محمد يعني هؤلاء الكفار ﴿ من خلق السموات والارض ﴾ وانشأهـا واخترعها وأوجدها بعد أن كانت معدومة ﴿ ليقولن الله ﴾ الفاعل لذلك ، لأنهم لو أحالوا على غيره لبان كذبهم وافتراؤهم ، لانه لا يقـدر على ذلك إلا القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء . ثم قال ﴿قل﴾ لهم ﴿ أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ فمن اضاف لم يعمل اسم الفاعل . ومن نون أعمله ، وهما جميعاً جيدان . والمعنى إن من يعجز عن النفع والضر وكشف الكرب عمن يتقرب اليـه ولا يتأتى منه ذلك كيف يحسن عبادته ؟ ! وإنما تحسن العبادة لمن يقدر على جميع ذلك ولا يلحقه عجز ولا منع ، وهو الله تعالى .

والوجه في الزام من خلق السموات والارض إخلاص العبادة له أن من خلق السموات والارض هو القادر على النفع والضر بما لا يمكن أحد منعه ويمكنه منع كل أحد من خير او شر ، والعبادة أعلى منزلة الشكر ، لأجل النعم التي لا يقدر عليها غير الله ، فمن اقرّ بخلق السموات والارض لزمه إخلاص العبادة لمن خلقهما ومن لم يقر دل عليه بما يلزمه الاقرار به .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ حسبي الله ﴾ أي يكفيني الله ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ فالتوكل رد التدبير إلى من يقدر على الاحسان فيه ، فلما كان لا يقدر على الاحسان في جميع التدبير الذي يصلح الانسان إلا الله تعالى وجب على

كل عاقل التوكل عليه بما هو حسبه منه .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ يا قوم إعملوا على مكانتكم ﴾ قال مجاهد : على ناحيتكم . وقيل على مكانكم من العمل . وقيل : على مكانتكم أي دياناتكم على وجه التهدد لهم . وقيل : على مكانتكم أي جهتكم التي اخترتموها وتمكنتم في العمل بها .

ثم قال ﴿ إني عامل ﴾ بما أدعوكم اليه ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة اعمالكم وآخر كفركم وتعرفون ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ في الدنيا ويهينه في الآخرة ﴿ ويحل عليه ﴾ أي ينزل عليه ﴿ عذاب مقيم ﴾ أي دائم لايزول ، وذلك غاية الوعيد والتهديد .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤١) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي إلا قتيبة وخلف ﴿ فيمسك التي قضي عليها ﴾ على ما لم يسم فاعله . الباقون ﴿ قضى ﴾ بفتح القاف ، وهو الأجود لان اسم الله تعالى قد تقدم فى قوله ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها ﴾ وقيل : إن الموت ـ ههنا ـ المراد به النوم . والتوفي ـ ههنا ـ توفى النفس لا الروح ، لأن ابن عباس قال فى ابن آدم نفس وروح ، فاذا نام قبضت نفسه وبقيت روحه . والروح هو الذي يكون بها الغطيط . والنفس هي التي يكون بها التميز ، فاذا مات قبضت نفسه وروحه.

فان قيل: كيف قال ههنا ﴿ الله يتوفى الانفس ﴾ وقال فى موضع آخر ﴿ توفته رسلنا ﴾ (١) ﴿ وقل يتوفاكم ملك الموت ﴾ (٢) .

قيل : ان الذي يتولى قبض الأرواح ملك الموت بأمر الله ، ومعه رسل واعوان ، فلذلك قال ﴿ توفته رسلنا ﴾ .

وحجة من بنى الفعل للفاعل قوله ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ ومن بنى للمفعول به ، فلان المعنى يؤل اليه . وقال الفراء تقديره الله يتوفى الانفس حين موتها ويتوفى التي لم تمت في منامها عند انقضاء اجلها .وقيل : توفيها نومها لقوله ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ (٣) .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه ﴿ إنا انزلنا عليك ﴾ يا محمد ﴿ الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس بالحق ﴾ . ومعناه أنزلناه على انه حق ، فهذه فائدة الباء . وفي ذلك حجة على

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٦١ (٢) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١١

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٦٠

من زعم ان الله سبحانه يريد بانزاله إضلال الكافرين عن الايمان ، لانه لو كان كذلك لم يكن منزلا على انه حق وجب النظر في موجبه ومقتضاه ، فما رغب فيه وجب العمل به وما حذر منه وجب اجتنابه ، وما صححه وجب تصحيحه وما أفسده وجب افساده ، وما دعا اليه فهو الرشد ، وما صرف عنه فهو الضلال .

ثم قال ﴿ فمن اهتدى ﴾ يعني بما فيه من الأدلة ﴿ فلنفسه ﴾ لان منفعة عاقبته من الثواب تعود عليه ﴿ ومن ضل ﴾ عنه وحاد ﴿ فانما يضل عليها ﴾ يعني على نفسه ، لان وخيم عاقبته من العقاب تعود عليه . ثم قال ﴿ وما أنت ﴾ يامحمد ﴿ عليهم بوكيل ﴾ أي بحفيظ ولا رقيب وإنما عليك البلاغ والوكيل القائم بالتدبير . وقيل ﴿ ما انت عليهم بوكيل ﴾ معناه وما انت عليهم برقيب في ايصال الحق إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتى لا يتركوه ولا ينصرفوا عنه ، ولا تقدر على إكراههم على ألاسلام ، وإنما الله تعالى القادر عليه .

قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ معناه انه يقبضها اليه إذا أراد إماتتها بأن يقبض روحها بأن يفعل فيها الموت « والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت » فلا يردها اليه «ويرسل الأخرى ... » التي يريد ابقائها إلى أن تستوفي اجلها الذي قدره لها . وقد ذكرنا ماروي عن ابن عباس من أن قبض الروح يكون منه ميتاً . وقبض النفس يكون به فاقداً للتمييز والعقل ، وإن لم يفقد حياته .

والفرق بين قبض النوم والموت ان قبض النوم يضاد اليقظة ، وقبض الموت يضاد الحياة وقبض النوم تكون الروح معه في البدن ، وقبض الموت يخرج الروح منه عن البدن . وقال سعيد بن جبير والسدي : ان أرواح الأحياء إذا ناموا تجتمع مع أرواح الاموات ، فاذا أرادت الرجوع إلى الاجساد أمسك الله ارواح

الاموات وأرسل ارواح الاحياء .

ثم قال ﴿ إن فى ذلك ﴾ يعني فى قبض الأرواح تارة بالموت ، وقبض الأنفس بالنوم أخرى ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات واضحات على توحيد الله ، فانه لا يقدر عليه سواه ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي يستعملون عقولهم بالفكر فى ذلك فيعرفون الله تعالى بذلك .

ثم اخبر عن هؤلاء الكفار فقال ﴿ أم اتخذوا ﴾ معناه بل اتخذ هؤلاء الكفار ﴿ من دون الله شفعاء ﴾ بزعمهم ، من الأصنام والأوثان فقال ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد ﴿ او لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ تنبيها هم على انهم يتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يقدرون على شيء من الشفاعة ولا غيرها ولا يعقلون شيئاً . والالف فى ﴿ او لو ﴾ الف الاستفهام يراد به التنبيه . ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والارض ﴾ أي الشفاعة لمن له التدبير والتصرف في السموات والأرض ليس لاحد الاعتراض عليه فى ذلك ﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ معاشر الخلق أي إلى حيث لايملك احد التصرف والامر والنهي سواه ، وهو يوم القيامة فيجازي كل إنسان على عمله على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

ثم اخبر عن حالهم وشدة عنادهم ، فقال ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ يعني نفرت نفوسهم عن التوحيد وانقبضت عنه يقال : فلان مشمئز عن كذا إذا انقبض عنه . وفي قوله : اشمأزت قلوبهم دليل على فساد قول من يقول المعارف ضرورة ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ قال السدي : يعني اوثانهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون ويسرون حتى يظهر السرور فى وجوههم .

قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّـهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾

خمس آيات.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ والمراد به جميع المكلفين ان يدعوه بهذا الدعاء فيقولوا ﴿ اللهم فاطر السموات والارض ﴾ أي خالقهما ومنشئهما ومبتدئهما ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي عالم ما غاب علمه عن جميع الخلائق وعالم ما شهدوه وعملوه، لا يخفى عليك شيء من الاشياء ﴿ أنت تحكم بين عبادك ﴾ يوم القيامة ﴿ فى ما كانوا فيه يختلفون ﴾ فى دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم وتفصل بينهم بالحق. و (فاطر السموات) عند سيبويه لا يجوز أن يكون صفة (اللهم) قال لأنه غير الاسم في النداء، ولانه لا يذكر بهذا الذكر إلا بعد ماعرف

كما لا يضمر الاسم إلا بعد ما عرف ، فكما لا توصف المضمرات ، فكذلك هـذا الاسم ، وليس يجب مثل ذلك في قولنا : (الله) لانه قد يذكره العارف لمن لا يعرفه فيعرفه إياه بصفته ، فيقول : الله فاطر السموات والارض وخالق الخلق ورب العالمين ومالك يوم الدين . وقال ابو العباس : يجوز أن يكون صفة (اللهم) حملا له على (يا الله فاطر السموات والأرض) .

ثم اخبر تعالى على وجه المبالغة في وقوع عقاب الكفار وعظمه بأنه لو كان لهم ملك جميع ما في الارض ، ومثله معه ، زيادة عليه وأراد الظالم لنفسه بارتكاب المعاصي أن يفتدي نفسه من شدة ذلك العذاب يوم القيامة لما قبل منه ، ولما فودي به ، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه .

ثم قال ﴿ وبدالهم ﴾ يعني الكفار ما لم يكونوا يحتسبونه ولا يظنونه واصلا اليهم ، والاحتساب الاعتداد بالشيء من جهة دخوله في ما يحسبه ، فلما كان أهل النار لم يكونوا يدرون ما ينزل بهم من العذاب صح ان يقال ﴿ بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ولا قدروا أنهم يصيرون اليه .

ثم قال ﴿ وبدالهم ﴾ أي ظهر لهم ايضاً ﴿ سيئآت ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئآت ما كسبوا من اعمالهم ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل بهم « ما كانوا به يستهزؤن » في الدنيا من قول الله ووعده ووعيده .

ثم اخبر تعالى عن شدة تقلب الانسان وتحوله من حال إلى حال بأنه إذا مسه ضر من مرض ومصيبة وبلاء « دعانا » وفزع الينا « ثم » بعد ذلك « إذا خولناه » أي أعطيناه « نعمة منا » والتخويل العطاء بلا مكافات ولا مجازات بل تفضلا محضاً « قال إنما اوتيته على علم » قال الحسن معناه أني اوتيته بحيلتي وعملي وقال غيره : معناه على علم برضاه عني فلذلك اعطاني ما أولاني من النعمة . وقال

آخرون : معناه على علم بأن تسببت به للعافية وكشف البلية وانه لم ينلها من قبل ربه . ثم قال ليس الامر على ما يقوله « بل هي فتنة » أي بلية واختبار يبتليه الله به فيظهر كيف شكره فى مقابلتها ، فيجازيه بحسبها ، لأنه وإن كان عالماً بحاله لم يجز ان يجازيه على علمه ، وإنما يجازيه على فعله « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ضحة ما قلناه من ان ذلك محنة واختبار لقلة معرفتهم بالله و بصفاته . ثم قال « قد قالها الذين من قبلهم » يعني قد قال كلمة مثل ما قال هؤلاء « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » من الأموال ويجمعونه بل صارت وبالاً عليهم .

قوله تعالى :

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّآتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾(٥٥)

خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار فى الآخرة وما يصيرون اليه

فقال « فاصابهم سيئآت ما كسبوا » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ فاصابهم عقاب سيئآت ما كسبوا وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

الثاني ـ انه اراد فأصابهم عقاب ما كسبوا من المعاصي وسماه سيئآت لازدواج الكلام ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) .

ثم قال « والذين ظلموا من هؤلاء » يعني من كفار قوم النبي صلى الله عليه وآله « سيصيبهم » أيضاً « سيئآت ما كسبوا وما هم بمعجزين » أي ليس يفوتون الله ، ثم قال على وجه التنبيه لهم على معرفته « او لم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء » أي يوسعه على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من مصلحته « ويقدر » أي ويضيق على من يشاء منهم بمثل ذلك « إن فى ذلك لآيات » أي دلالات واضحات « لقوم يؤمنون » أي يصدقون بتوحيد الله ويقرون بأنبيائه. وأضاف الآيات إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بها ، ثم قال « قل » لهم يا محمد « يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم » بارتكاب المعاصي « لا تقنطوا من رحمة الله » أي لا تيأسوا من رحمة الله يقال : قنط يقنط قنوطاً إذا يئس « ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » وفى ذلك دلالة واضحة على انه يجوز ان يغفر الله بلا توبة تفضلا منه وبشفاعة النبي صلى الله عليه وآله لانه لم يشرط التوبة بل أطلقها . وروي عن فاطمة عليها السلام أنها قالت : إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي . وروي عن علي عليه السلام وابن عباس : أنهما قالا : إن لأرجى آية فى كتاب الله قوله « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٢) فقال عبدالله بن عمرو بن العاص بل أرجى آية فى كتاب الله قوله « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم » وهو المروي عن علي ايضاً .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠   (٢) سورة ١٣ الرعد آية ٧

وقوله « وانيبوا إلى ربكم » امر مستأنف من الله لخلقه بالرجوع إلى الله والتوبة من معاصيهم. والانابة هي الرجوع « وأسلموا له » معناه آمنوا به وسلموا لاوامره « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » عند نزول العذاب بكم « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم » إنما قال « أحسن ما أنزل » لأنه اراد بذلك الواجبات والنفل التي هي الطاعات دون المباحات والمقبحات التي لايأمر بها . وقال السدي (أحسن) أي ما أمر الله تعالى به فى الكتاب . وقال قوم (أحسن ما انزل اليكم من ربكم) يريد به الناسخ دون المنسوخ ، وهذا خطأ ، لان المنسوخ لا يجوز العمل به بعد النسخ وهو قبيح ، ولا يكون الحسن أحسن من قبيح ، وقال الحسن احسنه ان يأخذوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه « من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة » أي فجأة فى وقت لا تتوقعونه « وأنتم لاتشعرون » أي لاتعرفون وقت نزوله بكم .

قوله تعالى :

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

خمس آيات .

قرأ ابوجعفر من طريق ابن العلاف « يا حسرتاي » بياء ساكنة بعد الألف. وفتح الياء النهرواني عن أبي جعفر . الباقون بلا ياء .

لما امر الله تعالى باتباع طاعاته والانتهاء عن معاصيه تحذيراً من نزول العذاب بهم بغتة وهم لا يعلمون ، بين الغرض بذلك وهو الثلا تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وحذف (لا) كما حذف من قوله ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ (١) وقال الزجاج : معناه كراهية أن تقول نفس ، ومثله قوله ﴿ والقى فى الارض رواسي أن تميد بكم ﴾ (٢) فى قول الفراء . وعلى قول الزجاج : كراهية ان تميد بكم ، والنفس نفس الانسان . والفرق بين النفس والروح أن النفس من النفاسة ، والروح من الريح . وأنفس ما في الحيوان نفسه ، وهي جسم رقيق روحاني من الريح ، ونفس الشيء هو الشيء بعينه . والتفريط إهمال ما يجب ان يتقدم فيه حتى يفوت وقته ، ومثله التقصير ، وضده الأخذ بالحزم ، يقال : فلان حازم وفلان مفرط .

وقوله ﴿ في جنب الله ﴾ معناه فرطت فى طاعة الله او فى أمر الله إلا أنه ذكر الجنب كما يقال : هذا صغير في جنب ذلك الماضي في أمره ، وفي جهته ، فاذا ذكر هذا دلّ على الاختصاص به من وجه قريب من معنى جنبه . وقال مجاهد والسدي : معنى ﴿ في جنب الله ﴾ أي في أمر الله . والألف في قوله ﴿ ياحسرتى ﴾ منقلبة عن (ياء) الاضافة . ويفعل ذلك في الاستفهام والاستغاثة بمدّ الصوت . والتحسر الاغتمام على ما فات وقتـــه لانحساره عنه بما لا يمكنه إستدراكه ، ومثله التأسف .

---

(١) سورة ٤ النساء آية ١٧٥ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٥ وسورة ٣١ لقمان آية ١٠

وقوله ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ قال قتادة والسدي : معناه المستهزئين بالنبي والكتاب الذي معه . وقيل : معناه كنت ممن يسخر بمن يدعوني إلى الايمان ، ومعناه وما كنت إلا من جملة الساخرين إعترافاً منهم على نفوسهم .

وقوله تعالى ﴿ او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين ﴾ معناه فعلنا ذلك لئلا يقول : لو أراد الله هدايتي لكنت من المتقين لمعاصيه خوفاً من عقابه ﴿ او تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين ﴾ ومعناه إنا فعلنا ذلك لئلا يتمنوا إذا نزل بهم البلاء والعذاب يوم القيامة لو أن لي رجعة إلى دار الدنيا لكنت ممن يفعل الطاعات .

ونصب ﴿ فاكون ﴾ على انه جواب (لو) ويجوز أن يكون نصباً باضمار (ان) بمعنى لو أن لي كرة فان اكون .

وفي ذلك دليل على بطلان مذهب المجبرة فى أن الكافر لا يقدر على الايمان لأنه لو كان إذا رد لا يقدر إلا على الكفر لم يكن لتمنيه معنى .

ثم قال تعالى منكراً عليهم « بلى قد جاءتك آياتي » أي حججي ودلالاتي « فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » الجاحدين لنعمي عليك . وإنما خاطب بالتذكير والنفس مؤنثة لأنه أراد يا إنسان .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار في الآخرة ، فقال « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » جزاء على كفرهم . ثم قال « اليس في جهنم مثوى » أي موضع إقامة « للمتكبرين » الذين تكبروا عن طاعة الله وعصوا أوامره .

قوله تعالى:

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ ست آيات بلا خلاف.

قرأ روح «وينجي الله» بالتخفيف. الباقون بالتشديد. وقرأ ابن كثير «تامروني اعبد» مشددة النون مفتوح الياء. وقرأ نافع وابن عامر في رواية الداجوني خفيفة النون. وفتح الياء نافع، ولم يفتحها ابن عامر. وقرأ ابن عامر في غير رواية الداجوني «تأمرونني» بنونين. الباقون مشددة النون ساكنة الياء. وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً «بمفازاتهم» جماعة. الباقون «بمفازتهم» على واحدة. فمن وحده قال: هو بمنزلة السعادة والنجاة، كما قال الله تعالى «بمفازة من العذاب» (١) وقال قوم المفازة الصحراء، فهي مهلكة وتسمى مفازة تفاؤلا، كما قالوا - لمعوج الرجلين - احنف، وللحبشي ابو البيضاء. وقال ابن الاعرابي:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨

ليست مقلوبة بل المفازة المهلكة ، يقولون: فوز الرجل إذا هلك ومات . ومن قرأ « تأمروني » فلانه الأصل . ومن شدد أدغم احدى النونين فى الأخرى . ومن خفف حذف احدى النونين ، كما قال الشاعر:

تراه كالثغام يعل مسكا   يسوء الغانيا إذا قليني (١)

أراد قلينني فحذف . لما اخبر الله تعالى عن حال الكفار وأن الله يحشرهم يوم القيامة مسودة وجوههم ، وأن مقامهم فى جهنم ، اخبر انه ينجي الذين اتقوا معاصي الله خوفاً من عقابه ، ويخلصهم . وقوله « بمفازتهم » بنجاتهم من النار بطاعاتهم التي أطاعوا الله بها . واصل المفازة المنجاة ، وبه سميت الفلاة مفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها ، كما سموا اللديغ سليما . ومن وحد فلأنه اسم جنس او مصدر يقع على القليل والكثير . ومن جمع أراد تخلصهم من مواضع كثيرة فيها هلاك الكفار وانواع عذابهم .

وقوله « لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » معناه إن هؤلاء المؤمنين الذين يخلصهم الله من عقاب الآخرة وأهوالها لا يمسهم عذاب أصلا ، ولا هم يغتمون على وجه . وقوله « لا يمسهم السوء » معناه نفياً عاماً لسائر انواع العذاب ، والعموم في قوله « ولا هم يحزنون » فيه تأكيد له . وقيل : لئلا يظن ظان انه لما لم يمسهم العذاب جاز أن يمسهم بعض الغم ، ففي ذلك تفصيل واضح يزيل الشبهة .

ثم اخبر تعالى انه خلق كل شيء ، ومعناه انه يقدر على كل شيء « وهو على كل شيء وكيل » أي له التصرف في ما يريد حافظ له ، وإن حملنا معنى الخلق على الاحداث ، فالمراد به « خالق كل شيء » من مقدوراته من الأجسام والاعراض . وقوله « له مقاليد السموات والارض » والمقاليد المفاتيح واحده

(١) قد مر في ٦ / ٣٤١

(مقليد) كقولك : منديل ومناديل ، ويقال في واحده ايضاً (إقليد) وجمعه (أقاليد) وهو من التقليد ، والمعنى له مفاتيح خزائن السموات والارض يفتح الرزق على من يشاء ويغلقه عمن يشاء . وقوله « والذين كفروا بآيات الله » يعني كفروا بآياته من مقاليد السموات والارض وغيرها وقوله « أولئك هم الخاسرون» يعني هؤلاء الذين كفروا بأدلة الله وحججه « هم الخاسرون » ، لانهم يخسرون الجنة ونعيمها ويحصلون في النار وسعيرها .

وقوله « قل أفغير الله تأمروني اعبد ايها الجاهلون » أمر للنبي صلى الله عليه وآله ان يقول لهؤلاء الكفار تأمروني أيها الكفار ان اعبد الاصنام من دون الله ايها الجاهلون بالله وبآياته ؟ ! والعامل في قوله « أفغير » على احد وجهين :

احدهما ـ ان يكون « تأمروني » اعتراضاً ، فيكون التقدير : أفغير الله اعبد ايها الجاهلون في ما تأمروني .

الثاني ـ ان لا يكون اعتراضاً ويكون تقديره : اتأمروني اعبد غير الله ايها الجاهلون في ما تأمروني فاذا جعلت « تأمروني » اعتراضاً ، فلا موضع لقوله « اعبد » من الاعراب ، لانه على تقدير اعبد ايها الجاهلون ، وإذا لم تجعله اعتراضاً يكون موضعه نصباً على الحال ، وتقديره اتأمروني عابداً غير الله ، فمخرجه مخرج الحال ومعناه ان اعبد ، كما قال طرفة :

ألا ايهذا الزاجري احضر الوغا وأن اشهد اللذات هل انت مخلد (١)

أي الزاجر أن احضر ، وحذف (أن) ثم جعل الفعل على طريقة الحال .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « ولقد أوحي اليك » يا محمد « وإلى الذين من قبلك » من الأنبياء والرسل « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»

(١) مر في ١ \ ٣٢٧ و ٨ \ ٢٤٣

لثواب الله . وقال قوم : فيه تقديم وتأخير وتقديره : ولقد أوحي اليك لئن اشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثل ذلك . وقال آخرون : هذا مما اجتزىء بأحد الخبرين عن الآخر ، كما يقول القائل : لقد قيل لزيد وعمرو ليذهبن ، ومعناه لقد قيل لزيد : ليذهبن وعمرو ليذهبن فاستغني بقوله وعمرو عن ان يقال ليذهبن بما صار لزيد .

وليس في ذلك ما يدل على صحة الاحباط على ما يقوله اصحاب الوعيد ، لان المعنى في ذلك لئن اشركت بعبادة الله غيره من الاصنام لوقعت عبادتك على وجه لا يستحق عليها الثواب ، ولو كانت العبادة خالصة لوجهه لا ستحق عليها الثواب ، فلذلك وصفها بأنها محبطة ، وبين ذلك بقوله « بل الله فاعبد » أي وجه عبادتك اليه تعالى وحده دون الأصنام ودون كل وثن « تكن من الشاكرين » الذين يشكرون الله على نعمه ويخلصون العبادة له . ونصب قوله « بل الله » بفعل فسره قوله « فاعبد » وتقديره اعبد الله فاعبد وقال الزجاج : هو نصب بقوله (فاعبد) وتقديره قد بلغت فاعبد الله وقال المبرد : ومعنى (ليحبطن) ليفسدن يقولون : حبط بطنه إذا فسد من داء معروف .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٠) أربع آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفار أنهم ما عظموه حق عظمته إذ دعوك إلى عبادة غيره. وقال الحسن: معناه إذ عبدوا الأوثان من دونه. والأول أقوى - وهو قول السدي - قال محمد بن كعب القرطي «ما قدروا الله حق قدره» معناه ما علموا كيف حق الله. قال المبرد إشتقاقه من قولك: فلان عظيم القدر يريد بذلك جلالته. والقدر اختصاص الشيء بعظم حجم او صغر أو مساواة.

وقوله «والارض جميعاً قبضته. قال الفراء: كان يجوز في (قبضته) النصب. وقال الزجاج لا يجوز ان يقال: زيد دارك أي في دارك على حذف (في) كقولهم شهر رمضان انسلاخ شعبان أي في انسلاخه. قال المبرد: الناصب لـ (جميعاً) محذوفة تقديره والارض إذا كانت جميعاً قبضته، وخبر الابتداء (قبضته) كأنه قال: والارض قبضته إذا كانت جميعاً. ومثله: هذا بسر الطيب منه تمراً أي إذا كان. ومذهب سيبويه أي ثبتت جميعاً في قبضته كقولك هنيئاً مريئاً أي ثبت ذلك، لانه دعاء في موضع المصدر، كما قلت سقياً ومثل الآية قول الشاعر:

إذا المرؤ اعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه شديد

أي إذا كان كهلا. وقال الزجاج: هو نصب على الحال. والمعنى «والأرض» في حال اجتماعها ﴿ قبضته يوم القيامة. والسموات مطويات بيمينه ﴾ على الابتداء والخبر. ومعنى الآية أن الارض باجمعها في مقدوره كما يقبض عليه

القابض ، فيكون في قبضته وكذلك قوله ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ معناه أي في مقدوره طيها ، وذكرت اليمين مبالغة في الاقتدار والتحقيق للملك . وقيل اليمين القوة قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين(١)

ثم نزه نفسه تعالى عن أن يكون له شريك في العبادة او معين في خلق شيء من الاشياء . وقال سبحانه وتعالى عما يشركون يعني ما يضيفه اليه الكفار من الأصنام والاوثان .

وقوله ﴿ ونفخ في الصور ﴾ قال قتادة هو جمع صورة ، فكأنه ينفخ في صور الخلق وروي في الخبر ان الصور قرن ينفخ فيه الصور . ووجه الحكمة في ذلك انه علامة جعلها الله تعالى ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف . ثم تجديد الخلق ، فشبه بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول ، ولا يتصور ذلك للنفس بأحسن من هذه الطريقة .

وقوله ﴿ فصعق من في السموات ومن في الارض ﴾ قيل : معناه يموت من شدة تلك الصيحة التي تخرج من الصور جميع من في السموات والارض ، ومنه الصواعق التي تأتي عند شدة الرعد ، وصعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة الشديدة . وقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ استثنى من جملة الذين يهلكون قوماً من الملائكة ، لأن الملك الذي ينفخ فيه يبقى بعده ، ويجوز ان يبقى غيره من الملائكة . وقال السدي : المستثنى جبرائيل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ـ وهو المروي في حديث مرفوع ـ وقال سعيد بن جبير : هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله . وقوله ﴿ ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون ﴾ فهذه النفخة

(١) مر تخريجه في ٨ / ٥١٢ وهو في تفسير الشوكاني ٤ / ٤٦٢

الثانية للحشر . وقال قتادة : وروي أيضاً ان صاحب الصور إسرافيل عليه السلام وقيل : يُفني الله تعالى بعد الصعق وموت الخلق الاجسام كلها ثم يعيدها ومعنى فاذا هم قيام ينظرون إخبار عن سرعة ايجادهم ، لانه إذا نفخ النفخة الثانية اعادهم عقيب ذلك فيقومون من قبورهم احياء ينظرون ما يراد ويفعل بهم .

وقوله ﴿ واشرقت الارض بنور ربها ﴾ قيل : معناه أضاءت بعدل ربها والحكم بالحق فيها .وقال الحسن : معناه بعدل ربها ﴿ ووضع الكتاب ﴾ يعني الكتب التي أعمالهم فيها مكتوبة ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ لانهم يؤتى بهم . والشهداء هم الذين يشهدون على الأمم للانبياء بأنهم قد بلغوا ، وانهم كذبتهم اممهم ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي يفصل بينهم بالحق ولا ينقص احد منهم شيئاً مما يستحقه من الثواب ولا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب ، وقوله ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ معناه انه يعطي كل نفس عاملة بالطاعات جزاء ما عملته على الكمال دون النقصان والله تعالى أعلم من كل احد بما يفعلون من طاعة او معصية لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلاخلاف

قرأ اهل الكوفة إلا الكسائي عن أبي بكر ﴿ فتحت ... وفتحت ﴾ بالتخفيف فيهما . الباقون بالتشديد . من خفف قال : لانها تفتح دفعة واحدة ، ومن شدد قال : لانها تفتح مرة بعد اخرى . ولقوله ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ (١) .

لما اخبر الله تعالى عن حال الكافرين والمؤمنين وانه يحشر الخلق فى ارض الموقف ، وانه يعاقب كل احد على قدر استحقاقه ، اخبر ـ ههنا ـ عن قسمة احوالهم فقال ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ فالسوق الحث على السير يقال : ساقه يسوقه سوقاً ، فهو سائق وذاك مسوق ، ومنه قولهم : الكلام يجري على سياقة واحدة ، ومنه السوق لأن المعاملة فيها تساق بالبيع والشراء ، ومنه الساق لانه ينساق به البدن ، و (الزمر) جمع زمرة وهي الجماعة لها صوت المزمار ، ومنه مزامير داود عليه السلام يعني اصوات له كانت مستحسنة ، وقال الشاعر :

له زجل كأنه صوت حاد   إذا طلب الوسيقة اوزمير (٢)

(١) سورة ٣٨ (ص) آية ٥٠   (٢) قائله الشماخ اللسان (زجل) وسيبويه ١ / ١١

قال ابو عبيدة : معناه جماعات فى تفرقة بعضهم فى أثر بعض ﴿ حتى إذا جاؤها ﴾ يعني جاؤا جهنم ﴿فتحت أبوابها﴾ أي ابواب جهنم ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ الموكاون بها على وجه الانكار عليهم والتهجين لفعلهم ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ يعني من امثالكم من البشر ﴿ يتلون ﴾ أي يقرؤن ﴿ عليكم آيات ربكم ﴾ أي حجج ربكم ، وما يدلكم على معرفته ووجوب عبادته ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويخوفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه ، فيقول الكفار لهم ﴿ بلى ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا ، وخوفونا لانه لا يمكنهم جحد ذلك لحصول معارفهم الضرورية ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ومعناه أنه وجب العقاب على من كفر بالله ، لانه تعالى اخبر بذلك وعلم من يكفر ويوافي بكفره ، فقطع على عقابه ، فلم يكن يقع خلاف ما علمه واخبر به ، فصار كوننا فى جهنم موافقاً لما أخبر به تعالى وعلمه ، فيقول لهم عند ذلك الملائكة الموكاون بجهنم ﴿ إدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين لا آخر لعقابكم ثم قال تعالى ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي بئس مقام ﴿المتكبرين﴾ جهنم . ثم اخبر تعالى عن حال أهل الجنة بعد حال اهل جهنم فقال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته « إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت ابوابها » وإنما جاء فى الجنة ، وفتحت ابوابها بالواو ، وفى النار فتحت بغير واو ، لأنه قيل : أبواب النار سبعة ، وابواب الجنة ثمانية ، ففرق بينهما للايذان بهذا المعنى ، قالوا : لان العرب تعد من واحد إلى سبعة وتسميه عشراً ويزيدون واواً تسمى واو العشر ، كقوله « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف » ثم قال ﴿ والناهون عن

المنكر ﴾ (١) فاتى بالواو بعد السبعة ، وقال ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكاراً ﴾ (٢) فاتى بالواو في الثامنة . وقيل : ان المعنى واحد ، وإنما حذفت تارة وجيء بها اخرى تصرفاً في الكلام . قال الفراء : الواو لا تقحم إلا مع (لما) و (حتى) و (إذا) وانشد .

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى (٣)

أراد انتحى وقيل: دخلت الواو لبيان انها كانت مفتحة قبل مجيئهم وإذا كان بغير واو افاد انها فتحت في ذلك الوقت وجواب (حتى إذا) في صفة اهل الجنة محذوف وتقديره حتى إذا جاؤها قالوا المنى او دخلوها او تمت سعادتهم او ما اشبه ذلك وحذف الجواب ابلغ لاحتماله جميع ذلك ومثله قول عبد مناف بن ربيع .

حتى إذا سلكوهم في قتائدة شلا كما تطرد الجمالة الشردا (٤)

وهو آخر القصيدة ، فحذف الجواب . وقوله ﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ﴾ أي طابت أفعالكم من الطاعات وزكت ﴿ فادخلوها ﴾ أي الجنة جزاء على ذلك ﴿ خالدين ﴾ مؤبدين لا غاية له ولا انقطاع . وقيل : معناه طابت أنفسكم بدخول الجنة .

ثم حكى تعالى ما يقول أهل الجنة إذا دخلوها ، فانهم يقولون اعترافاً بنعم الله عليهم ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ يعنون ارض الجنة . وقيل : ورثوها عن أهل النار . وقيل : لما صارت الجنة عاقبة أمرهم كما يصير الميراث ، عبر عن ذلك بأنه اورثهم وقوله ﴿ نتبوء من الجنة حيث نشاء ﴾ معناه

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٣ (٢) سورة ٦٦ التحريم آية ٥

(٣) مر تخريجه في ٦ / ١٠٩ (٤) مر في ١ \ ١٢٨ ، ١٤٩ و٦ / ٣٢٢، ٤٥٩ و ٧ \ ٣٦٣

نتخذ متبوءاً أي مأوى حيث نشاء ، وأصله الرجوع من قولهم : باء بكذا أي رجع به . ثم قال ﴿ فنعم اجر العاملين ﴾ يعني المقام في الجنة والتنعم فيها .

ثم قال تعالى ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أي محدقين به - في قول قتادة والسدي - ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق به ويذكرونه بصفاته التي هو عليها . وقيل : تسبيحهم ذلك الوقت على سبيل التنعم والتلذذ ثواباً على أعمالهم لا على وجه التعبد ، لأنه ليس هناك دار تكليف . وقيل : الوجه في ذلك تشبيه حال الآخرة بحال الدنيا ، فان السلطان الأعظم إذا أراد الجلوس للمظالم والقضاء بين الخلق قعد على سريره واقام حشمه وجنده قدامه وحوله تعظيماً لأمره فلذلك عظم الله أمر القضاء في الآخرة بنصب العرش وقيام الملائكة حوله معظمين له تعالى مسبحين وإن لم يكن تعالى على العرش لأن ذلك يستحيل عليه لكونه غير جسم ، والجلوس على العرش من صفات الأجسام .

ثم قال تعالى ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي فصل بين الخلائق بالحق لا ظلم فيه على أحد ، وقيل ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ اخبار منه تعالى أن جميع المؤمنين يقولون عند ذلك معترفين بأن المستحق للحمد والشكر الذي لا يساويه حمد ولا شكر (الله) الذي خلق العالمين ودبرها . وقيل : لأن الله خلق الاشياء الحمد لله الذي خلق السموات والارض ، فلما أفنى الخلق ثم بعثهم واستقر اهل الجنة في الجنة ختم بقوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

٤٠ - سورة المؤمن

مكية - في قول مجاهد وقتادة - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقال الحسن هي مكية إلا آية واحدة وهي قوله ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ﴾ يعني بذلك صلاة الفجر والمغرب وقد ثبت أن فرض الصلاة كان بالمدينة . وهي خمس وثمانون آية فى الكوفي وأربع فى المدنيين واثنتان فى البصري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٥) .

خمس آيات فى الكوفى وأربع فى ما عداه عدّ الكوفيون (حم) آية ولم يعدها الباقون .

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً وابن ذكوان ﴿ حاميم ﴾ بامالة الألف . الباقون بالفتح من غير امالة وهما لغتان فصيحتان . وقال قوم ﴿ حم ﴾ موضعه نصب ، وتقديره اتل ﴿ حم ﴾ اقرأ ﴿ حم ﴾ وقال آخرون : موضعه جرّ بالقسم . ومن جزم قال : لانها حروف التهجي وهي لا يدخلها الاعراب ، وقد فتح الميم عيسى ابن عمر ، وجعله اسم السورة ، فنصبه ولم ينون ، لأنه على وزن (هابيل) ويجوز ان يكون فتح لالتقاء الساكنين . والقراء على تسكين الميم وهو الأجود لما بيناه.

وقد بينا اختلاف المفسرين واهل العربية في مبادىء السور بحروف التهجي ومعناها ، وأن اقوى ما قيل في ذلك انها اسماء للسور ، وذكرناها في الأقوال ، فلا نطول باعادته .

وقال قتادة والحسن : (حم) اسم السورة . وقال شريح بن أوفى العبسي :

يذكرني (حم) والرمح شاهر فهلا تلا(حم) قبل التقدم

وقال الكميت :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

وقوله ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي هو تنزيل ﴿ من الله ﴾ أنزله على نبيه ﴿ العزيز ﴾ معناه القادر الذي لا يغالب ولا يقهر المنيع بقدرته على غيره ولا يقدر عليه غيره . وهذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى واصل الصفة المنع من قولهم : عزّ كذا وكذا أي امتنع ، وفلان عزيز أي منيع بسلطانه او عشيرته او قومه «والعليم» الكثير العلوم والعالم الذي له معلوم .

وقوله ﴿ غافر الذنب ﴾ جرّ بأنه صفة بعد صفة ، ومعناه من شأنه غفران الذنب في ما مضى وفي ما يستقبل ، فلذلك كان من صفة المعرفة ﴿ وقابل التوب ﴾

قال الفراء : إنما جعلها نعتاً للمعرفة وهي نكرة ، لأن المعنى ذي الغفران ، وذي قبول التوبة كقوله « ذي الطول » وهو معرفة وإن جعلته بدلا كانت النكرة والمعرفة سواء ، ومعنى « قابل التوب » إنه يقبل توبة من تاب اليه من المعاصي بأن يثيب عليها ويسقط عقاب معاصي ما تقدمها تفضلا منه ، ولذلك كان صفة مدح ، ولو كان سقوط العقاب عندها واجباً لما كان فيه مدح و (التوب) يحتمل وجهين :

احدها ـ ان يكون جمع توبة كدوم ودومة وعوم وعومة .

والثاني ـ ان يكون مصدر (تاب يتوب توباً) .

وقوله « شديد العقاب » معناه شديد عقابه وذكر ذلك عقيب قوله « غافر الذنب » لانه أراد لئلا يعول المكلف على العفو بل يخاف عقابه أيضاً لأنه كما انه يغفر لكونه غافراً فقد يعاقب لكونه شديد العقاب . وفرق بين شدة العقاب وتضاعف الالام بان الخصلة الواحدة من الألم يكون اعظم من خصال كثيرة من ألم آخر كالالم في أجزا كثيرة من قرص برغوث .

وقوله « ذي الطول » قال ابن عباس وقتادة : معناه ذي النعم . وقال ابن زيد : معناه ذي القدرة . وقال الحسن : ذي التفضل على المؤمنين . وقيل (الطول) الانعام الذي تطول مدته على صاحبه كما أن التفضل النفع الذي فيه افضال على صاحبه . ولو وقع النفع على خلاف هذا الوجه لم يكن تفضلا . ويقال : لفلان على فلان طول أي فضل .

وقوله « لا إله إلا هو » نفي منه تعالى أن يكون معبود على الحقيقة يستحق العبادة غيره تعالى . ثم قال « اليه المصير » ومعناه تؤل الأمور إلى حيث لا يملك أحد الامر والنهي والضر والنفع غيره تعالى ، وهو يوم القيامة ، لأن دار الدنيا

قد ملك الله كثيراً من خلقه الأمر والنهي والضر والنفع . ثم قال « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا » معناه لا يخاصم في دفع حجج الله وإنكارها وجحدها إلا الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بآياته وأدلته . ثم قال لنبيه « فلا يغررك » يا محمد « تقلبهم في البلاد » أي تصرفهم لقولهم : لفلان مال يتقلب فيه أي يتصرف فيه . والمعنى لا يغررك سلامتهم وإمهالهم ، فان عاقبتهم تصير إليّ ولا يفوتونني . وفي ذلك غاية التهديد .

ثم بين ذلك بأن قال « كذبت قبلهم » أي قبل هؤلاء الكفار « قوم نوح » بان جحدوا نبوته « والاحزاب من بعدهم » أيضاً كذبوا رسلهم « وهمت كل أمة برسولهم » وإنما قال برسولهم لانه اراد الرجال . وفي قراءة عبد الله « برسولها ليأخذوه » قال قتادة هموا به ليقتلوه « وجادلوا بالباطل » أي وخاصموا في دفع الحق بباطل من القول . وفي ذلك دليل على ان الجدال إذا كان بحق كان جائزاً « ليدحضوا به الحق » أي ليبطلوا الحق الذي بينه الله واظهره ويزيلوه ، يقال : أدحض الله حجته . وقال تعالى « حجتهم داحضة عند ربهم » (١) أي زائلة . ثم قال « فاخذتهم » أي فأهلكتهم ودمرت عليهم « فكيف كان عقاب » فما الذي يؤمن هؤلاء من مثل ذلك ؟ !

قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّآتِ وَمَنْ تَقِ ٱلسَّيِّآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (١٠)

خمس آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابن عامر « حقت كلمات » على الجمع . الباقون على التوحيد . من وحد فلأن الكلمة تقع على القليل والكثير مفردة . ومن جمع فلأن ذلك قد يجمع إذا اختلف اجناسها ، كما قال « وصدقت بكلمات ربها » (١) يعني شرائعه لأن كتبه قد ذكرت . والمعنى وحقت كلمات ربك ، كقولهم : الحق لازم . ووجه التشبيه في قوله « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا » أن الكفار يعاقبون فى الآخرة بالنار ، كما عوقبوا فى الدنيا بعذاب الاستئصال إلا انهم في الآخرة على ملازمة النار والحصول فيها ، وقد حقت الكلمة عليهم فى الأمرين جميعاً ، فحقت الكلمة على هؤلاء كما حقت الكلمة على اولئك . وموضع « إنهم اصحاب النار » يحتمل أن يكون نصباً على تقدير بأنهم أو لأنهم . ويحتمل أن يكون رفعاً على البدل من (كلمة) . وقال الحسن : حقت كلمة ربك على مشركي

(١) سورة ٦٦ التحريم آية ١٢

العرب كما حقت على من قبلهم .

ثم اخبر تعالى عن حال الملائكة وعظم منزلتهم بخلاف ما عليه الكفار من البشر ، فقال « الذين يحملون العرش » عبادة لله تعالى وامتثالا لأمره « ومن حوله » يعني الملائكة الذين حول العرش يطوفون به ويلجئون اليه « يسبحون بحمد ربهم » أي ينزهونه عما لا يليق به ويحمدونه على نعمه « ويؤمنون به » أي ويصدقون به ويعترفون بوحدانيته « ويستغفرون للذين آمنوا » أي يسألون الله المغفرة الذين آمنوا - من البشر - أي صدقوا بوحدانيته واعترفوا بالالهية . ويقولون : ايضاً مع ذلك « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » ونصبهما على التميز ومعناه وسعت رحمتك أي نعمتك ومعلومك كل شيء ؛ فنقل الفعل إلى الموصوف على وجه المبالغة ، كما قالوا : طبت به نفساً . وجعل العلم في موضع المعلوم ، كما قال « ولا يحيطون بشيء من علمه » (١) أي بشيء من معلومه على التفصيل ، وتقديره : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، ويقولون أيضاً ربنا « فاغفر للذين تابوا » من معاصيك ورجعوا إلى طاعتك « واتبعوا سبيلك » الذي دعوت خلقك اليه من التوحيد وإخلاص العبادة « وقهم عذاب الجحيم » أمنع منهم عذاب جهنم لايصل اليهم ، وحذف يقولون قبل قوله « ربنا » لأنه مفهوم من الكلام . واستغفارهم للذين تابوا يدل على ان اسقاط العقاب غير واجب لأنه لو كان واجباً لما كان يحتاج إلى مسألتهم بل الله تعالى كان يفعله لامحالة .

ثم حكى تمام ما يدعوا به حملة العرش والملائكة المؤمنين ، فانهم يقولون ايضاً « ربنا وأدخلهم » مع قبول توبتك منهم ووقاية النار « جنات عدن التي

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦

وعدتهم ﴾ أي الجنة التي وعدت المؤمنين بها وهي جنة عدن أي إقامة وخلود ودوام ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ كل ذلك في موضع نصب . ويحتمل أن يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿ وأدخلهم ﴾ وتقديره وادخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم الجنة ايضاً . ويحتمل ان يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿ وعدتهم ﴾ وتقديره أدخلهم جنات عدن التي وعدت المؤمنين ووعدت من صلح من آبائهم ﴿ إنك انت العزيز ﴾ في انتقامك من اعدائك ﴿ الحكيم ﴾ في ما تفعل بهم وبأولئك ، وفي جميع أفعالك . وقولهم ﴿ وقهم السيئات ﴾ معناه وقهم عذاب السيئات ويجوز أن يكون العذاب هو السيئات وسماه سيئات ، كما قال ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾ (١) للاتساع وقوله ﴿ ومن تق السيئات ﴾ أي تصرف عنه شر عاقبة سيئاته من صغير اقترفه او كبير تاب منه فتفضلت عليه ﴿ يومئذ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي صرف العذاب عنهم هو الفلاح العظيم ، والفوز الظاهر .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم انفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : مقتوا أنفسهم حين عاينوا العقاب ، فقيل لهم : مقت الله إياكم اكبر من ذلك . وقال الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم . وقال البلخي : لما تركوا الايمان وصاروا إلى الكفر فقد مقتوا انفسهم أعظم المقت ، كما يقول احدنا لصاحبه : إذا كنت لاتبالي بنفسك فلما أبالي بك ؟! وليس يريد انه لا يبالي بنفسه لكنه يفعل فعل من هو كذلك . وقال قوم : لمقت الله اكبر من مقت بعضكم لبعض . والمقت اشد العداوة والبغض

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

ثم بين أن مقت الله إياهم حين دعاهم إلى الأيمان على لسان رسله فكفروا به وبرسلهم فمقتهم الله عند ذلك ، وتقدير ﴿ ينادون لمقت الله ﴾ ينادون إن مقت الله إياكم ، ونابت اللام مناب (إن) كما تقولون ناديت إن زيداً اقائم وناديت لزيد قائم . وقال البصريون هـــذه لام الابتداء ، كما يقول القائل : لزيد أفضل من عمرو أي يقال لهم والنداء قول .

قولــه تعــالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) أَلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٧) .

سبع آيات عند الكل إلا ان الشامي قد خالفهم في التفصيل ، وهي عندهم سبع عدوا ﴿ يوم التلاق ﴾ ولم يعده الشامي ، وعد الشامي ﴿ يومهم بارزون ﴾ ولم

بعده الباقون .

حكى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم انهم يقولون بعد حصولهم في النار والعذاب يا ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال السدي الاماتة الأولى في الدنيا والثانية في البرزخ إذا أحيي للمسألة قبل البعث يوم القيامة ، وهو اختيار الجبائي والبلخي . وقال قتادة : الاماتة الأولى حال كونهم نطفاً فاحياهم الله ، ثم يميتهم . ثم يحييهم يوم القيامة . وفي الناس من استدل بهذه الآية على صحة الرجعة ، بأن قال : الاماتة الأولى في دار الدنيا والاحياء الأول حين إحيائهم الرجعة ، والاماتة الثانية بعدها . والاحياء الثاني يوم القيامة ، فكأنهم اعتمدوا قول السدي ، ان حال كونهم نطفاً لا يقال له إماتة ، لان هذا القول يفيد اماتة عن حياة والاحياء يفيد عن إماتة منافية للحياة وإن سموا في حال كونهم نطفاً مواتاً . وهذا ليس بقوي لأنه لو سلم ذلك لكان لابد من أربع احياآت وثلاث إماتات أول إحياء حين أحياهم بعد كونهم نطفاً ، لان ذلك يسمى احياء بلا شك . ثم اماتة بعد ذلك في حال الدنيا . ثم أحياء في القبر ثم إماتة بعده ثم إحياء في الرجعة ثم إماتة بعدها . ثم إحياء يوم القيامة لكن يمكن أن يقال : إن إخبار الله عن الاحياء مرتين والاماتة مرتين لايمنع من احياء آخر وإماتة أخرى . وليس في الآية انه احياهم مرتين وأماتهم مرتين بلا زيادة ، فالآية محتملة لما قالوه ومحتملة لما قاله السدي ، وليس للقطع على احدهما سبيل . قال ابن عباس وعبد الله والضحاك : هو كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ (١) .

وقوله ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ إخبار منه تعالى أن الكفار يعترفون بذنوبهم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨

التي اقترفوها في الدنيا لا يمكنهم جحدها ، وإنما تمنوا الخروج مما هم فيه من العذاب ، فقالوا ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ والمعنى فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك وإتباع مرضاتك . ولو علم الله تعالى انهم يفلحون لردهم إلى حال التكليف ، لانه لايمنع احساناً بفعل ما ليس باحسان ، ولا يؤتى احد من عقابه إلا من قبل نفسه ، وكذلك قال في موضع آخر ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (١) تنبيهاً أنهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنوه ، وإنما يقولون هذا القول على سبيل التمني بكل ما يجدون اليه سبيلا في التلطف للخروج عن تلك الحال ، وإنه لا يمكن احداً أن يتجلد على عذاب الله ، كما يمكن ان يتجلد على عذاب الدنيا . ووجه إتصال قوله ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ بما قبله هو الاقرار بالذنب بعد الاقرار بصفة الرب ، كأنه قيل : فاعترفنا بانك ربنا الذي أمتنا وأحييتنا وطال امهالك لنا فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك وإتباع مرضاتك . وفي الكلام حذف وتقديره : فاجيبوا ليس من سبيل لكم إلى الخروج ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ﴾ أي إذا دعي الله وحده دون آلهتكم جحدتم ذلك ﴿ وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أي إن يشرك به معبوداً آخر من الاصنام والأوثان تصدقوا . ثم قال ﴿ فالحكم لله ﴾ في ذلك والفاصل بين الحق والباطل ﴿ العلي الكبير ﴾ فالعلي القادر على كل شيء يجب ان يكون قادراً عليه ، ويصح ذلك منه وصفة القادرين تتفاضل ، فالعلي القادر الذي ليس فوقه من هو أقدر منه ولا من هو مساو له في مقدوره ، وجاز وصفه تعالى بالعلي ، لان الصفة بذلك قد تقلب من علو المكان الى علو الشأن يقال : استعلى عليه بالقوة ، واستعلى عليه بالحجة وليس كذلك الرفعة فلذلك لا يسمى بأنه رفيع ، والكبير العظيم في صفاته

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

التي لا يشاركه فيها غيره . وقال الجبائي : معناه السيد الجليل . ثم قال تعالى ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ يعني حججه ودلائله ﴿ وينزل من السماء رزقاً ﴾ من الغيث والمطر الذي ينبت ما هو رزق الخلق ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ أي ليس يتفكر في حقيقة ذلك إلا من يرجع اليه . وقال السدي : معناه إلا من يقبل إلى طاعة الله .

ثم امر الله تعالى المكلفين ، فقال ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي وجهوا عبادتكم اليه تعالى وحده ﴿ ولو كره ﴾ ذلك ﴿ الكافرون ﴾ فلا تبالوا بهم . ثم رجع إلى وصف نفسه فقال ﴿ رفيع الدرجات ﴾ وقيل معناه رفيع طبقات الثواب التي يعطيها الانبياء والمؤمنين في الجنة (ورفيع) نكرة أجراها على الأستئناف أو على تفسير المسألة الأولى ، وتقديره : وهو رفيع ﴿ ذو العرش ﴾ بانه مالكه وخالقه ومعناه عظيم الثواب لهم والمجازاة على طاعتهم ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ قيل : الروح القرآن وكل كتاب أنزله الله على نبي من انبيائه وقيل : معنى الروح ـ ههنا ـ الوحي ، لأنه يحيا به القلب بالخروج من الجهالة إلى المعرفة ومنه قوله ﴿ وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ (١) ذكره قتادة والضحاك وابن زيد . وقيل : الروح ـ ههنا ـ النبوة ، وتقديره لينذر من يلقي عليه الروح يوم التلاق : من يختاره لنبوته ويصطفيه لرسالته . وقوله ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ أي ليخوف يوم يلتقي فيه اهل السماء واهل الأرض ـ في قول قتادة والسدي وابن زيد ـ وقيل يوم يلقى فيه المرؤ عمله ، وهو يوم القيامة حذر منه . وقيل يوم يلتقي فيه الأولون والآخرون . والضمير في قوله ﴿ لينذر كناية ﴾ عن النبي صلى الله عليه وآله . ويحتمل ان يكون فيه ضمير الله ، والأول أجود ، لانه قد قرىء

(١) سورة ٤٢ الشورة آية ٥٢

بالتاء ، وهو حسن . ومن أثبت الياء فلأنها الأصل ، ومن حذف اجتزأ بالكسرة الدالة عليها .

وقوله ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي يظهرون من قبورهم ويهرعون إلى ارض المحشر وهو يوم التلاق ويوم الجمع ويوم الحشر . ونصب (يوم) على الظرف . وقوله لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ إنما خصهم بأنه لا يخفى عليه منهم شيء وإن كان لا يخفى عليه لا منهم ولا (من) غيرهم شيء لا حد أمرين:

احدها ـ أن تكون (من)لتبيين الصفة لاللتخصيص والتبعيض .

والآخر ـ ان يكون بمعنى يجازيهم من لا يخفى عليه شيء منهم ، فذكر بالتخصيص لتخصيص الجزاء بمن يستحقه دون ما لا يستحقه ولا يصح له من المعلوم .

وقيل : لا يخفى على الله منهم شيء فلذلك صح أنه انذرهم جميعاً .

وقوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ قيل فى معناه قولان :

احدها ـ انه تعالى يقرر عباده ، فيقول لمن الملك ؟ فيقر المؤمنون والكافرون بأنه لله الواحد القهار .

والثاني ـ انه القائل لذلك وهو المجيب لنفسه ، ويكون فى الاخبار بذلك مصلحة للعباد فى دار التكليف . والاول أقوى لأنه عقيب قوله ﴿ يوم هم بارزون ﴾ وإنما قال ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ مع أنه يملك الانبياء والمؤمنين فى الآخرة الملك العظيم لاحد وجهين :

احدها ـ لانه على تخصيص يوم القيامة قبل تمليك اهل الجنة ما يملكهم .

والثاني ـ لا يستحق إطلاق الصفة بالملك إلا الله تعالى ، لانه يملك جميع الأمور من غير تمليك مملك ، فهو أحق باطلاق الصفة . وقوله ﴿اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لاظلم اليوم ﴾ اخبار منه تعالى أن يوم القيامة تجزى كل نفس على قدر

عملها لا يؤاخذ أحد بجرم غيره ، لا يظلم ذلك اليوم أحد ولا يبخس حقه ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره ، فحساب جميعهم على حد واحد .

قوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢٠)

ثلاث آيات في الكوفي وأربع في ما سواه عدوا ﴿ كاظمين ﴾ رأس آية ولم يعده الكوفيون .

قرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿ والذين تدعون ﴾ بالتاء . الباقون بالياء . من قرأ بالتاء فعلى الخطاب ، وتقديره : قل لهم يا محمد . ومن قرأ بالياء جعل الاخبار عن الغائب .

امر الله تعالى نبيه محمداً أن يخوف المكلفين عقاب يوم الآزفة ، ويخبرهم بما فيه من الثواب والعقاب . والازفة الدانية من قولهم : ازف الامر إذا دنا . وازف الوقت اذا دنا يأزف أزفاً ، ومنه ﴿ ازفة الآزفة ﴾ (١) أي دنت القيامة . والمعنى دنوا المجازاة ، وهو يوم القيامة .

وقوله ﴿ اذ القلوب لدى الحناجر ﴾ أي في الوقت الذي تنتزع فيه القلوب من أمكنتها ، وهي الصدور ، وكظمت به الحناجر ، فلم تستطيع ان تلفظها

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٧

ولم تعد الى أماكنها وقيل: الكاظم الساكت على امتلائه غيظاً او غماً . ونصب (كاظمين) على الحال - في قول الزجاج - وتقديره قلوب الظالمين لدى الحناجر ﴿ كاظمين ﴾ أي في حال كظمهم ، والحناجر جمع حنجرة وهي الحلقوم . وقيل : انما خصت الحناجر بذلك لان الفزع ينتفخ منه سحره أي رئته فيرتفع القلب من مكانه لشدة انتفاخه حتى يبلغ الحنجرة . والكاظم للشيء الممسك على ما فيه ، ومنه قوله ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ (١) ومنه قولهم : كظم قربته اذا شد رأسها ، لأن ذلك الشد يمسكها على ما فيها ، فهؤلاء قد اطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم لشدة الخوف .

وقوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ نفي من الله أن يكون للظالمين شفيع يطاع ، ويحتمل ان يكون المراد بالظالمين الكفار ، فهؤلاء لا يلحقهم شفاعة شافع اصلا . وان حملنا على عموم كل ظالم من كافر وغيره جاز أن يكون انما اراد نفي شفيع يطاع ، وليس في ذلك نفي شفيع يجاب ، ويكون المعنى ان الذين يشفعون يوم القيامة من الأنبياء والملائكة والمؤمنين إنما يشفعون على وجه المسألة اليه والاستكانة اليه لا أنه يجب على الله ان يطيعهم فيه . وقد يطاع الشافع بأن يكون الشافع فوق المشفوع اليه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله لبريرة (انما أنا شافع) لكونه فوقها في الرتبة ولم يمنع من إطلاق اسم الشفاعة على سؤاله ، وليس لأحد أن يقول الكلام تام عند قوله ﴿ ولا شفيع ﴾ ويكون قوله ﴿ يطاع ﴾ ابتداء بكلام آخر لان هذا خلاف لجميع القراء لانهم لا يختلفون ان الوقف عند قوله (يطاع) وهو رأس آية وهو يسقط السؤال وأيضاً فلو وقفت عند قوله ﴿ ولا شفيع ﴾ لما كان لقوله « يطاع »

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣٤

تعلق به ولا معنى ، لأن الفعل لايلي فعلا ، فان قدر يطاع الذي يعلم كان ذلك شرطاً ليس هو في الظاهر ، فحمل الآية على مالا يحتاج إلى زيادة أولى .

وقوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الاعين ﴾ أي يعلم ما تختان به الأعين من النظر إلى غير ما يجوز النظر اليه على وجـه السرقة « وما تخفي الصدور » أي تضمره لايخفى عليه شيء من جميعه . وقيل : النظرة الأولى مباحة والثانية محرمة. فقوله « خائنة الاعين » في النظرة الثانية « وما تخفي الصدور » في النظرة الأولى فان كانت الأولى تعمداً كان فيها الأثم ايضاً ، وإن لم تكن تعمداً ، فهي مغفورة ثم قال « والله يقضي بالحق » أي يفصل بين الخلائق بمر الحق فيوصل كل واحد إلى حقه « والذين يدعون من دونه » من الأصنام لا يقضون بشيء من الحق . ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم . ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب للكفار .

ثم اخبر تعالى « ان الله هو السميع » أي من يجب ان يسمع المسموعات اذا وجدت المسموعات « البصير » أي يجب ان يبصر المبصرات اذا وجدت المبصرات ، وحقيقتهما يرجع الى كونه حياً لا آفة به . وقال قوم : معناه العالم بالمسموعات العالم بالمبصرات.

قولـه تعـالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ

ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوا أَبْنَاءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عباس « اشد منكم » بالكاف. الباقون بالهاء. قال ابو علي: من قرأ بالهاء فلأن ما قبله « او لم يسيروا » على ان لفظه لفظ الغيبة، فحمله على ذلك فقرأ « اشد منهم » ومن قرأ بالكاف انصرف من الغيبة الى الخطاب، كقوله « إياك نعبد » بعد قوله « الحمد لله » وحسن ـ هنا ـ لأنه خطاب لاهل مكة.

يقول الله تعالى منبهاً لهؤلاء الكفار على النظر في ما نزل بالماضين جزاء على كفرهم فيتعظوا بذلك وينتهوا عن مثل حالهم، فقال « او لم يسيروا في الارض » والسير والمسير واحد، وهو الجواز في المواضع، يقال: سار يسير سيراً وسايره مسايرة وسيره تسييراً، ومنه قوله « السيارة » (١) والثياب المسيرة: التي فيها خطوط وقوله « فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » أي يتفكروا في عواقب الكفار من قوم عاد وقوم لوط، فيرون بلادهم هالكة وآثارهم دارسة ومنازلهم خالية بما حل بهم من عذاب الله ونكاله جزاء على جحودهم نعم الله واتخاذهم معه إلهاً غيره، وكان الأمم الماضية أشد قوة من هؤلاء. والقوة هي القدرة، ومنه قوله « القوي العزيز » (٢) وقد يعبر بالقوة عن الصلابة، فيقال:

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠ (٢) سورة ١١ هود آية ٦٦ وسورة ٤٢ الشورى آية ١٩

خشبة قويه وحبل قوي أي صلب ، وأصله من قوى الحبل ، وهو شدة الفتل ثم نقل إلى معنى القدرة ، كما نقل (كبر) عن كبر الجثة إلى كبر الشأن ، والأثر حدث يظهر به أمر ، ومنه الآثار التي هي الاحاديث عمن تقدم بما تقدم بها من احوالهم وطرائقهم فى أمر الدنيا والدين . وقوله « فاخذهم الله بذنوبهم » ومعناه فأهلكهم الله جزاء على معاصيهم « وما كان لهم من الله من واق » في دفع العذاب عنهم ومنعهم من نزوله بهم ـ وهو قول قتادة ـ .

ثم بين تعالى انه إنما فعل بهم ذلك لأنهم « جاءتهم رسلهم بالبينات » يعني بالمعجزات الظاهرات والدلالات الواضحات فكذبوهم وجحدوا رسالتهم فاستحقوا العذاب « فاخذهم الله بذنوبهم » أي اهلكهم الله جزاء على معاصيهم « انه قوي شديد العقاب » أي قادر شديد عقابه .

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام فقال « ولقد ارسلنا موسى بآياتنا » أي بعثناه بحججنا وادلتنا « وسلطان مبين » أي حجة ظاهرة نحو قلب العصى حية وفلق البحر وغير ذلك « الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » يعني موسى . ثم قال تعالى « فلما جاءهم » يعني موسى عليه السلام «بالحق من عندنا قالوا » يعني فرعون وهامان وقارون « اقتلوا ابناء الذين آمنوا » بموسى ومن معه « واستحيوا نساءهم » أي استبقوهم ، قال قتادة : كان هـذا الامر بقتل الابناء والاستحياء للنساء امراً من فرعون بعد الامر الاول . وقيل استحياء نسائهم للمهنة . وقيل: معناه استحيوا نساءهم وقتلوا الابناء ليصدوهم بذلك عن اتباعه ويقطعوا عنه من يعاونه ، وإنما ذكر قصة موسى ليصبر محمد صلى الله عليه وآله على قومه كما صبر موسى قبله .

ثم اخبر تعالى ان ما فعله من قتل الرجال واستحياء النساء لم ينفعه وان كيده ، وكيد الكافرين لا يكون الا فى ضلال عن الحق واسم (كان) الاولى قوله

« عاقبة » وخبرها (كيف) وانما قدم لان الاستفهام له صدر الكلام ، واسم (كان) الثانية الضمير الذي دل عليه الواو ، وخبره (من قبلهم) ، واسم (كان) الثالثة الضمير ، و(هم) فصل عند البصريين ، وعماد عند الكوفيين « واشد » خبر (كان) الثالثة . فان قيل : الفصل لا يكون الا بين معرفتين (واشد) نكرة كيف صار (هم) فصلا ؟ قيل : ان (افعل) الذى معه (من) بمنزلة المضاف الى المعرفة . قال الله تعالى « وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً » كان خيرا خير فى الاصل فحذفت الهمزة تخفيفاً .

قولـه تعـالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ

يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب « او ان » بالف قبل الواو . الباقون « وأن » بغير الف . وقرأ نافع ويعقوب وابو جعفر وابو عمرو وحفص عن عاصم « يظهر » بضم الياء « الفساد » نصباً . الباقون « يظهر » بفتح الياء «الفساد» رفعاً . من نصب (الفساد) أشركه مع التبديل ، وتقديره إني أخاف ان يبدل دينكم واخاف ان يظهر الفساد . ومن رفع لم يشركه ، وقال تقديره إني اخاف ان يبدل دينكم ، فاذا بدل ظهر فى الأرض الفساد . وكلتا القراءتين حسنة فأما (او) فقدتستعمل بمعنى الواو ، كما قلناه فى « وأرسلناه إلى مئة الف او يزيدون »(١) أي ويزيدون أو بل يزيدون . ولا تكون الواو بمعنى (او) فى قول أبي عبيدة . وقال ابن خالويه إذا كانت (او) اباحة كانت الواو بمعناها ، لأن قولك : جالس الحسن او ابن سيرين بمنزلة الاباحة ، وكذلك قوله « ولا تطع منهم آثما او كفوراً »(٢) لان معناه ولا كفوراً . وقال ابو علي : من قرأ (وأن) فالمعنى إني أخاف هذا الضرب منه كما تقول كل خبزاً او تمراً أي هذا الضرب . ومن قرأ (وأن) المعنى إني اخاف هذين الأمرين وعلى الاول يجوز ان يكون الأمران مخافا ، ويجوز أن يكون احدهما ، وعلى الثاني هما معاً يخافان . ومن ضم الياء في قوله « ويظهر » فلأنه اشبه بما قبله ، لان قبله يبدل فأسند الفعل إلى موسى وهم كانوا فى ذكره ، ومن فتح الياء اراد انه إذا بدل الدين ظهر الفساد بالتبديل او اراد يظهر الفساد بمكانه . وقال قوم : اراد بـ (او) الشك لان فرعون قال إني

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧　　(٢) سورة ٧٦ الدهر (الانسان) آية ٢٤

أخاف ان يبدل موسى عليكم دينكم ، فان لم يفعله فيوقع الفساد بينكم ، ولم يكن قاطعاً على احدهما به . وروي رواية شاذة عن أبي عمرو : انه قرأ « وقال رجل » باسكان الجيم . الباقون بضمها وذلك لغة قال الشاعر :

رجلان من ضبة اخبرانا إنا رأينا رجلا عريانا

اراد رجلين فأسكن وهو مثل قولهم : كرم فلان بمعنى كرم .

حكى الله تعالى عن فرعون انه قال لقومه « ذروني » و معناه أتركوني اقتل موسى ، وذلك يدل على ان في خاصة فرعون كان قوم يمنعونه من قتل موسى ، ومن معه ويخوفونه ان يدعو ربه فيهلك ، فلذلك قال ذروني اقتله وليدع ربه ، كما تقولون . وقال قوم : ذلك حين قالوا له هو ساحر فان قتلته قويت الشبهة بمكانه بل « ارجه واخاه وابعث في المدائن حاشرين » (١)« وليدع ربه» في دفع القتل عنه ، فانه لا يخشى من دعائه شيء ، وهذا عنف من فرعون وتمرد وجرأة على الله وإيهام لقومه بأن ما يدعو به موسى لا حقيقة له .

ثم قال فرعون « إني اخاف ان يبدل » يعني موسى « دينكم » وهو ما تعتقدونه من إلهيتي « او ان يظهر في الأرض الفساد » بأن يتبعه قوم نحتاج ان نقاتله فيخرب في ما بين ذلك البلاد ، ويظهر الفساد . وقال قتادة : الفساد عند فرعون ان يعمل بطاعة الله . فمن قرأ « او ان » فانه جعل المخوف احد الامرين وإن جعل (او) بمعنى الواو جعل الأمرين مخوفين معاً . ومن قرأ بالواو جعل المخوف الأمرين معاً : تبديل الدين وظهور الفساد . والتبديل رفع الشيء إلى غيره في ما يقع موقعه إلا انه بالعرف لا يستعمل إلا في رفع الجيد بالردي ، والفساد انتقاض الأمر بما ينافي العقل او الشرع او الطبع ، ونقيضه الصلاح . والاظهار

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٣٦

جعل الشيء بحيث يقع عليه الادراك .

ثم حكى تعالى ما قال موسى عند ذلك فانه قال « إني عذبت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » والعياذ هو الاعتصام بالشيء من عارض الشر ، عذت بالله من شر الشيطان واعتصمت منه بمعنى واحد . ومن أظهر ولم يدغم ، قال : لان مخرج الذال غير مخرج التاء . ومن ادغم فلقرب مخرجهما ، والمعنى اني اعتصمت بربي وربكم الذي خلقني وخلقكم من كل متكبر على الله متجبر عن الانقياد له لا يصدق بالثواب والعقاب فلا يخاف .

وقوله « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه« انقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات » يعني الحجج الواضحة « من ربكم » قال السدي كان القائل ابن عم فرعون ، فعلى هذا يكون قوله « ادخلوا آل فرعون اشد العذاب » (١) مخصصاً ، وقال غيره كان المؤمن إسرائيلياً يكتم إيمانه عن آل فرعون ، فعلى هذا يكون الوقف عند قوله ﴿ وقال رجل مؤمن ﴾ ويكون قوله ﴿ من آل فرعون ﴾ متعلقاً بقوله ﴿ يكتم ﴾ أي يكتم إيمانه من آل فرعون . والأول اظهر في اقوال المفسرين . وقال الحسن : كان المؤمن قبطياً . وقوله ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ معناه إن المؤمن قال لفرعون إن يك موسى كاذباً في ما يدعوكم اليه فوبال ذلك عليه وان يك صادقاً في ما يدعيه يصيبكم بعض الذي يعدكم ، قيل : انه كان يتوعدهم بأمور مختلفة ، قال ذلك مظاهرة في الحجاج والمعنى انه يلقي بعضه . والمراد يصيبكم بعضه في الدنيا . وقيل : هو من لطيف الكلام ، كما قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته　　وقد يكون مع المستعجل الزلل (٢)

---

(١) آية ٤٦ من هذه السورة　(٢) قائله عمر القطامي تفسير القرطبي ١٥/٣٠٧

ثم قال ﴿ ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لا يحكم بهداية من كان مسرفاً على نفسه ومتجاوز الحد في معصية الله كذاباً على الله . ويحتمل ان يكون المراد ان الله لايهدي الى طريق الثواب والجنة من هو مسرف كذاب ويجوز ان يكون ذلك حكاية عما قال المؤمن من آل فرعون . ويجوز ان يكون ذلك ابتداء خبر من الله تعالى بذلك ، ثم قال يعني مؤمن آل فرعون ﴿ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ﴾ أي لكم الملك والسلطان على اهل الارض وذلك لا يمنع من بأس الله ﴿ قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ في ما ادعوكم من الهيتي وتكذيب موسى . ثم حكى ما قال المؤمن فقال ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اني اخاف عليكم ﴾ عذاباً ﴿ مثل ﴾ عذاب ﴿ يوم الاحزاب ﴾ قال قوم : القائل لذلك موسى نفسه ، لان مؤمن آل فرعون كان يكتم ايمانه ، وهذا ضعيف لأن قوله هذا كقوله ﴿ اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ﴾ (١) وكما اظهر هذا جاز ان يظهر ذلك .

قوله تعالى :

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) آية ٢٨ من هذه السورة

مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، والأخفش والداجوني عن هشام وقتيبة ﴿ على كل قلب متكبر ﴾ منون . الباقون على الاضافة . من نون جعله نعتاً للقلب ، لان القلب اذا تكبر تكبر صاحبه ، كما قال ﴿ فظلت اعناقهم لها خاضعين ﴾ (١) لان الاعناق إذا خضعت خضع اربابها ، وتكبر القلب قسوته وإذا قسا القلب كان معه ترك الطاعة . ومن اضاف قال : لان في قراءة ابن مسعود على ﴿ قلب كل متكبر جبار ﴾ قال الفراء : وسمعت احدهم يقول : إن فلاناً مرجل شعره يوم كل جمعة يقوم . والجبار : هو الذي يقتل على الغضب ، ويقال : اجبره فهو جبار مثل ادرك فهو دراك . قال الفراء : ولا ثالث لهما ، قال ابن خالويه : وجدت لهما ثالثاً اسأر فهو سئّار .

لما حكى الله تعالى عن مؤمن آل فرعون انه حذر قومه بالعذاب مثل عذاب يوم الاحزاب ، فسر ذلك فقال ﴿ مثل داب قوم نوح ﴾ يعني كعادته مع قوم نوح.

---

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

والدأب العادة يقال : دأب يدأب دأباً فهو دائب فى عمله إذا استمر فيه . والعادة تكور الشيء مرة بعد مرة . وانما فعل بهم ذلك حين كفروا به ، فأغرقهم الله وكقوم هود وهم عاد . وكقوم صالح : وهم ثمود والذين من بعدهم من الأنبياء واممهم الذين كذبوهم ، فأهلكهم الله بأن استأصلهم جزاء على كفرهم .

ثم اخبر انه تعالى لا يريد ظلماً للعباد ، ولا يؤثره لهم . وذلك دال على فساد قول المجبرة الذين يقولون إن كل ظلم فى العالم بارادة الله .

ثم حكى ايضاً ما قال لهم المؤمن المقدم ذكره ، فانه قال «يا قوم اني اخاف عليكم »عقاب«يوم التناد »وقيل : هو اليوم الذي ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور ،لما يرى من سوء عقاب الكفر والمعصية . وقيل : انه اليوم الذي ينادي أصحاب الجنة اصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » (١) وينادي اصحاب النار اصحاب الجنة « أن أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله » (٢) فى قول الحسن وقتادة وابن زيد . وقيل : « يوم التناد » هو اليوم الذي يدعى فيه « كل أناس بامامهم » (٣) ومن أثبت الياء فى (التنادي) فلأنها الأصل ، ومن حذفها فلاجتزائه بالكسرة الدالة عليها ، ولأنها آخر الآية ، فهي فصل شبهت بالقوافي . وقرىء « يوم التناد » بالتشديد من قولهم ندّ البعير إذا هرب ـ روي ذلك عن ابن عباس ـ .

وقوله « يوم تولون مدبرين » قال الحسن وقتادة : معناه منصرفين إلى النار وقال مجاهد : مارين غير معوجين ولا معجزين . وقيل : يولون مدبرين والمقامع تردهم إلى ما يكرهونه من العقاب .

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤٩
(٣) سورة ١٧ الإسري آية ٧١

وقوله « مالكم من الله من عاصم » أي مانع من عذاب ينزل بكم ، واصله المنع ، وشبه بذلك من فعل به ذلك اللطف الذي يمتنع عنده ، يقال عصمه فهو عاصم وذاك معصوم إذا فعل به ذلك اللطف . ومنه قوله ﴿ لاعاصم اليوم من امر الله إلا من رحم ﴾ (١) أي لا مانع . ثم قال ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من يحكم الله بضلاله فليس له من يحكم بهدايته على الحقيقة . ويحتمل ان يكون المراد ومن يضله الله عن طريق الجنة فما له من يهديه اليها .

ثم قال تعالى حاكياً ما قال لهم موسى فانه قال لهم : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل ﴾ قيل : هو يوسف ابن يعقوب كان قبل موسى جاءهم ﴿ بالبينات ﴾ يعني الحجج الواضحات ﴿ فمازلتم في شك ﴾ من موته حتى إذا هلك ومات ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ آخر . ثم قال ﴿ كذلك يضل الله ﴾ أي مثل ما حكم الله بضلال أولئك يحكم بضلال ﴿ كل مسرف ﴾ على نفسه بارتكاب معاصيه ﴿ مرتاب ﴾ أي شاك في أدلة الله ، ثم بينهم فقال ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي يسعون بغير سلطان أي بغير حجة آتاهم الله ، وموضع الذين نصب لانه بدل من (من) ويجوز ان يكون رفعاً بتقدير (هم) ثم قال ﴿ كبر مقتاً ﴾ أي كبر ذلك الجدال منهم مقتاً ﴿ عند الله ﴾ أي عداوة من الله . ونصبه على التمييز ﴿ وعند الذين آمنوا ﴾ بالله مثل ذلك . ثم قال ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما طبع على قلوب اولئك بان ختم عليها علامة لكفرهم يفعل مثله ﴿ ويطبع على كل قلب متكبر جبار ﴾ من نون (قلب) جعل (متكبر جبار) من صفة القلب ومن اضافه جعل (القلب) للمتكبر الجبار . قال ابو علي : من اضاف لا يخلو ان يترك الكلام على ظاهره او يقدر فيه حذفاً ، فان تركه على ظاهره كان تقديره :

---

(١) سورة ١١ هود آية ٤٣

يطبع الله على كل قلب متكبر أي على جملة القلب من المتكبر ، و ليس ذلك المراد وإنما المراد يطبع على قلب كل متكبر ، والمعنى انه يطبع على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر بمعنى انه يختم عليها .

قولـه تعـالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ ٱلسَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ حفص وعاصم ﴿ فاطلع ﴾ نصباً على جواب (لعلي) الباقون رفعاً عطفاً على قوله تعالى ﴿ لعلي ابلغ الأسباب .... وأطلع ﴾ وقيل : إن هامان اول من طبخ الآجر لبناء الصرح . وقرأ اهل الكوفة ﴿ وصدّ ﴾ بضم الصاد على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتحها . فمن ضم اراد صده الشيطان عن سبيل الحق وطابق قوله تعالى ﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ ومن فتح الصاد اراد انه صدّ غيره

عن سبيل الحق . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابو بكر عن عاصم ﴿ يدخلون ﴾ بالضم كقوله ﴿ يرزقون ﴾ . الباقون بفتح الياء ، لأنهم إذا ادخلوا ، فقد دخلوا .

حكى الله تعالى ان فرعون قال لهامان ﴿ ياهامان ﴾ وقيل : إنه كان وزيره ﴿ ابن لي صرحاً ﴾ أي بناء ظاهراً عالياً لا يخفى على الناظر وأن بعد ، وهو من التصريح بالأمر وهو اظهاره بأتم الاظهار ﴿ لعلي ابلغ الأسباب ﴾ ثم فسر تلك الاسباب فقال ﴿ اسباب السموات ﴾ وقال ابن عامر اراد به منزل السماء . وقال قتادة : معناه ابواب طرق السموات . وقال السدي طرق السموات . وقيل: هي الأمور التي يستمسك بها . فهي أسباب لكونها على ما هي به ولا تضطرب ولا تسقط إلى الارض بثقلها ، ولا تزول إلى خلاف جهتها ، وقوله « فاطلع إلى إله موسى » معناه فأشرف عليه لا راه . وقيل : إن فرعون كان مشبهاً فطلب رؤية الاله في السماء كما ترى الاشخاص إذا أشرف عليها . وقيل : يجوز ان يكون اراد « فاطلع إلى بعض الآيات التي يدعيها موسى الدالة على إله موسى ، لانه كان يعلم أن الصرح لا يبلغ السماء ، فكيف يرى من الصرح ما هو فى السماء ، ولو كان فيها على قول المجسمة ، ويجوز أن يكون قال ذلك تمويهاً لما علم من جهل قومه .

وقوله « وإني لاظنه كاذباً » حكاية ما قال فرعون وإنه يظن أن ما يقوله موسى أن له إله خلق السماء والارض كاذب فى قوله . وقال الحسن : إنما قال فرعون هذا على التمويه وتعمد الكذب ، وهو يعلم ان له إلهاً . وقوله « وكذلك زين لفرعون سوء عمله » أي مثل ما زين لهؤلاء الكفار أعمالهم كذلك زين لفرعون سوء عمله ، وقال المزين له سوء عمله جهله بالله تعالى والشيطان الذي اغواه ودعاه اليه لأن الجهل بالقبح فى العمل يدعو إلى انه حسن وصواب ، فلما جهل فرعون ان له إلهاً يجب عليه عبادته وتوهم كذب ما دعاه اليه نبيه موسى ،

سولت له نفسه ذلك من أمره . وقد بين الله تعالى ذلك في موضع آخر فقال « زين لهم الشيطان أعمالهم » (١) .

وقوله « وصد عن السبيل » من ضم اراد انه صده غيره . ومن فتح اراد انه صد نفسه وغيره . ثم قال تعالى « وما كيد فرعون إلا فى تباب » يعني في هلاك . والتباب الهلاك بالانقطاع ، ومنه قوله « تبت يدا أبي لهب » (٢) أي خسرت بانقطاع الرجاء ، ومنه تباً له . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى « تباب » خسران .

ثم حكى تعالى ما قال مؤمن آل فرعون فى قوله « وقال الذي آمن ياقوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد » وهو الايمان بالله وتوحيده وإخلاص العبادة له والاقرار بموسى عليه السلام وقال لهم ايضاً على وجه الوعظ لهم والزجر عن المعاصي « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » يعني انتفاع قليل ، ثم يزول بأجمعه ويبقى وزره وآثامه « وإن الآخرة هي دار القرار » أي دار مقام ، وسميت دار قرار لاستقرار الجنة بأهلها واستقرار النار بأهلها . والقرار المكان الذي يستقر فيه . ثم قال ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ومعناه أي من عمل معصية فليس يجازى إلا مقدار ما يستحقه عليها من العقاب لا اكثر من ذلك ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ﴾ جزاء على إيمانهم ﴿ يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي زيادة على ما يستحقونه تفضلا منه تعالى ، ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه . قال الحسن : هذا كلام مؤمن آل فرعون . ويحتمل أن يكون ذلك اخباراً منه تعالى عن نفسه .

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤٩

(٢) سورة ١١١ اللهب آية ١

قوله تعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (٤٦) ست آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر ﴿ ادخلوا آل فرعون ﴾ بقطع الهمزة على انه يؤمر الملائكة بادخالهم النار . الباقون بوصلها بمعنى انهم يؤمرون بدخولها ، وعلى الأول يكون ﴿ آل فرعون ﴾ نصباً على انه مفعول به ﴿ وأشد ﴾ المفعول الثاني . وعلى الثاني يكون نصباً على النداء .

حكى الله تعالى ان مؤمن آل فرعون قال لهم ﴿ مالي أدعوكم الى النجاة ﴾ يعني إلى ما فيه خلاصكم : من توحيد الله وإخلاص العبادة له والاقرار بموسى عليه السلام - وهو قول الحسن وابن زيد - و ﴿ تدعونني ﴾ انتم ﴿ إلى النار ﴾ لأنهم إذا دعوا إلى عبادة غير الله التي يستحق بها النار ، فكأنهم دعوا إلى النار ، لأن من

دعا الى سبب الشيء فقد دعا اليه ، ومن صرف عن سبب الشيء فقد صرف عنه ، فمن صرف عن معصية الله فقد صرف عن النار ، ومن دعا اليها فقد دعا إلى النار . والدعاء طلب الطالب الفعل من غيره ، فالمحق يدعو إلى عبادة الله وطاعته وكل ما أمر الله به او نهى عنه والمبطل يدعو إلى الشر والعصيان ، فمنهم من يدري انه عصيان ومنهم من لايدري ثم بين ذلك فقال ﴿ تدعونني لأكفر بالله ﴾ واجحد نعمه ﴿ واشرك به ﴾ في العبادة ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ مع حصول العلم ببطلانه . لأنه لايصح ان يعلم شريك له وما لا يصح أن يعلم باطل ، فدل على فساد اعتقادهم للشرك من هذه الجهة ثم قال ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ معاشر الكفار ﴿ إلى ﴾ عبادة ﴿ العزيز ﴾ يعني القادر الذي لا يقهر ، ولا يمنع لاستحالة ذلك عليه ﴿ الغفار ﴾ لمن عصاه إذا تاب اليه تفضلا منه على خلقه . وقوله ﴿ لاجرم إن ما تدعونني اليه ﴾ قال الزجاج : هو رد الكلام كأنه قال لامحالة إن لهم النار . وقال الخليل : لاجرم لا يكون إلا جواباً تقول : فعل فلان كذا فيقول المجيب : لاجرم إنه عوين والفعل منه جرم يجرم . وقال المبرد معناه حق واستحق ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ والمعنى ليس له دعوة ينتفع بها في أمر الدنيا ولا في الآخرة فأطلق ليس له دعوة ، لأنه ابلغ وإن توهم جاهل ان له دعوة ينتفع بها ، فانه لا يعتد بذلك لفساده وتناقضه . وقال السدي وقتادة والضحاك : معناه ليس لهذه الأصنام استجابة دعاء احد في الدنيا ولا في الآخرة . وقيل : معناه ليس لها دعوة تجاب بالآلهية في الدنيا ، ولا في الآخرة ﴿ وإن مردنا إلى الله ﴾ أي وجب ان مردنا إلى الله ، ووجب ﴿ أن المسرفين ﴾ بارتكاب المعاصي . وقال مجاهد : يعني بقتل النفس من غير حلها . وقال قتادة بالاشراك بالله ﴿ هم اصحاب النار ﴾ يعني الملازمون لها . قال الحسن :

هذا كله من قول مؤمن آل فرعون .

ثم قال لهم على وجه التخويف والوعظ ﴿ فستذكرون ﴾ صحة ﴿ ما اقول لكم ﴾ إذا حصلتم في العقاب يوم القيامة . ثم اخبر عن نفسه فقال ﴿ وافوض أمري إلى الله ﴾ أي اسلمه اليه ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أي عالم بأحوالهم ، وما يفعلونه من طاعة ومعصية . وقال السدي : معنى أفوض اسلم اليه . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ وقال قتادة : صرف الله عنه سوء مكرهم ، وكان قبطياً من قوم فرعون فنجى مع موسى . وقوله ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أي حل بهم ووقع بهم ﴿ سوء العذاب ﴾ لان الله تعالى غرقهم مع فرعون ، وبين انهم مع ذلك في ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ يعني صباحاً ومساء ، ورفع النار بدلا من قوله ﴿ سوء العذاب ﴾ ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة يقال للملائكة ﴿ ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ فيمن قطع الهمزة . ومن وصلها اراد ان الله يأمرهم بذلك . والعرض إظهار الشيء ليراه الذي يظهر له . ومنه قوله ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ (١) أي اظهروا ﴿ صفاً ﴾ كما يظهرون للرائي لهم . ومنه قولهم : عرضت الكتاب على الأمير ، فهؤلاء يعرضون على النار لينالهم من ألمها والغم بالمصير اليها . والغدوّ المصير إلى الشيء بالغداة غدا يغدو غدواً . وقولهم : تغدى أي اكل بالغداة ، وغدا أي سابق إلى الأمر بالغداة . و (قيام الساعة) وجودها ، ودخولها على استقامة بما يقوم من صفتها ، وقامت السوق إذا حضر أهلها على ما جرت به العادة و (اشد العذاب) اغلظه .

وفي الآية دلالة على صحة عذاب القبر لأنه تعالى اخبر انهم يعرضون على النار غدواً وعشياً . وقال الحسن : آل فرعون اراد به من كان على دينه .

---

(١) سورة ١٨ الكهف ٤٩

وكان السدي يقول : ارواحهم في اجواف طير سود يعرضون على النار غدواً وعشياً ، ويجوز ان يحييهم الله بالغداة والعشي ويعرضهم على النار ، ووجه الاحتجاج على رؤساء الضلال بالاتباع انهم كانوا يدعونهم إلى اتباعهم بما يدعون من صواب مذاهبهم . وهذا يلزمهم الرفع بها عنهم وأن يسعوا في تخفيف عذابهم ، فاذا هي سبب عذابهم . وقال الفراء ، وقوم من المفسرين ـ ذكره البلخي ـ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، ويوم تقوم الساعة يقال : لهم ادخلوا آل فرعون اشد العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ، ويكون معنى غدواً وعشياً مع انهم فيها أبداً أنه تتجدد جلودهم بعد الاحتراق غدواً وعشياً . وقال قوم : يجوز ان يكون المراد انهم بعرضها ، كما يقال : فلان يعرضه شر شديد أي يقرب من ذلك . وقال قوم : يجوز ان يكون المراد إن اعمالهم اعمال من يستحق النار ، فكأنهم يغدون ويروحون اليها باعمالهم . وقال قوم : المعنى يعرضون عليها وهم أحياء بالزجر والتحذير والوعد والوعيد ، فاذا كان يوم القيامة ـ وماتوا على كفرهم ـ ادخلوا اشد العذاب .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ

رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٥٠) أربع آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه واذكر يا محمد ﴿ إذ ﴾ أي الوقت الذي ﴿ يتحاجون في النار ﴾ ويخاصم بعضهم بعضاً يعني الرؤساء والاتباع ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ وهم الاتباع ﴿ الذين استكبروا ﴾ وهم الرؤساء ﴿ انا كنا لكم ﴾ معاشر الرؤساء ﴿ تبعاً ﴾ ويحتمل ان يكون ذلك جمع تابع كغايب وغيب وحايل وحول ، ويجوز أن يكون مصدراً أي تبعناكم تبعاً ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ لأنه يلزم الرئيس الدفع عن اتباعه والمنقادين لأمره . فيسألونهم هؤلاء أن يغنوا عنهم قسطاً من النار أي طائفة منها ، فيقول الرؤساء الذين استكبروا ﴿ إنا كل فيها ﴾ أي نحن وأنتم في النار، فكيف ندفع عنكم . ورفع « كل فيها » على انه خبر (إنا) كقوله ﴿ إن الأمر كله لله ﴾ (١) ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء ، وخبره (فيها) ﴿ ان الله حكم ﴾ بذلك ﴿ بين العباد ﴾ وانه يعاقب من اشرك به وعبد معه غيره ثم حكى ما يقوله ﴿ الذين ﴾ حصلوا ﴿ في النار ﴾ من الاتباع والمتبوعين ﴿ لخزنة جهنم ﴾ وهم الذين يتلون عذاب اهل النار « أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ ويقولون ذلك ، لأنه لاصبر لهم على شدة العذاب لا انهم يطمعون في التخفيف ، لان معارفهم ضرورية يعلمون ان عقابهم لا ينقطع ولا يخفف عنهم . ثم حكى ما يجيب به الخزنة لهم فانهم يقولون لهم « او لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات » يعني بالحجج والدلالات على صحة توحيده ووجوب إخلاص العبادة له ؟ فيقولون في جوابهم « بلى » قد جاءتنا الرسل بالبينات فكذبناهم وجحدنا نبوتهم وانكرنا

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٤

بياتهم فيقول لهم الخزنة اذاً « فادعوا » بما لا ينفعكم ويقولون ايضاً « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » لانه فى وقت لا ينفع .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ٱلْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ (٥٤) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴾ (٥٥)

اربع آيات فى الشامي وفى عدد اسماعيل وخمس في ما عداها عدوا « بني اسرائيل الكتاب » ولم يعده الأولان .

قرأ نافع واهل الكوفة (يوم لا ينفع الظالمين) بالياء ، لأن المعذرة ليس تأنيثها حقيقياً ولأنهم ارادوا عذرهم . الباقون بالتاء لتأنيث المعذرة .

اخبر الله تعالى عن نفسه بأنه ينصر رسله الذين بعثهم بالحق إلى خلقه وينصر الذين آمنوا به وصدقوا رسله فى دار الدنيا ، وينصرهم ايضاً يوم يقوم الاشهاد . والنصر المعونة على العدو ، وهو على ضربين : نصر بالحجة ونصر بالغلبة فى المحاربة بحسب مايعلم الله تعالى من المصلحة وتقتضيه الحكمة ، هذا إذا كان فى دار التكليف . فأما نصره إياهم يوم القيامة فهو اعلاء كلمتهم وظهور حقهم وعلو منزلتهم وإعزازهم بجزيل الثواب وإذلال عدوهم بعظيم العقاب . والاشهاد جمع شاهد مثل صاحب واصحاب

وهم الذين يشهدون بالحق للمؤمنين وأهل الحق وعلى المبطلين والكافرين بما قامت به الحجة يوم القيامة وفي ذلك سرور المحق وفضيحة المبطل في ذلك المجمع العظيم والمحفل الكبير . وقال قتادة الأشهاد الملائكة والانبياء والمؤمنون وقال مجاهد : هم الملائكة . ثم بين سبحانه وتعالى اليوم الذي يقوم فيه الاشهاد ، فقال « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم » فالمعذرة والاعتذار واحد . وإنما نفى ان تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار التكليف لأن الآخرة دار الالجاء إلى العمل ، والملجأ غير محمود على العمل الذي ألجيء اليه ، لأنه لا يعمله لداعي الحكمة إلى ما يمكنه أن يعمله ولا يعمله فيضمن الحمد على فعله . وقيل : إنما لم يقبل معذرتهم ، لانهم يعتذرون بالباطل ـ في قولهم والله ربنا ما كنا مشركين .

ثم بين تعالى إن لهم مع بطلان معذرتهم اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله والحكم عليهم بدوام العقاب ولهم سوء الدار وهو عذاب النار نعوذ بالله منها . والظالمين الذين لا تنفعهم المعذرة هم الذين ظلموا أنفسهم او غيرهم بارتكاب المعاصي التي يستحق بها دوام العقاب .

ثم اخبر تعالى على وجه القسم فقال « ولقد آتينا موسى الهدى » أي اعطيناه التوراة فيها أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده وانزلنا عليه الكتاب وأورثناه بني اسرائيل يعني التوراة ، وهدى يعني أدلة واضحة على معرفة الله وتوحيده و « ذكرى » أي ما يتذكر به أولو الالباب ، وإنما خص العقلاء بذلك ، لأنهم الذين يتمكنون من الانتفاع به دون من لا يعقل .

ثم أمر الله نبيه ﷺ فقال « فاصبر » يا محمد على أذى قومك وتحمل المشقة في تكذيبهم إياك « إن وعد الله حق » الذي وعدك به من الثواب والجنة لمن اطاعك والنار والعقاب لمن عصاك حق لا خلف له . واطلب ايضاً المغفرة لذنبك .

ويجوز ان يكون الخطاب له والمراد به أمته « وسبح بحمد ربك » أي نزه الله تعالى واعترف بشكره بما أنعم الله عليك ﴿ بالعشي والابكار ﴾ أي صباحاً ومساء . وقيل (وسبح بحمد ربك) معناه صل بحمد ربك و (بالعشي) معناه من زوال الشمس إلى الليل . و (الابكار) من طلوع الفجر الثاني الى طلوع الشمس .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠) خمس آيات . وست في المدني الأخير .

قرأ اهل الكوفه « تتذكرون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الاخبار عنهم . وقرأ ابو جعفر وابن كثير ورويس ويحي والبرجمي وابن غالب « سيدخلون » بضم الياء . على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح الياء على اسناد الفعل اليهم .

يقول الله تعالى « ان الذين يجادلون » أي يخاصمون « في » رفع « آيات الله» وابطالها « بغير سلطان » أي بغير حجة « اتاهم » اعطاهم الله إياها يتسلط بها على إنكار مذهب يخالف مذهبهم « إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » أي ليس في صدورهم إلا كبر . قال مجاهد: معناه الاعظمة وجبرية ماهم ببالغي تلك العظمة ، لأن الله تعالى مذلهم . وقيل : معناه إلا كبر بحسدك على النبوة التي اكرمك الله بها « ما هم ببالغيه » لأن الله يرفع بها من يشاء . وقيل : معناه إلا كبر ماهم ببالغي مقتضاه ولا نالوه لان الكبر إنما يعمله صاحبه لمقتضى ان يعظم حاله ، وهؤلاء يصير حالهم الى الاذلال والتحقير بكفرهم فلا يبلغون ما في صدورهم من مقتضي كبرهم . وقيل : الآية نزلت في اليهود وان الكبر الذي ليس هم ببالغيه توقعهم امر الدجال ، فاعلم الله تعالى ان هذه الفرقة التي تجادل ألا تبلغ خروج الدجال ، فلذلك قال تعالى « فاستعذ بالله » ثم امر نبيه بأن يستعيذ بالله من شر هؤلاء المخاصمين « انه هو السميع البصير » ومعناه انه يسمع ما يقول هؤلاء الذين يخاصمون في دفع آيات الله بصير بما يضمرونه وفي ذلك تهديد لهم في ما يقدمون عليه . وقيل : فيه وعد له بكفاية شرهم .

ثم قال تعالى « لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس » معناه إن خلق السموات والارض على ما هما عليه من العظم والثقل مع وقوفهما من غير عمد وجريان الفلك والكواكب من غير سبب اعظم في النفس وأهول في الصدر من خلق الناس ، وإن كان عظيماً لما فيه من الحياة والحواس المهيأة لانواع مختلفة من الادراكات إلا ان امر السموات والارض خارج عن مقتضى الطبيعة ، او ان يكون فاعلهما وخالقهما يجرى مجرى العباد في الجسمية ، فهو اكبر شأناً من هذه الجهة « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » لعدولهم عن الفكر فيه والاستدلال على

صحته وإدخال الشبهة على نفوسهم فيه . وذكر كبر خلق السموات والارض وما هو خارج عن الطبيعة حجة على المشركين في انكار النشأة الثانية بما هو خارج عن عادة الولادة .

ثم قال « وما يستوي الاعمى والبصير » أي لا يتساوى من عمي عن طريق الرشد والصواب فلم يهتد اليها ، والبصير الذي أبصرها واهتدى اليها « والذين آمنوا وعملوا الصالحات . ولا المسيء » أي ولا يتساوى ايضاً الذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الصالحات من الأعمال والذين اساؤا وظلموا نفوسهم بارتكاب المعاصي .

ثم قال « قليلا ما تتذكرون » أي ما أقل ما تتفكرون في ذلك .

والوقف على قوله « قليلا » .

وقوله « ما تتذكرون » يجوز أن تكون (ما) صلة ويجوز أن تكون بمعنى المصدر وتقديره قليلا ما تذكركم . ومن قرأ بالتاء اراد قل لهم وخاطبهم به . ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عنهم بذلك .

ثم اخبر « إن الساعة » يعني القيامة « آتية لاريب فيها » أي جائية واقعة لاشك في مجيئها « ولكن اكثر الناس لايؤمنون » أي لا يصدقون بذلك لجهلهم بالله وشكهم في اخباره .

ثم قال « وقال ربكم ادعوني استجب لكم » يعني استجب لكم إذا اقتضت المصلحة اجابتكم . ومن يدعو الله ويسأله فلا بد أن يشترط المصلحة إما لفظاً او اضماراً ، وإلا كان قبيحاً ، لانه إذا دعا بما يكون فيه مفسدة ولا يشترط انتفاؤها

كان قبيحاً .

ثم قال تعالى مخبراً ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي من يتكبر ، و يتعظم عن إخلاص العبادة لله تعالى ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ من ضم الياء ذهب الى انهم تدخلهم الملائكة كرهاً ومن فتح الياء قال : لأنهم إذا دخلوا فقد دخلوا ، فاضاف الفعل اليهم . ومعنى (يستكبرون عن عبادتي) أي عن دعائي بالخضوع لي . وقال السدي (داخرين) معناه صاغرين .

قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٦٥)

خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه بأنه « الله الذي جعل لكم ﴾ معاشر الخلق ﴿ الليل ﴾ وهو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي

وغرضه منه سكونكم واستراحتكم فيه من كد النهار وتعبه ﴿ وجعل لكم النهار ﴾ أيضاً وهو ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ﴿ مبصراً ﴾ تبصرون فيه مواضع حاجاتكم فجعله (مبصراً) لما كان يبصرون فيه المبصرون. ثم اخبر تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ أي لذو زيادة كثيرة من نعمه ﴿ على الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون ﴾ نعمه أي لا يعترفون بها بل يجحدونها ويكفرون بها. ثم قال مخاطباً لخلقه ﴿ ذلكم الله ﴾ يعني الذي قدم وصفه لكم هو الذي خلقكم ﴿ ربكم خالق كل شيء ﴾ من مقدوراته من السموات والارض وما بينهما مما لا يقدر عليه سواه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لايستحق العبادة سواه تعالى ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدلالة على توحيده، ثم قال مثل ما انقلب وانصرف هؤلاء ﴿ كذلك يؤفك ﴾ أي يصرف ﴿ الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ ومعناه كما خدع هؤلاء بما كذب لهم كذب من كان قبلهم من الكفار ﴿ الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي بدلالات الله وبيناته، ولا يفكرون فيها.

ثم عاد إلى ذكر صفاته تعالى فقال ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي هيأها لكم بحيث تستقرون عليها ﴿ والسماء بناء ﴾ أي وجعل السماء بناء مرتفعاً فوقنا ولو جعلهما رتقاً لما أمكن الخلق الانتفاع في ما بينهما. ثم قال ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ لان صور ابن آدم أحسن من صور الحيوان. والصور جمع صورة مثل سورة وسور ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ لأنه ليس لشيء من الحيوان من الطيبات المآكل والمشارب مثل ما خلق الله لابن آدم، فان انواع الطيبات واللذات التي خلقها الله لهم لا تحصى لكثرتها من الثمار وفنون النبات واللحوم وغير ذلك. ثم قال ﴿ ذلكم ﴾ يعني الذى تقدم وصفه هو الذى يحق له العبادة على الحقيقة وهو ﴿ الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي جل بأنه الثابت

الدائم الذى لم يزل ولا يزال .

ثم قال ﴿ هو الحي ﴾ ومعناه الحي على الاطلاق هو الذى يستحق الوصف بأنه حي لا إلى اجل ﴿ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : إذا قال احدكم (لا إله إلا الله وحده) فليقل فى آخرها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٠)

خمس آيات بلاخلاف .

هذا امر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ان يقول الكفار قومه ﴿ إني نهيت ﴾ أى نهاني الله ﴿ ان اعبد ﴾ أى اوجه العبادة إلى ﴿ الذين تدعون من دون الله ﴾ التي تجعلونها آلهة ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ أى حين أتاني الحجج والبراهين

من جهة الله دلتني على ذلك ﴿ وامرت ﴾ مع ذلك ﴿ أن اسلم لرب العالمين ﴾ أي استسلم لأمر رب العالمين الذي خلقكم وأوجدكم ويملك تدبير الخلائق اجمعين . ثم وصفه فقال ﴿ وهو الذي خلقكم ﴾ معاشر البشر ﴿ من تراب ﴾ ومعناه خلق أباكم آدم من تراب وانتم نسله واليه ترجعون واليه تنتمون ﴿ ثم من نطفة ... ﴾ اي ثم انشأ من ذلك الاصل الذي خلقه من تراب النطفة ثم قلبها الى علقة وهي القطعة من الدم لانها تعلق بما يمر به لظهور اثرها فيه وخلقكم منها ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ أي اطفالا واحداً واحداً ، فلهذا ذكره بالتوحيد ، كما قال « بالأخسرين اعمالا » (١) لان لكل واحد منهم اعمالا قد خسر بها « ثم لتبلغوا اشدكم » وهو حال استكمال القوة وهو جمع شدة واشد كنعمة وانعم . واصل الشدة الالف الذي يصعب منه الانحلال ، ثم « لتكونوا شيوخاً » بعد ذلك « ومنكم من يتوفى من قبل » ان يصير شيخاً ومن قبل ان يبلغ اشدة « ولتبلغوا اجلا مسمى » أي يبلغ كل واحد منكم ما سمى له من الأجل . وقال الحسن : هو النسل الذي يقوم عليه القيامة والأجل المسمى القيامة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي خلقكم لهذه الأغراض التي ذكرها ولكي تفكروا في ذلك فتعقلوا ما انعم الله عليكم من انواع النعم وارادة منكم من اخلاص العبادة . ثم قال ﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ يعني من خلقكم على هذه الاوصاف التي ذكرها هو الذي يحييكم وهو الذي يميتكم فأولكم من تراب وآخركم إلى تراب تعودون ﴿ فاذا قضى امراً ﴾ اي اراد امراً من الامور ﴿ فانما يقول له كن فيكون ﴾ ومعناه انه يفعل ذلك من غير ان يتعذر عليه ولا يمتنع منه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون ، لا انه خاطب المعدوم بالتكوين ، لأن ذلك محال .

---

(١) سورة ١٨ الكهف ١٠٤

والله لا يأمر بالمحال .

ثم قال ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله ﴾ يعني المشركين الذين يخاصمون فى دفع آيات الله وابطالها ﴿ أنى يصرفون ﴾ أى كيف ومن أين ينقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ولو كانوا يخاصمون فى آيات الله بالنظر فى صحتها والفكر فيها لما ذمهم الله . قال ابن زيد اراد بذلك المشركين . ثم وصفهم فقال ﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ يعني بالقرآن جحدوه وكذبوا بما ارسلنا به من الكتب فى الشرائع رسلنا قبلك ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم إذا حل بهم وبال ما جحدوه ونزل بهم عقاب ما ارتكبوه ويعرفون ان ما دعوتهم اليه حق وما ارتكبوه ضلال وفساد .

قوله تعالى :

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)

خمس آيات كوفي وشامي وأربع في ما عداها سوى البصري عد إسماعيل والكوفى والشامي « يسبحون » وعد المدني الاول والمكى « فى الحميم » وعد الكوفي والشامي « تشركون » وهي ثلاث آيات بصري لأنه عندهم آخر الاولى « يسبحون » والثانية « الكافرون » والثالثة « تمرحون » .

قوله « إذ الاغلال » متعلق بقوله « فسوف يعلمون ... إذ الاغلال » أي يعلمون في حال ما تجعل الأغلال وهي جمع غل ، وهو طوق يدخل في العنق للألم والذل . وأصله الدخول من قولهم : انغل في الشيء إذا دخل فيه . والغلول الخيانة التي تصير كالغل في عنق صاحبها ، والاعناق جمع عنق وهو مركب الرأس بين البدن وبينه ، وقوله « فاضربوا فوق الاعناق » (١) أي اصل الرأس وما والاه ، وقوله « والسلاسل » أي وتجعل السلاسل ايضاً في اعناقهم . وقرأ ابن عباس « والسلاسل » بالنصب « يسحبون » بفتح الياء بمعنى يسحبون السلاسل . وحكي عنه الجر أيضاً بتقدير ، وهم في السلاسل يسبحون . والجر ضعيف عند النحويين ، لان حرف الجر لا يجوز إضماره وأجاز بعضهم ذلك على ضعفه بأن يتوهم أن التقدير إذ الاغلال في الاعناق . والسلاسل جمع سلسلة وهي حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة . ويقال : تسلسلت المعاني إذا استمرت شيئاً قبل شيء كالسلسلة الممدودة . وقوله « يسحبون » أي يجرون على الأرض . وموضع « يسحبون » النصب على الحال ، وتقديره إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم مسحوبين على النار والسحب جر الشيء على الارض، هذا أصله يقال : سحب عليه ما يلزمه من الأصل الفاسد ، ويسحب الكافر على وجهه في النار سحباً « في الحميم » وهو الماء الذي يبلغ الغاية في الحرارة « ثم في النار يسجرون » فالسجر القاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود ، فهؤلاء الكفار لجهنم كالسجار للتنور « ثم قيل لهم » على وجه التوبيخ لايلام قلوبهم كايلام ابدانهم بالتعذيب « اينما كنتم تشركون من دون الله » فتوجهون العبادة اليه من الاصنام والاوثان فيخلصوكم وينصروكم من عذاب الله « قالوا » في الجواب « ضلوا عنا » ثم يستدركون

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ١٢

فيقولون « بل لم نكن ندعو من قبـل شيئاً » ومعناه لم نكن ندعو من قبل شيئاً يستحق العبادة وما ينتفع بعبادته ، فلذلك أطلق القول فقال الله تعالى « كذلك يضل الله الكافرين » قال الحسن : معناه كذلك يضل اعمالهم بأن يبطلها . وقيل : معناه كـذلك يضل الله الكافرين عن نيل الثواب . وقيل : كذلك يضل الله الكافرين عما اتخذوه إلهـاً بأن يصرفهم عن الطمع في نيل منفعته من جهتها . ثم يقول موبخاً لهم « ذلكم » أي ما فعل بكم جزاء « بما كنتم تفرحون في الارض » والفرح والمرح والبطر والاشر نظائر « بغير الحق » أي كنتم تفرحون بالباطل والفرح بالحق لا يوبخ عليه « وبما كنتم تمرحون » أي وجزاء بما كنتم تبطرون في معاصي الله . والمرح الاختيال في السرور والنشاط قال الشاعر :

ولا ينسني الحدثان عرضي ولا ارخي من الفرح الازارا (١)

قوله تعالى :

﴿ أُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

(١) مر في ٨ | ١٠٧

الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)

خمس آيات بلا خلاف ٠

لما حكى الله تعالى ما يقال للكفار من قوله « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » حكى ايضاً انه يقال لهم « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها » أي مؤبدين فيها لا انقطاع لكونكم فيها ولا نهاية لعقابكم ٠ وقيل : إنما جعل لجهنم ابواب كما جعل فيها الادراك تشبيهاً بما يتصور الانسان في الدنيا من المطابق والسجون والمطامير ، فان ذلك أهول واعظم في الزجر ٠ وقيل : لجهنم ابواب ، كما قال تعالى « لها سبعة ابواب » (١) وقوله « فبئس مثوى المتكبرين » أي بئس مقام الذين تكبروا عن عبادة الله وتجبروا عن الانقياد له ، وإنما اطلق عليه اسم بئس مع كونه حسناً لان الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل عن القبيح بالذم عليه ، فحسن لهذه العلة اطلاق اسم بئس عليه ٠ ووصف الواحد منا بانه متكبر اسم ذم . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « فاصبر » يا محمد على أذى قومك وتكذيبهم إياك ومعناه اثبت على الحق ، فسماه صبراً للمشقة التي تلحق فيه كما تلحق بتجرع المر ، ولذلك لا يوصف اهل الجنة بالصبر . وإن وصفوا بالثبات على الحق . وكان فى الوصف به فى الدنيا فضل ، ولكن يوصفون بالحلم ، لانه مدح ليس فيه صفة نقص . وقوله ﴿ إن وعد الله حق ﴾ معناه إن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب فى

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٤٤

الجنة وتوعد الكفار من العقاب (حق) لاشك فيه بل هو كائن لا محالة ثم قال ﴿ فاما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون ﴾ معناه إنا إن أريناك يا محمد بعض ما نعدهم من العقاب عاجلا وإهلاكهم في دار الدنيا ، وإن لم نفعل ذلك بهم وقبضناك إلينا ، فالينا يرجعون يوم القيامة ، فنفعل بهم ما وعدناهم من العقاب وأليم العذاب . وقال الحسن : تقديره إما نرينك بعض الذي نعدهم فنرينك ذلك في حياتك او نتوفينك ، فيكون ذلك بعد موتك فأي ذلك كان ﴿ فالينا يرجعون ﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا ﴾ يا محمد ﴿ رسلا من قبلك منهم ﴾ أي من جملتهم ﴿ من قصصنا عليك ﴾ قصتهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وروي عن علي عليه السلام انه قال (من بعث الله نبياً اسود لم يذكره الله) وقيل : بعث الله ثمانية آلآف نبي اربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم . ولم يذكر إلا نفراً يسيراً . ثم قال ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية ﴾ أي بمعجزة ولا دلالة ﴿ إلا باذن الله ﴾ وامره ﴿ فاذا جاء امر الله ﴾ يعني قيام الساعة ﴿ قضي بالحق ﴾ أي فصل بين الخلائق ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ لانهم يخسرون الجنة ويحصلون في النار بدلا منها ﴿ وذلك هو الخسران المبين ﴾ ثم قال تعالى على وجه تعداد نعمه على الخلق ﴿ الله الذي جعل لكم الانعام ﴾ من الابل والبقر والغنم ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ اي خلقها لتنتفعوا بركوبها وتأكلوا منها ، فانه جعلها للامرين . وقال قوم : المراد بالانعام ـ ههنا ـ الابل خاصة ، لانها التي تركب ويحمل عليها في أكثر العادات . واللام في قوله ﴿ لتركبوا ﴾ لام الغرض ، فاذا كان الله تعالى خلق هذه الانعام واراد ان ينتفع خلقه بها ، وكان تعالى لا يريد القبيح ولا المباح ، فلا بد ان يكون اراد انتفاعهم بها على وجه الطاعة والقربة اليه

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخرى من ألبانها واصوافها وأشعارها ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ ان تركبوها وتبلغوا المواضع التي تقصدونها لحوائجكم ﴿ وعليها ﴾ يعني على الانعام ﴿ وعلى الفلك ﴾ وهي السفن ﴿ تحملون ﴾ ايضاً لانه تعالى هو الذي يسيرها في البحر بالريح إلى حيث تقصدون وتبلغون أغراضكم منها . وقال ابو عبيدة معنى ﴿ وعلى الفلك ﴾ في الفلك كما قال ﴿ ولا صلبنكم في جذوع النخل ﴾ (١) واراد عليها ، فحروف الجر يقوم بعضها مقام بعض .

قوله تعالى :

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ ٱللهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِٱللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٥)

خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين جحدوا آياته وانكروا أدلته الدالة على

(١) سورة ٢٠ طه آية ٧١

توحيده وإخلاص العبادة له ﴿ ويريكم آياته ﴾ أي يعلمكم حججه ويعرفكم إياها ، منها إهلاك الأمم الماضية على ما اخبر عنهم ووجه الآية فيه انهم بعد النعمة العظيمة صاروا إلى النقم لانهم عصوا فاقتضى ذلك العصيان أولا النقمان ثانياً . وكان فيه اوضح الدليل على تثبيت القديم تعالى الذي لولاه لم يصح فعل ولا تدبير . ومنها الآية في خلق الانعام التي قدم ذكرها ، ووجه الآية فيه تسخيرها لمنافع العباد بالتصرف في الوجوه التي قد جعل كل شيء منها لما يصلح له وذلك يقتضي ان الجاعل لذلك قادر على تصريفه عالم بتدبيره ، وانما يرى الآيات بالبيان عنها الذي يحضر للناس معناها ويخطرها ببالهم ، وينبه عليها ، فانه يحتاج اولا في الآية احضارها للنفس ثم الاستدلال عليها والتمييز بين الحق والباطل منها ، فأول الفائدة إخطارها بالبال والتنبيه عليها والثاني الاستدلال عليها إلى الحق .

ثم قال ﴿ فاي آيات الله تنكرون ﴾ توبيخاً لهم على جحدها ، وقد يكون الانكار للآية تارة بجحدها أصلا . وقد يكون تارة بجحد كونها دالة على صحة ما هي دالة عليه ، والخلاف في الدلالة يكون من ثلاثة اوجه : اما في صحتها في نفسها ، او في كونها دلالة ، او فيهما . وإنما يجوز من الجهال دفع الآية بالشبهة مع قوة الآية وضعف الشبهة لامور:

منها اتباع الهوى ودخول الشبهة التي تغطي الحجة حتى لا يكون لها في النفس منزلة .

ومنها التقليد لمن ترك النظر في الأمور .

ومنها السبق إلى اعتقاد فاسد لشبهة فيمتنع ذلك من توليد النظر للعلم .

ثم نبههم فقال ﴿ افلم يسيروا في الارض ﴾ بأن يمروا في جنباتها ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم ﴾ عدداً ﴿ و اشد قوة ﴾ أي

واعظم آثاراً في الارض بالأبنية العظيمة التي نبوها والقصور المشيدة التي شيدوها . وقال مجاهد : بمشيهم على أرجلهم على عظم خلقهم، فلما عصواو كفروابالله اهلكهم الله واستأصلهم « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » معناه لم يغن عنهم ما كسبوه من الأموال والبنيان . وقيل ان (ما) بمعنى أي ، وتقديره فأي شيء اغنى عنهم كسبهم ؟ ! على وجه التهجين لفعلهم والتقريع لهم ، فتكون (ما) الأولى نصباً وموضع الثانية رفعاً .

ثم قال تعالى « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات » يعني لما أتى هؤلاء الكفار رسلهم الذين دعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له « فرحوا بما عندهم من العلم » وفي الكلام حذف ، وتقديره لما جاءتهم رسلهم بالبينات فجحدوها وانكروا دلالتها وعد الله تعالى الرسل باهلاك اممهم ونجاة الرسل فرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك . وقيل : إن المعنى فرحوا بما عندهم من العلم يعني الكفار بما اعتقدوا انه علم إذ قالوا : نحن اعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، فكان ذلك جهلا واعتقدوا انه علم ، فاطلق الاسم عليه بالعلم على اعتقادهم ، كما قال « حجتهم داحضة » (١) وقال « ذق انك انت العزيز الكريم » (٢) يعني عند نفسك وعند قومك ، فالأول قال به الجبائي ، والثاني قول الحسن ومجاهد . وقيل : المعنى إن الكفار فرحوا بما عند الرسل فرح استهزاء وسخرية لا فرح سرور وغبطة وقوله « وحاق بهم » أي حل بهم « ما كانوا به يستهزؤن » أي جزاء ما كانوا به يسخرون برسلهم من الهلاك والعذاب .

ثم اخبر تعالى عنهم انهم « فلما رأوا بأسنا » بأس الله ونزول عذابه « قالوا

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

(٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩

آمنا بالله وحده » وخلعنا الانداد من دونه « وكفرنا بما كنا به مشركين » في عبادة الله من الاصنام والاوثان فقال الله سبحانه « فلم يك ينفعهم إيمانهم » عند رؤيتهم بأس الله وعذابه ، لانهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحق به الثواب . ثم قال « سنة الله التي قد خلت في عباده » نصب « سنة الله » على المصدر، والمعنى طريقة الله المستمرة من فعله بأعدائه والجاحدين لنعمه واتخاذ الولائج من دونه في ما مضى مع عباده الذين كفروا به « وخسر هنالك الكافرون » لنعمه لفوتهم الثواب والجنة واستحقاقهم العذاب والكون في النار .

٤١ - سورة حم السجدة

هي مكية في قول قتادة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي اربع وخمسون آية كوفي وثلاث في المدنيين واثنتان وخمسون في البصري والشامي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي وأربع في الباقي عد الكوفيون « حم » ولم يعده الباقون قرأ بعض الكوفيين (حم) رفع بـ(تنزيل) و(تنزيل) رفع بـ (حم) وقال الفراء : ارتفع (تنزيل) باضمار (ذلك) او هذا تنزيل . وقال البصريون (تنزيل) رفع بالابتداء ، وخبره « كتاب فصلت آياته » و « قرآناً » نصب على المصدر او

الحال ذهب اليه قوم .

قد بينا اختلاف المفسرين في معنى قوله (حم) فلا وجه لاعادته . وقيل : في وجه الاشتراك في اسماء هذه السور السبع بـ (حم) انه للمشاكلة التي بينها بما يختص به بما ليس لغيرها ، لانه إسم علم أجري على الصفة الغالبة بما يصح فيه الاشتراك . والتشاكل الذي اختصت به هو ان كل واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب مع تقاربها في الطول والقصر ومع شدة تشاكل الكلام في النظام ، وحكم الكتاب البيان عن طريق النجاة الذي يصغر كل شيء في جنب الفائدة به من طريق الهلاك الذي لا صبر للنفس عليه ، وهو على وجوه : منها تبيين الواجب مما ليس بواجب ، وتبيين الأولى في الحكمة مما ليس بأولى ، وتبيين الجائز مما ليس بجائز ، وتبيين الحق في الدين من الباطل ، وتبيين الدليل على الحق مما ليس بدليل ، وتبيين ما يرغب فيه مما لا يرغب فيه ، وما يحذر منه مما لا يحذر مثله . وغير ذلك من وجوه أحكامه وهي اكثر من ان تحصى .

وقوله « تنزيل من الرحمن الرحيم » وصف الكتاب بأنه تنزيل لأن جبرائيل عليه السلام نزل به على محمد صلى الله عليه وآله وفي ذلك دلالة على حدوثه ، لأن التنزيل لا يكون إلا محدثاً .

وقوله « كتاب فصلت آياته » أي هذا كتاب ، وإنما وصف القرآن بأنه كتاب وإن كان المرجع فيه إلى كلام مسموع ، لأنه مما ينبغي أن يكتب ويدوّن لأن الحافظ ربما نسيه او نسي بعضه ، فيتذكر ، وغير الحافظ فيتعلم منه . وقوله « فصلت آياته » معناه ميزت دلائله . وإنما وصفه بالتفصيل دون الاجمال ، لان التفصيل يأتي على وجوه البيان ، لأنه تفصيل جملة عن جملة او مفرد عن مفرد ، ومدار أمر البيان على التفصيل والتمييز في ما يحتاج اليه من أمور الدين إذ العلم

علمان : علم دين وعلم دنيا وعلم الدين أجلهما واشرفهما لشرف النفع به . وقيل : « فصلت آياته » بالأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب .

ونصب قوله « قرآناً عربياً » على الحال ـ في قول الزجاج ـ وتقديره فصلت آياته في حال جمعه . ووصف بأنه قرآن ، لانه جمع بعضه إلى بعض ، وبأنه عربي لأنه يخالف جميع اللغات التي هي ليست عربية « لقوم يعلمون » أي لمن يعلم العربية. وقوله « بشيراً » أي مبشراً بالجنة وثوابها « ونذيراً » أي مخوفاً من النار وعقابها .

وقوله « فاعرض اكثرهم » اخبار منه تعالى عن الكفار أن اكثرهم يعدل عن التفكر فيه وعن سماعه « فهم لا يسمعون » لعدولهم عنه . ويجوز أن يكون مع كونهم سامعين إذا لم يفكروا فيه ولم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه . وقال البلخي : معناه إنهم يفعلون فعل من لا يسمعه ، لأنهم مع سماعه يستثقلونه ويعرضون عن الفكر فيه .

ثم حكى ما قاله الكفار من قولهم « قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه » قال مجاهد والسدي : معناه في أغطية وإنما قالوا ذلك ليؤسوا النبي صلى الله عليه وآله من قبولهم دينه ، فهو على التمثيل ، فكأنهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل اليه شيء مما وراءه ، وفيه تحذير من مثل حالهم في كل من دعي إلى امر أن لا يمتنع ان يكون هو الحق ، فلا يجوز ان يدفعه بمثل ذلك الدفع « وفي آذاننا وقر » أي ثقل عن استماع هذا القرآن « ومن بيننا وبينك حجاب » قيل الحجاب الخلاف الذي يقتضي أن يكون بمعزل عنك . قال الزجاج : معناه حاجز في النحلة والدين أي لا نوافقك في مذهب « فاعمل اننا عاملون » معناه فاعمل بما يقتضيه دينك ، فانا عاملون بما يقتضيه ديننا . وقال الفراء : معناه فاعمل في هلاكنا ، فاننا عاملون

في هلاكك، تهديداً منهم .

قولــه تعــالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو جعفر « سواء » رفعاً . وقرأه يعقوب خفضاً . وقرأه الباقون نصباً . فمن رفعه فعلى الاستئناف . ومن خفضه جعله نعتاً للايام . ومن نصبه فعلى المصدر .

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار « إنما انا بشر مثلكم » لحم ودم ، ومن ولد آدم ، وإنما خصني الله بنبوته وأمرني برسالته وميزني منكم بأني « يوحى إلي أنما إلهكم » الذي يستحق العبادة « إله واحد » لا شريك له في العبادة ﴿ فاستقيموا اليه ﴾ أي استمروا على وجه واحد في الطاعة له وإخلاص العبادة له على ما تقتضيه الحكمة « واستغفروه » أي واطلبوا المغفرة من جهته لذنوبكم .

ثم اخبر فقال « فويل للمشركين » الذين اشركوا بعبادة الله غيره من

الاصنام والاوثان ووصفهم بانهم « الذين لا يؤتون الزكاة » وقال الحسن : معناه لا يؤتون ما يكونون به ازكياء اتقياء من الدخول فى دين الله . وقال الفراء : الزكاة فى هذا الموضع ان قريشاً كانت تطعم الحاج وتسقيهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله . وقال قوم : إنما توعدهم على ترك الزكاة الواجبة عليهم لأنهم متعبدون بجميع العبادات ويعاقبون على تركها وهو الظاهر . وقال الزجاج : معناه وويل المشركين الذين لا يؤمنون بأن الزكاة واجبة . وإنما خص الزكاة بالذكر تقريعاً لهم على شحهم الذي يأنف منه أهل الفضل ويتركون ما يقتضي انهم ان يعملوه عملوه لاجله . وفي ذلك دعاء لهم إلى الايمان وصرف لهم عن الشرك . وكان يقال : الزكاة قنطرة الايمان فمن عبرها نجا . وقال الطبري : معناه الذين لا يعطون الله الطاعة التي يطهرهم بها ويزكي أبدانهم ، ولا يوحدونه . وقال عكرمة : هم الذين لا يقولون : لا إله إلا الله . وقد بينا أن الأقوى قول من قال إن الذين لا يؤدون زكاة اموالهم ، لان هذا هو حقيقة هذه اللفظة « وهم بالآخرة هم كافرون » معناه وهم مع ذلك يجحدون ما أخبر الله به من الثواب والعقاب فى الآخرة .

ثم اخبر الله تعالى عن المؤمنين فقال « ان الذين يؤمنون بالآخرة » أي يصدقون بأمر الآخرة من الثواب والعقاب « وعملوا الصالحات » أي الطاعات « لهم اجر غير ممنون » أي لهم جزاء على ذلك غير مقطوع ، بل هو متصل دائم ، ويجوز ان يكون معناه انه لاأذى فيه من المنّ الذي يكدر الصنيعة .

ثم امر النبي صلى الله عليه وآله ان يقول لهم على وجه الانكار عليهم بلفظ الاستفهام « أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض فى يومين » أي تجحدون نعمة من خلق الارض فى يومين « وتجعلون له انداداً » أي تجعلون له اشباهاً وامثالا فى استحقاق العبادة .

ثم قال الذي يستحق العبادة « ذلك رب العالمين » الذي خلق الخلائق وملك التصرف فيهم .

وقوله « وجعل فيها رواسي من فوقها » أي وخلق فى الأرض جبالا راسيات ثابتات فوق الارض « وبارك فيها » بما خلق فيها من المنافع « وقدر فيها اقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين » روي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال (إن الله خلق الارض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك اربعة ايام وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم). وقال الحسن والسدي : وابن زيد «قدر فيها اقواتها » أي ارزاقها . وقال قتادة : معناه قدر فيها ما فيه صلاحها . قال ابو عبيدة : الأقوات جمع قوت وهي أرزاق الخلق وما يحتاجون اليه . وقيل : إنما خلق ذلك شيئاً بعد شيء فى هذه الأربعة ايام لتعتبر به الملائكة وقيل : لاعتبار العباد فى الاخبار عن ذلك إذا تصوروه على تلك الحال . وقال الزجاج : الوجه فيه تعليم الخلق التأني فى الامور وألا يستعجلوا فيها بأن الله تعالى كان قادراً على ان يخلق ذلك فى لحظة ، لكن خلقها فى هذه المدة لما قلنا . وقال قوم إنما خلق ذلك فى هذه المدة ليعتبروا بذلك على انها صادرة من قادر مختار عالم بالمصالح وبوجوه الاحكام إذ لو كان صادراً عن مطبوع اوموجب لحصلت في حالة واحدة . وقال الزجاج : « في اربعة ايام » معناه في تتمة اربعة أيام .

وقوله « سواء للسائلين » قال قتادة والسدي : معناه سواء للسائلين عن ذلك لأن كلا يطلب القوت ويسأله . وفي قراءة عبد الله « وقسم فيها اقواتها » ومعناه خلق في هذه البلدة ما ليس في هذه ليتعايشوا ويتجروا . ومن نصب (سواء) فعلى تقدير استوت سواء واستواء لمن سأل في كم خلقت السموات

والارض ؟ فقيل في اربعة أيام سواء لازيادة ولا نقصان .

قولـه تعـالى :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَٰئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١٥) .

اربع آيات في البصري والشامي وخمس في ما عـداه . إختلفوا في قوله ﴿ وثمود ﴾ فلم يعدها البصريون والشاميون وعدها الباقون .

اخبر الله تعالى انه بعد خلق الأرض والجبال وتقدير الأقوات فيها ﴿ استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ قال الحسن : معناه استوى امره ولطفه إلى السماء . وقال غيره : معنى الاستواء إلى السماء العمد والقصد اليها ، كأنه قال : ثم قصد اليها . واصل الاستواء الاستقامة والقصد للتدبير المستقيم تسوية له . وقوله

« ثم استوى على العرش » (١) معناه ثم استوى تدبيره بتقدير القادر عليه . وقيل إن الاستوى بمعنى الاستيلاء ، كما قال الشاعر :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق (٢)

فاما الاستواء عن اعوجاج فمن صفات الاجسام لا يجوز ذلك على الله تعالى . وقوله « ثم استوى إلى السماء » يفيد انه خلق السماء بعد خلق الأرض وخلق الاقوات فيها ، ولا ينافي ذلك قوله « أأنتم اشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها » إلى قوله ﴿ والارض بعد ذلك دحاها ﴾ (٣) لان ذلك يفيد أن الارض كانت مخلوقة غير مدحوة ، فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض فبسطها ، وإنما جعل الله السموات أولا دخاناً ثم سبع سموات طباقاً ثم زينها بالمصابيح ، لما في ذلك من الدلالة على أن صانعها وخالقها ومدبرها ليس كمثله شيء من الموجودات غني عن كل شيء سواه ، وإن كل ما سواه يحتاج اليه من حيث انه قادر لنفسه لا يعجزه شيء ، عالم لنفسه لا يخفى عليه شيء . و (الدخان) جسم لطيف مظلم ، فالله تعالى خلق السموات اولا دخاناً ثم نقلها إلى حال السماء من الكثافة والالتئام لما في ذلك من الاعتبار واللطف لخلقه .

وقوله ﴿ فقال لها و للارض ائتيا طوعاً اوكرها قالتا اتينا طائعين ﴾ قال ابن عباس أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم وأتت الارض بما فيها من الانها والاشجار والثمار ، وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا إطاعة ، ولا

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٢ وسورة ٢٥ الفرقان آية ٥٩ وسورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ وسورة ٥٧ الحديد آية ٤   (٢) مر في ١ / ١٢٥ و ٢ / ٣٩٦ و ٤ / ٤٥٢ و ٥ / ٣٨٦   (٣) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٠

جواب لذلك القول بل أخبر تعالى عن اختراعه السموات والارض وانشائه لهما من غير تعذر ولا مشقة ولا كلفة ومن غير ملابسة ولا معاناة بمنزلة ما قيل: للمأمور افعل ففعل من غير تلبث ولا توقف ، فعبر عن ذلك بالأمر والطاعة وهو كقوله ﴿ كن فيكون ﴾ (١) وقد بينا الوجه في ذلك ويكون التقدير كأنه قيل: أتينا بمن فينا طائعين أي سبحانه فعل الطبائع في ما أمر به وإنما قلنا ذلك لانه تعالى لا يأمر المعدوم ولا الجماد ، لان ذلك قبيح يتعالى الله عن ذلك ومثل ذلك قول الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني (٢)

ونظائر ذلك كثيرة بيناها في ما مضى وإنما قال ﴿ طائعين ﴾ ولم يقل طائعتين ، لانه لما اسند الفعل اليهما وهو ما لا يكون إلا من العقلاء اخبر عنهما بالياء والنون ، وقال قطرب :لان المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء. وقال الشاعر :

فاجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني

فقلت له اين الذين عهدتهم بجنبيك في حفض وطيب زمان

فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان (٣)

وقوله ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ معناه جعلهن سبع سموات على اتمام خلقهن لأن القضاء جعل الشيء على إتمام وإحكام ولذلك قيل: انقضى أي قد تم ومضى ، وقضى فلان إذا مات ، لان عمره تم ومضى . وقيل: إن السماء موج مكفوف ، روي ذلك في الخبر عن النبي ﷺ .وقال الحسن : هي سبع ارضين

(١) سورة ٣٦ يس آية ٨٢ وغيرها (٢) مر في ١ \ ٤٣١ و ٨ \ ٨٥ ، ٣٦٩

(٣) قد مر في ٨ \ ٣٦٩

بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام . وقوله ﴿ في يومين ﴾ قال السدي : خلق الله السموات وسواها يوم الخميس والجمعة وسمي جمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والارض ، وإنما خلقها في يومين نظير خلق الارض في يومين ، فان قيل : قوله ﴿ خلق الارض في يومين ﴾ وخلق الجبال والاقوات في اربعة أيام وخلق السموات في يومين يكون ثمانية ايام، وذلك مناف لقوله ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ﴾ (١) قلنا : لا تنافي بين ذلك ،لانه خلق السموات والارض وخلق الجبال والاشجار والاقوات في اربعة أيام منها اليومان المتقدمان ، كما يقول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة ايام ثم الى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي في تمام هذه المدة ، ويكون قوله ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ تمام ستة أيام . وهو الذي ذكره في قوله في ستة أيام . وزال الاشكال .

وقوله ﴿ واوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال السدي معناه جعل فيها ما اراده من ملك وغيره. وقيل معناه أوحي في كل سماء بما يصلحها ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ روي ان الكواكب في السماء الدنيا ، وهي الاقرب إلى الارض دون ما فوقها من السموات .

وقوله ﴿ وحفظاً ﴾ منصوب على المعنى وتقديره جعلناها زينة وحفظاً أي وجعلناها حفظاً من استراق الشياطين السمع بالكواكب التي جعلت فيها . وقيل : حفظاً من ان تسقط على الأرض ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يعني القادر الذي لايغالب العليم بجميع الاشياء لا يخفى عليه شيء منها .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فان أعرضوا ﴾ يعني ان عدل الكفار عن الفكر في ما ذكرنا والتدبر لما بينا وأبوا إلا الشرك والجحود ﴿ فقل ﴾ لهم مخوفا لهم ﴿ انذرتكم

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣

صاعقة ﴾ أي خوفتكم إياها ان ينزل بكم كما نزل بمن قبلكم ونصب (صاعقة) على انه مفعول ثان ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ التي أرسلها الله عليهم واهلكهم بها، فقال السدي: الصاعقة اراد بها العذاب، وقال قتادة: معناه وقيعة. وقيل: إن عاداً اهلكت بالريح والصاعقة جميعاً. وقوله ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ﴾ فـ (إذ) متعلقة بقوله ﴿ صاعقة ﴾ أي نزلت بهم إذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم، منهم من تقدم زمانه ومنهم من تأخر عنه. وقال الفراء: اتت الرسل إياهم ومن كان قبلهم ومن خلفهم أي وجاءتهم انفسهم رسل من بعد اولئك الرسل فيكون الهاء والميم في خلفهم الرسل، ويكون لهم بجعل ما خلفهم ما معهم. وقال قوم: معناه قبلهم وبعد أن بلغوا وتعبدوا بأمر الرسل الذين تقدموهم، قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد أتتهم اخبار الرسل من ههنا وههنا مع ما جاءهم منهم ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي ارسلناهم بأن لا يعبدوا إلا الله وحده لاشريك له وألا يشركوا بعبادته غيره، فقال المشركون عند ذلك ﴿ لو شاء ربنا ﴾ أن نؤمن ونخلع الانداد «لانزل ملائكة» يدعوننا إلى ذلك ولم يبعث بشراً مثلنا، فكأنهم انفوا من الانقياد لبشر مثلهم وجهلوا أن الله يبعث الانبياء على ما يعلم من مصالح عباده ويعلم من يصلح للقيام بها وقالوا لهم ايضاً ﴿ إنا ﴾ معاشر قومنا ﴿ بما أرسلتم به ﴾ من إخلاص العبادة والتوحيد ﴿ كافرون ﴾ جاحدون. ثم فصل تعالى اخبارهم فقال ﴿ فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ﴾ أي تجبروا وعتوا وتكبروا على الله بغير حق جعله الله لهم بل للكفر المحض والظلم الصراح ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ لما كان الله تعالى اعطاهم من فضله قوة تقووا بها على اهل زمانهم، فقال الله تعالى ﴿ او لم يروا ﴾

ومعناه او لم يعلموا ﴿ ان الله الذي خلقهم ﴾ واخترعهم وخلق فيهم هذه القوة ﴿ اشد منهم قوة ﴾ واعظم اقتداراً ﴿ وكانوا ﴾ مع ذلك ﴿ بآيات الله ﴾ وادلته ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرونها، ولا يعترفون بها

قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ﴿ نحسات ﴾ ساكنة الحاء ، الباقون بكسرها، لان (نحسات) صفة ، تقول العرب : يوم نحس مثل رجل هرم . وقيل : هما لغتان ، وقرأ نافع ويعقوب ﴿ ويوم نحشر ﴾ بالنون كقوله ﴿ ونحشره يوم القيامة اعمى ﴾ (١) وقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ بالنون . الباقون بضم الياء على مالم يسم فاعله ، لأنه عطف عليه . قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ فطابق بينهما .

لما حكى الله عن عاد وثمود انه ارسل اليهم رسلا وأمرهم بعبادة الله وحده

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

وأن لا يشركوا به شيئاً وانهم كفروا بذلك وجحدوه . واخبر انه أهلكهم بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً أي شديداً صوته واشتقاقه من الصرير ولذلك ضوعف اللفظ اشعاراً بمضاعفة المعنى ، يقال صر يصر صريراً ، وصرصر يصرصر صرصرة وريح صرصر شديد هبوبها . وقال قتادة : يعني باردة وقال السدي : باردة ذات صوت . وقال مجاهد : شديدة السموم . وقيل : اصله صرر قلبت الراء صاداً ، كما قيل : رده ، وردده ، ونهه ونهنهه . وقال رؤبة :

فاليوم قد نهنهني تنهنهي وأولى حلم ليس بالمتقه (١)

وكما قيل : كففه وكفكفه ، قال النابغة:

اكفكف عبرة غلبت عبراتي إذا نهنهتها عادت ذباحا (٢)

ومنه سمي نهر صرصر لصوت الماء الجاري فيه .

وقوله ﴿ في أيام نحسات ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : يعني مشومات ، والنحس سبب الشر ، والسعد سبب الخير ، وبذلك سميت سعود الايام ونحوسها وسعود النجوم ونحوستها ، ومن سكن الحاء خففه ، ومن جرها فعلى الأصل . وقال ابو عبيدة : معناه ايام ذات نحوس أي مشائيم العذاب .

وقوله ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ إخبار منه تعالى انه انما يفعل بهم ذلك ليذيقهم حال الهوان في الدنيا ، والخزي الهوان الذي يستحيا منه خوفاً من الفضيحة ، يقال : خزي يخزى خزياً واخزاه الله إخزاء فهو مخزي .

ثم بين تعالى ان عذاب الآخرة اخزى وافضح من ذلك فقال ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ أي لا يدفع عنهم العذاب الذي ينزل بهم .

ثم قال تعالى ﴿ واما ثمود فهديناهم ﴾ فالذي عليه القراء رفع الدال ، وقرأ

(١ ، ٢) تفسير الطبري ٢٤ / ٥٩ ، ٦٠

الحسن بالنصب على تقدير هدينا ثمود هديناهم ، والرفع اجود ، لأن (اما) لا يقع بعدها إلا الاسماء ، فالنصب ضعيف . والمعنى واما ثمود دللناهم على طريق الرشاد فعدلوا عنها إلى طريق الغي والفساد ، والهدي يتصرف على وجوه بيناها في ما مضى . وقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد : معناه بينا لهم ، وإنما لم يصرف ثمود لأنه اسم القبيلة او الأمة ، وهو معرفة . وإنما رفع لأن (أما) رفع الاسم بعدها اولى .

وقوله ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ معناه اختاروا العمى على طريق الحق والاهتداء اليها وبئس الاختيار ذلك ـ وهو قول الحسن .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة في ان الله يضل الكفار عن الدين ولا يهديهم اليه لانه صرح بأنه هدى ثمود إلى الدين وانهم اختاروا العمى على الهدى ، وذلك واضح لا اشكال فيه . وقوله ﴿ فاخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي ارسل عليهم الصاعقة التي بعثها للعذاب دون غيره ، والهون والهوان واحد ـ في قول ابي عبيدة ـ وقال السدي : معناه الهوان ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي جزاء على ما كسبوه من الشرك والكفر .

وقوله ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ اخبار من الله تعالى انه خلص من جملتهم من آمن بالله واتقى معاصيه خوفاً من عقابه نجاهم الله من ذلك العذاب . ثم قال تعالى ﴿ ويوم يحشر اعداء الله ﴾ يبعثون وهو يوم القيامة . فمن قرأ بالنون فعلى الاخبار من الله عن نفسه بذلك . ومن قرأ بالياء المضمومة فعلى انهم يبعثون ويجمعون إلى النار ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يمنعون من التفرق ويحبسون ويكفون ، يقال : وزعت الرجل إذا منعته ، ومنه قول الحسن لابد للناس من وزعة وقوله ﴿ اوزعني ﴾ أي الهمني . وقول الشاعر :

وإني بها باذا المعارج موزع

ويروى موزّع ﴿حتى إذا ماجاؤها﴾ معناه حتى إذا أتى هؤلاء الكفار النار ، واراد الله إلقاءهم فيها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ وقيل : في شهادة هذه الجوارح قولان :

احدهما ـ انها تبنى بنيةحي وتلجأ إلى الشهادة والاعتراف بما فعله اصحابها .

والآخر ـ ان يفعل فيها الشهادة ويضاف اليها مجازاً .

ووجه ثالث ـ قال قوم : إنه يظهر فيها امارات تدل على كون اصحابها مستحقين للنار ، فسمى ذلك شهادة مجازاً ، كما يقال : عيناك تشهد بسهرك أي فيها ما يدل على سهرك . وقيل : المراد بالجلود الفروج ، على طريق الكناية . وقيل : لا : بل الجلود المعروفة وهو الظاهر .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَاهُمْ مِنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف

هذا حكاية من الله عن الكفار في الآخرة بعد ما شهدت عليهم ابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون من المعاصي في دار الدنيا أنهم يقولون ﴿ لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ منكرين عليهم إقامة تلك الشهادة. وقيل: اشتقاق الجلد من التقوية من قولهم: فلان يتجلد على كذا، وهو جلد أي قوي، فتقول جلودهم في الجواب عن ذلك ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ فالانطاق جعل القادر على الكلام ينطق إما بالالجاء إلى النطق أو الدعاء اليه. فهؤلاء يلجئهم الله إلى ان ينطقوا بالشهادة. والنطق إدارة اللسان في الفم بالكلام، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه ناطق، وإن وصف بأنه متكلم. ومعنى ﴿ أنطق كل شيء ﴾ أي كل شيء لا يمتنع منه النطق كالاعراض والموات، والفائدة في الاخبار عنهم بذلك التحذير من مثل حالهم في ما ينزل بهم من الفضيحة بشهادة جوارحهم عليهم بما كانوا يعملون من الفواحش. فلم يكن عندهم في ذلك أكثر من هذا القول الذي لا ينفعهم وقال قوم: إن الجوارح تشهد عليهم حين يجحدون ما كان منهم.

وقوله ﴿ وهو خلقكم أول مرة ﴾ اخبار منه تعالى وخطاب لخلقه بأنه الذي خلقهم في الابتداء ﴿ واليه ترجعون ﴾ في الآخرة إلى حيث لا يملك احد النهي والامر سواه.

وقوله ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ﴾ قال مجاهد ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ أي تتقون. وقال السدي: معناه لم تكونوا في دار الدنيا تستخفون عن معاصي الله بتركها وقيل: إن الآية نزلت في ثلاثة

نفر تساروا ، فقال بعضهم لبعض : أترى الله يسمع إسرارنا ؟ وقال الفراء : معناه لم تكونوا تخافون ان تشهد عليكم جوارحكم فتستتروا منها ولم تكونوا تقدروا على الاستتار منها ، ويكون على وجه التعيير أي ولم تكونوا تستترون منها .

وقوله ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ وصف لهؤلاء الكفار بأنهم ظنوا انه تعالى يخفى عليه أسرارهم ولا يعلمها ، فبين الله بذلك جهلهم به تعالى ، وانهم وإن علموه من جهة انه قادر غير عاجز وعالم بما فعلوا فاذا ظنوا انه يخفى عليه شيء منها فهو جاهل على الحقيقة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي قراءة عبد الله ﴿ ولكن زعمتم ﴾ قال الفراء : الزعم والظن يكونان بمعنى واحد وقد يختلفان .

ثم حكى ما يخاطبهم به فانه يقال لهم ﴿ وذلكم ظنكم ﴾ معاشر الكفار ﴿ الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي اهلككم يقال : ردى فلان يردى إذا هلك قال الاعشى :

أفي الطوف خفت عليّ الردى وكم من رد أهله لم يرم (١)

وقوله ﴿ فاصبحتم من الخاسرين ﴾ معناه فظللتم من جملة من خسر فى تجارته لأنكم خسرتم الجنة وحصل لكم النار . ثم قال ﴿ فان يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ قال البلخي : معناه فان يتخيروا المعاصي فالنار مصير لهم ، وقال قوم : معناه وإن يصبروا فى الدنيا على المعاصي فالنار مثواهم ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ - بضم الياء - قرأ به عمرو ومعناه إن طلب منهم العتبى لم يعتبوا أي لم يرجعوا ولم ينزعوا . وقال قوم : المعنى فان يصبروا أو يجزعوا فالنار مثوى لهم ، ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ معناه فان يجزعوا فيستعتبوا ﴿ فماهم من المعتبين ﴾ لأنه ليس يستعتب إلا من قد جزع مما قد اصابه ، فطلب العتبى حينئذ ، كما قال ﴿ اصلوها فاصبروا او لا تصبروا

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٠٠ وقد مر في ٨ / ٤٩٩

سواء عليكم ﴾ (١) ومعنى الآية ﴿ فان يصبروا ﴾ على ما هم فيه فمقامهم في النار ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي وإن يطلبوا العتبى وهي الرضا ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ أي ليس بمرضي عنهم ، لان السخط من الله تعالى بكفرهم قد لزمهم وزال التكليف عنهم ، فليس لهم طريق إلى الاعتاب ، والمعتب الذي قبل عتابه وأجيب إلى ما سأل .

وقوله ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم ﴾ قال الحسن : معناه خلينا بينهم وبين الشياطين الذين اغووهم ودعوهم إلى ما استوجبوا العقاب به . ولم نمنعهم منهم ، جزاء على ما استحقوه من الخذلان ، فمعنى (قيضنا) خلينا ومكنا . قال الجبائي : (التقييض) إحواج بعض العباد إلى بعض كحاجة الرجل إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، وكحاجة الغني إلى الفقير يستعمله وحاجة الفقير إلى ان يستعمله الغني وغير ذلك من احواج بعضهم إلى بعض . وقال قوم : التقييض المماثلة ، والمقايضة المقايسة ، قال الشماخ :

تذكرت لما اثقل الدين كاهلي ... وغاب يزيد ما اردت تعذرا
رجالا مضوا عني فلست مقايضاً ... بهم أبداً من سائر الناس معشرا

فالمعنى على هذا إنا نضم إلى كل كافر قريناً له من الجن مثله في الكفر في نار جهنم كما قال ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ (٢) ومعنى ﴿ فزينوا لهم ﴾ يعني فعل اهل الفساد الذين في زمانهم ، وفعل من كان قبلهم ، وقيل ﴿ ما بين ايديهم ﴾ من أمر الدنيا ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمر الآخرة - في قول الحسن والسدي - وذلك بدعائهم إلى انه لا بعث ولا جزاء . وقال الفراء ﴿ فزينوا لهم ما بين ايديهم ﴾ من أمر الآخرة ، فقالوا : لا جنة ولا نار

(١) سورة ٥٢ الطور آية ١٦ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٦

ولا بعث ولا حساب ﴿ وماخلفهم ﴾ من امر الدنيا فزينوا لهم اللذات وجمع الأموال وترك انفاقها في سبيل الله . وقيل : زينوا لهم اعمالهم التي يعملونها ، وهي ﴿ ما بين ايديهم ﴾ وزينوا لهم ما عزموا عليه أن يعملوه وهو (ما خلفهم) .

وقوله ﴿ وحق عليهم القول ﴾ يعني وجب عليهم القول بتصييرهم إلى العذاب الذي كان اخبر انه يعذب به من عصاه ﴿ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس ﴾ أي حق على هؤلاء الكفار وعلى امم من الجن والانس انهم متى عصوا الله حق القول بأنهم يعاقبون . ثم قال تعالى ﴿ انهم كانوا خاسرين ﴾ خسروا الجنة وحصلت لهم النار .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقول بعضهم لبعض ﴿ لا تسمعوا لهـذا القرآن ﴾ الذي يقرؤه محمد ﷺ ولا تصغوا إليه ﴿ والغوا فيه ﴾ لكي تغلبوه ، ويجوز ان تغلبوه ، فاللغو هو الكلام الذي لا معنى له يستفاد ، وإلغاء الكلمـة إسقاط عملها ، ويقال : لغا يلغو لغواً ، ولغاً ، قال الراجز :

عن اللغا ورفث التكلم (١)

وإذا كانت جملة الكلام لغواً لا فائدة فيه لم يحسن وإذا كان تأكيداً لمعنى تقدم - وإن لم يكن له معنى فى نفسه مفرد - حسن لانه يجري مجرى المتمم للكلمة التي تدل معها على المعنى ، وإن لم يكن له معنى فى نفسه . وقال مجاهد : قالوا خلطوا عليهم القول بالمكاء والصفير ، وقال غيره : هو الضجيج والصياح ، وأقسم تعالى فقال ﴿ فلنذيقن الذين كفروا ﴾ بالله وجحدوا آياته ﴿ عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ قيل : معناه أسوأ الذي كانوا يعملون من المعاصي من جملة ما كانوا يعملون دون غيرها مما لا يستحق به العقاب . وقال قوم : خص بذلك الكبائر - زجراً وتغليظاً - بعينها . واقتصر في الصغير على الجملة فى الوعيد . ثم قال ﴿ ذلك ﴾ يعني ما تقدم الوعيد به ﴿ جزاء اعداء الله ﴾ الذين عادوه بالعصيان وكفروا به ، وعادوا أولياءه : من الانبياء والمؤمنين وهي ﴿ النار ﴾ والكون فيها . فـ (النار) رفع بأنه بدل من قوله ﴿ ذلك ﴾ جزاؤهم وهو دخولهم فيها ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي منزل دوام وتأبيد ﴿ جزاء ﴾ لهم وعقوبة على كفرهم به تعالى فى الدنيا وجحدهم لآياته . قال الفراء : هو كقولهم : لأهل الكوفة فيها دار صالحة ، والدار هي الكوفة ، وحسن ذلك لما اختلف لفظاها ، فكذلك قوله ﴿ ذلك جزاء اعداء الله النار ﴾ ثم قال ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ وهي النار بعينها .

(١) مر في ٢ / ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٠ و ٧ / ١٣٨ و ٨ / ١٦٣

وفي قراءة عبد الله ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد ﴾ ، فهذا بين لا شيء فيه لأن الدار هي النار ، فأعداء الله العصاة الذين يعاديهم الله - عز وجل - وليس هو من عداوة الانسان لغيره إلا أن يراد به أنه يعمل عمل المعادي ، كما قال ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ... ﴾ (١) .

ثم حكى ما يقول الكفار ايضاً ، فانهم يقولون ﴿ ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس ﴾ قيل : أراد به إبليس الأبالسة وهو رأس الشياطين ، وابن آدم الذي قتل أخاه ، وهو قابيل . روي ذلك عن علي عليه السلام ، لأن قابيل أسس الفساد في ولد آدم . وقيل : هم الدعاة إلى الضلال من الجن والانس .

وقوله ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ انهم لشدة عداوتهم وبغضهم لهم بما أضلوهم وأغووهم يتمنون ان يجعلوهما تحت اقدامهم ويطؤهم ﴿ ليكونا من الاسفلين ﴾ وقيل : المعنى فيكونا في الدرك الاسفل من النار .

وقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ اخبار منه تعالى أن الذين يقرون بلسانهم بتوحيد الله ويصدقون أنبياءه ويعترفون بالله ﴿ يقولون ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي استمروا على ما توجبه الربوبية . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : معناه ثم استقاموا على طاعة الله ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد والسدي : يعني عند الموت . وقال الحسن : تتنزل عليهم الملائكة تستقبلهم إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة . ويقولون لهم ﴿ لا تخافوا ﴾ عقاب الله « ولا تحزنوا » لفوات الثواب ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ بها في دار الدنيا جزاء على الطاعات . وموضع ﴿ أن لا تخافوا ﴾ النصب وتقديره تتنزل عليهم والملائكة بأن لا تخافوا ، فلما حذف الباء نصب ، وفي قراءة عبد الله ﴿ لا تخافوا ﴾ بلا (أن)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩

قبلها ، وتقديره يقولون لهم : لا تخافوا ، وقال مجاهد : معنى لاتخافوا على ماتقدمون عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزنوا على ما تخلفونه فى دار الدنيا . وقيل البشرى فى ثلاثة مواضع : عند الموت ، وفي القبر ، وفي البعث .

قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

لما حكى الله تعالى أن الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين على طاعة الله التاركين لمعصيته وتبشرهم بالجنة وتؤمنهم من عقاب الله . ذكر ايضاً انهم يقولون لهم مع ذلك ﴿ نحن أولياؤكم ﴾ وهو جمع ولي أي انصاركم واحباؤكم فى الحياة الدنيا وأولياؤكم أيضاً فى الآخرة ، ففي ذلك البشارة للمؤمنين بمودة الملائكة لهم وفي الآية بشارة لهم بنيل مشتهاهم فى الجنة . وتفيد الآية وجوب اعتقاد تودد الملائكة إلى من كان مستقيماً على طاعاته . وفيها حجة على شرف الاستقامة بالطاعة على كل ما عداه من أعمال العباد يتولى الملائكة لصاحبه من اجله .

وقوله ﴿ ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ﴾ يعني ما تشتهونه وتتمنونه من المنافع والملاذ حاصلة لكم ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي ما تستدعونه . وقيل : معناه ما تدعي انه لك فهو لك بحكم الله لك بذلك . وقوله ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ تقديره انزلكم ربكم في ما تشتهون من النعمة نزلا . فيكون نصباً على المصدر . ويجوز ان يكون نصباً على الحال ، وتقديره : لكم فيها ما تشتهي انفسكم منزلا كما تقول : جاء زيد مشياً تريد ماشياً . وقال الحسن ﴿ نزلا من غفور رحيم ﴾ ليس منّاً . وقيل : معناه إن هذا الموعود به مع جلالته فى نفسه له جلالة لمعطيه بعد ان غفر الذنب حتى صار بمنزلة مالم يكن رحمة منه لعباده فهو أهنأ لك واكمل للسرور به .

وقوله « ومن احسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » صورته صورة الاستفهام ، ونصب « قولا » على التفسير ، ومعناه النفي وتقديره وليس أحد أحسن قولا ممن دعا إلى طاعة الله واضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحات ، ويقول مع ذلك إنني من المسلمين الذين استسلموا لامر الله وانقادوا إلى طاعته . وقيل : المعني بالآية النبي صلى الله عليه وآله لأنه الداعي إلى الله . وروي أنها نزلت فى المؤذنين . وفى الآية دلالة على من يقول : أنا مسلم إن شاء الله من أصحاب عبد الله بن مسعود ، لأنه لا أحد احسن قولا منه ، فيجب عليه أن يقول : إني مسلم ويقطع في الحكم إذا لم يكن فاسقاً .

ثم قال « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة » أي لا يتماثلان ، ودخلت (لا) في « ولا السيئة » تأكيداً . وقيل : دخلت لتحقيق انه لا يساوي ذا ذاك ، ولا ذاك ذا ، فهو تبعيد المساواة .

وقوله « أدفع بالتي هي احسن » أمر للنبي صلى الله عليه وآله ان يدفع بالتي هي احسن

وقيل : معنى الحسنة ـ ههنا ـ المداراة . والسيئة المراد بها الغلظة . فأدب الله تعالى عباده بهذا الأدب . ثم قال « فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » معناه دار القوم ولا تغلظ عليهم حتى كأن عدوك الذي يعاديك في الدين بصورة وليك من حسن عشرتك له وبشرك له . ويدعو ذلك ايضاً عدوك إلى أن يصير الك كالولي الحميم . وقيل : المراد ان من اساء اليـك فأحسن اليه ليعود عدوك وليك . وكأنه حميمك . والحميم القريب الذي يحم لغضب صاحبه .

وقوله « وما يلقاها إلا الذين صبروا » معناه ما يعطى هذه الخصلة في رفع السيئة بالحسنة إلا ذو نصيب في الخير عظيم . وقيل : معناه وما يلقاها يعني البشرى بالجنة والامان من العذاب إلا الذين صبروا على طاعة الله والجهاد في دينه « وما يلقاها » ايضاً « إلا ذو حظ عظيم » من الثواب والخير وقد لقي الله تعالى جميع الخلق مثل ما لقي من صبر ، غير ان فيهم من لم يتلقه كما يتلقاه من صبروا وقبلوا ما امرهم الله به .

قولـــه تعـــالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ

ٱلَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قوله « واما ينزغنك » اصله (إن) التي للشرط وزيد عليها (ما) تأكيداً فاشبه ذلك القسم ، فلذلك دخلت نون التأكيد في قوله « ينزغنك » كما تقول : والله ليخرجن . والنزغ النخس بما يدعوا إلى الفساد ومنه قوله « من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » (١) فنزغ الشيطان وسوسته ودعاؤه إلى معصية الله بايقاع العداوة بين من يجب موالاته ، يقال نزغ ينزغ نزغاً فهو نازغ بين رجلين . وفلان ينزغ فلاناً كأنه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب . والمعنى وإن ما يدعوك إلى المعاصي نزغ من الشيطان بالاغواء والوسوسة « فاستعذ بالله » ومعناه اطلب الاعتصام من شره من جهة الله واحذر منه وامتنع من جهته بقوة الله ، فنحن نستعيذ بالله من شر كل شيطان وشر كل ذي شر من انس وجان .

وقوله « إنه هو السميع العليم » يعني انه سميع لأقوالكم من الاستعاذة وغيرها عليم بضمائركم قادر على إجابة دعائكم وقوله « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » معناه ومن أدلته وحججه الباهرة الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه الليل بذهاب الشمس عن بسيط الأرض والنهار بطلوعها على وجهها بالمقادير التي أجريا عليه ورتبا فيه بما يقتضي تدبير عالم بهما قادر على تصريفهما ،

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

لأن ذلك لا يقدر عليه غير الله . والشمس والقمر وجه الدلالة فيهما أن الأجرام الثقيلة لا تقف بغير عمد ولا تتصرف على غير قرار ولا عماد إلا أن يصرفهما قادر ليس كالقادرين من الاجسام التي تحتاج في نقلها وتمسكها إلى غيرها ، وكل جسم ثقيل يصرف من غير عماد فمصرفه هو الله تعالى . والأفعال الدالة على الله تعالى على وجهين :

احدهما ـ ما لا يقدر عليه إلا هو كخلق الحياة والقدرة والأجسام وغير ذلك والآخر ـ أنه إذا وقع على وجه مخصوص لا يتأتى من القادر بقدرة وإن كان جنسه مقدوراً للعباد كتسكين الأرض من غير عمد وتصرف الشمس والقمر بكونهامرة صاعدة ومرة هابطةومرة طالعةومرةغاربةمع ثقل أجرامهماو بعدهمامن عماد لهاأعظم دلالة على انلهما مصرفاًومدبراً لا يشبههما ولا يشبهه شيء. قال تعالى «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر » كما يفعل قوم من المجوس بل « اسجدوا لله الذي خلقهن » وانشاهن . وإنما قال « خلقهن » لانه أجري مجرى جمع التكسير ، ولم يغلب المذكر على المؤنث ، لانه في ما لا يعقل . وقال الزجاج : تقديره الذي خلق هذه الآيات « إن كنتم إياه تعبدون » أي ان كنتم تقصدون بعبادتكم الله فوجهوا العبادة اليه دون الشمس والقمر . ثم قال « فان استكبروا » يعني هؤلاء الكفار أي تكبروا عن توجيه العبادة إلى الله وابوا إلا عبادة الاصنام « فالذين عند ربك » يعني من الملائكة « يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » أي لا يفترون من عبادته ولا يملونه . والسجود عند اصحابنا عند قوله « إن كنتم إياه تعبدون » وهو مذهب أبي عمرو بن العلا . وعند الباقين عند قوله « وهم لا يسأمون » .

ثم قال تعالى « ومن آياته » أي من ادلته الدالة على توحيده وإخلاص العبادة له « إنك ترى الارض خاشعة » يعني دارسة مهشمة ـ في قول قتادة

والسدي ـ والخاشع الخاضع فكان حالها حال الخاضع المتواضع « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت » أي تحركت بالنبات « وربت» قال السدي : معناه انفتحت وارتفعت قبل ان تنبت . وقرىء « ربأت » بمعنى عظمت ، ومعنى ربأت ارتفعت ـ ذكره الزجاج ـ ثم قال « إن الذي أحياها » يعني من أحيا الأرض بما انزله من الماء حتى تنبت « لمحيي الموتى » مثل ذلك بعد ان كانوا أمواتاً ويرد فيها الأرواح ،لانه قادر على ذلك . ومن قدر على ذلك قدر على هذا ، لانه ليس احدهما بأعجب من الآخر « انه على كل شيء قدير» يصح أن يكون مقدوراً له،وهو قادر لا تتناهى مقدوراته.

ثم قال « إن الذين يلحدون في آياتنا » معناه الذين يميلون عن الحق في أدلتنا يقال : الحد يلحد إلحاداً . وقيل : لحد يلحد أيضاً . وقال مجاهد : معناه ما يفعلونه من المكاء والصفير . وقال ابو روق : يعني الذين يقعون فيه « لا يخفون علينا » بل نعلمهم على التفصيل ، لا يخفى علينا شيء من احوالهم .

ثم قال على وجه الانكار عليهم والتهجين لفعلهم والتهديد لهم « أفمن يلقى في النار » جزاء على كفره ومعاصيه « خير أم من يأتي آمناً » من عذاب الله جزاء على معرفته بالله وعمله بالطاعات . ثم قال « اعملوا ما شئتم » ومعناه التهديد وإن كان بصورة الأمر ، لأنه تعالى لم يخيرنا ، ويحبينا أن نفعل ما شئنا ، بل نهانا عن القبائح كلها . ثم قال « إنه بما تعملون بصير » أي عالم بأفعالكم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها.

قوله تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ

عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» (٤٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ « أعجمي وعربي » على الخبر حفص والحلواني عن هشام وابن مجاهد عن قنبل في غير رواية ابن الحمامي عن بكار . الباقون بهمزتين . وحققهما اهل الكوفة إلا حفصاً وروح . والباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية . وفصل بينهما بألف اهل المدينة إلا ورشاً وابو عمرو . ومن قرأ بلفظ الاستفهام اراد الانكار ، فادخل حرف الاستفهام على الف « أعجمي » وهي الف قطع . ومن حققهما ، فلأنها الأصل . ومن خففهما او فصل بينهما فلكراهة اجتماع الهمزتين . ومن قرأ على الخبر ، فالمعنى هلا كان النبي عربياً والقرآن اعجمياً . والنبي اعجمياً والقرآن عربياً ، فكان يكون ابهر في باب الاعجاز .

يقول الله تعالى مخبراً « إن الذين كفروا بالذكر » الذي هو القرآن وجحدوه وسمي القرآن ذكراً ، لأنه تذكر به وجوه الدلائل المؤدية إلى الحق ، والمعاني التي

يعمل عليها فيه . واصل الذكر ضد السهو وهو حضور المعنى للنفس «لما جاءهم» أي حين جاءهم ، وخبر (ان) محذوف ، وتقديره : إن الذين كفروا بالذكر هلكوا به وشقوا به ونحوه . وقيل تقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به ، فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل خبره «أولئك ينادون من مكان بعيد» وقيل قوله «وانه لكتاب عزيز» في موضع الخبر ، وتقديره الكتاب الذي جاءهم عزيز ، وقوله «وإنه» الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى وإن القرآن لكتاب عزيز بأنه لا يقدر احد من العباد على ان يأتي بمثله ، ولا يقاومه في حججه على كل مخالف فيه . وقيل : معناه إنه عزيز باعزاز الله ـ عز وجل ـ اياه اذ حفظه من التغيير والتبديل . وقيل : هو عزيز حيث جعله على أتم صفة الاحكام . وقيل : معناه انه منيع من الباطل بما فيه من حسن البيان ووضوح البرهان ، ولأن احكامه حق يقضي بصحتها العقل .

وقوله «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» قيل في معناه اقوال خمسة:

احدها ـ انه لا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة وهو الحق المخلص والذي لا يليق به الدنس .

والثاني ـ قال قتادة والسدي : معناه لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً ولا يزيد فيه باطلا .

الثالث ـ أن معناه لا يأتي بشيء يوجب بطلانه مما وجد قبله ولا معه ولا مما يوجد بعده . وقال الضحاك : لا يأتيه كتاب من بين يديه يبطله ولا من خلفه أي ولا حديث من بعده يكذبه .

الرابع ـ قال ابن عباس: معناه لا يأتيه الباطل من أول تنزيله ولا من آخره .

والخامس ـ ان معناه لا يأتيه الباطل في اخباره عما تقدم ولا من خلفه

ولا عما تأخر .

ثم وصف تعالى القرآن بأنه « تنزيل من حكيم حميد » فالحكيم هو الذي افعاله كلها حكمة فيكون من صفات الفعل ، ويكون بمعنى العالم بجميع الاشياء واحكامها فيكون من صفات الذات . و (الحميد) هو المحمود الذي يستحق الحمد والشكر على جميع افعاله لان افعاله كلها نعمة يجب بها الشكر .

وقوله « ما يقال اك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » قيل في معناه اقوال :

احدها - من الدعاء الى الحق في عبادة الله تعالى ولزوم طاعته .

والثاني - ما حكاه تعالى بعده من « ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » فيكون على جهة الوعد والوعيد .

والثالث - قال قتادة والسدي : وهو تعزية للنبي صلى الله عليه وآله بأن ما يقول لك المشركون مثل ما قال من قبلهم من الكفار لأنبيائهم من التكذيب والجحد لنبوتهم .

وقوله « إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم » أي وقد يفعل العقاب بالعصاة من الكفار قطعاً ومن الفساق على تجويز عقابهم ، فلا ينبغي ان يغتروا ويجب عليهم أن يتحرزوا بترك المعاصي وفعل الطاعات .

ثم قال تعالى « ولو جعلناه » يعني الذكر الذي قدم ذكره « قرآناً أعجمياً » أي مجموعاً بلغة العجم ، يقال : رجل أعجمي إذا كان لا يفصح وإن كان عربي النسب ، وعجمي إذا كان من ولد العجم وإن كان فصيحاً بالعربية . قال ابو علي : يجوز ان يقال : رجل أعجمي يراد به اعجم بغير ياء كما يقال : أحمري واحمر ، ودواري ودوار « قالوا لولا فصلت آياته » ومعناه هلا فصلت آياته وميزت . وقالوا « اعجمي وعربي » أي ، قالوا القرآن أعجمي ومحمد عربي - ذكره سعيد بن جبير - وقال السدي : قالوا اعجمي وقوم عرب . ومن قرأ على الخبر حمله على أنهم يقولون ذلك

مخبرين . ومن قرأ على الاستفهام أراد انهم يقولون ذلك على وجه الانكار ، وإنما قوبل الأعجمي في الآية بالعربي ، وخلاف العربي العجمي لان الأعجمي في انه لا يبين مثل العجمي عندهم من حيث اجتمعا في انهما لا يبينان ، قوبل به العربي في قوله « أعجمي وعربي » وحكى ان الحسن قرأ « اعجمي » بفتح العين قابل بينه و بين قوله « وعربي » فقال الله تعالى لنبيه « قل » لهم يا محمد « هو » يعني القرآن « الذين آمنوا » بالله وصدقوا بتوحيده وأقروا بنبوة نبيه « هدى » يهتدون به « وشفاء » من سقم الجهل « والذين لا يؤمنون » بالله ولا يصدقون بتوحيده « في آذانهم وقر » يعني ثقل إذ هم بمنزلة ذلك من حيث لم ينتفعوا بالقرآن فكانهم صم او في آذانهم ثقل « وهو عليهم عمى » حيث ضلوا عنه وجاروا عن تدبيره فكانه عمى لهم . وقوله « اولئك ينادون من مكان بعيد » على وجه المثل ، فكأنهم الذين ينادون من مكان بعيد ويسمعوا الصوت ولا يفهموا المعنى من حيث لم ينتفعوا به . وقال مجاهد : ابعده عن قلوبهم . وقال الضحاك : ينادون الرجل في الآخرة كبأشنع اسمائه . وقيل : معناه أولئك لا يفهمون ذلك كما يقال لمن لا يفهم شيئاً : كأنك تنادى من مكان بعيد .

ثم اقسم تعالى بأنه آتى « موسى الكتاب » يعني التوراة « فاختلف فيه » لأنه آمن به قوم وجحدوه آخرون ، تسلية للنبي ﷺ عن جحود قومه وإنكارهم نبوته . ثم قال « ولو لا كلمة سبقت من ربك » في انه لا يعاجلهم بالعقوبة وانه يؤخرهم إلى يوم القيامة « لقضي بينهم » أي لفصل بينهم بما يجب من الحكم . ثم اخبر عنهم فقال « وإنهم لفي شك منه » يعني مما ذكرناه « مريب » يعني اقبح الشك لأن الريب افظع الشك . وفي ذلك دلالة على جواز الخطأ على اصحاب المعارف لأنه تعالى بين انهم في شك وانهم يؤآخذون مع ذلك .

قولــه تعــالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص « ثمرات » على الجمع . الباقون « ثمرة » على التوحيد من قرأ على الجمع فلاختلاف أجناس الثمار ، ولانه فى المصاحف مكتوباً بتاء ممدودة . ومن وحده قال : الثمرة تفيد الجمع والتوحيد فلا يحتاج إلى الجمع ، لأنه فى مصحف عبد الله مكتوب بالهاء ، و « الاكمام » جمع (كم) في قول الفراء ، و (كمـة) فى قول ابي عبيدة . وهي الكفرى . قال ابن خالويه : يجوز أن يكون (الاكمام) جمع (كم) و (كم) جمع كمة ، فيكون جمع الجمع .

يقول الله تعالى « من عمل صالحاً » أي فعل افعـلا هي طاعة « فلنفسه » لان ثوابه واصل اليه ، وهو المنتفع به دون غيره. « ومن أساء » يعني فعالا فعلا قبيحاً ، من الاساءة إلى غيره او غيرها « فعليها » أي فعلى نفسه لأن وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره .

ثم قال تعالى على وجه النفي عن نفسه مالا يليق به من فعل القبيح والتمدح به « وما ربك » أي وليس ربك « بظلام للعبيد » وإنما قال (بظلام) على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه مع انه لا يفعل مثقال ذرة لأمرين :

احدهما ـ انه لو فعل فاعل الظلم ، وهو غير محتاج اليه مع علمه بقبحه وبأنه غني لكان ظلاماً ، وما هو تعالى بهذه الصفة لأنه غني عالم .

الثاني ـ إنه على طريق الجواب لمن زعم انه يفعل ظلم العباد . فقال : ماهو بهذه الصفة التي يتوهمها الجهال ، فيأخذ احداً بذنب غيره . والظلام هو الفاعل لما هو من افحش الظلم . والظالم من فعل الظلم ، وظالم صفة ذم ، وكذلك قولنا فاعل الظلم هما سواء ، وكذلك آثم فاعل الاثم ، وسيء فاعل الاساءة .

وقوله « اليه يرد علم الساعة » معناه اليه يرد علم الساعة التي يقع فيها الجزاء المطيع والعاصي فاحذروها قبل ان تأتي ، كما يرد اليه علم إخراج الثمار وما يكون من الاولاد والنتاج ، فذاك غائب عنكم وهذا مشاهد لكم ، وقد دل عليه ولزم ، وكل من سئل متى قيام الساعة ؟ وجب أن يقول : الله تعالى العالم به حتى يكون قد ردّه إلى الله « وما يخرج من ثمرة من اكمامها » معناه وعنده علم ذلك . وآكام الثمرة وعاؤها الذي تكون فيه . وقيل : الآكام جمع كمة ، وهو الطرف المحيط بالشيء . وقال الحسن : الآكام ـ ههنا ـ ليف النخيل . وقيل : من أكمامها معناه خروج الطلع من قشره « وما تحمل من أنثى وما تضع إلا بعلمه » أي وعنده

تعالى علم ما تحمله كل انثى من حمل ذكراً كان او انثى ولا تضع الانثى إلا بعلمه أي إلا في الوقت الذي علمه انه تضع فيه .

وقوله ﴿ ويوم يناديهم اين شركائي ﴾ أي ويوم يناديهم مناد اين شركاء الله الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿ قالوا آذناك ما منا من شهيد ﴾ معناه إنهم يقولون اعلمناك ما منا من شهيد لمكانهم . ثم بين ذلك فقال ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴾ قال السدي : معناه ايقنوا وقال ابن عباس آذناك معناه أعلمناك . وقيل المنادي هو الله تعالى ، وقال السدي : ما منا من شهيد ان لك شريكاً . وقيل : معناه آذناك اقررنا لك ما منا من شهيد بشريك له معك . وقيل قوله آذناك من قول المعبودين ما منا من شهيد لهم بما قالوا : وقيل هذا : من قول العابدين ما منا من شهيد بأنهم آلهة . وقال آخرون : يجوز ان يكون العابدون والمعبودون يقولون ذلك .

وقوله ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي ايقنوا ليس لهم من مخلص . ودخل الظن على (ما) التي للنفي كما تدخل (علمته) على لام الابتداء ، وكلاهما له صدر الكلام .

وقوله ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير ﴾ أي لا يمل الانسان من طلب المال وصحة الجسم ـ وهو قول ابن زيد ـ وقال بعضهم : معناه لا يمل الانسان من الخير الذي يصيبه ﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي إن ناله بذهاب مال او سقم في جسمه ﴿ فيؤس قنوط ﴾ أي يقنط من رحمة الله وييأس من روحه ، ففي ذلك إخبار عن سرعة تغير الانسان وتنقله من حال الى حال . ثم قال تعالى ﴿ ولئن اذقناه رحمة منا ﴾ يعني لئن أذقنا الانسان نعمة وأنلناه إياها ﴿ من بعد ضراء مسته ﴾ أي من بعد شدة لحقته ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ قال مجاهد : يقول أنا حقيق بهذا الفعل ﴿ وما

اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عند للحسنى ﴾ أي لو قامت لكان لي الحسنى يعني الجنة . فقال الله تعالى على وجه التهديد لمن هذه صفته ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ أي فلنجزين الكفار بعد ان نعلمهم ما عملوه من كفرهم ومعاصيهم ثم نجازيهم عليها بأن نذيقهم من عذاب غليظ قدر ما يستحقونه .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٥٤) أربع آيات بلاخلاف .

اخبر الله تعالى عن جهل الانسان الذي تقدم وصفه بمواضع نعم الله وما يجب عليه من الاعتراف بشكره ، بتركه النظر المؤدي إلى معرفته ، فقال ﴿ وإذا انعمنا على الانسان ﴾ بنعمة من اعطاء مال او ولد او صحة جسم ﴿ اعرض ﴾ عن القيام بشكر الله على ذلك حسب ما يلزمه ﴿ ونآء بجانبه ﴾ أي بعد بجانبه كبراً وتجبراً عن الاعتراف بنعم الله . وقيل : معناه وبعد عن الواجب ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ يعني إذا ناله مرض او مصيبة في مال او نفس ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ قال السدي يدعو

الله كثيراً عند ذلك . وإنما قال ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ ولم يقل : طويل ، لأنه ابلغ ، لان العرض يدل على الطول ، ولا يدل الطول على العرض إذ قد يصح طويل ولا عرض له . ولا يصح عريض ولا طول له ، لان العرض الانبساط في خلاف جهة الطول ، والطول الامتداد في أي جهة كان .

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة : انه ليس لله على الكافر نعمة ، لأنه اخبر تعالى بأنه ينعم عليه وانه يعرض عن موجبها من الشكر وفي دعائه عند الشدة حجة عليه ، لانه يجب من اجل قلة صبره على الشدة ان يشكر برفعها عنه إلى النعمة ،

فقال الله تعالى لهم على وجه الانكار عليهم ﴿ قل ارأيتم إن كان ﴾ هذه النعمة ﴿ من عند الله وكفرتم به ﴾ أي وجحدتموه ﴿ من اضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ أي في مشاقة الله بخلافه له بعيد عن طاعته . والشقاق الميل إلى شق العداوة لالاجل الحق كأنه قال لا احد اضل ممن هو في شقاق بكفره ، وبه يذم من كان عليه ، كما قال علي عليه السلام (يا اهل العراق يا اهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق) وقيل : الشقاق فراق الحق إلى العداوة وأهله .

وقوله ﴿ سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم ﴾ معناه إن الدلائل في آفاق السماء بسير النجوم وجريان الشمس والقمر فيها بأتم التدبير ، وفي أنفسهم جعل كل شيء لما يصلح له من آلات الغذاء ومخارج الأنفاس ، ومجاري الدم ، وموضع العقل والفكر ، وسبب الافهام ، وآلات الكلام . وقال السدي : آياتنا في الآفاق بصدق ما يخبر به النبي صلى الله عليه وآله من الحوادث عنها . وفي ما يحدث من انفسهم ، وإذا رأوا ذلك تبينوا وعلموا أن خبره حق ، وانه من قبل الله تعالى .

وقوله ﴿ او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ﴾ أي هو عالم لجميع ذلك والباء زائدة ، والتقدير او لم يكف ربك انه عالم بجميع الاشياء . والمعنى اليس في

الله كفاية في معاقبة هؤلاء الكفار على كفرهم إذ كان عالماً بكل شيء مشاهداً لجميع ما يفعلونه قادراً على مجازاتهم عليه ، وكما انه شهيد على ذلك هو شهيد على جميع الحوادث ومشاهد لجميعها وعالم بها لا يخفى عليه شيء من موضعها .

وقوله ﴿ إنه ﴾ يحتمل ان يكون موضعه رفعاً بـ (يكف) ويحتمل ان يكون جراً بالباء . وتقديره بأنه على كل شيء شهيد .

ثم قال ﴿ ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي هم في شك من لقاء ثواب ربهم وعقابه ، لأنهم في شك من البعث والنشور ﴿ ألا انه بكل شيء محيط ﴾ أي هو عالم بكل شيء قادر عليه .

٤٢ ـ سورة الشورى

مكية في قول قتادة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثلاث وخمسون آية في الكوفى، وخمسون فى البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

خمس آيات فى الكوفى وثلاث فى ما عداه عدّ الكوفيون ﴿ حم ﴾ وعدّوا ﴿ عسق ﴾ ولم يعده الباقون .

قال ابو عبد الله بن خالويه سألت ابن مجاهد، فقلت : إن القاف أبعد من الميم، فلم اظهر حمزة النون عند الميم فى (طسٓم) ولم يظهرها عند القاف فى (عسق) فقال والله ما فكرت فى هذا قط ، قال ابو عبد الله الحجة فى ذلك ان (طسم) اول سورة النمل ثم جاءت سورتان فيهما الميم ، فبين ليعلم ان الميم زائدة على هجاء

السين واتفق اهل الكوفة على ان لم يفردوا السين بين حرفين فى الكلام هذا على الأصل . واما الحجة من جهة التخفي ، فان النون تدغم فى الميم وتخفى عند القـاف والخفي بمنزلة المظهر ، فلما كره التشديد في (طسم) اظهروا لما كان المخفي بمنزلة الظاهر ولم يحتج إلى اظهار القاف ، قال الفراء : ذكر عن ابن عباس انه قال (حمسق) بلا عين . وقال السين كل فرقة تكون ، والقاف كل جماعـة كانت ، قال الفراء وكانت فى بعض مصاحف عبد الله مثل ذلك . وقرأ ابن كثير وحده ﴿ يوحى اليك ﴾ بفتح الحـاء على مالم يسم فاعله ، فعلى هذا يكون اسم الله مرتفعاً بمحذوف يدل عليه المذكور قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح (١)

أي يبكيه ضارع ، فيكون التقدير يوحى اليك يوحي الله . قال ابو علي : ذكر أن مثل هذه السورة أوحى إلى من تقدم من الأنبياء ، فعلى هذا يكون التقدير يوحي اليك هذه السورة كما اوحى إلى الذين ، وقال الزجاج ، والفراء : يقال إن ﴿ حمسق ﴾ او حيت إلى كل نبي كما اوحيت إلى محمد ﷺ قال ابن عباس : وبها كان علي عليه السلام يعلم الفتن ، وقرأ الباقون يوحي ـ بكسر الحاء ـ فيكون على هذا إسم الله مرتفعاً بأنه فاعل (يوحي) وقد قرىء شاذاً ﴿ نوحي ﴾ بالنون مع كسر الحاء فعلى هذا يحتمل رفع اسم الله لوجهين :

احدهما ـ ان يكون رفعاً بالابتداء .

والثاني ـ ان يكون مرتفعاً بفعل مقدر يدل عليه ﴿ يوحى ﴾ الأول ، كما قلناه فى من فتح الحاء ، ويجوز أن يكون بدلا من الضمير . ويجوز أن يجعل اسم الله خبر ابتـداء محذوف ، وتقديره هو الله العزيز الحكيم ، وقرا ابو عمرو وعاصم فى

(١) مر هذا البيت في ٤/ ٣١٠ و ٦ / ٣٢٩ و ٧/ ٤٤٠

رواية أبي بكر ﴿ يكاد ﴾ بالياء ﴿ ينفطرن ﴾ بالياء والنون ، لأن تأنيث السموات غير حقيقي ، وقد تقدم الفعل ولذلك أتت (يتفطرن) لما تأخر الفعل عن السموات وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة فى رواية حفص (تكاد) بالتاء لتأنيث السموات (وينفطرن) بالياء والنون لما قدمناه . وقرأ نافع والكسائي ﴿ يكاد ﴾ بالياء لما قلناه من ان التأنيث غير حقيقي ﴿ يتفطرن ﴾ بياء، وتاء و ا يتفطرن ﴾ فى معنى تنفطر وهو مضارع فطرته فتفطر وفطرته بالتخفيف فانفطر ، ومعنى يتفطرن يتشققن .

قيل إنما عدوا ﴿ حم ﴾ و ﴿ عسق ﴾ آية ولم يعد ﴿ طس ﴾ لأن ﴿ طس ﴾ لما انفرد عن نظيره من ﴿ طسم ﴾ فاشبه الاسم حمل عليه ، ولما لم ينفرد ﴿ حم ﴾ عن نظيره جرى عليه حكم الجملة التامة التي تعد آية من اجل انها آية . فلما اجتمع فى (طس) الانفراد عن النظير وأشبه (قابيل) وكل واحد من هذين الوجهين يقتضي مخالفة حكم ﴿طسم﴾ وجب الخلاف . وأما إنفراد(حاميم) بالزنة فقط ، لم يجب الخلاف كما وجب فى ما اجتمع فيه سببان . وفى (حم) من الفائدة تعظيم الله - عز وجل - السورة وتسميتها وتشريفاً لها وتنويهاً باسمها وإجراؤها في التفصيل مجرى ما يعقل في فضله على ما لا يعقل من الاجسام والاعراض . وقيل ان ﴿ حم عسق ﴾ انفردت بأن معاينها اوحيت إلى سائر الأنبياء ، فلذلك خصت بهذه التسمية . وقيل إنما فصل ﴿ حم عسق ﴾ من سائر الحواميم بـ (عسق) لان جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه السورة فانه دل عليه دلالة التضمين بذكر الوحي الذي يرجع إلى الكتاب ، والوحي أعم من الكتاب في معناه إلا انه دال في هذا الموضع على الكتاب بهذه الصفة .

وقوله ﴿ كذلك يوحي اليك وإلى الذين من قبلك ﴾ قيل في المشبه به في قوله ﴿ كذلك ﴾ وجهان :

احدها ـ كالوحي الذي تقدم يوحي اليك.

والثاني ـ هذا الوحي الذي يأتي في هذه السورة يوحى اليك، لان ما لم يكن حاضراً يراه صلح فيه (هذا) لقرب وقته و(ذلك) لبعده في نفسه. ومعنى التشبيه في ﴿ كذلك ﴾ أن بعضه كبعض في انه حكمة وصواب بما تضمنه من الحجج والمواعظ والفوائد التي يعمل عليها في الدين ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ معناه مثل ذلك اوحى إلى الذين من قبلك من الأنبياء وتعبدهم بشريعة كما تعبدك بمثل ذلك.

وقوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ معناه القادر الذي لا يغالب الحكيم في جميع أفعاله. ومن كان بهاتين الصفتين خلصت له الحكمة في كل ما يأتي به، لانه العزيز الذي لا يغالب والغني الذي لا يحتاج إلى شيء، ولا يجوز أن يمنعه مانع مما يريده، وهو الحكيم العليم بالأمور لا يخفى عليه شيء منها لا يجوز أن يأتي إلا بالحكمة. فاما الحكيم غيره يحتاج فلا يوثق بكل ما يأتي به إلا أن يدل على ذلك الحكمة دليل.

قوله ﴿ له ما في السموات والارض ﴾ معناه أنه مالكهما ومدبرهما وله التصرف فيهما ولا احد له منعه من ذلك ويكون ﴿ العلي ﴾ مع ذلك بمعنى المستعلي على كل قادر العظيم في صفاته التي لا يشاركه فيها احد.

وقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ قيل في معناه قولان:

احدها ـ قال ابن عباس وقتادة والضحاك: يتفطرن من فوقهن من عظمة الله وجلاله.

والثاني ـ ان السموات تكاد تتفطرن من فوقهن استعظاماً للكفر بالله والعصيان له مع حقوقه الواجبة على خلقه، وذلك على وجه التمثيل ليس لأن السموات تفعل شيئاً او تنكر شيئاً، وإنما المراد ان السموات لو انشقت لمعصيته استعظاماً لها أو لشيء من الاشياء لتفطرت استعظاماً الكفر من كفر بالله وعبد

معه غيره .

وقوله « الملائكة يسبحون بحمد ربهم » معناه ينزهونه عما لا يجوز عليه من صفات ، وما لا يليق به من افعال « ويستغفرون لمن في الارض » من المؤمنين. وفي ذلك صرف الاهلاك لهم ولغيرهم من اهل الأرض بصرفه عنهم.

ثم قال « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » لعباده عصيانهم تارة بالتوبة وتارة ابتداء منه كل ذلك تفضلا منه ورأفة بهم ورحمة لهم.

قوله تعالى :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

هذا اخبار من الله تعالى « أن الذين اتخذوا من دونه اولياء » يعني الكفار الذين اتخذوا الأصنام آلهة ووجهوا عبادتهم اليها . وجعلوهم أولياء لهم وانصاراً

من دونه . وإنما قال ﴿ من دونه ﴾ لان من اتخذ ولياً بأمر الله لم يتخذه من دون الله .

وقوله ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي حافـظ عليهم أعمالهم وحفيظ عليها بأنه لا يعزب عنه شيء منها ، وانه قد كتبها في اللوح المحفوظ مظاهرة في الحجة عليهم وما هو اقرب إلى افهامهم إذا تصوروها مكتوبة لهم وعليهم .

وقوله ﴿ وما انت عليهم بوكيل ﴾ معناه إنك لم توكل بحفظ اعمالهم ، فلا يظن ظان هذا ، فانه ظن فاسد وإنما بعثك الله نذيراً لهم وداعياً إلى الحق ومبيناً لهم سبيل الرشاد . وقيل : معناه إنك لم توكل عليهم أي تمنعهم من الكفر بالله ، لانه قد يكفر من لا يتهيأ له منعه من كفره بقتله .

وقوله ﴿ وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً ﴾ معناه مثل ما اوحينا إلى من تقدمك من الانبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم أوحينا اليـك ايضاً قرآناً عربياً لتنذر أم القرى أي لتخوفهم بما فيه من الوعيد وتبشرهم بما فيه من الوعد . قال السدي : أم القرى مكة والتقدير لتنذر اهل أم القرى ﴿ ومن حولها ﴾ من سائر الناس . وسميت أم القرى ، لأنه روي أن الله تعالى دحا الأرض من تحت الكعبة قال المبرد : كانت العرب تسمي مكة أم القرى ﴿ ومن حولها ﴾ ومن يطيف بها ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ معناه وتخوفهم يوم الجمع أيضاً ، ونصب (يوم) لانه مفعول ثان وليس بظرف ، لانه ليس ينذر في يوم الجمع ، وإنما يخوفهم عذاب الله يوم الجمع . وقيل هو يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه وفي كونه .

ثم قسم اهل يوم القيامة فقال ﴿ فريق ﴾ منهم ﴿ في الجنة ﴾ بطاعتهم ﴿ وفريق ﴾ منهم ﴿ في السعير ﴾ جزاء على معاصيهم . ثم قال ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ معناه الاخبار عن قدرته بأنه لو شاء ان يلجئهم إلى الايمان ودين الاسلام ، لكان

قادراً على ذلك وفعله ، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف وهو ان يفعلوا العبادة على وجه يستحقون بها الثواب ، ومع الالجاء لايمكن ذلك ، فلذلك لم يشأ ذلك . فالآية تفيد قدرته على الالجاء وتأتيّ ذلك . ثم قال ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي يدخلهم فى الجنة وثوابها من يشاء منهم إذا اطاعوا واجتنبوا معاصيه وبين أن ﴿ الظالمين ﴾ نفوسهم بارتكاب معصية الله ﴿ ما لهم من ولي ﴾ يواليهم ﴿ ولا نصير ﴾ يمنعهم من عذاب الله إذا اراد فعله بهم جزاء على معاصيهم ، ثم قال ﴿ أم اتّخذوا من دونه اولياء ﴾ معناه بل هؤلاء الكفار اتّخذوا من دون الله أولياء من الاصنام والاوثان يوالونهم وينصرونهم . ثم قال ﴿ فالله هو الولي ﴾ معناه المستحق فى الحقيقة للولاية والتقرب اليه هو الله تعالى دون غيره ﴿ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ يصح ان يكون مقدوراً له قادر . ومن كان بهذه الصفة فهو الذي يجب ان يتخذ ولياً .

وقوله ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ معناه ان الذي تختلفون فيه من أمر دينكم ودنياكم وتتنازعون فيه ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ يعني أنه الذي يفصل بين المحق فيه وبين المبطل ، لانه العالم بحقيقة ذلك ، فيحكم على المحق باستحقاق الثواب وعلى المبطل باستحقاق العقاب .

وقيل : معناه فحكمه إلى الله ، لانه يجب ان يرجع إلى أمره فى الدنيا وفصل القضاء فى الآخرة . ثم قال لنبيه قل لهم ﴿ ذلك ﴾ الذي وصفته من أنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿ هو الله ربي ﴾ ومدبري ﴿ عليه توكلت ﴾ بمعنى فوضت أمري اليه واسندت ظهري اليه ﴿ واليه انيب ﴾ أي ارجع اليه في جميع أموري واحوالي.

قوله تعالى :

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ أَللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ أَللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

خمس آيات بلا خلاف .

لما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله قل لهم الذي وصفته بأنه الذي يحيي ويميت

هو ربي واليه ارجع فى أموري كلها،زاد فى صفاته تعالى ﴿فاطر السموات والارض﴾ أي هو فاطر السموات ، ومعنى فاطر خالق السموات ابتداء . وحكي عن ابن عباس انه قال لم اكن أعرف معنى (فاطر) حتى تحاكم إلى اعرابيان فى بئر فقال احـدهما انا فطرته بمعنى أنا ابتدأته ، والفطر ايضاً الشق . ومنه قوله تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ وقوله ﴿ جعل لكم من انفسكم أزواجاً ﴾ يعني اشكالا مع كل ذكر أنثى يسكن اليها ويألفها . ومن الأنعام أزواجاً من الضان اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين ومن الأبل اثنين ، ذكوراً وإناثاً ووجـه الاعتبار بجعل الأزواج ما في ذلك من إنشاء الشيء حالا بعد حال على وجـه التصريف الذي يقتضي الاختيار ، وجعل الخير له أسباب تطلب كما للشر أسباب تجتنب ، فجعل لكل حيوان زوجاً من شكله على ما تقتضيه الحكمة فيه .

وقوله ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم ويكثركم فيه يعني فى التزويج وفي ما حكم فيه . وقال الزجاج والفراء : معناه يذرؤكم به أي بما جعل لـكم أزواجاً وانشد الازهري قول الشاعر يصف امرأة :

وارغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست ارغب (١)

أي ارغب بها عن لقيط . فالذرء إظهار الشيء بايجاده يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً واصله الظهور ، ومنه ملح ذرآني لظهور بياضه . والذرية لظهورها ممن هي منه . وقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ قيل فى معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ إن الكاف زائدة وتقديره ليس مثل الله شيء من الموجودات ولا المعدومات كما قال أوس بن حجر :

---

(١) مر فى ٦ | ٢٧٨

وقتلى كمثل جذوع النخيل يغشاهم سيل منهمر (١)

وقال آخر :

سعد بن زيد إذا ابصرت فضلهم ما ان كمثلهم في الناس من احد (٢)

وقال الراجز :

وصاليات ككما يؤثفين (٣)

الثاني - قال الرماني : إنه بلغ في نفي الشبيه إذا نفى مثله ، لانه يوجب نفي الشبهة على التحقيق والتقدير ، وذلك انه لو قدر له مثل لم يكن له مثل صفاته ولبطل ان يكون له مثل وانفرده بتلك الصفات ، وبطل ان يكون مثلا له فيجب أن يكون من له مثل هذه الصفات على الحقيقة لا مثل له أصلا إذ لو كان له مثل لم يكن هو بصفاته وكان ذلك الشيء الآخر هو الذي له تلك الصفات ، لانها لا تصح إلا لواحد في الحقيقة وهذا لا يجوز أن يشبه بشبه حقيقة ، ولا بلاغة فوجب التبعيد من الشبه لبطلان شبه الحقيقة .

الثالث - وجه كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي (رحمة الله عليه) جارانا فيه فاتفق لي بالخاطر وجه قلته فاستحسنه واستجاده ، وهو ان لا تكون الكاف زائدة ويكون المعنى انه نفى ان يكون لمثله مثل وإذا ثبت انه لا مثل لمثله فلا مثل له ايضاً . لأنه لو كان له مثل لكان له امثال ، لأن الموجودات على ضربين : احدهما - لا مثل له ، كالقدرة فلا أمثال لها ايضاً . والثاني - له مثل كالسواد والبياض واكثر الاجناس فله امثال ايضاً وليس في الموجودات ماله مثل واحد فحسب ، فعلم بذلك ان المراد انه لا مثل له اصلا من حيث لا مثل لمثله .

وقوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ معناه انه على صفة يجب ان يسمع المسموعات

(١ ، ٢ ، ٣) تفسير الطبري ٢٥ / ٨ والقرطبي ١٦ / ٨ والشوكاني ٤ / ٥١٤

إذا وجدت ويبصر المبصرات إذا وجدت وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به ، وفائدة ذكره - ههنا - هو انه لما نفى ان يكون له شبه على وجه الحقيقة والمجاز ، وعلى وجه من الوجوه بين انه مع ذلك سميع بصير ، لئلا يتوهم نفي هذه الصفة له على الحقيقة فقط ، فانه لا مدحة في كونه مما لامثل له على الانفراد ، لان القدرة لا مثل لها . وإنما المدحة في انه لامثل له مع كونه سميعاً بصيراً ، وذلك يدل على التفرد الحقيقي .

وقوله ﴿ له مقاليد السموات والارض ﴾ معناه له مفاتيح الرزق منها بانزال المطر من السماء واستقامة الهواء فيها وابنات الثمار والاقوات من الأرض . ثم قال ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أي يوسعه له ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق لمن يشاء ذلك على ما يعلمه من مصالحهم ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ مما يصلحهم او يفسدهم .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ معنى شرع بين وأظهر ، وهو ﴿ الذي اوحينا اليك ﴾ يا محمد ﷺ وهو ﴿ ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ وسائر النبيين ، وهو أنا أمرناهم بعبادة الله والشكر له على نعمه وطاعته في كل واجب وندب مع اجتناب كل قبيح ، وفعل ما أمر به مما أدى إلى التمسك بهذه الاصول مما تختلف به شرائع الانبياء .

ثم بين ذلك فقال ﴿ ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وموضع ﴿ ان أقيموا ﴾ يحتمل ثلاثة اوجه من الاعراب :

احدها - ان يكون نصباً بدلا من (ما) في ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾.

الثاني - ان يكون جراً بدلا من الهاء في (به).

الثالث - ان يكون رفعاً على الاستئناف ، وتقديره هو ان أقيموا الدين .

وقوله ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ﴾ معناه كبر عليهم واستعظموا كونك

داعياً إلى الله ، ودعاؤك يا محمد وأنت مثلهم بشر ومن قبيلتهم إنك نبي ، وليس لهم ذلك . لان الله يجتبي لرسالته من يشاء على حسب ما يعلم من قيامه باعباء الرسالة وتحمله لها ، فاجتباك الله تعالى كما اجتبى موسى ومن قبلك من الانبياء ، ومعنى ﴿ يجتبي ﴾ يختار . وقوله ﴿ ويهدي اليه من ينيب ﴾ معناه ويهديه إلى طريق الثواب ويهدي المؤمنين الذين أنابوا اليه وأطاعوه . وقيل : يهديه إلى طريق الجنة والصواب بأن يلطف له في ذلك إذا علم ان له لطفاً ، ثم قال ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ ومعناه إن هؤلاء الكفار لم يختلفوا عليك إلا بعد أن اتاهم طريق العلم بصحة نبوتك ، فعدلوا عن النظر فيه بغياً بينهم للحسد والعداوة والحرص على طلب الدنيا وإتباع الهوى . وقيل : إن هؤلاء لم يختلفوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة ، لكن فعلوا ذلك للبغي .

ثم قال ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ بأن اخبر بأنه يبعثهم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ذكر انه يبقيهم اليه لم يجز مخالفته ، لانه يصير كذباً ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لفصل بينهم الحكم وانزل عليهم ما يستحقونه من العذاب عاجلا . ثم قال ﴿ وإن الذين اورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ قال السدي : يعني اليهود والنصارى من بعد الذين أورثوا الكتاب الذي هو القرآن ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي من الدين . وقال غيره : الذين اورثوا الكتاب من بعد اليهود والنصارى في شك من الدين مريب ، وهم الذين كفروا بالقرآن وشكوا في صحته وانه من عند الله من سائر الكفار والمنافقين .

وقوله ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ معناه فالى ذلك فادع ، كما قال ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (١) أي اوحى اليها يقال دعوته لذا وبذا وإلى ذا . وقيل :

---

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

معناه فلذلك الدين فادع . وقيل : معناه فلذلك القرآن فادع. والاول احسن واوضح

وقوله ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ نهي للنبي ﷺ عن إتباع ما هو به المشركون والمراد به أمته . وقيل : ثلاث من كن فيه نجا : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والخشية في السر والعلانية . وثلاث من كن فيه هلك : شح مطاع ، وهوى متبع ، وعجب المرء بنفسه .

وقوله ﴿ وقل آمنت بما انزل الله من كتاب ﴾ أي قل لهم صدقت بما انزل الله من القرآن وبكل كتاب انزله الله على الانبياء قبلي ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾. وقيل في معناه قولان : احدهما - امرت بالعدل . والثاني - أمرت كي اعدل. وقل لهم أيضاً ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي مدبرنا ومدبركم ومصرفنا ومصرفكم ﴿ لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ﴾ ومعناه أن جزاء أعمالنا لنا من ثواب او عقاب وجزاء اعمالكم لكم من ثواب اوعقاب، لا يؤاخذ احد بذنب غيره ، كما قال ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا خصومة بيننا - في قول مجاهد وابن زيد - أي قد ظهر الحق فسقط الجدال والخصومة . وقيل : معناه إن الحجة لنا عليكم لظهورها ، وليست بيننا بالاشتباه والالتباس . وقيل : معناه لا حجة بيننا وبينكم لظهور أمركم في البغي علينا والعداوة لنا والمعاندة ، لا على طريق الشبهة ، وليس ذلك على جهة تحريم إقامة الحجة ، لأنه لم يلزم قبول الدعوة إلا بالحجة التي يظهر بها الحق من الباطل فاذا صار الانسان إلى البغي والعداوة سقط الحجاج بينه وبين اهل الحق . ثم قال ﴿ الله يجمع بيننا يوم القيامة واليه المصير ﴾ أي المرجع حيث لا يملك احد الحكم فيه ولا الأمر والنهي غيره ، فيحكم بيننا بالحق . وفي ذلك غاية التهديد . وقيل : إن

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ آية فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

ذلك كان قبل الأمر بالقتال والجهاد .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن ﴿ الذين يحاجون فى الله ﴾ أي يجادلون فى الله بنصرة مذهبهم ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ وقيل فى معناه قولان :

احدها - من بعد ما استجاب له الناس لظهور حجته بالمعجزات التي اقامها الله - عز وجل - والآيات التي أظهرها الله فيه ، لأنهم بعد هذه الحال فى حكم المعاندين بالبغي والحسد . قال مجاهد : كانت محاجتهم بأن قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن أولى بالحق منكم ، فلذلك قال الله تعالى « حجتهم

داحضة » لأن ما ذكروه لا يمنع من صحة نبوة نبينا بأن ينسخ الله كتابهم وما شرعه النبي الذي كان قبله .

والثاني - معناه من بعد ما استجيب للنبي دعاءه بالمعجزات التي اجاب الله تعالى دعاءه في إقامتها له . قال الجبائي : أجاب الله تعالى دعاءه في كفار بدر حتى قتلهم الله بأيدي المؤمنين ، وأجاب دعاءه عليهم بمكة وعلى مضر من القحط والشدائد التي نزلت بهم ، وما دعا به من إنجاء الله المستضعفين من أيدي قريش فأنجاهم الله وخلصهم من ايديهم وغير ذلك مما يكثر تعداده ، فقال الله تعالى « حجتهم داحضة عند ربهم » وهي شبهة ، وإنما سماها حجة - على اعتقادهم - فلشبهها بالحجة أجرى عليها اسمها من غير اطلاق الصفة بها ، و(داحضة) معناه باطلة « عند ربهم وعليهم غضب من الله » أي لعن واستحقاق عقاب والاخبار به عاجلا « ولهم » مع ذلك « عذاب شديد » يوم القيامة .

وقوله تعالى « الله الذي انزل الكتاب » يعني القرآن « بالحق والميزان » فقوله « بالحق » فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة : بأن الله أنزله ليكفروا به واراد منهم الضلال والعمل بالباطل . وانزل « الميزان » يعني العدل ، لان الميزان إظهار التسوية من خلافها في ما للعباد اليه الحاجة في المعاملة او التفاضل ومثل الموازنة المعارضة والمقابلة والمقايسة . فالقرآن إذا قوبل بينه وبين ما يدعونه ، وقويس بينهما ظهرت فضيلته ، وبانت حجته ، وعلمت دلالته ، فلذلك وصفه بالميزان . وقال مجاهد وقتادة : الميزان - ههنا - العدل . وقال الجبائي : انزل الله عليهم الميزان من السماء وعرفهم كيف يعملون به بالحق وكيف يزنون به . وقيل : إن الحق الذي انزل به الكتاب وصفه على عقد معتقده على ما هو به من ثقة . والحق قد يكون بمعنى حكم ومعنى امر او نهي ومعنى وعد او وعيد ومعنى دليل .

وقوله « وما يدريك » يا محمد ولا غيرك « لعل الساعة قريب » إنما قال (قريب) مع تأنيث الساعة ، لان تأنيثها ليس بحقيقي . وقيل : التقدير لعل مجيئها قريب . وإنما اخفى الله تعالى الساعة ووقت مجيئها عن العباد ، ليكونوا على خوف ويبادروا بالتوبة ، ولو عرفهم عنها لكانوا مغريين بالقبيح قبل ذلك تعويلا على التأني بالتوبة .

وقوله «يستعجل بها » يعني بالساعة « الذين لا يؤمنون بها » أي لا يقرون بها ولا يصدقون لجهلهم بما عليهم في مجيئها من استحقاق العقاب وما للمؤمنين من الثواب . وقال « والذين آمنوا » أي صدقوا بها « مشفقون منها » أي خائفون من مجيئها لعلمهم بما فيها من استحقاق العقاب والاهوال فيحذرونها « ويعلمون انها الحق » أي ويعلمون ان مجيئها الحق الذي لاخلاف فيه . ثم قال تعالى ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد أي يجادلون في مجيئها على وجه الانكار لها لفي ضلال عن الصواب وعدول عن الحق بعيد .

ثم قال تعالى « الله لطيف بعباده » فلطفه بعباده إيصاله المنافع اليهم من وجه يدق على كل عاقل إدراكه ، وذلك في الارزاق التي قسمها الله لعباده وصرف الافات عنهم ، وإيصال السرور اليهم والملاذ ، وتمكينهم بالقدرة والآلات إلى غير ذلك من ألطافه التي لا ندرك على حقيقتها ولا يوقف على كنهها لغموضها . ثم قال تعالى « يرزق من يشاء وهو القوي » يعني القادر الذي لا يعجزه شيء «العزيز» الذي لا يغالب .

وقوله « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » قيل: معناه إنا نعطيه بالحسنة عشراً إلى ما شئنا من الزيادة « ومن كان يريد حرث الدنيا » أي من عمل للدنيا « نؤته » أي نعطيه نصيبه « منها »من الدنيا لا جميع ما يريده بل على

ما تقتضيه الحكمة دون الآخرة ، وشبه الطالب بعمله الآخرة بالزارع في طلب النفع لحرثه ، وكذلك الطالب بعمله نفع الدنيا . ثم قال « وماله » يعني لمن يطلب الدنيا دون الآخرة « في الآخرة من نصيب » من الثواب والنعيم في الآخرة . وقيل : إن الذي وعدهم الله به أن يؤتيهم من الدنيا إذا طلبوا حرث الدنيا هو ما جعل لهم من الغنيمة والفيء إذا قاتلوا مع المسلمين ، لأنهم لا يمنعون ذلك مع إظهارهم الايمان لكن ليس لهم في الآخرة نصيب من الثواب .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابو عمرو ، وابن عامر ، وابو بكر عن عاصم « يفعلون » بالياء . الباقون بالتاء .

من قرأ بالياء ، فعلى أن الله يعلم ما يفعله الكفار فيجازيهم عليه . ومن قرأ بالتاء فعلى وجه الخطاب لهم بذلك .

لما اخبر الله تعالى ان من يطلب بأعماله الدنيا أنه يعطيه شيئاً منها ، وانه ليس له حظ من الخير في الآخرة . وقال ﴿ أم لهم شركاء ﴾ يعني بل هؤلاء الكفار لهم شركاء في ما يفعلونه أي اشركوهم معهم في أعمالهم بأن « شرعوا لهم من الدين » الذي قلدوهم فيه « ما لم يأذن به الله » أي لم يأمر به ولا أذن فيه . ثم قال « ولولا كلمة الفصل » أي كلمة الحكم الذي قال الله : إني اؤخر عقوبتهم ، ولا أعاجلهم به في الدنيا « لقضي بينهم » وفصل الحكم فيهم وعوجلوا بما يستحقونه من العذاب . ثم قال « وإن الظالمين » لنفوسهم بارتكاب المعاصي « لهم عذاب اليم » أي مؤلم أي هم مستحقون لذلك يوم القيامة . ثم قال « ترى الظالمين » يا محمد « مشفقين » أي خائفين « مما كسبوا » يعني من جزاء ما كسبوا من المعاصي وهو العقاب الذي استحقوه « وهو واقع بهم » لا محالة لا ينفعهم اشفاقهم منه ، ولا خوفهم من وقوعه . والاشفاق الخوف من جهة الرقة على الخوف عليه من وقوع الأمر ، واصل الشفقة الرقة من قولهم ثوب مشفق أي رقيق رديء ، ودين فلان مشفق أي رديء .

ثم قال « والذين آمنوا » بالله وصدقوا رسله « وعملوا » الأفعال « الصالحات » من الطاعات « في روضات الجنات » فالروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنة الأرض التي يجنها الشجر ، والبستان التي عمها النبات أي هم مستحقون للكون فيها « لهم ما يشاؤن عند ربهم » ومعناه لهم ما يشتهون من اللذات ، لان

الانسان لا يشاء الشيء إلا من طريق الحكمة او الشهوة او الحاجة في دفع ضرر ودفع الضرر لايحتاج اليه في الجنة ، وإرادة الحكمة تتبع التكليف ، فلم يبق بعد ذلك إلا انهم يشاؤن ما يشتهون . وقوله « عند ربهم » يعني يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غيره . وليس يريد بـ « عند ربهم » من قرب المسافة ، لأن ذلك من صفات الاجسام .

ثم قال « ذلك » يعني الكون عند ربهم وأن لهم ما يشاؤن « هو الفضل الكبير » يعني الزيادة التي لا يوازيها شيء في كثرتها . ثم قال « ذلك » يعني ما تقدم ذكره مما يشاؤنه هو « الذي يبشر الله عباده » به ومن شدد الشين أراد التكثير ، ومن خفف ، فلأنه يدل على القليل والكثير . وقيل : هما لغتان . وحكى الاخفش لغة ثالثة : أبشرته . ثم وصفهم فقال « الذين آمنوا » بالله وصدقوا رسله « وعملوا » الاعمال « الصالحات » .

ثم قال « قل » لهم يا محمد ﷺ « لا أسألكم عليه » أي على اداني اليكم « أجراً » عن الرسالة ، وما بعثني الله به من المصالح « إلا المودة في القربى » وقيل في هذا الاستثناء قولان :

احدهما ـ إنه استثناء منقطع لان المودة في القربى ليس من الأجر ويكون التقدير لكن أذكركم المودة في قرابتي .

الثاني ـ إنه استثناء حقيقة ويكون أجرى المودة في القربى كأنه أجر ، وإن لم يكن أجر واختلفوا في معنى « المودة في القربى » فقال علي بن الحسين عليه السلام وسعيد ابن جبير وعمرو بن شعيب : معناه أن تودوا قرابتي ، وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام وقال الحسن : معناه « إلا المودة في القربى » إلى الله تعالى والتودد بالعمل الصالح اليه . وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي والضحاك

وابن زيد وعطاء بن دينار : معناه إلا ان تودوني لقرابتي منكم . وقالوا : كل قرشي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة ، ويكون المعنى إن لم تودوني لحق النبوة افلا تودوني لحق القرابة . والاول هو الاختيار عندنا ، وعليه اصحابنا . وقال بعضهم : إلا ان تصلوا قرابتكم . وقال آخرون : معناه إلا ان تتقربوا إلى الله بالطاعات .

ثم قال تعالى « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » أي من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له عليها الثواب . والاقتراف الاكتساب واصله من قرفت الشيء إذا كشفت عنه ، كقولك قرفت الجلد وهو من الاعتماد والاكتساب « إن الله غفور » أي ستار على عباده معاصيهم بالتوبة وغير التوبة تفضلا منه تعالى وإحساناً منه إلى عباده « شكور » ومعناه انه يعاملهم معاملة الشاكر في توفية الحق حتى كأنه ممن وصل اليه النفع فشكره . وقيل : معناه يجازيهم على شكرهم إياه فسماه شكراً على عادتهم في تسمية الشيء باسم ما كان سببه مجازاً ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها »(١) .

ثم قال « ام يقولون افترى على الله كذباً » بمعنى بل يقولون هؤلاء الكفار إنك يا محمد افتريت على الله كذباً في ادعائك رسالة على الله فقال له تعالى « فان يشأ الله يختم على قلبك » قال قتادة : معناه يختم على قلبك بأن ينسيك القرآن . وقيل : معناه لو حدثتك نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبعت على قلبك واذهبت الوحي الذي أتيتك ، لاني أمحوا الباطل واحق الحق. وقال الزجاج : معناه فان يشأ الله ان يربط على قلبك بالصبر على أذاهم لك وعلى قولهم افترى على الله كذباً « ويمحوا الله الباطل » وقوله « ويمحوا الله الباطل » رفع إلا أنه حذف الواو من المصاحف كما حذف من قوله « سندع الزبانية » (٢) على اللفظ وذهابه لا اتقاء

(١) آية ٤٠ من هذه السورة (٢) سورة ٩٦ العلق آية ١٨

الساكنين ، وليس بعطف على قوله « يختم » لأنه رفع ، وبين ذلك بقوله « ويحق الحق بكلماته » أي ويثبت الحق بأقواله التي ينزلها على انبيائه يتبين بها كذب من ادعى على الله كذباً في أنه نبي ، ولا يكون كذلك « إنه عليم بذات الصدور » أي بأسرار ما في الصدور ، لا يخفى عليه شيء منها . ثم قال « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » فتمدحه بأن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات بأن لا يعاقب عليها دليل على ان إسقاط العقاب عندها تفضل ، ويعلم ما تفعلونه من التوبة وغيرها فيجازيكم عليها . فمن قرأ بالتاء فعلى الخطاب ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب .

قوله تعالى :

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ ٱللهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣٠)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن عامر ونافع « بما كسبت » بلا فاء ، وكذلك هو في مصاحف اهل

المدينة واهل الشام . الباقون بالفاء ، وكذلك في مصاحفهم ، فعلى هذا يكون جزاء وعلى الأول يكون المعنى الذي أصابكم من مصيبة بما كسبت ايديكم .

لما اخبر الله تعالى انه يقبل التوبة عن عباده وانه يعلم ما يفعلونه من طاعة او معصية وانه يجازيهم بحسبها ، ذكر انه « يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يجيبهم بمعنى و(الذين) في موضع نصب ، وأجاب واستجاب بمعنى واحد ، قال الشاعر:

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب (١)

وقيل : الاستجابة موافقة عمل العامل ما يدعو اليه ، لأجل دعائه اليه ، فلما كان المؤمن يوافق بعمله ما يدعو النبي صلى الله عليه وآله من اجل دعائه كان مستجيباً له ، وكذلك من وافق بعمله داعي عقابه كان مستجيباً الداعي بالفعل . وعن معاذ بن جبل : إن الله تعالى يجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دعاء بعضهم لبعض . وقيل : معناه ويجيب المؤمنون ربهم في ما دعاهم اليه ، فيكون (الذين) في موضع رفع . ويكون قوله « ويزيدهم » راجعاً إلى الله أي يزيدهم الله من فضله . وقيل : معناه ويستجيب دعاء المؤمنين ، ولا يستجيب دعاء الكافرين ، لأنه ثواب ولا ثواب للكافرين . وقيل : بل يجوز ان يكون ذلك إذا كان فيه لطف للمكلفين . وقوله « ويزيدهم من فضله » معناه ويزيدهم زيادة من فضله على ما يستحقونه من الثواب . وقال الرماني : الزيادة بالوعد تصير اجراً على العمل إذا كان ممن يحسن الوعد بها من طريق الوعد ، كما لو كان إنسان يكتب مئة ورقة بدينار ، ورغبه ملك في نسخ مئة ورقة بعشرة دنانير ، فانه يكون الأجرة حينئذ عشرة دنانير وإذا بلغ غاية الأجر في مقدار لا يصلح عليه اكثر من ذلك ، فانما تستحق

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ و ٦ \ ٢٣٣

الزيادة بالوعد .

وقوله « والكافرون لهم عذاب شديد » اخبار عما يستحقه الكافر على كفره من العقاب المؤلم الشديد .

وقوله « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض » إخبار منه تعالى بأنه لو وسع رزقه على عباده وسوى بينهم لبطروا النعمة وتنافسوا وتغالبوا ، وكان ذلك يؤدي إلى وقوع الفساد بينهم والقتل وتغلب بعضهم على بعض واستعانة بعضهم ببعض ببذل الأموال ، ولكن دبرهم على ما علم من مصلحتهم في غناء قوم وفقر آخرين ، وإحواج بعضهم إلى بعض وتسخير بعضهم لبعض ، فلذلك قال « ولكن ينزل بقدر ما يشاء » مما يعلمه مصلحة لهم « إنه بعباده خبير بصير » يعني عالم بأحوالهم بصير بما يصلحهم مما يفسدهم .

ثم قال « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » أي ينزله عليهم من بعد أياسهم من نزوله ، ووجه إنزاله بعد القنوط انه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه والمعرفة بمواقع إحسانه ، وكذلك الشدائد التي تمر بالانسان ، ويأتي الفرج بعدها ، تعلق الأمل بمن يأتي به وتكسب المعرفة بحسن تدبيره في ما يدعو اليه من العمل بأمره والانتهاء إلى نهيه . ونشر الرحمة عمومها لجميع خلقه ، فهكذا نشر رحمة الله مجددة حالا بعد حال . ثم يضاعفها لمن يشاء ، وكل ذلك على مقتضى الحكمة وحسن التدبير الذي ليس شيء احسن منه « وهو الولي الحميد » معناه هو الأولى بكم وبتدبيركم المحمود على جميع افعاله لكونها منافعاً وإحساناً .

ثم قال « ومن آياته » أي من حججه الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه « خلق السموات والأرض » لأنه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب والاجناس التي لا يقدر عليها قادر بقدرة « وما بث فيهما من دابة » أي

من سائر اجناس الحيوان « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » أي على جمعهم يوم القيامة وحشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر ، لا يتعذر عليه ذلك .

ثم قال « وما اصابكم من مصيبة » معاشر الخلق ﴿ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال الحسن : ذلك خاص فى الحدود التي تستحق على وجه العقوبة . وقال قتادة : هو عام . وقال قوم : ذلك خاص وإن كان مخرجه مخرج العموم لما يلحق من المصائب على الأطفال والمجانين ومن لاذنب له من المؤمنين . وقال قوم : هو عام بمعنى ان ما يصيب المؤمنين والاطفال إنما هو من شدة محنة تلحقهم، وعقوبة للعاصين كما يهلك الاطفال والبهائم مع الكفار بعذاب الاستئصال . ولأنه قد يكون فيه استصلاح اقتضاه وقوع تلك الاجرام .

وقيل قوله ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾ بحسب ما يطلبونه ويقترحونه ﴿ لبغوا فى الارض ﴾ فانه لم يمنعهم ذلك لعجز، ولا بخل . وقوله ﴿إذا يشاء﴾ يدل على حدوث المشيئة ، لانه لا يجوز ان يكون إذا قدر على شيء فعله ولا إذا علم شيئاً فعله . ويجوز إن شاء ان يفعل شيئاً فعله .

وقوله ﴿ أصابكم ﴾ قال ابو علي النحوي : يحتمل أمرين احدهما ـ ان يكون صلة لـ (ما) . والثاني ـ ان يكون شرطاً في موضع جزم ، فمن قدره شرطاً لم يجز سقوط الفاء ـ على قول سيبويه ـ واجاز ذلك ابو الحسن والكوفيون . وإن كان صلة فالاثبات والحذف جائزان على معنيين مختلفين ، فاذا ثبت الفاء كان ذلك دليلا على ان الامر الثاني وجب بالأول كقوله ﴿ الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم ﴾ (١) فثبوت الفاء يدل على وجوب الانفاق وإذا حذف احتمل الأمرين.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٤

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

خمس آيات كوفي وأربع فى ما عداه عدّ الكوفيون ﴿ كالاعلام ﴾ ولم يعد، الباقون .

قرأ ابو عمرو ، ونافع ﴿ الجواري فى البحر ﴾ بياء فى الوصل، ووقف ابن كثير بياء ايضاً . الباقون بغير ياء فى الوصل والوقف . وقرأ نافع وابو جعفر وابن عامر ﴿ و يعلم الذين ﴾ رفعاً على الاستئناف . لان الشرط والجزاء قد تم ، فجاز الابتداء بما بعده . الباقون بالنصب . فمن نصبه فعلى الصرف ، كما قال النابغة :

فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام

ونأخذ بعده بذناب عيش اجب الظهر ليس له سنام(١)

قال الكوفيون : هو مصروف من مجزوم إلى منصوب ، وقال البصريون : هو نصب بأضمار (أن) وتقديره ان يعلم ، كما قال الشاعر :

ولبس عباءة وتقر عيني احب إليّ من لبس الشفوف

وتقديره وأن تقر عيني ، قال ابو علي : ومن نصب ﴿ ويعلم ﴾ فلان قبله

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٣٤ والشوكاني ٤ / ٥٢٥ والطبري ٢٥ / ٢٠

شرط وجزاء ، وكل واحد منهما غير واجب ، تقول في الشرط إن تأتني وتعطيني اكرمك فينصب وتعطيني ، وتقديره إن يكون منك اتيان وإعطاء أكرمك ، والنصب بعد الشرط إذا عطفته بالفاء أمثل من النصب بالفاء بعد جزاء الشرط فأما العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني اكرمك ، فالذي يختار سيبويه في العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني الجزم ، فيختار ﴿ ويعلم الذين ﴾ إذا لم يقطعه عن الأول فيرفعه ، وإن عطف على جزاء الشرط ، فالنصب أمثل . ومن اثبت الياء في الحالين في قوله ﴿ الجوار ﴾ فلأنها الأصل ، لكن خالف المصحف ، ومن اثبتها وصلا دون الوقف استعمل الاصل وتبع المصحف ، ومن حذفها في الحالين يتبع المصحف ، واجتزأ بالكسرة الدالة على الياء . وواحد الجواري جارية ، وهي السفينة ، وحكي عن ابن مسعود انه قرأ بضم الراء كأنه قلب ، كما قالوا (شاك) في (شائك) فأراد الجوائر فقلب .

قوله ﴿ وما انتم بمعجزين في الارض ﴾ خطاب من الله تعالى للكفار بأنكم لستم تفوتون الله بالهرب منه في الارض ولا في السماء ، فانه يقدر عليكم في جميع الأماكن ولا يمكن النجاة من عذابه إلا بطاعته ، فواجب عليكم طاعته ، ففي ذلك استدعاء إلى عبادة الله وترغيب في كل ما أمر به وتحذير عما نهى عنه . ووجه الحجة بذلك على العبد انه إذا كان لا يعجز الله ، ولا يجد دافعاً عن عقابه خف عليه عمل كل شيء في جنب ما توعد به .

وقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ اي ليس لكم من يدفع عنكم عقاب الله إذا اراد فعله بكم ولا ينصركم عليه ، فيجب أن ترجعوا إلى طاعة من هذه صفته .

وقوله ﴿ ومن آياته الجواري في البحر كالاعلام ﴾ معناه من آياته الدالة على

انه تعالى مختص بصفات لا يشركه فيها أحد ، السفن الجارية فى البحر مثل الجبال ، لأنه تعالى يسيرها بالريح لا يقدر على تسييرها غيره ، ووجه الدلالة فى السفن الجارية هو ان الله خلق الماء العظيم وعدل الريح بما يمكن أن يجري فيه على حسب المراد لأنه إذا هبت الريح فى جهة وسارت بها السفينة فيها ، فلو اجتمعت الخلائق على صرفها إلى جهة أخرى لما قدروا ، وكذلك لو سكنت الريح لو قفت . وما قدر احد على تحريكها ، ولا إجرائها غيره تعالى .

ثم بين ذلك بأن قال ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ وتقديره إن يشأ يسكن الريح أسكنها او إن يشأ ان يسكنها سكنت ، وليس المعنى إن وقعت منه مشيئة أسكن لا محالة ، لانه قد وقعت منه مشيئة لاشياء كثيرة ولم تسكن الريح . والجواري السفن - فى قول مجاهد والسدي - والاعلام الجبال - فى قولهما - وقوله ﴿ فيظللن رواكد على ظهره ﴾ قال ابن عباس : معناه تظل السفن واقفة على ظهر الماء ، قال الشاعر :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وقوله ﴿ إن فى ذلك ﴾ يعني فى تسخير البحر وجريان السفن فيها لآيات أي حججاً واضحات ﴿ لكل صبار ﴾ على أمر الله ﴿ شكور ﴾ على نعمه ، وإنما اضاف الآيات إلى كل صبار وإن كانت دلالات لغيرهم أيضاً من حيث هم الذين انتفعوا بها دون غيرهم ، ممن لم ينظر فيها .

وقوله ﴿ او يوبقهن بما كسبوا ﴾ معناه يهلكهن بالغرق - في قول ابن عباس والسدي ومجاهد - ﴿ بما كسبوا ﴾ أي جزاء على ما فعلوه من المعاصي ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ اخبار منه تعالى انه يعفو عن معاصيهم لا يعاجلهم الله بعقوبتها .

وقوله ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص ﴾ اخبار منه تعالى أن

الذين يجادلون في إبطال آيات الله تعالى ويدفعونها سيعلمون انه ليس لهم محيص أي ملجأ يلجؤن اليه - في قول السدي - .

قوله تعالى :

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصما ﴿ كبير الاثم ﴾ على التوحيد . الباقون ﴿ كبائر ﴾ على الجمع جمع التكسير . ومن وحد قال : إنه اسم جنس يقع على القليل والكثير . وقال قوم: اراد الشرك فقط. ومن جمع، فلان انواع الفواحش ، واختلاف اجناسها كثيرة .

يقول الله تعالى مخاطباً لمن تقدم وصفه ﴿ وما اوتيتم ﴾ يعني ان الذي اوتيتموه وأعطيتموه ﴿ من شيء ﴾ من الاموال ، ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أى هو شيء ينتفع به عاجلا لا بقاء له ولا محصول له . والمتاع يخبر به عن الامتاع ويعبر به عن الاثاث ، ففي ذلك تزهيد في الدنيا وحث على عمل الآخرة . ثم قال ﴿ وما عند الله ﴾ يعني من الثواب في الجنة ﴿ خير وأبقى ﴾ من هذه المنافع العاجلة التي هي قليلة والآخرة

باقية دائمة ، وهذه فانية منقطعة . ثم بين انها حاصلة ﴿ للذين آمنوا ﴾ بتوحيد الله وتصديق رسله ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى يفوضون أمرهم اليه تعالى دون غيره فالتوكل على الله تفويض الامر اليه باعتقاد أنها جارية من قبله على لحسن التدبير مع الفزع اليه بالدعاء في كلما ينوب . والتوكل واجب ، الترغيب فيه كالترغيب في جملة الايمان .

وقوله ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴾ يحتمل ان يكون (الذين) في موضع جر بالعطف على قوله ﴿ للذين ﴾ فكأنه قال وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم المجتنبين كبائر الاثم والذنوب . والفواحش جمع فاحشة ، وهي اقبح القبيح . ويحتمل ان يكون في موضع رفع بالابتداء ، ويكون الخبر محذوفاً ، وتقديره الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴿ واذا ما غضبوا ﴾ مما يفعل بهم من الظلم والاساءة ﴿ هم يغفرون ﴾ ويتجاوزون عنه ولا يكافونهم عليه لهم مثل ذلك . والعفو المراد في الآية هو ما يتعلق بالاساءة الى نفوسهم الذى لهم الاختصاص بها فمتى عفوا عنها كانوا ممدوحين ، فأما ما يتعلق بحدود الله ووجوب حدوده فليس للامام تركها ولا العفو عنها ، ولا يجوز له ان يعفو عن المرتد وعمن يجرى مجراه . ثم زاد في صفاتهم فقال ﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ في ما دعاهم اليه ﴿ واقاموا الصلاة ﴾ على حقها ﴿ وامرهم شورى بينهم ﴾ أى لا ينفردون بأمر حتى يشاوروا غيرهم ، لانه قيل : ما تشاور قوم إلا وفقوا لأحسن ما يحضرهم ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في طاعة الله وسبيل الخير .

ثم قال ﴿ والذين اذا أصابهم البغي ﴾ من غيرهم وظلم من جهتهم ﴿ هم ينتصرون ﴾ يعني ممن بغى عليهم من غير ان يعتدوا فيها فيقتلوا غير القاتل ويجنوا على غير الجاني . وفي قوله ﴿ والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ ترغيب في انكار

المنكر . ثم قال ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال ابو نجيح والسدى : معناه إذا قال أخزاه الله متعدياً قال له مثل ذلك اخزاه الله . ويحتمل ان يكون المراد ما جعل الله لنا إلا الاقتصاص منه من ﴿ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ (١) فان للمجني عليه أن يفعل بالجاني مثل ذلك من غير زيادة وسماه سيئة للازدواج ، كما قال ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ﴾ (٢) وقال ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (٣) ثم مدح العافي عما له أن يفعله ، فقال ﴿ فمن عفى وأصلح ﴾ عما له المؤاخذة فيه « فأجره » في ذلك وجزاؤه « على الله » فانه يثيبه على ذلك .

وقوله ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ قيل فى معناه وجهان :

احدها ـ إني لم ارغبكم في العفو عن الظالم لأني أحبه ، بل لأني أحب الاحسان والعفو .

والثاني ـ إني لا أحب الظالم لتعديه ما هو له إلى ما ليس له فى القصاص ولا غيره .

وقيل الكبائر الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنات ، وعقوق الوالدين ، واكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف ، واكل الحرام .

وعندنا كل معصية كبيرة ، وإنما تسمى صغيرة بالأضافة إلى ما هو اكبر منها لا انها تقع محبطة ، لان الاحباط باطل عندنا . وقيل إن هذه الآيات نزلت فى قوم من المهاجرين والانصار .

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٢٦

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف

قوله ﴿ ولمن انتصر من بعد ظلمه ﴾ اخبار من الله تعالى أن من انتصر لنفسه بعد أن كان ظلم وتعدي عليه ، فاخذ لنفسه بحقه ، فليس عليه من سبيل . قال قتادة : بعد ظلمه في ما يكون فيه القصاص بين الناس فى النفس او الاعضاء او الجراح ، فأما غير ذلك فلا يجوز أن يفعل لمن ظلمه ولا ذم له على فعله . وقال قوم : معناه إن له أن ينتصر على يد سلطان عادل بأن يحمله اليه ويطالبه بأخذ حقه منه ، لأن السلطان هو الذي يقيم الحدود ، ويأخذ من الظالم المظلوم ، ويمكن أن يستدل بذلك على أن من ظلمه غيره بأخذ ماله كان له إذا قدر أن يأخذ من ماله بقدره ، فلا إثم عليه ، والظالم هو الفاعل للظلم . وقد بينا حكم الظالم فى غير موضع ، فلما بين أن المظلوم أن يقتص منه ، وانه متى اخذ بحقه لم يكن عليه سبيل

بين ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ ويأخذون ما ليس لهم ويتعدون عليهم ﴿ ويبغون ﴾ عليهم ﴿ فى الارض بغير الحق ﴾ لأنه متى سعى فيها بالحق لم يكن مذموماً به إن طلب بذلك ما أباحه الله له ﴿ اولئك لهم عذاب اليم ﴾ اخبار منه تعالى أن من قدّم وصفه لهم عذاب موجع مؤلم . ثم مدح تعالى من صبر على الظلم ولم ينتصر لنفسه ولا طالب به ويغفر لمن أساء اليه بأن قال ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور ﴾ أي من ثابت الأمور التي أمر الله بها فلم ينسخ . و (عزم الأمور) هو الاخذ بأعلاها فى باب نيل الثواب والأجر وإحتمال الشدائد على النفس وإيثار رضا الله على ما هو مباح . وقيل : (ان ذلك لمن عزم الامور) جواب القسم الذي دل عليه ﴿ لمن صبر وغفر ﴾ كما قال ﴿ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ (١) وقيل : بل هي فى موضع الخبر . كأنه قال إن ذلك منه لمن عزم الأمور ، وحسن ذلك مع طول الكلام .

وقوله ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ﴾ يحتمل أمرين :

احدها ـ ان من اضله الله عن طريق الجنة إلى عذاب النار فليس له ناصر ينصره عليه ويرفعه عنه من بعد ذلك بالتخليص منه .

والثاني ـ أن من حكم الله بضلاله وسماه ضالا عن الحق فما له من ولي ولا ناصر يحكم بهدايته ويسميه هاديا .

ثم قال ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ اخبار منه تعالى إنك يا محمد ترى الظالمين إذا شاهدوا عذاب النار يقولون هل إلى الرجوع والرد إلى دار التكليف من سبيل تمنياً منهم لذلك والتجاء إلى هذا القول لما ينزل بهم من البلاء . مع علمهم بأن ذلك لا يكون ، لان معارفهم ضرورية .

---

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ١٢

ثم قال ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ قال ابن عباس : من طرف ذليل . وقال الحسن وقتادة : يسارقون النظر ، لأنهم لا يجرؤن أن ينظروا إلى النار بجميع أبصارهم لما يرون من هول النار وألوان العذاب . وقيل : يرون النار بقلوبهم ، لأنهم يحشرون عمياً ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ يعني الذين صدقوا الله ورسوله ذلك اليوم إذا رأوا حصول الظالمين في النار واليم العقاب ﴿إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ باستحقاق النار ﴿ وأهليهم ﴾ لما حيل بينهم وبينهم ﴿ يوم القيامة ألا إن ﴾ هؤلاء ﴿ الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم لا زوال له . وقد منعوا من الانتفاع بنفوسهم واهليهم ذلك اليوم .

قولـه تعـالى :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلاخلاف

لما اخبر الله تعالى أن الظالمين انفسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات فى عذاب مقيم دائم غير منقطع ، اخبر في الآية التي بعدها انهم لم يكن لهم أولياء فى ما عبدوه من دون الله ، ولا فيمن أطاعوه في معصية الله، أي انصار ينصرونهم من دون الله ويرفعون عنهم عقابه . وقيل : المراد من يعبدونه من دون الله او يطيعونه في معصية الله لا ينفعهم يوم القيامة . فالفائدة بذلك اليأس من أي فرج إلا من قبل الله ، فلهذا من كان هلاكه بكفره لم يكن له ناصر يمنع منه .

ثم قال ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي من أضله الله عن طريق الجنة وعدل به إلى النار ﴿ فما له من سبيل ﴾ يوصله إلى الجنة والثواب. ويحتمل ان يكون المراد ومن يحكم الله بضلاله ويسميه ضالا لم يكن لأحد سبيل الى ان يحكم بهدايته. ثم قال تعالى لخلقه ﴿ استجيبوا لربكم ﴾ يعني اجيبوه إلى ما دعاكم اليه ورغبكم فيه من المصير الى طاعته والانقياد لأمره ﴿ من قبل ان يأتي يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ﴾ أي لامرجع له بعد ما حكم به . وقيل معناه لا يتهيأ لاحد رده ولا يكون لكم ملجأ تلجؤن اليه في ذلك اليوم . والملجأ والمحرز نظائر ﴿ وما لكم من نكير ﴾ أي تغيير انكار. وقيل : معناه من نصير ينكر ما يحل بكم ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فان اعرضوا ﴾ يعني هؤلاء الكفار وعدلوا عما دعوناهم اليه ولا يستجيبون اليه ﴿ فما ارسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تمنعهم من الكفر ﴿ إن عليك ﴾ أي ليس عليك ﴿ إلا البلاغ ﴾ وهو ايصال المعنى الى افهامهم وتبين لهم ما فيه رشدهم ، فالذي يلزم الرسول دعاؤهم الى الحق ، ولا يلزمه ان يحفظهم من اعتقاد خلاف الحق. ثم اخبر تعالى عن حال الانسان وسرعة تنقله من حال الى حال فقال ﴿ وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ واوصلنا اليه نعمة ﴿ فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ﴾ أي عقوبة جزاء بما قدمته ايديهم من المعاصي ﴿ فان الانسان كفور ﴾ يعدد المصائب

ويجحد النعم وقوله ﴿ لله ملك السموات والارض ﴾ ومعناه له التصرف في السموات والارض وما بينهما وسياستهما بما تقتضيه الحكمة حسب ما يشاء ﴿ ويخلق مايشاء ﴾ من انواع الخلق ﴿ يهب لمن يشاء ﴾ من خلقه ﴿ اناثاً ﴾ يعني البنات بلا ذكور ﴿ ويهب لمن يشاء ﴾ من خلقه ﴿ الذكور ﴾ بلا اناث ﴿ او يزوجهم ذكراناً واناثاً ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك والسدي : معناه ان يكون حمل المرأة مرة ذكراً ومرة انثى ويحتمل ان يكون المراد ان يرزقه توأماً ذكراً وانثى او ذكراً وذكراً وانثى وانثى وهو قول ابن زيد ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ فالعقيم من الحيوان الذي لا يكون له ولد ويكون قد عقم فرجه عن الولادة بمعنى منع ﴿ انه عليم ﴾ بمصالحهم ﴿ قدير ﴾ أي قادر على خلق ما اراد من ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٥٣) ثلاث آيات بلا خلاف

قرأ نافع وابن عامر في رواية الداجوني عن صاحبه ﴿ او يرسل ... فيوحي ﴾ بالرفع على تقدير او هو يرسل فيوحي ويكون المعنى يراد به الحال بتقدير إلا موحياً

او مرسلا وذلك كلامه اياهم . الباقون بالنصب ويرسل فيوحي على تأويل المصدر ، كأنه قال إلا ان يوحي او يرسل . ومعنى (او) في قوله ﴿ او يرسل رسولا ﴾ يحتمل وجهين :

احدهما ـ العطف ، فيكون ارسال الرسول احد اقسام الكلام كما يقال عتابك السيف كانه قيل الا وحياً او ارسالا .

الثاني ـ ان يكون (الا ان) كقولك لألزمنك او تعطيني حقي ، فلا يكون الارسال في هذا الوجه كلاماً . ولا يجوز ان يكون (او يرسل) فيمن نصب عطفاً على قوله ﴿ أن يكلمه الله ﴾ لأنك لو حملته على ذلك لكان المعنى وما كان لبشر أن يكلمه الله او ان يرسل رسولا ، ولم يخل قولك (او يرسل رسولا) من ان يكون المراد به او يرسله رسولا او يكون المراد او يرسل اليه رسولا ، والتقديران جميعاً فاسدان ، لانا نعلم أن كثيراً من البشر قد ارسل رسولا ، وكثيراً منهم ارسل اليه رسولا ، فاذا بطل ذلك صح ما قدرناه اولا ، ويكون التقدير ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً او يرسل رسولا ، فيوحي ، ويجوز فى قوله ﴿ إلا وحياً ﴾ أمران :

احدهما ـ ان يكون استثناء منقطعاً .

والآخر ـ ان يكون حالا ، فان قدرته استثناء منقطعاً لم يكن فى الكلام شيء توصل به (من) لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل في ما بعده ، لأن حرف الاستثناء فى معنى حرف النفي ، ألا ترى أنك إذا قلت : قام القوم إلا زيداً ، فالمعنى قام القوم لا زيد . فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي في ما بعده كذلك لا يعمل ماقبل الاستثناء ـ إذا كان كلاماً تاماً ـ في ما بعده إذ كان بمعنى النفي ، وكذلك لايجوز أن يعمل ما بعد (إلا) في ما قبلها ، فاذا كان كذلك لم يتصل الجار بما قبل (إلا)

ويمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر ، وهو ان قوله ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ من صلة (يوحي) الذي هو بمعنى (أن يوحي) فاذا كان كذلك لم يجز ان يحمل الجار الذي هو في قوله ﴿من وراء حجاب ﴾ على (أو يرسل) لانك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما . ألا ترى أن المعطوف على الصلة من الصلة إذا حملت العطف على ما ليس في الصلة فصلت بين الصلة والموصول بالاجنبي الذي ليس منها ، فاذا لم يجز حمله على ﴿ يكلمه ﴾ في قوله ﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ ولم يكن بدّ من ان يعلق الجار بشيء ، ولم يكن في اللفظ شيء يحمل عليه أضمرت (بما يكلم) وجعلت الجار في قوله ﴿ او من وراء حجاب ﴾ متعلقاً بفعل مراد في الصلة محذوف حذفاً للدلالة عليه ، ويكون في المعنى معطوفاً على الفعل المقدر صلة ، لأن الموصول يوحي ، فيكون التقدير : ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى اليه ، او يكلمه من وراء حجاب ، فحذف (يكلم) من الصلة ، لان ذكره قد جرى وإن كان خارجاً من الصلة ، فحسن لذلك حذفه من الصلة .

ومن رفع (أو يرسل رسولا) فانه يجعل (يرسل) حالا والجار في قوله ﴿ او من وراء حجاب ﴾ يتعلق بمحذوف ، ويكون في الظرف ذكر من ذي الحال ، ويكون قوله ﴿ إلا وحياً ﴾ على هذا التقدير مصدراً وقع موقع الحال ، كقولك جئت ركضاً او اتيت عدواً . ومعنى ﴿ او من وراء حجاب ﴾ فيمن قدر الكلام استثناء منقطعاً او حالا : يكلمهم غير مجاهر لهم بكلامه ، يريد ان كلامه يسمع ويحدث من حيث لا يرى ، كما ترى سائر المتكلمين ، ليس ان ثم حجاباً يفصل موضعاً من موضع ، فيدل ذلك على تحديد المحجوب .

ومن رفع (يرسل) كان (يرسل) في موضع نصب على الحال . والمعنى هذا كلامه كما تقول : تحيتك الضرب وعتابك السيف .

يقول الله تعالى إنه ليس لبشر من الخلق أن يكلمه الله إلا أن يوحي اليه وحياً ﴿او من وراء حجاب﴾ معناه او بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، لانه تعالى لا يجوز عليه مالا يجوز إلا على الاجسام من ظهور الصورة للابصار ﴿او يرسل رسولا﴾ فان جعلناه عطفاً على إرسال الرسول، كان احد أقسام الكلام كما قلناه في قولهم: عتابك السيف، كأنه قال إلا وحياً او إرسالا، وإن لم تجعله عطفاً لم يكن احد اقسامه، ويكون كقولهم: لألزمنك او تعطيني حقي، فلا يكون الارسال في هذا الوجه كلاماً، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة اقسام:

اولها ـ ان يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى عليه السلام.

الثاني ـ بوحي يأتي به الملك إلى النبي من البشر كسائر الانبياء.

الثالث ـ بتأدية الرسول إلى المكلفين من الناس. وقيل في الحجاب ثلاثة اقوال:

احدها ـ حجاب عن إدراك الكلام لا المكلم وحده.

الثاني ـ حجاب لموضع الكلام.

الثالث ـ إنه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب ﴿فيوحي باذنه ما يشاء﴾ معناه إن ذلك الرسول الذي هو الملك يوحي إلى النبي من البشر بامر الله ما شاءه الله ﴿إنه علي حكيم﴾ معناه إن كلامه المسموع منه لا يكون مخاطبة يظهر فيها المتكلم بالرؤية، لأنه العلي عن الادراك بالابصار وهو الحكيم في جميع افعاله وفي كيفية خطابه لخلقه.

وقال السدي: معنى الآية إنه لم يكن لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً بمعنى إلا إلهاماً بخاطر او في منام او نحوه من معنى الكلام اليه في خفاء ﴿او من وراء حجاب﴾ يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلا عن المتكلم الذي يسمعه كما سمع موسى

كلام الله ﴿ او يرسل رسولا ﴾ يعني به جبرائيل .

وقوله ﴿ وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ معناه مثل ما اوحينا إلى من تقدم من الانبياء اوحينا اليك كذلك الوحي من الله إلى نبيه روح من أمره وهو نور يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم بصاحبه إلى الجنة والصراط المستقيم الطريق المؤدي إلى الجنـــة ، وهو صراط الله الذي له ما في السموات وما فى الأرض ، ملك له يتصرف فيه كيف يشاء ، وهو صراط من تصير الأمور اليه ، ولا يبقى لأحد أمر ولا نهي ولا ملك ولا تصرف ، وهو يوم القيامة . وقوله « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » يعني ما كنت قبل البعث تدري ما الكتاب ولا ما الايمان قبل البلوغ « ولكن جعلناه » يعني الروح الذي هو القرآن « نوراً نهدي من نشاء من عبادنا » يعني من المكلفين ، لان من ليس بعاقل وإن كان عبد الله ، فلا يمكن هدايته لانه غير مكلف .

ثم قال « وانك لتهدي » يا محمد « إلى صراط مستقيم » أي طريق مفض الى الحق ، وهو الايمان ، وإنما جر (صراط الله) بأنه بدل من قوله « صراط مستقيم » ثم قال « ألا الى الله تصير الامور » أي اليه ترجع الامور والتدبير وحده يوم القيامة

٤٣ ـ سورة الزخرف

هي مكية في قول مجاهد وقتادة وهي تسع وثمانون آية بلا خلاف في جملتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي وأربع في ما سواه، عدّ الكوفيون «حم» ولم يعده الباقون .

قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف «ان كنتم» بكسر الهمزة جعلوه شرطاً مستأنفاً واستغنى عما تقدم ، كقولك : انت عالم ان فعلت ، فكانه قال : ان كنتم قوماً مسرفين نضرب . الباقون بفتحها جعلوه فعلا ماضياً أي اذا كنتم ، كما قال «أن جاءه الاعمى» (١) والمعنى اذ جاءه الاعمى ، فموضع (ان) نصب عند البصريين . وجر عند الكسائي ، لان التقدير افنضرب الذكر صفحاً لأن كنتم ، وبأن كنتم قوماً مسرفين . والمسرف الذي ينفق ماله في معصية الله ، ولا اسراف في الطاعة .

قد بينا معنى «حم» في ما مضى ، واختلاف المفسرين فيه ، فلا معني لاعادته

---

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢

وقوله « والكتاب » خفض بالقسم . وقيل : تقديره ورب الكتاب ، والمراد بالكتاب القرآن ، والمبين صفة له . وانما وصف بذلك لانه أبان عن طريق الهدى من الضلالة ، وكل ما تحتاج اليه الأمة في الديانة . والبيان هو الدليل الدال على صحة الشيء وفساده . وقيل : هو ما يظهر به المعنى للنفس عند الادراك بالبصر والسمع ، وهو على خمسة أوجه : باللفظ ، والخط ، والعقد بالاصابع ، والاشارة اليه ، والهيئة الظاهرة للحاسة ، كالاعراض عن الشيء ، والاقبال عليه ، والتقطيب وضده وغير ذلك . واما ما يوجد في النفس من العلم ، فلا يسمى بياناً على الحقيقة وكل ما هو بمنزلة الناطق بالمعنى المفهوم فهو مبين .

وقوله « انا جعلناه قرآناً عربياً » اخبار منه تعالى انه جعل القرآن الذي ذكره عربياً بأن يفعله على طريقة العرب في مذاهبها في الحروف والمفهوم . ومع ذلك فانه لا يتمكن أحد منهم من انشاء مثله والاتيان بما يقاربه في علو طبقته في البلاغة والفصاحة ، اما لعدم علمهم بذلك أو صرفهم على حسب اختلاف الناس فيه. وهذا يدل على جلالة موقع التسمية في التمكن به والتعذر مع فقده . وفيه دلالة على حدوثه لان المجعول هو المحدث . ولان ما يكون عربياً لا يكون قديماً لحدوث العربية . فان قيل : معنى جعلناه سميناه لأن الجعل قد يكون بمعنى التسمية . قلنا : لا يجوز ذلك ـ ههنا ـ لأنه لو كان كذلك لكان الواحد منا اذا سماه عربياً فقد جعله عربياً ، وكان يجب لو كان القرآن على ما هو عليه وسماه الله اعجمياً أن يكون اعجمياً او كان يكون بلغة العجم وسماه عربياً ان يكون عربياً ، وكل ذلك فاسد .

وقوله « لعلكم تعقلون » معناه جعلناه على هذه الصفة لكي تعقلوا وتفكروا في ذلك فتعلموا صدق من ظهر على يده .

وقوله « وانه » يعني القرآن « في ام الكتاب لدنيا » يعني اللوح المحفوظ

الذي كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة لما فيه من مصلحة ملائكته بالنظر فيه وللخلق فيه من اللطف بالاخبار عنه « وأم الكتاب » أصله لأن أصل كل شيء أمه .

وقوله « لعلي حكيم » معناه لعال في البلاغة مظهر ما بالعباد اليه الحاجة مما لا شيء منه إلا يحسن طريقه ولا شيء أحسن منه . والقرآن بهذه الصفة علمه من علمه وجهله من جهله لتفريطه فيه و (حكيم) معناه مظهر المعنى الذي يعمل عليه المؤدي الى العلم والصواب . والقرآن من هذا الوجه مظهر للحكمة البالغة لمن تدبره وأدركه . ثم قال لمن جحده ولم يعتبر به على وجه الانكار عليهم « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً » معناه أنعرض عنكم جانباً باعراضكم عن القرآن والتذكر له والتفكر فيه « أن كنتم قوماً مسرفين » على نفوسكم بترككم النظر فيه والاعتبار بحججه . ومن كسر الهمزة جعله مستأنفاً شرطاً . ومن فتحها جعله فعلا ماضياً أي إذ كنتم كما قال « أن جاءه الاعمى » (١) بمعنى إذ جاءه الاعمى ، فموضع (أن) نصب عند البصريين وجر عند الكسائي ، لأن التقدير الذكر صفحاً ، لان كنتم وبأن كنتم . قال الشاعر :

أتجزع ان بان الخليط المودع وحبل الصفا من عزة المتقطع (٢)

والمسرف الذي ينفق ماله في معصية الله ، لان من انفقه في طاعة اومباح لم يكن مسرفاً وقال علي عليه السلام (لا إسراف في المأكول والمشروب) و (صفحاً) نصب على المصدر ، لأن قوله « افنضرب عنكم الذكر » يدل على ان اصفح عنكم صفحاً وكأن قولهم : صفحت عنه أي أعرضت وو ليته صفحة العنق . والمعنى افنضرب ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم أن كنتم قوماً مسرفين ، كما قال « ايحسب الانسان

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢ (٢) مر في ٧/٣٤٩/١ ، ٩

أن يترك سدى » (١) ومن كسر فعلى الجزاء واستغنى عن جوابه بما تقدم كقولهم : انت ظالم ان فعلت كانه قال إن كنتم مسرفين نضرب . وقال المبرد : المعنى متى فعلتم هذا طلبتم أن نضرب الذكر عنكم صفحاً . قال الفراء : تقول العرب : أضربت عنك وضربت عنك بمعنى تركتك واعرضت عنك . وقال الزجاج : المعنى افنضرب عنكم الذكر أي نهلكم فلا نعرفكم ما يجب عليكم لأن أسرفتم وأصل ضربت عنه الذكر ان الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفها عن جهة ضربها بعصاً او سوط لتعدل به إلى جهة أخرى يريدها ثم يوضع الضرب موضع الصرف والعدل . وصفحاً مصدر أقيم مقام الفاعل، ونصب على الحال . والمعنى افنضرب عنكم تذكيرنا إياكم الواجب صافحين او معرضين ، يقال صفح فلان بوجهه عني أي اعرض قال كثير :

صفوح فما تلقاك إلا بخيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت

والصفوح فى صفات الله معناه العفو يقال : صفح عن ذنبه إذا عفا . وقال بعضهم : المعنى افظننتم أن نضرب عنكم هذا الذكر الذي بينا لكم فيه امر دينكم صفحاً، فلا يلزمكم العمل بما فيه ، ولا نؤاخذكم لمخالفتكم إياه إن كنتم قوماً مسرفين على أنفسكم ، وجرى ذلك مجرى قول أحدنا لصاحبه وقد أنكر فعله أأتركك تفعل ما تشاء أغفل عنك إذا أهملت نفسك ، في ذلك إنكار ووعيد شديد .

قوله تعالى :

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣٦

مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (١٠) خمس آيات بلا خلاف

يقول الله تعالى مخبراً «وكم أرسلنا من نبي في الاولين» يعني في الأمم الماضية (وكم) موضوعة للتكثير في باب الخبر، وهي ضدّ (رب) لأنها للتقليل. ثم اخبر عن تلك الامم الماضية انه كان ما يجيئهم نبي من قبل الله إلا كانوا يستهزؤن به بمعنى يسخرون منه. فالاستهزاء إظهار خلاف الابطان استصغاراً او استحقاراً فالأمم الماضية كفرت بالانبياء واحتقروا ما أتوا به، وظنوا انه من المخاريق التي لا يعمل عليها لجهلهم وفرط عنادهم، فلذلك حملوا أنفسهم على الاستهزاء بهم، وهو عائد بالوبال عليهم.

فان قيل: لم بعث الله الأنبياء مع علمه بأنهم يستهزؤن بهم ولا يؤمنون عنده؟ قيل: يجوز أن يكون قوم آمنوا وإن قلوا. وإنما اخبر الله بالاستهزاء عن الاكثر، ولذلك قال في موضع «ومن آمن وما آمن معه إلا قليل» (١) وايضاً فكان يجوز ان يكون لولا إرسالهم لوقع منهم من المعاصي أضعاف ما وقع عند إرسالهم، فصار إرسالهم لطفاً في كثير من القبائح، فلذلك وجب وحسن، على ان في إرسالهم تمكينهم مما كلفوه، لأنه إذا كان هناك مصالح لا يمكنهم معرفتها إلا من جهة الرسل وجب على الله أن يبعث اليهم الرسل ليعرّفوهم تلك المصالح، فاذا لم يؤمنوا بهم وبما معهم من المصالح أتوا بالقبائح من قبل نفوسهم، والحجة قائمة عليهم وقوله «فاهلكنا اشد منهم بطشاً» اخبار منه تعالى انه اهلك الذين هم اشد

(١) سورة ١١ هود آية ٤٠

بطشاً من هؤلاء المشركين الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله، فلذلك قال « ومضى مثل الاولين » أي وهو مثل لهؤلاء الباقين ، ومعناه انكم قد سلكتم في تكذيب الرسل مسلك من كان قبلكم فاحذروا أن ينزل بكم من الخزي ما نزل بهم . قال الحسن : أشد قوة من قومك . ثم قال « ولئن سألتهم » يعني الكفار « من خلق السموات والارض » بأن انشاهها واخترعها « ليقولن » أي لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا « خلقهن » يعني السموات والارض « العزيز » الذي لا يغالب ولا يقهر « العليم » بمصالح الخلق ، وهو الله تعالى ، لانهم لا يمكنهم أن يحلفوا في ذلك على الاجسام والأوثان لظهور فساد ذلك ، وليس في ذلك ما يدل على انهم كانوا عالمين بالله ضرورة ، لانه لا يمتنع أن يكونوا عالمين بذلك استدلالا ، وإن دخلت عليهم شبهة في انه يستحق العبادة سواه . وقال الجبائي : لا يمتنع أن يقولوا بذلك تقليداً لأنهم لو علموه ضرورة لعلموا أنه لا يجوز أن يعبد معه غيره وهو الذي يليق بمذهبنا في الموافاة .

ثم وصف العزيز العليم الخالق للسموات والارض فقال هو « الذي جعل لكم الارض مهداً وجعل لكم فيها سبلا » تسلكونها لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في اسفاركم . وقيل : معناه لتهتدوا إلى الحق في الدين والاعتبار الذي جعل لكم بالنظر فيها .

قولـه تعـالى :

« وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي

سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن الذي جعل لكم الارض مهداً لتهتدوا إلى مراشدكم في دينكم ودنياكم هو « الذي نزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً ﴿بقدر﴾ أي على قدر الحاجة لا زيادة عليها فيفسد ولا ناقصاً عنها فيضر ولا ينفع ، بل هو مطابق للحاجة وبحسبها وذلك يدل على انه واقع من مختار يجعله على تلك الصفة قد قدره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بجميع ذلك .

وقوله «فانشرنا به بلدة ميتاً » أي احييناها بالنبات بعد أن كانت ميتاً بالقحل والجفاف تقول : أنشر الله الخلق فنشروا أي احياهم فحيوا . ثم قال « وكذلك تخرجون » أي مثل ما أخرج النبات من الارض اليابسة فأحياها بالنبات مثل ذلك يخرجكم من القبور بعد موتكم ، وإنما جمع بين أخراج الانبات وإخراج الاموات لأن كل ذلك متعذر على كل قادر إلا القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء ومن قدر على احدهما قدر على الآخر بحكم العقل .

وقوله « والذي خلق الازواج كلها » معناه الذي خلق الأشكال من الحيوان والجماد من الحيوان الذكر والانثى ومن غير الحيوان مما هو متقابل كالحلو والحامض والحلوا والمر والرطب واليابس وغير ذلك من الاشكال . وقال الحسن : الازواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والارض ، والجنة والنار

وقوله « وجعل لكم من الفلك » يعني السفن « والانعام ما تركبون » يعني الابل والبقر وما جرى مجراهما من الدواب والحمير التي تصلح للركوب .

ثم بين انه خلق ذلك وغرضه ﴿لتستووا على ظهوره﴾ وإنما وحد الهاء في قوله « على ظهوره » لانها راجعة إلى (ما) كما قال « مما في بطونه » (١) وفي موضع آخر (بطونها) ردها إلى الأنعام ، فذكر في (ما) وانث في الانعام . وقال الفراء : اضاف الظهور الى الواحد ، لأن الواحد فيه بمعنى الجميع ، فردت الظهور إلى المعنى . ولم يقل ظهره ، فيكون كالواحد الذي معناه ولفظه واحد .

ومعنى الآية ان غرضه تعالى ان تنتفعوا بالاستواء على ظهورها « ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » فتشكروه على تلك النعم وتقولوا معترفين بنعم الله ومنزهين له عن صفات المخلوقين « سبحان الذي سخر لنا هذا » يعني هذه الانعام والفلك « وما كنا له مقرنين » أي مطيقين ، يقال : أنا لفلان مقرن أي مطيق أي انا قرن له ، ويقال : أقرن يقرن إقراناً إذا اطاق وهو من المقارنة كأنه يطيق حمله في تصرفه . وقيل « مقرنين » أي مطيقين أي يقرن بعضها ببعض حتى يسيرها إلى حيث يشاء ، وليقولوا أيضاً « وإنا الى ربنا لمنقلبون » أي راجعون اليه يوم القيامة .

فان قيل : قوله « واتستووا على ظهوره » يفيد ان غرضه بخلق الانعام والفلك ان يستووا على ظهورها ، وإنه يريد ذلك منهم . والاستواء على الفلك والانعام مباح ، ولا يجوز ان يريده الله تعالى ؟!

قيل : يجوز ان يكون المراد بقوله « لتستووا على ظهوره » في المسير إلى

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٦

ما أمر الله بالمسير اليه من الحج والجهاد وغير ذلك من العبادات ، وذلك يحسن إرادته ، وإنما لا يحسن إرادة ما هو مباح محض . وايضاً ، فانه تعالى قال « ثم تذكروا نعمة ربكم » أي تعترفون بنعم الله بالشكر عليها وتقولوا « سبحان الذي سخر لنا هذا » وذلك طاعة يجوز ان يكون مراداً تتعلق الارادة به .

وقوله « وجعلوا له من عباده جزءاً » اخبار منه تعالى ان هؤلاء الكفار جعلوا لله من عباده جزءاً . وقيل فيه وجهان :

احدهما ـ انهم جعلوا لله جزءاً من عبادته لانهم اشركوا بينه وبين الاصنام .

وقال الحسن : زعموا ان الملائكة بنات الله وبعضه فالجزء الذي جعلوه له من عباده هو قولهم « الملائكة بنات الله » ثم قال تعالى مخبراً عن حال الكافر لنعم الله فقال « إن الانسان لكفور » لنعم الله جاحد لها « مبين » أي مظهر لكفره غير مستتر به .

قوله تعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَيكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « او من ينشأ » بضم الياء وتشديد الشين .

الباقون بفتح الياء والتخفيف . وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر « عند الرحمن » بالنون . الباقون « عباد » على الجمع وقرأ نافع « أأشهدوا » بضم الألف وفتح الهمزة من (اشهدت) الباقون « اشهدوا » من (شهدت) من قرأ (ينشأ) بالتشديد جعله في موضع مفعول لأنه تعالى قال « إنا انشأناهن إنشاء » (١) فانشأت ونشأت بمعنى إذا ربيت . وتقول : نشأ فلان ونشأه غيره وغلام ناشيء أي مدرك . وقيل في قوله « ثم انشأناه خلقاً آخر » (٢) قال هو نبات شعر ابطه ومن خفف جعل الفعل لله ، لان الله انشأهم فنشؤوا ، ويقال للجوار الملاح : النشأ قال نصيب :

ولولا ان يقال صبا نصيب　　اقلت بنفسي النشأ الصغار (٣)

ومن قرء عباد لجمع (عبد) فهو كقوله « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٤) فاراد الله أن يكذبهم في قولهم : إن الملائكة بنات الله ، وبين انهم عباده . ومن قرأ « عند » بالنون ، فكقوله « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته » (٥) وقال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس في مصحفي « عباد » فقال: حكه . ووجه قراءة نافع « أأشهدوا » انه جعله من اشهد يشهد جعلهم مفعولين . وقال تعالى ﴿ ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾ (٦) من قرأ بفتح الهمزة جعله من شهد يشهد فهؤلاء الكفار إذا لم يشهدوا خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم من اين علموا ان الملائكة بنات الله وهم

---

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥　　(٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٤

(٣) مر في ٤ / ٣٠٤ و ٨ / ١٩٤　　(٤) سورة ٤ النساء آية ١٧١

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ٢٠٥　　(٦) سورة ١٨ الكهف آية ٥٢

لم يشهدوا ذالك ،ولم يخبرهم عنه مخبر؟! .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار انهم جعلوا له من عباده جزءاً على ما فسرناه ، وحكم عليهم بأنهم يجحدون نعمه ويكفرون أياديه ، فسر ذلك وهو انهم قالوا « ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين » فى هذا القول حجة عليهم لأنه ليس بحكيم من يختار لنفسه أدون المنزلتين ولغيره اعلاهما ، فلو كان على ما يقول المشركون من جواز اتخاذ الولد عليه لم يتخذ لنفسه البنات ويصفيهم بالبنين فغلطوا فى الأصل الذي هو جواز إتخاذ الولد عليه ، وفى البناء على الأصل باتخاذ البنات ، فنعوذ بالله من الخطاء فى الدين . ومعنى (أصفاكم) خصكم وآثركم بالذكور واتخذ لنفسه البنات .

ثم قال تعالى « واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا » يعني إذا ولد لواحد منهم بنت حسب ما اضافوها الى الله تعالى ونسبوها اليه على وجه المثل لذلك « ظل وجهه مسوداً » أي متغيراً مما يلحقه من الغم بذلك حتى يسود وجهه ويربد « وهو كظيم » قال قتادة معناه حزين . وفى هذا ايضا حجة عليهم لأن من اسود وجهه بما يضاف اليه مما لا يرضى فهو احق ان يسود وجهه باضافة مثل ذلك إلى من هو اجل منه ، فكيف الى ربه .

ثم قال تعالى على وجه الانكار لقولهم « او من ينشؤ فى الحلية » قال ابن عباس « او من ينشوء فى الحلية » المراد به المرأة . وبه قال مجاهد والسدي ، فهو في موضع نصب والتقدير او من ينشؤ فى الحلية يجعلون . ويجوز ان يكون الرفع بتقدير أولئك ولده على ماقالوا هم بناته يعني من ينشؤ فى الحلية على وجه التزين بها يعني النساء فى قول اكثر المفسرين . وقال ابو زيد : يعني الاصنام . والاول اصح « وهو في الخصام غير مبين » في حال الخصومة ، فهو ناقص عمن هو بخلاف هذه الصفة نه

الشبه على ما يصلح للجدال ودفع الخصم الالد بحسن البيان عند الخصومة ، فعلى هذا يلزمهم ان يكونوا باضافة البنات قد اضافوا ادنى الصفات اليه .

ثم قال تعالى « وجعلوا » يعني هؤلاء الكفار « الملائكة الذين هم عباد الرحمن » متذللون له خاضعون له . ومن قرأ بالنون اراد الذين هم مصطفون عند الله « إناثاً » فقال لهم على وجه الانكار « اشهدوا خلقهم » ثم قال « ستكتب شهادتهم » بذلك « ويسألون » عن صحتها . وفائدة الآية أن من شهد بما لا يعلم فهو حقيق بأن يوبخ ويذم على ذلك وشهادته بما هو متكذب به على الملائكة اعظم من الفاحشة ، للاقدام على تنقصهم فى الصفة ، وإن كان فى ذلك على جهالة .

ثم حكى عنهم إنهم قالوا « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » كما قالت المجبرة بأن الله تعالى أراد كفرهم ، ولو لم يشأ ذلك لما كفروا ، فقال الله لهم على وجه التكذيب « مالهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون » أي ليس يعلمون صحة ما يقولونه وليس هم إلا كاذبين . ففي ذلك إبطال مذهب المجبرة فى ان الله تعالى يريد القبيح من افعال العباد . لان الله تعالى قطع على كذبهم فى ان الله تعالى يشأ عبادتهم للملائكة ، وذلك قبيح لا محالة وعند المجبرة الله تعالى شاءه . وقد نفاه تعالى عن نفسه وكذبهم فى قولهم فيه .

قوله تعالى :

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ قال اولو جئتكم ﴾ على انه فعل ماض ، وتقديره قال النذير . الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر على وجه الحكاية لما اوحى الله إلى النذير . قال كأنه قال اوحينا اليه أي فقلنا له ﴿ قل اولو جئتكم ﴾ وقرأ ابو جعفر ﴿ جئناكم ﴾ بالنون على وجه الجمع .

لما حكى الله تعالى تخرص من يضيف عبادة الاصنام والملائكة إلى مشيئة الله ، وبين انه لا يشاء ذلك قال ﴿ أم آتيناهم كتاباً ﴾ والمعنى التقريع لهم على خطئهم بلفظ الاستفهام ، والتقدير أهذا الذي ذكروه شيء تخرصوه وافتروه ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾؟! فاذا لم يمكنهم ادعاء ان الله أنزل بذلك كتاباً علم انه من تخرصهم ودل على حذف حرف الاستفهام (أم) لأنها المعادلة .

ثم قال ليس الامر على ما قالوه ﴿ بل قالوا ﴾ يعني الكفار ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : يعني على ملة وسميت الديانة أمة لاجتماع الجماعة على صفة واحدة فيها . وقرىء « على إمة » ـ بكسر الهمزة ـ والمراد به الطريقة ﴿ وانا على آثارهم ﴾ أي على آثار آبائنا ﴿ مهتدون ﴾ نهتدي بهداهم . ثم قال مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر كذلك لم نرسل من قبلك في قرية وجمع من الناس نذيراً ـ لان (من) زيادة ـ ﴿ إلا قال

مترفوها ﴾ وهم الذين آثروا الترفة على طلب الحجة ، وهم المتنعمون الرؤساء ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ يعني على ملة ﴿ وانا على آثارهم مقتدون ﴾ نقتدي بهم فأحال الجميع على التقليد للاباء فحسب ، دون الحجة ، والتقليد قبيح بموجب العقل لأنه لو كان جائزاً للزم فيه أن يكون الحق في الشيء ونقيضه ، فيكون عابد الوثن يقلد أسلافه ، وكذلك يقلد اسلافه اليهودي والنصراني والمجوسي ، وكل فريق يعتقد أن الآخر على خطأ وضلال . وهذا باطل بلا خلاف ، فاذاً لابد من الرجوع إلى حجة عقل او كتاب منزل من قبل الله ، فقال الله تعالى للنذير ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ فهل تقبلونه ؟ وفي ذلك حسن التلطف في الاستدعاء إلى الحق ، وهو انه لو كان ما تدعونه حقاً وهدى على ما تدعونه ، لكان ما جئتكم به من الحق اهدى من ذلك واوجب ان يتبع ويرجع اليه ، لأن ذلك ، إذا سلموا أنه اهدى مما هم عليه بطل الرد والتكذيب ، وإذا بطل ذلك لزم اتباعه في ترك ماهم عليه .

ثم حكى ما قالوا في الجواب عن ذلك فانهم قالوا ﴿ انا بما أرسلتم به ﴾ معاشر الانبياء ﴿ كافرون ﴾ ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بأن اهلكناهم وعجلنا عقوبتهم ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ لانبياء الله والجاحدين لرسله .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ

وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ واذكر يا محمد ﴿ إذ قال ابراهيم لأبيه وقومه ﴾ حين رآهم يعبدون الاصنام والكواكب ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ أي بريء من عبادتكم الأصنام والكواكب فقوله (براء) مصدر وقع موقع الوصف ، لايثنى ولا يجمع ولا يؤنث . ثم استثنى من جملة ما كانوا يعبدونه الله تعالى فقال ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ معناه اني بريء من كل معبود سوى الله تعالى الذي فطرني أي خلقني وابتدأني ، وتقديره إلا من الذي فطرني . وقال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا مع عبادتهم الاوثان ﴿ فانه سيهدين ﴾ في ما بعد . والمعنى انه سيهديني إلى طريق الجنة بلطف من ألطافه يكون داعياً إلى ان اتمسك به حتى يؤديني اليها ، وإنما قال ذلك ثقة بالله تعالى ودعاء لقومه إلى ان يطلبوا الهداية من ربه . والتبري من كل معبود من دون الله واجب بحكم العقل ، كما يجب ذمهم على فعل القبيح لما في ذلك من الزجر عن للقبيح والردع عن الظلم ، فكذلك يجب قبول قول من أخلص عبادة الله ، كما يجب مدحه على فعله .

وقوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ معناه جعل هذه الكلمة التي قالها إبراهيم كلمة باقية في عقبه بما اوصى به مما أظهره الله من قوله إجلالا له وتنزيهاً له ورفعاً لقدره بما كان منه من جلالة الطاعة والصبر على أمر الله . وقال قتادة ومجاهد والسدي : معنى قوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ قوله : لا إله إلا الله لم يزل في ذريته من يقولها وقال ابن زيد : هو الاسلام بدلالة قوله ﴿ هو سماكم

المسلمين ﴾ (١) . وقال ابن عباس : في عقبه من خلفه . وقال مجاهد : في ولده وذريته . وقال السدي : في آل محمد عليهم السلام . وقال الحسن : عقبه ولده إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ قال الحسن : معناه راجع إلى قوم إبراهيم . وقال الفراء : معناه ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم عليه إلى عبادة الله . وقال قتادة : معناه لعلهم يعترفون ويذكرون الله . وقال الله تعالى إنا لم نعاجل هؤلاء الكفار بالعقوبة ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ أي مظهر للحق ، يعني محمداً صلى الله عليه وآله .

ثم قال تعالى ﴿ ولما جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا هذا سحر ﴾ وهو حيلة خفية توهم المعجزة ﴿ وإنا به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ كافرون ﴾ أي جاحدون لكونه من قبل الله تعالى وإنما كان من نسب الحق والدين إلى السحر كافراً بالله ، لانه بمنزلة من عرف نعمة الله وجحدها في عظيم الجرم ، فسمي باسمه ليدل على ذلك .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٨

عَلَيْهَا يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)(٣٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ سقفاً ﴾ على التوحيد - بفتح السين - الباقون ﴿ سقفاً ﴾ بضم السين والقاف - على الجمع - وقرأ حمزة والكسائي ﴿ لما متاع الحياة الدنيا ﴾ مشددة الميم. الباقون خفيفة. من شدد الميم جعل (لما) بمعنى (إلا) ومن خفف جعل (ما) صلة إلا ابن عامر فانه خفف وشدد. قال ابو علي : من خفف جعل (إن) المخففة من الثقيلة وأدخل اللام للفصل بين النفي والايجاب ، كقوله ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ (١) ومن نصب بها مخففة ، فقال إن زيداً منطلق استغنى عن اللام ، لأن النافية لاينتصب بعدها الاسم ، و(ما) زائدة. والمعنى : وإن كل ذلك لمتاع الحياة.

حكى الله عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا لما جاءهم الحق الذي هو القرآن ﴿ لولا نزل ﴾ إن كان حقاً ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ يعني بالقريتين مكة والطائف ، ويعنون بالرجل العظيم من احد القريتين - في قول ابن عباس - الوليد ابن المغيرة المخزومي القرشي من أهل مكة ، أو حبيب بن عمرو ابن عمير من الطائف ، وهو الثقفي. وقال مجاهد : يعني بالذي من أهل مكة عقبة بن ربيعة ، والذي من اهل الطائف ابن عبد ياليل. وقال قتادة : الذى من أهل مكة يريدون الوليد ابن المغيرة ، والذى من اهل الطائف عروة بن مسعود الثقفي. وقال السدى : الذى من أهل الطائف كنانة بن عمرو. وإنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمي قومهما ، وذوى الأموال الجسيمة فيهما ، فدخلت الشبهة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠١

عليهم فاعتقدوا أن من كان كذلك كان أولى بالنبوة . وهذا غلط لان الله تعالى يقسم الرحمة بالنبوة كما يقسم الرزق في المعيشة على حسب ما يعلم من مصالح عباده فليس لأحد ان يتحكم في شيء من ذالك . فقال تعالى على وجه الانكار عليهم والتهجين لقولهم ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ أي ليس لهم ذالك بل ذالك اليه تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ وقيل : الوجه في إختلاف الرزق بين الخلق في الضيق والسعة زيادة على ما فيه من المصلحة إن في ذالك تسخير بعض العباد لبعض باحواجهم اليهم ، لما في ذالك من الأحوال التي تدعو الى طلب الرّفعة وارتباط النعمة ولما فيه من الاعتبار بحال الغنى والحاجة ، وما فيه من صحة التكليف على المثوبة .

ثم قال تعالى ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ يعني رحمة الله ونعمه من الثواب في الجنة خير مما يجمعه هؤلاء الكفار من حطام الدنيا .

ثم اخبر تعالى عن هوان الدنيا عليه وقلة مقدارها عنده بأن قال ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا انهم يصيرون كلهم كفاراً ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ استحقاراً للدنيا وقلة مقدارها ، لكن لا يفعل ذالك ، لانه يكون مفسدة . والله تعالى لا يفعل ما فيه مفسدة. ثم زاد على ذالك وكنا نجعل لبيوتهم على كون سقفهم من فضة معارج ، والسقف بالضم سقف مثل رهن ورهن . وقال مجاهد : كل شيء من السماء فهو سقف ، وكل شيء من البيوت فهو سقف بضمتين ، ومنه قوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾(١) قال الفراء قوله ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً ﴾ يحتمل أن تكون اللام

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٢

الثانية مؤكدة للاولى ، ويحتمل أن تكون الثانية بمعنى (على) كأنه قال لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً ، كما تقول : جعلنا لك لقومك العطاء أي جعلته لاجلك ﴿ ولبيوتهم ابواباً وسرراً ﴾ جمع سرير ﴿ عليها يتكؤن ﴾ من فضة ايضاً وحذف لدلالة الكلام عليها . وقوله ﴿ وزخرفاً ﴾ قال ابن عباس : هو الذهب . وبه قال الحسن وقتادة والضحاك . وقال ابن زيد : هو الفرش ومتاع البيت . والمزخرف المزين . وقال الحسن المزخرف المنقوش والسقف جمع سقوف كرهون ورهن . وقيل : هو جمع سقف ولا نظير له والأول أولى ، لانه على وزن زبور وزبر . والمعارج الدرج ـ في قول ابن عباس وقتادة ـ وهي المراقي قال جندب بن المثنى :

يا رب رب البيت ذي المعارج (١)

﴿ ومعارج ﴾ درجاً ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يصعدون . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي لولا ان يكون الناس أمة واحدة أي يجتمعون كلهم على الكفر . وقال ابن زيد : معناه يصيرون كلهم أمة واحدة على طلب الدنيا .

ثم قال ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ معناه ليس كل ذلك يعني ما ذكره من الذهب والفضة والزخرف إلا متاع الحياة الدنيا الذي ينتفع به قليلا ثم يفنى وينقطع .

ثم قال ﴿ والآخرة ﴾ أي العاقبة ﴿ عند ربك ﴾ الثواب الدائم ﴿ للمتقين ﴾ الذين يتقون معاصيه ويفعلون طاعاته فصار كل عمل ما للدنيا صغير بالاضافة إلى ما يعمل للاخرة ، لأن ما يعمل للدنيا منقطع وما يعمل للآخرة دائم .

قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ

(١) مجاز القرآن ٢ /٢٠٤

قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٠) خمس آيات بلا خلاف

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ جاءنا ﴾ بالتوحيد . الباقون ﴿ جاءانا ﴾ على التثنية . من قرأ على التثنية أراد الكافر وقرينه من الشياطين كقوله ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ (١) أي قرنت بنظيرهـا . ومن أفرد قال : لأن الكافر هو الذي أفرد بالخطاب في الدنيا وأقيمت عليه الحجة بانفاذ الرسول اليه فاجتزى بالواحد عن الاثنين ، كما قال ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ (٢) والمراد لينبذان يعني هو وما له . وقرأ يعقوب والعليمي ﴿ يقيض ﴾ بالياء على لفظ الخبر عن الغائب . الباقون بالنون على وجه الخبر عن الله تعالى .

يقول الله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ أي يعرض عن ذكر الله لا ظلامه عليه لجهله ، يقال : عشا يعشو عشواً وعشواً إذا ضعف بصره وأظلمت عينه كأن عليها غشاوة قال الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد حطباً جزلا وناراً تأججا (٣)

واذا ذهب بصره قيل : عشي يعشى عشاه ، ومنه رجل أعشى وامرأة

---

(١) سورة ٨١ كورت آية ٧   (٢) سورة ١٠٤ الهمزة آية ٤

(٣) تفسير الطبري ٢٥ / ٣٩ والكتاب لسيبويه ١ / ٣٩٦

عشواء ، فعشي يعشى مثل عمي يعمى ، وعشا يعشو إذا نظر نظراً ضعيفاً . وقرىء
﴿ من يعش ﴾ بفتح الشين . ومعناه يعمى يقال : عشا إلى النار إذا تنورها فقصدها
وعشى عنها إذا أعرض قاصداً لغيرها كقولهم مال اليه ومال عنه . وقيل : معناه
بالعين من يعرض عن ذكره . وقوله ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ قيل فى معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال الحسن : نخلي بينه و بين الشيطان الذي يغويه ويدعوه الى الضلالة
فلا نمنعه منه .

الثاني ـ وقيل : نجعل له شيطاناً قريناً ، يقال قيض له كذا وكذا أي سهل ويسر .

الثالث ـ قال قتادة : نقيض له شيطاناً فى الآخرة يلزمه حتى يصير به إلى
النار فحينئذ يتمنى البعد عنه . وأما المؤمن فيوكل به ملك فلا يفارقه حتى يصير به
الى الجنة . وإنما جاز ان يقيض له الشيطان إذا أعرض عن ذكر الله حتى يغويه
لأنه اذا كان ممن لا يفلح فلو لم يغوه الشيطان لفعل من قبل نفسه مثل ذلك كالفساد
الذي يفعله باغواء الشيطان او أعظم منه فلم يمنع لطفاً ، وقيض له الشيطان عقاباً .
وفى ذلك غاية التحذير عن الاعراض عن حجج الله وآياته .

ثم قال تعالى ﴿ وانهم ﴾ يعني الشياطين ﴿ ليصدونهم ﴾ يعني الكفار ﴿ عن
السبيل ﴾ يعني عن سبيل الحق الذي هو الاسلام ﴿ ويحسبون انهم مهتدون ﴾ الى
طريق الحق . وقوله ﴿ حتى اذا جاءانا ﴾ على التثنية أراد حتى اذا جاء الشيطان
ومن أغواه يوم القيامة الى الموضع الذي يتولى الله حساب الخلق فيه وجزاءهم .
ومن قرأ على التوحيد فالمراد حتى اذا جاء الكافر وعلم ما يستحقه من العقاب
ضرورة قال ذلك الوقت لقرينه ﴿ ياليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ قيل فى
معناه قولان :

احدها ـ أنه عنى المشرق والمغرب الا انه غلب احدهما ، كما قيل سنة العمرين

وقال الشاعر :

اخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم طوالع (١)

يعني الشمس والقمر ، وقال المفضل: أراد النبي محمد وابراهيم عليهما السلام وقال الآخر:

وبصرة الازد منا والعراق لنا والموصلان ومنا مصر والحرم (٢)

يعني الموصل والجزيرة .

الثاني - انه أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ (٣) وإنما اراد ﴿ ياليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ مسافة فلم أرك ولا اغتررت بك ﴿ فبئس القرين ﴾ كنت أنت ، يقول لهذا الشيطان الذي اغواه ، فقال الله تعالى ﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ هذا الندم ﴿ إذ ظلمتم ﴾ نفوسكم بارتكاب المعاصي ﴿ إنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي لانكم في العذاب شركاء ، فلذلك لا ينفعكم هذا القول . وقيل : إن المراد لا يسليكم عما أنتم فيه من انواع العذاب أن أعداءكم شركاؤكم فيها لأنه قد يتسلى الانسان عن محنة يحصل فيها اذا رأى ان عدوه في مثلها فبين الله تعالى أن ذلك لا ينفعكم يوم القيامة ولا يسليكم عن العذاب ولا يخفف عنكم ذلك يوم القيامة .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ أفانت ﴾ يا محمد ﴿ تسمع الصم او تهدي العمي ﴾ شبه الكفار في عدم انتفاعهم بما يسمعونه من إنذار النبي صلى الله عليه وآله ووعظه بالصم الذين لا يسمعون ، وفي عدم انتفاعهم بما يرونه بالعمي الذين لا يبصرون شيئاً ﴿ ومن كان في ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مبين ﴾ أي بين ظاهر لاشبهة فيه . ومن لا يطلب الحق ولا يجتهد فيه لسبقه إلى الباطل واغتباطه به ، فهو الذي يمتنع هدايته ولا حيلة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٩١ والطبري ٢٥ \ ٤٠ (٢) تفسير الطبرى ٢٥/ ٤٠

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ١٧

فيه ولا طريق إلى ارشاده وصار بمنزلة الأصم والاعمى عنه .

وقرأ ابن عامر وحده ﴿ ولن ينفعكم اليوم إنكم ﴾ بكسر الهمزة ، جعل تمام الآية والوقف على قوله ﴿ إذ ظلمتم ﴾ ثم استأنف ﴿ إنكم ﴾ وفتح الباقون ، جعلوا ﴿ أن ﴾ اسماً في موضع رفع .

قوله تعالى :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف

قوله ﴿ فاما نذهبن بك فانا منهم ﴾ معناه إن نذهب بك ، فاما دخلت (ما) على حرف الشرط اشبه القسم في التأكيد والايذان بطلب التصديق ، فدخلت النون في الكلام لذلك لأن النون تلزم في جواب القسم ولا تلزم في الجزاء ، لأنه شبه به ، وإنما وجب باذهاب النبي إهلاك قومه من الكفار ، لأنه علامة اليأس من فلاح أحد منهم ، كما اسرى لوط بأهله ، وموسى بقومه وغيرهما من النبيين وكأنه قال : فاما نذهبن بك على سنتنا فيمن قبلك فيكون إذهابه به إخراجه من بين الكفار . وقال قوم : إنما أراد إذهابه بالموت ، ويكون قوله ﴿ فانا منهم منتقمون ﴾ على هذا ما كان من نقم الله على أهل الكفر اكرم بها نبيه حيث أعلمه ما كان من النقمة في أمته بعده - ذهب اليه

الحسن وقتادة ـ وهو الذي روي عن اهل البيت عليهم السلام ورووا أن التأويل :فانا بعلي منهم منتقمون ، وقال الأولون إن ذلك في المشركين ، وقوّوا ذلك بان الله ذكر ذلك عقيب ذكر المشركين، قالوا : وهو ما كان من نقم الله على المشركين يوم بدر بعد إخراج النبي من مكة وإنه استعلى عليهم واسر منهم مع قلة اصحابه وضعف عددهم وكثرة الكفار وشدة شوكتهم وكثرة عدتهم ، فقتلوهم كيف شاؤا واسروا من احبوا وكان ذلك مصداقاً لما قاله لهم . وقوله ﴿ او نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون ﴾ يعني ما أراهم بهم يوم بدر في ما قدمناه . وبين تعالى أنه على ذلك قادر وكان كما قال ، ومن قال بالتأويل الأخير ، قال معنى ﴿ او نرينك ﴾ او نعلمنك ما وعدناهم وفعلنا بهم . ثم قال لنبيه ﴿ فاستمسك بالذى أوحي اليك ﴾ من إخلاص العبادة لله تعالى وإتباع أوامره والانتهاء عما نهى عنه ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ وصف الاسلام بانه صراط مستقيم لأنه يؤدي إلى الحق المطلوب حيث يستقيم بصاحبه حتى يوصله اليه .

وقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ان هذا القرآن شرف لك بما اعطاك الله ـ عز وجل ـ من الحكمة ولقومك بما عرضهم له من إدراك الحق به وانزاله على رجل منهم .

الثاني ـ انه حجة تؤدي إلى العلم لك ولكل أمتك . والاول اظهر . وقال الحسن : ولقومك لامتك. وقيل : إنه لذكر لك ولقومك يذكرون به الدين ويعلمونه وسوف تسألون عما يلزمكم من القيام بحقه والعمل به .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ قال قتادة والضحاك : سل من أرسلنا يعني أهل الكتابين التوراة والانجيل ، وقال ابن زيد : إنما يريد الانبياء الذين جمعوا ليلة الاسراء . وهو الظاهر ، لأن من قال بالأول

يحتاج ان يقدر فيه محذوفاً ، وتقديره وإرسال أمم من أرسلنا من قبلك . وقيل : المراد سلهم فانهم وإن كانوا كفاراً ، فان تواتر خبرهم تقوم به الحجة . وقيل : الخطاب وإن توجه إلى النبي ﷺ فالمراد به الأمة كأنه قال واسألوا من أرسلنا كما قال ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ (١) وقوله ﴿ اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ معناه سلوا من ذكرناه هل جعل الله في ما مضى معبوداً سواه يعبده قوم : من الاصنام او غيرها ، فانهم يقولون لكم إنا لم نأمرهم بذلك ولا تعبدناهم به .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ (٥٠) خمس آيات بلا خلاف .

هذا قسم من الله تعالى بأنه أرسل موسى بالآيات الباهرات والحجج الواضحات إلى فرعون واشراف قومه وخص الملاء بالذكر ، وان كان مرسلا إلى غيرهم ، لان من عداهم تبع لهؤلاء ، فقال موسى له ﴿ اني رسول من رب العالمين ﴾ الذي خلق الخلق أرسلني اليكم . ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ يعني موسى جاء الى فرعون وملائه بالآيات والحجج ﴿ إذا هم منها ﴾ يعني من تلك

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ١ .

الآيات ﴿ يضحكون ﴾ جهلا منهم بما عليهم من ترك النظر فيها ، وما لهم من النفع بحصول علمهم بها . وفي الخبر عن ضحك أولئك الجهال عند ظهور الآيات زجر عن مثل حالهم ودعاء إلى العلم الذي ينافي الجهل . وفيه ايضاً أنه لا ينبغي ان يلتفت إلى تضاحك أمثالهم من الأدلة إذا كان الانسان على يقين من أمره . والانبياء كلهم يشتركون في الدعاء إلى الله باخلاص عبادته وطاعته في جميع ما يأمر به او ينهى عنه ، ودعوتهم إلى محاسن الأفعال ومكارم الاخلاق وإن اختلفت شرائعهم وتباينت مللهم ونسخت بعضها بعضاً .

وقوله ﴿ وما نريهم من آية إلا هي اكبر من أختها ﴾ معناه إنه تعالى لا يريهم يعني فرعون وقومه معجزة ولا دلالة إلا وهي اكبر من الاخرى عند إدراك الانسان لها لما يهوله من أمرها ، فيجد نفسه يقضي أنها اكبر كما يقول الانسان: هذه العلة التي نزلت بي اعظم من كل علة ، وهو يريد أن لها مزية اعظم منها لا انه ذهب هول الأولى بانصرافها وحكم الثانية بحضورها . وقال قوم : المعنى وما نريهم من آية إلا هي أهول في صدورهم من التي مضت قبلها .

ثم قال تعالى ﴿ واخذناهم بالعذاب ﴾ إذ عصوا فيها ، وكفروا بها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى طاعته وإنما جاز أخذهم بالعذاب ليرجعوا مع العلم بأنهم لا يرجعون لامكان أن يرجعوا اليه ، لأن كلما في المعلوم أنه لا يقع لا يجوز أن يفعل العالم شيئاً من أجل انه سيقع ولكن يجوز أن يفعل شيئاً لامكان أن يقع . والمعنى - ههنا - لعلهم يرجعون الى طريق الحق الذي ذهبوا عنه الى طريق الباطل .

ثم حكى تعالى ما قال فرعون وملاءه لموسى عند ذلك فانهم ﴿ قالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ وقال قوم : إنما قالوا له يا أيها الساحر لجهلهم بنبوته وصدقه واعتقادهم انه سحرهم بذلك . وقال قوم :

كان الساحر عندهم هو العالم ولم يكن صفة ذم . وقال الحسن : إنما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء بموسى ، كما قال المشركون ﴿ يا ايها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١) وقال الزجاج : وجه ذلك انه جرى ذلك على ألسنتهم على عادتهم فيه قبل ذلك . وقال قوم : أرادوا يا أيها الفطن يا أيها العالم ، لأن السحر عندهم دقة النظر والعلم بالشيء كالسحر الحلال ، يقال فلان : يسحر بكلامه . وقال قوم : وخاطبوه بما تقدم تشبيهاً له بالساحر ، فقالوا له ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ معناه أن يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب ـ في قول مجاهد ـ فانه متى كشف عنا ذلك اهتدينا ورجعنا إلى الحق الذي يدعونا اليه . وفي الكلام حذف لأن تقديره فدعا موسى وسأل ربه وضرع اليه أن يكشف عنهم العذاب ، فكشف الله عنهم ذلك فاذا هم عند ذلك ينكثون . ومعناه ينقضون ما عقدوا على أنفسهم . وقال قتادة : معناه يغدرون ، وإنما أخبر الله تعالى وقص خبر موسى وما جرى له تسلية للنبي ﷺ والمعنى إن حال موسى مع قومه وحالك مع قومك سواء ، فاصبر إن أمرك يؤل إلى الاستعلاء ، كما آل أمر موسى عليه السلام .

قوله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ * وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٦

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ (٥٦) وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (٦٠) .

عشر آيات كوفي وشامي . واحدى عشرة في ما عداه، عدوا ﴿مهين﴾ ولم يعده الكوفيون والشاميون .

قرأ حفص عن عاصم ﴿ اسورة ﴾ بغير ألف . الباقون ﴿ أساورة ﴾ بألف . وقرأ حمزة والكسائي وخلف « سلفاً » بضم السين واللام . الباقون بفتحهما . فمن قرأ بالضم فيهما أراد جمع سليف أي جمع قد مضى من الناس . ومن قرأ « أسورة » أراد جمع سوار . وقال أبو عبيدة : وقد يكون أسوار جمع أسورة . ومن قرأ « سلفاً » بضم السين واللام جعله جمع سليف . وقال ابو علي : ويجوز أن يكون جمع (سلف) مثل أسد واسد ، ووثن ووثن . ومن فتح فلأن (فعلا) جاء في حروف يراد بها الكثرة ، فكأنه اسم من اسماء الجمع ، كقولهم خادم وخدم . والفتح اكثر . وقد روي - بضم السين - وقرأ الكسائي ونافع وابن عامر « يصدون » بضم الصاد بمعنى يعرضون أي يعدلون . الباقون - بفتح الياء وكسر الصاد - بمعنى يضجون .

وقيل : هما لغتان .

لما حكى الله تعالى عن قوم فرعون أنه حين كشف العذاب عنهم نكثوا عهدهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، نادى فرعون في قومه الذين اتبعوه على دينه ، وقال لهم « يا قوم » على وجه التقرير لهم « أليس لي ملك مصر » أتصرف فيها كما أشاء لا يمنعني احد منه « وهذه الانهار » كالنيل وغيرها « تجري من تحتي » أي من تحت أمري . وقيل : إنها كانت تجري تحت قصره ، وهو مشرف عليها « أفلا تبصرون » أن ما ادعيه حق وأن ما يقوله موسى باطل . وقيل : قوله « من تحتي » معناه إن النيل كانت تجري منه أنهار تحت قصره . وقيل (من تحتي) من بين يديه لارتفاع سريره . ثم قال لهم فرعون « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » وقال قوم : معنى (أم) بل . فكأنه قال : بل أنا خير من موسى ، وقال قوم : مخرجها مخرج المنقطعة ، وفيها معنى المعادلة لقوله « افلا تبصرون » أم انتم بصراء ، لأنهم لو قالوا نعم لكان بمنزلة قولهم انت خير . والاصل في المعادلة على أي الحالين أنتم على حال البصر أم على حال خلافه . ولا يجوز ان يكون المعنى على أي الحالين أنتم على حال البصر أم حال غيرها في أني خير من هذا الذي هو مهين ، وإنما للمعادلة تفصيل ما أجمله . وقيل له ـ ههنا ـ بتقدير أنا خير من هذا الذي هو مهين أم هو إلا أنه ذكر بـ (أم) لاتصال الكلام بما قبله . وحكى الفراء (اما أنا) وهذا شاذ على انه جيد المعنى . والمهين الضعيف ـ في قول قتادة والسدي ـ وقيل : معناه فقير . وقيل يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج اليه ليس له من يكفيه « ولا يكاد يبين » وقال الزجاج للثغة كانت في لسانه . وقال قتادة : كانت في لسانه آفة . وبه قال السدي . وقيل : إنه كان احترق لسانه بالجمر الذي وضعه في فيه حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه ، وأراد أن

يأخذ غير النار فصرف جبرائيل يده إلى النار ، فدفع عنه القتل . وقال الحسن : كان في لسانه ثقل ، فنسبه إلى ما كان عليه أولا .

وقوله « فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب » معناه هلا إن كان صادقاً في نبوته طرح عليه أساورة من ذهب . فمن قرأ (أساورة) بألف أراد جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهو الذي يلبس فى اليد . وأما اسوار ، فهو الرامي الحاذق بالرمي ، ويقال أسوار - بالضم - ومن جعله جمع أسورة اراد أساوير ، فجعل الهاء عوضاً عن الياء . مثل الزنادقة ، فلذلك صرفه ، لانه صار له نظير فى الآحاد . ومثله فى الجمع الزنادقة . والاسورة الرجل الرامي الحاذق بالرمي من رجال العجم .

وقوله « أوجاء معه الملائكة مقترنين » قال قتادة ومعناه متتابعين ، وقال السدي معناه يقارن بعضهم بعضاً . وقيل معناه متعاضدين متناصرين كل واحد مع صاحبه ممالياً له على أمره . وقال مجاهد : معناه مقترنين يمشون معه .

وقوله « فاستخف قومه » يعني فرعون استخف عقول قومه ، فأطاعوه فى ما دعاهم اليه ، لانه احتج عليهم بما ليس بدليل ، وهو قوله « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » ولو عقلوا وفكروا لقالوا ليس فى ملك الانسان مايدل على انه محق لكون ملوك كثيرة يخالفونك مبطلين عندك ، وليس يجب ان يأتي مع الرسل ملائكة ، لأن الذي يدل على صدق الجميع المعجز دون غيره .

ثم اخبر الله تعالى عنهم بأنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله إلى معصيته . ثم قال « فلما آسفونا انتقمنا منهم » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : معنى اسفونا أغضبونا ، لأن الله تعالى يغضب على العصاة بمعنى يريد عقابهم ، ويرضى عن المطيعين بأن يريد ثوابهم بما يستحقونه من طاعاتهم ومعاصيهم كما يستحقون المدح والذم . وقيل الاسف هو الغيظ من المغتم إلا انه - ههنا - بمعنى

الغضب . ثم بين تعالى بماذا انتقم منهم ، فقال « فاغرقناهم اجمعين » ثم قال « فجعلناهم سلفاً ومثلا للاخرين » فالسلف المتقدم على غيره قبل مجيء وقته ، ومنه السلف في البيع . والسلف نقيض الخلف . ومن قرأ ـ بضم السين واللام ـ فهو جمع سليف من الناس ، وهو المتقدم أمام القوم . وقيل : معناه « جعلناهم سلفاً » متقدمين ليتعظ بهم الآخرون . وقال قتادة : جعلناهم سلفاً إلى النار ومثلا أي عظة للآخرين . والمثل بيان عن أن حال الثاني كحال الأول بما قد صار في الشهرة كالعلم ، فحال هؤلاء المشركين كحال من تقدم في الاشراك بما يقتضي أن يجروا مجراهم في الاهلاك إن اقاموا على الطغيان .

ثم قال الله تعالى « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون » قيل : المراد بذلك لما ضرب الله المسيح مثلا بآدم في قوله « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » (١) اعترض على النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك قوم من كفار قريش ، فانزل الله تعالى هذه الآية . ووجه الاحتجاج في شبه المسيح بآدم ان الذي قدر أن ينشيء آدم من غير ذكر قادر على إنشاء المسيح من غير ذكر ، فلا وجه لاستنكاره من هذا الوجه . وقيل : إنه لما ذكر المسيح بالبراءة من الفاحشة وانه كآدم في الخاصة ، قالوا : هذا يقتضي ان نعبده كما عبده النصارى . وقيل : انه لما نزل قوله « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » (٢) قالوا قد رضينا أن يكون آلهتنا مع المسيح . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال يوماً لعلي عليه السلام (لولا أني اخاف ان يقال فيك ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك قولا لا تمر بملاء إلا اخذوا التراب من تحت قدميك) انكر ذلك جماعة من المنافقين ، وقالوا : لم يرض

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٨

ان يضرب له مثلا إلا بالمسيح ، فانزل الله الآية .

وقوله « يصدون » بكسر الصاد وضمها لغتان . وقد قرىء بهما مثل يشد ويشد وينم وينم من النميمة . وقيل : معنى يصدون ـ بكسر الصاد ـ يضجون أي يضجون سروراً منهم بأنهم عبدوا الأوثان كما عبد النصارى المسيح ومن ضمها أراد يعرضون .

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا آلهتنا خير أم هو ؟ ! قال السدي : يعنون أم المسيح . وقال قتادة : يعنون أم محمد ﷺ وقيل : معنى سؤالهم آلهتنا خير ام هو ؟ انهم ألزموا مالا يلزم على ظن منهم وتوهم ، كأنهم قالوا : ومثلنا في ما نعبد مثل المسيح،فأيهما خير أعبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ، على انه إن قال عبادة المسيح اقر بعبادة غير الله ، وكذلك إن قال عبادة الأوثان . وإن قال ليس فى عبادة المسيح خير ، قصربه عن المنزلة التي ليست لأحد من سائر العباد . وجوابهم عن ذلك إن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والانعام عليه لا يوجب العبادة له كالايوجب ذلك انه قد أنعم على غيره النعمة . ووجه اتصال سؤالهم بما قبله انه معارضة لالهية الأوثان بالهية المسيح كمعارضة إنشاء المسيح عن غير ذكر بانشاء آدم عليه السلام من غير ذكر . ثم قال لنبيه ﷺ ما ضربوه يعني المسيح مثلا « إلا جدلا » أي خصومة لك ودفعاً لك عن الحق ، لأن المجادلة لاتكون إلا وأحد المجادلين مبطلا . والمناظرة قد تكون بين المحقين ، لأنه قد يعارض ليظهر له الحق .

ثم قال تعالى « بل هم قوم خصمون » أي جدلون فى دفع الحق بالباطل .

ثم وصف المسيح عليه السلام فقال « إن هو الا عبد انعمنا عليه » أي ليس هو سوى عبد خلقناه وانعمنا عليه « وجعلناه مثلا لبني إسرائيل » قال السدي وقتادة : يعني موعظة وعبرة لهم يعتبرون به ويتعظون به . ثم قال « ولو نشاء لجعلنا منكم

ملائكة » أي بدلا منكم معاشر بني آدم ملائكة في الارض « يخلفون » بني آدم غير انه انشأ بني آدم لاسباغ النعمة عليهم . وقرأ قالون عن نافع « آلهتنا » بهمزة واحدة بعدها مدة . الباقون بهمزتين على اصولهم ، غير انه لم يفصل احد بين الهمزتين بألف ، وانما حققهما اهل الكوفة وروح . ولين الباقون الثانية . وقال ابو عبد الله بن خالويه : هي ثلاث ألفات الأولى للتوبيخ والتقرير بلفظ الاستفهام والثانية الف الجمع والثالثة اصلية . والاصل « ءالهتنا » فصارت الهمزة الثانية مدة ثم دخلت الف الاستفهام .

قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٦٥) خمس آيات بلا خلاف .

الضمير في قوله « وانه لعلم للساعة » يحتمل أن يكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام لأن ظهوره يعلم به مجيء الساعة ، لانه من أشراطها ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد . وقيل : إنه اذا نزل المسيح رفع التكليف

لئلا يكون رسولا الى اهل ذلك الزمان في ما يأمرهم به عن الله وينهاهم عنه . وقيل : انه عليه السلام يعود غير مكلف فى دولة المهدي وإن كان التكليف باقياً على اهل ذلك الزمان . وقال قوم : إن الضمير يعود الى القرآن يعلمكم بقيامها ويخبركم عنها وعن احوالها . وهو قول الحسن . والفائدة بالعلم بالساعة انه يجب التأهب لها من اجل انها تقوم للجزاء لا محالة ، وفى الشك فيها فتور فى العمل لهـا ، ويجب لأجلها اجتناب القبائح التي يستحق بها الذم والعقاب واجتناء المحاسن التي يستحق بها المدح والثواب . وروي عن ابن عباس شاذاً أنه من ـ العلم ـ بفتح العين واللام بمعنى انه علامة ودلالة على الساعة وقربها .

ثم خاطب الأمة فقال « فلا تمترن بها » أي لا تشكن فيها . والمرية الشك ويدل على ان المراد به جميع الامة قوله « واتبعوني هـذا صراط مستقيم » أي ما أخبرتكم به من البعث والنشور والثواب والعقاب « صراط مستقيم » ثم نهاهم فقال « ولا يصدّنكم الشيطان » أي لا يمنعكم الشيطان عن اتباع الطريق المستقيم الذي بيّنه الذي يفضي بكم إلى الجنة ، ولا يعـدل بكم إلى الطريق المؤدي إلى النار « إنه لكم عدو مبين » فالعداوة طلب المكروه والمكيدة والايقاع فى كل مهلكة من أجل العداوة التي فى هلاك صاحبها شفاء لما فى صدره منها .

ثم اخبر تعالى عن حال عيسى عليه السلام حين بعثـه الله نبياً فقال « ولما جاء عيسى بالبينات » يعني بالمعجزات . قال قتادة يعني بالانجيل « قال » لهم « قـد جئتكم بالحكمة » أي بالذي من عمل به من العباد نجا ومن خالفه هلك . وقوله تعالى « ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه » . قال مجاهد يعني من احكام التوراة وقال قوم : تقديره قد جئتكم بالانجيل ، وبالبينات التي يعجز عنها الخلق . والذي جاء به عيسى هو بعض ما اختلفوا فيه ، وبين لهم فيه . وقال قوم : البعض يراد به

ـ ههنا ـ الكل كأنه قال : ولأبين لكم جميع ماتختلفون فيه . وقيل أراد به من أمر دينكم دون أمر دنياكم . والاختلاف اصل كل عداوة . والوفاق أصل كل ولاية لأن الخلاف يوجب البغضة ، ثم يقوى بالكثرة حتى يصير عداوة، ثم قال لهم يعني عيسى عليه السلام « فاتقوا الله » بأن تجتنبوا معاصيه وتفعلوا طاعاته « واطيعون » في ما أدعوكم اليه من العمل بطاعة الله . ثم قال لهم ايضاً « إن الله » الذي تحق له العبادة « هو ربي وربكم فاعبدوه » خالصاً ولا تشركوا به معبوداً آخر . ثم قال « هذا صراط مستقيم » يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله .

وقوله « فاختلف الاحزاب من بينهم » قال السدي يعني اليهود والنصارى . وقال قتادة : يعني الفرق الذين تحزبوا فى أمر عيسى عليه السلام فقال الله تعالى « فويل للذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب معاصي الله « من عذاب يوم اليم » وهو يوم القيامة .

قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) أَلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَاعِبَادِ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) أَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه وموبخاً لهم « هل ينظرون » أي هؤلاء الكفار ، ومعناه هل ينتظرون « إلا الساعة » يعني القيامة . وقيل : معناه هل ينتظر بهم لأنهم لم يكونوا ينتظرونها ، فاضاف اليهم مجازاً . وقيل سميت القيامة الساعة لقرب أمرها ، كأنها تكون في ساعة . ثم يحصل اهل الجنة فى الجنة واهل

النار في النار . وقيل : سميت بذلك لانها ابتداء أوقات الآخرة ، فهي ابتداء تجديد الساعات.

وقوله « بغتة » أي فجأة ، وإنما كانت الساعة بغتة مع تقديم الانذار بها ، لانهم مع الأنذار لا يدرون وقت مجيئها ، كما لايدري الانسان وقت الرعد والزلازل ، فتأتي بغتة وإن علم انها تكون .

ثم قال تعالى « الأخلاء » وهو جمع خليل « يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » يعني من كانت خلته في دار الدنيا في غير طاعة الله بل كانت في معصية الله ، فان تلك الخلة تنقلب عليه عداوة ، لان صاحبها يتبين فساد تلك الخلة يوم القيامة وإنما كان كذلك ، لان كل واحد من المتخالين في غير طاعة الله يزين لصاحبه خلاف الحق ويدعوه إلى ما يوبقه ويورثه سوء العاقبة بدل ما كان يلزمه من النصيحة له في الدعاء إلى ترك القبيح وفعل الحسن ثم استثنى من جملة الأخلاء الذين اخبر عنهم أنهم يصيرون اعداءاً « المتقين » لأن من كانت مخالته في طاعة الله وعلى ما أمر الله به فانها تتأكد ذلك اليوم ولا تنقلب عداوة .

ثم اخبر تعالى بما يقال المؤمنين المطيعين من عباده فانه يناديهم فيقول لهم « يا عبادي » وخصهم بأنهم عباده من حيث أطاعوه واجتنبوا معاصيه « لا خوف عليكم اليوم » من العقاب « ولا انتم تحزنون » من فوت الثواب . ثم وصف عباده وميزهم من غيرهم فقال « الذين آمنوا بآياتنا » يعني الذين صدقوا بحجج الله فاتبعوها « وكانوا مسلمين » أي مستسلمين لما امرهم الله به منقادين له .

ثم بين انه يقال لهم « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم » اللاتي كن مؤمنات « تحبرون » أي تسرون فيها ، والحبور السرور الذي يظهر في بشرة الوجه اثره، وحبرته حسنة بما يظهر أثر السرور به . وقال قتادة وابن زيد : معنى « تحبرون »

تنعمون . قال السدي : معناه تكرمون ، والمراد بالأزواج من كان مستحقاً للثواب ودخل الجنة . وقيل : المراد بالأزواج اللاتي يزوجهم الله بهن من الحور العين في الجنة .

قولـه تعـالى :

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم « ما تشتهيه » الانفس بـ(هاء) . الباقون « تشتهي » بلاهاء . وحذف الهاء من الصلة إذا كانت المفعول حسن ، كقوله تعالى « أهذا الذي بعث الله رسولا » (١) ومن أثبتها ، فلأنه الأصل .

لما استثنى الله تعالى المتقين من جملة الاخلاء الذين تنقلب خلتهم عداوة وأن خلتهم باقية وأنه يقال لهم ولأزواجهم إدخلوا الجنة محبورين ، اخبر بما لهم فيها من انواع اللذات ، فقال « يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب » وتقديره تنقل ألوان الطعام اليهم في صحاف الذهب . ثم يؤتون باكواب الشراب على جهة الاستمتاع في جميع تلك الأحوال . والصحاف الجامات التي يؤكل فيها الوان

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١

الأطعمة واحدها صحفة . والذي يطوف بذلك الوصف أو الوصايف من الحور العين الذين يخلقهم الله فى الجنـة واكتفى بذكر الصحاف والاكواب عن ذكر الطعام والشراب. وواحد الاكواب كوب وهو إناء على صورة الابريق لا أذن له ولا خرطوم قال الأعشى :

صليفيـة طيبا طعمهـا　　　لها زبد بين كوب ودنّ

وهو كالكأس للشراب . وقال السدي : الصحاف القصاع .

وقوله تعالى « وفيها » يعني فى الجنة « ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين » وإنما اضاف الالتذاذ إلى الاعين وهو للسان لأن المناظر الحسنة سبب من اسباب اللذة ، فاضافتها إلى هذه الجهة احسن وأبلغ لما فيه من البيان مع الايجاز ، لأنه الموضع الذى يلتذ الانسان به عند رؤيته بعينه .

ثم قال « وانتم فيها » يعني فى الجنة وفي هـــذه الأنواع من اللذات « خالدون » أى مؤبدون . وقوله « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» قال الحسن : ورّث الله تعالى الذين اطاعوه وقبلوا امره ونهيه منازل الذين عصوه ولم يقبلوا أمره ونهيه . ويجوز ان يكون المراد لما كانت الجنة جزاء على أعمالهم التي عملوها وعقيب ذلـك عبر عن ذلك بأنهم أورثوها . ثم بين مالهم في الجنه ايضاً فقال « لكم » معاشر المتقين « فيها » يعني في الجنة « فاكهة كثيرة » أى ثمار عظيمة « منها تأكلون » .

ثم اخبر تعالى عن حال أهل النار والعصاة فقال « إن المجرمين » يعني الذين عصوا الله « في عذاب جهنم » وعقابها « خالدون » أى دائمون « لا يفتر عنهم العذاب » واصل الفتور ضعف الحرارة «وهم فيه » يعني في العذاب «مبلسون» أى يائسون من رحمة الله وفرجه ـ وهو قول قتادة ـ والابلاس اليأس من الرحمة

من شدة الحيرة ، يقال أبلس فلان إذا تحير عند انقطاع الحجة .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٨٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما بين الله تعالى ما يفعله بالفساق والمجرمين من انواع العذاب بين انه لم يظلمهم بذلك لانه تعالى غني عن ظلمهم عالم بقبح الظلم ، ومن كان كذلك لا يفعل القبيح ، والظلم قبيح . وبين انهم هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم المعاصي وفعل القبائح . ثم حكى تعالى ما ينادي به هؤلاء العصاة في حال العذاب ، فانهم ينادون مالكاً خازن النار فيقولون ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ أى ليميتنا حتى نتلخص من العذاب ، فيقول مالك مجيباً لهم ﴿ إنكم ما كثون ﴾ أى لا بثون فيها . وقال ابن عباس والسدي : إنما يجيبهم مالك خازن جهنم بذلك بعد الف سنة ، وقال عبد الله بن عمر : بعد أربعين سنة . وقال نوف : بعد مئة عام .

ثم اخبر تعالى إنه جاء الخلق بالحق في ما أخبر به من حال اهل الجنة واهل النار . ولكن اكثركم معاشر الخلق كارهون للحق . وإنما لا يكره ذلك المؤمنون منكم .

ثم قال ﴿ أم ابرموا أمراً فانا مبرمون ﴾ أي اجمعوا على التكذيب أي عزموا عليه فانا مجمعون على الجزاء لهم بالتعذيب ـ وهو قول قتادة ـ ويكون ذلك على وجه الأزدواج ، لان العزم لا يجوز عليه تعالى، ومثله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾(١) وقيل : معناه أم احكموا أمراً فى المخالفة ، فانا محكمون أمراً فى المجازاة .

ثم قال ﴿ ام يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي يظن هؤلاء الكفار انا لا نسمع سرهم ونجواهم أي ما يخفونه بينهم وما يعلنونه . ثم قال تعالى ﴿بلى﴾ نسمع ذلك وندركه ومع ذلك ﴿ رسلنا لديهم يكتبون ﴾ قال السدي وقتادة : معناه إن رسلنا الذين هم الحفظة لديهم يكتبون ما يفعلونه ويقولونه .

وقد روي إن سبب نزول هذه الآية ما هو معروف فى الكتب لا نطول بذكره

قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٨٥) خمس آيات بلا خلاف .

قيل فى معنى قوله ﴿ قل إن كان الرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ اقوال :

احدها ـ فانا أول الآنفين من عبادته ، لأن من كان له ولد لا يكون إلا

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

جسماً محدثاً ومن كان كذلك لا يستحق العبادة ، لأنه لا يقدر على النعم التي يستحق بها العبادة تقول :العرب عبدت فصمت قال الفرزدق :

واعبد ان يهجى كليب بدارم (١)

وقال آخر :

ألا هذيت أم الوليد واصبحت لما أبصرت في الرأس مني تعبد (٢)

الثاني ـ ما قاله ابن زيد وابن أسلم وقتادة : إن (ان) بمعنى (ما) وتقديره ما كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين لله .

الثالث ـ هو انه لو كان له ولد لعبدته على ذلك كما تقول لو دعت الحكمة إلى عبادة غير الله لعبدته لكنها لا تدعوا إلى عبادة غيره ، وكما تقول : لو دل الدليل على أن له ولداً لقلت به ، لكنه لا يدل ، فهذا تحقيق نفي الولد لانه تعليق محال بمحال .

الرابع ـ قال السدي : لو كان له ولد لكنت اول من عبده بأن له ولداً ، لكن لا ولد . وهذا قريب من الوجه (الثالث) .

الخامس ـ إن كان لله ولد على قولكم ، فأنا أول من وحده وعبده على ان لا ولد له ـ ذهب اليه مجاهد ـ وإنما لم يجز على الله تعالى الولد لانه لا يخلو من ان يضاف اليه الولد حقيقة او مجازاً ، وحقيقته أن يكون مخلوقاً من مائه او مولوداً على فراشه ، وذلك مستحيل عليه تعالى . ومجازه أن يضاف اليه على وجه التبني وإنما يجوز فيمن يجوز عليه حقيقته ، ألا ترى انه لا يقال تبنى شاب شيخاً لما لم يمكن أن يكون له ولد حقيقة ، وانما جاز ان يضاف إلى شيخ شاب على انه تبناه لما

(١) القرطبي ١٦ / ١٢٠ والشوكاني ٤ \ ٥٥٠

(٢) تفسير الطبرى ٢٥ / ٥٥

كان حقيقته مقدورة فيه ، وكذلك لا يقال تبنى انسان بهيمة لما كان يستحيل أن يكون مخلوقاً من مائه او على فراشه ، فلما استحال حقيقته على الله تعالى استحال عليه مجازه ايضاً . وإنما جاز أن يقال روح الله ، ولم يجز ان يقال ولد الله لأن روح الله بمعنى ملك الله الروح ، وإنما اضيف اليه تشريفاً . وإن كانت الارواح كلها لله بمعنى انه مالك لها . ولا يعرف مثل ذلك في الولد . ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذ الولد فقال ﴿ سبحان رب السموات والأرض ﴾ يعني الذي خلقهن ﴿ رب العرش ﴾ أي خالقه ومدبره ﴿ عما يصفون ﴾ من اتخاذ الولد ، لأن من قدر على خلق ذلك وإنشائه مستغن عن اتخاذ الولد .

ثم قال لنبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم ﴿ يخوضوا ﴾ في الباطل ﴿ ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذين يوعدون ﴾ بمعنى يوعدون فيه بالعذاب الأبدي . وقال تعالى ﴿ وهو الذي في السماء إله ﴾ أي يحق له العبادة في السماء ويحق له العبادة في الأرض ، وإنما كرر لفظة إله في قوله ﴿ وفي الأرض إله ﴾ لأحد امرين :

احدهما ـ للتأكيد ليتمكن المعنى في النفس لعظمه في باب الحق .

الثاني ـ إن المعنى هو في السماء إله ، يجب على الملائكة عبادته ، وفي الأرض اله يجب على الآدميين عبادته ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع افعاله ﴿ العليم ﴾ بجميع المعلومات ﴿ وتبارك ﴾ وهو مأخوذ من البرك وهو الثبوت ، ومعناه جل الثابت الذي لم يزل ولا يزال . وقيل : معناه جل الذي عمت بركة ذكره ﴿ الذي له ملك السموات والارض ﴾ أي الذى له التصرف فيهما بلا دافع ولا منازع ﴿ وما بينهما وعنده علم الساعة ﴾ يعني علم يوم القيامة ، لانه لا يعلم وقته على التعيين غيره ﴿ واليه ترجعون ﴾ يوم القيامة فيجازي كلا على قدر عمله .

فمن قرأ بالتاء خاطب الخلق . ومن قرأ بالياء ردّ الكناية إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم .

قولــه تعــالى :

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(٨٩) أربع آيات بلا خلاف

قرأ عاصم وحمزة ﴿ وقيله ﴾ بكسر اللام على تقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله . والباقون بالنصب . وقال الاخفش : رداً على قوله ﴿ أم يحسبوا أنا لا نسمع سرهم .... وقيله ﴾ وهو نصب على المصدر . وقال قوم : معناه أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ولعلهم وقيله ، لأنه لما قال ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ كان تقديره ويعلم قيله . وقرأ قتادة ﴿ وقيله ﴾ بالرفع جمله ابتداء .

يقول الله تعالى مخبراً إن الذي يدعونه الكفار إلهاً ويوجهون عبادتهم اليه من الأصنام والاوثان وغيرها لا يملكون من دون الله الشفاعة . وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط الضرر عنه ، لأن حقيقة الشفاعة ذلك . وعند قوم يدخل فيها المسألة في زيادة المنافع . ثم استثنى من جملتهم من شهد بالحق وهم عالمون بذلك وهم الملائكة وعيسى وعزير . وقيل : المعنى ولا يشفع الملائكة وعيسى وعزير الامن شهد بالحق ، وهو يعلم الحق ـ ذكره مجاهد ـ وقال قوم ﴿ الامن شهد بالحق ﴾ الملائكة وعيسى وعزير لهم عند الله شهادة بالحق . وقيل : المعنى إلا من يشهد بأنه

أهل العفو عنه ﴿ وهم يعلمون ﴾ ذلك . وهؤلاء أصحاب الصغائر والذين تابوا من الكبائر .

ثم قال تعالى و ﴿ لئن سألتهم ﴾ يامحمد يعني هؤلاء الكفار ﴿ من خلقهم ﴾ وأخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿ ليقولن الله ﴾ لانهم يعلمون ضرورة أن الاصنام لم تخلقهم . فقال الله تعالى معنفاً لهم ﴿ فأني يؤفكون ﴾ مع علمهم بأن الله هو خالقهم ، فكيف ينقلبون عن عبادته الى عبادة غيره .

وقوله ﴿ وقيله يا رب ﴾ من نصبه احتمل ان يكون بقوله ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ وقال ﴿ قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ على وجه الانكار عليهم . وقيل : المعنى أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم .... وقيله . وقال الزجاج : الاختيار ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ ويعلم ﴿ قيله ﴾ ومن جر فعلى تقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب . وقيل : معنى ﴿ وقيله ﴾ أنه شكا محمد صلى الله عليه وآله شكوة إلى ربه . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي اعف عنهم . قال قتادة : وكان ذلك قبل أمره إياه بقتالهم ﴿ وقل سلام ﴾ رفع على تقديره وهو عليكم سلام أي ما سلم به من شرهم وأذاهم . وقال الحسن : يعني ﴿ وقل سلام ﴾ احلم عنهم ثم هددهم فقال ﴿ فسوف تعلمون ﴾ بالتاء على وجه الخطاب . الباقون بالياء على الخبر عن الكفار الذين مضى ذكرهم .

٤٤ ـ سورة الدخان

وهي مكية في قول قتادة ومجاهد وهي تسع وخمسون آية في الكوفي وسبع في البصرى وست في المدنيين والشامي وسنذكر اختلافهم ٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦) ٠

ست آيات في الكوفي وخمس فى الباقين ٠

قد بينا معنى ﴿ حم ﴾ في ما مضى وإختلاف الناس فيه وان أقوى الوجوه انه اسم للسورة ٠ وإنما كرر ذكر (حم) لانه ينبىء عن استفتاح السورة بذكر الكتاب على وجه التعظيم إذ على ذلك جميع الحواميم ، فهو اسم علم للسورة مضمن بمعنى الصفة من وجهين :

احدهما ـ انها من الحروف العربية. والآخر أنه استفتحت بذكر الكتاب على طريق المدحة ٠

وقوله ﴿ والكتاب المبين ﴾ فالمراد بالكتاب القرآن ، وجره بأنه قسم . وقال قوم : تقديره ورب الكتاب المبين ، وإنما أقسم به لينبيء عن تعظيمه . لان القسم يؤكد الخبر بذكر المعظم منعقداً بما يوجب أنه حق كما أن تعظيمه حق . وإنما وصف بأنه مبين وهو بيان مبالغة في وصفه بأنه بمنزلة الناطق بالحكم الذي فيه من غير أن يحتاج إلى استخراج الحكم من مبين غيره ، لأنه يكون من البيان ما لا يقوم بنفسه دون مبين حتى يظهر المعنى فيه .

وقوله ﴿ إنا انزلناه في ليلة مباركة ﴾ إخبار منه تعالى أنه انزل القرآن في الليلة المباركة ، وهي ليلة القدر - في قول قتادة وابن زيد - وقال قوم : هي ليلة النصف من شعبان . والأول أصح لقوله تعالى ﴿ شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ﴾ (١) وقيل هي في كل شهر رمضان فيها تقسم الآجال والأرزاق وغيرها من الألطاف - في قول الحسن - وقيل : انزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر . ثم انزل نجوماً على النبي ﷺ وقيل ينزل في ليلة القدر قدر ما يحتاج اليه في تلك السنة . وقيل المعنى إن ابتداء انزاله في ليلة مباركة ، ووصفها بأنها مباركة لان فيها يقسم الله تعالى نعمه على عباده من السنة إلى السنة . والبركة نماء الخير . وضده الشؤم وهو نماء الشر ، فالليلة التي انزل فيها كتاب الله مباركة ، فان الخير ينمى فيها على ما دبره الله لها من علو الخير الذي قسمه فيها .

وقوله ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ فالانذار الاعلام بموضع الخوف ليتقى وموضع الأمن ليرتجى ، فالله تعالى قد انذر العباد بأتم الانذار من طريق العقل والسمع وقوله ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فحكيم - ههنا - بمعنى محكم ، وهو ما بيناه من انه تعالى يقسم في هذه الليلة الآجال والارزاق وغيرها .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥

وقوله ﴿ امراً من عندنا ﴾ يحتمل أن يكون نصباً على الحال ، وتقديره انزلناه آمرين . ويحتمل أن يكون على المصدر وتقديره يفرق كل أمر فرقاً ، ووضع امراً موضعه .

وقوله ﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ اخبار منه تعالى انه يرسل الرسل ﴿ رحمة ﴾ أي نعمة . ونصبه على المصدر واختار الأخفش النصب على الحال أي انزلناه آمرين راحمين . ويجوز ان يكون نصباً على انه مفعول له أي انزلناه للرحمة . وسميت النعمة رحمة ، لانها بمنزلة ما يبعث على فعله رقة القلب على صاحبه ومع داعي الحكمة إلى الاحسان اليه يؤكد أمره .

وقوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ معناه إنه يسمع ما يقوله خلقه من المبطلين والمحقين فيجيب كلا منهم على ما يعلمه من مصلحته من إرساله الرسل اليه وإنعامه عليه

قوله تعالى :

﴿ رَبِّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا حفصاً ﴿ رب السموات ﴾ خفضاً بدلا من قوله ﴿ رحمة من ربك ... رب السموات ﴾ الباقون بالرفع على الاستئناف . ويجوز أن يكون

خبر (إن) في قوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ .

لما ذكر الله تعالى أنه ـ جل وعز ـ السميع العليم ، وصف نفسه ايضاً بأنه الذي خلق السموات والأرض ودبرها ، ودبر ما فيهما ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ بهذا الخبر محققين له . وقيل : إن وجه الاحتجاج بذكر رب السموات والارض ـ ههنا ـ أن الذي دبرها على ما فيه مصالح العباد هو الذي دبر الخلق بارسال الرسول رحمة منه بعباده على ما فيه مصالحهم . ومعنى ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كنتم ممن يطلب اليقين ، فهذا طريق اليقين يلج الصدور بالعلم ، وهو حال يجده الانسان من نفسه عند التعقل . ولهذا يقال : من وجد برد اليقين كان من المتقين . ولذلك لا يوصف الله تعالى باليقين وإن وصف بأنه عالم وعليم .

ثم بين تعالى أنه لا أحد يستحق العبادة سواه بقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وانه ﴿ يحيي ﴾ الخلق بعد موتهم ﴿ ويميت ﴾ أي ويميتهم بعد احيائهم ﴿ ربكم ﴾ الذى خلقكم ودبركم ﴿ ورب آبائكم ﴾ الذى خلقهم ، دبرهم ﴿ الأولين ﴾ الذين سبقوكم وتقدموكم .

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه ﴿ بل هم في شك ﴾ يعني بما أخبرناك به ووصفنا الله تعالى به ﴿ يلعبون ﴾ مع ذلك ويسخرون .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فارتقب ﴾ قال قتادة : فانتظر ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ والدخان الظلمة التي كانت تغشى أبصار المشركين من قريش لشدة الجوع وحين دعا عليهم النبي ﷺ ، فقال (اللهم سنين كسنين يوسف) ـ فى قول ابن مسعود والضحاك ـ وقال ابن عباس والحسن وهو المروي عن النبي ﷺ إن الدخان آية من اشراط الساعة تدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالراس الحنيذ ونصيب المؤمن منه مثل الزكمة . و ﴿ يغشى الناس ﴾ يعني الدخان يغشى

الناس . ثم حكى تعالى بأن هؤلاء الكفار يقولون عند ذلك ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي مؤلم موجع . والغشى اللباس الذي يغمر الشيء ، لأن الانسان قد يلبس الازار ولا يغشيه . فاذا غمه كان قد غشاه . والغاشية من الناس الجماعة يغشون ، وغاشية السرج من ذلك ، ومنه قوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ (١) والعذاب استمرار الألم ووصفه بـ (أليم) مبالغة في سببه ، لأجل استمراره وصار بالعرف عبارة عن العقاب ، لان الألم الذي يفعل للعوض والاعتبار ، كأنه لا يعتد به لما يؤل اليه من النفع .

قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ (١٦) خمس آيات بلا خلاف .

لما اخبر الله تعالى أن الدخان يغشى الناس عذاباً لهم وعقاباً للكفار ، وحكى أنهم يقولون هذا عذاب أليم ، حكى ايضاً انهم يقولون ويدعون ﴿ ربنا اصرف عنا العذاب ﴾ الذي أنزلته من الدخان ﴿ إنا موقنون ﴾ بأنه لا إله غيرك ، وأن لا يستحق العبادة سواك . فقال تعالى ﴿ أني لهم الذكرى ﴾ قال ابن عباس معناه (كيف) ؟ وقال غيره معناه من أين لهم الذكرى ﴿ وقد جاءهم رسول مبين ﴾ وحثهم على ذلك فلم يقبلوا منه ، وهذا زمان سقوط التكليف لكونهم ملجئين

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٣

فلاتقبل لهم توبة ٠

وقوله ﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ قال مجاهد : المعنى ثم تولوا عن محمد ﷺ وقالوا هو معلم يعلمه غيره ، ونسبوه إلى الجنون ، وأنه مجنون . ثم قال تعالى ﴿ إنا كاشفوا العـذاب قليلا ﴾ على وجه التبكيت لهم على شدة عنادهم إنا لو كشفنا عنكم العذاب ورفعناه عنكم ﴿ إنكم عائدون ﴾ فمن قال إن العذاب بالدخان عند رفع التكليف قال ﴿ إنكم عائدون ﴾ فى العذاب ، وهو قول قتادة ومن ذهب إلى انه فى الدنيا مع بقاء التكليف ، قال معناه ﴿ انكم عائدون ﴾ في الضلال ٠ وهو قول جماعة ٠

وقوله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ فالبطش الأخـذ بشدة وقع الألم ، بطش به يبطش بطشاً ، ومثله عرش يعرش ويعرش ، وهو باطش ، واكثر ما يكون بوقوع الضرب المتتابع ، فأجري افراغ الألم المتتابع مجراه و (البطشة الكبرى) قال ابن مسعود ومجاهد وابو العالية ، وروى عن ابن عباس وابي بن كعب والضحاك وابن زيد : هو ما جرى عليهم يوم بدر . وفي رواية أخرى عن ابن عباس والحسن انه يوم القيامة ، وهو اختيار الجبائي ٠

وقوله ﴿ إنا منتقمون ﴾ اخبار منه تعالى أنه ينتقم من هؤلاء الكفار بانزال العقوبة بهم ، وقد فرق قوم بين النقمة والعقوبة : بأن النقمة ضد النعمة ، والعقوبة ضد المثوبة ، فهي مضمنة بأنها بعد المعصية فى الصفة ، وليس كذلك النقمة وإنما تدل الحكمة على انها لا تقع من الحكيم إلا لأجل المعصية ٠

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧)

أنْ أدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللهِ إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ (١٨) وَأنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى ٱللهِ إِنّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنّي عُذْتُ بِرَبّي وَرَبّكُمْ أنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ (٢١) خمس آيات بلا خلاف .

أقسم تعالى انه فتن قبلهم يعني قبل كفار قوم النبي صلى الله عليه وآله ﴿ قوم فرعون ﴾ أى اختبرناهم ، وشددنا عليهم بأن كلفناهم ، لأن الفتنة شدة التعبد فى الأخذ بالسراء والضراء ، وأصلها الاحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش ، فهذه الشدة كشدة الاحراق للخلاص . وقيل : الفتنة معاملة المختبر ليجازى بما يظهر دون ما يعلم مما لم يعلم ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أى حقيق بالتكرم فى الدعاء إلى الله والبرهان الواضح والدليل القاهر حتى يسلكوا طريق الهدى المؤدي إلى ثواب الجنة ويعدلوا عن طريق الردى المؤدي إلى العقاب . وقيل : معناه كريم عند الله بما استحق بطاعته من الاكرام والاجلال .

وقوله ﴿ أن ادوا إلي عباد الله ﴾ قال الحسن : هو مثل قوله ﴿ إن ارسل معنا بني إسرائيل ﴾ (١) فـ ﴿ عباد الله ﴾ منصوب بـ ﴿ أدوا ﴾ وقيل : هو منصوب على النداء . أي يا عباد الله أدوا ما أمركم به ، فى قول الفراء ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ على ما أؤديه اليكم وادعوكم اليه . ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ قال ابن عباس : معناه أن لا تطغوا عليه بافتراء الكذب عليه . وقال قتادة : معناه ان لا تبغوا عليه بكفر نعمه . وقيل معناه أن لا تتكبروا على الله بترك طاعته

---

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٧

واتباع أمره . وقيل : معناه أن لا تبغوا على أولياء الله بالبغي عليهم . وقال الحسن : معناه لا تستكبروا عليه بترك طاعته ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة واضحة لأن السلطان الحجة والمبين الظاهر الذي مع ظهوره يظهر الحق ، فكأنه اظهره . ثم قال لهم ﴿ وإني عذت بربي ﴾ الذي خلقني ﴿ وربكم ﴾ الذي خلقكم ﴿ أن ترجمون ﴾ قال ابن عباس وابو صالح : الرجم الذي استعاذ منه موسى هو الشتم ، كقولهم : هو ساحر كذاب ونحوه . وقال قتادة : هو الرجم بالحجارة . ثم قال لهم ﴿ وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي لم تؤمنوا بي ، فاللام بمعنى الباء ومعناه وإن لم تصدقوني في أني رسول الله اليكم وأن ما ادعوكم اليه حق يجب عليكم العمل به فلا أقل من أن تعتزلون بصرف أذاكم عني ، لانكم إن لم تجازوا الاحسان بالاحسان ، فلا اساءة . وإنما دعاهم إلى ترك ملابسته بسوء إن اصروا على الكفر ولم يقبلوا إلى الايمان لان هذا أمر يدعو اليه العقل ببديهته ولا يحتاج إلى برهان .

قوله تعالى :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢٩) ثمان آيات بلاخلاف .

قرأ ابو جعفر ﴿ فاكهين ﴾ بغير الف - ههنا - وفي المطففين . وفي الطور

وافقه الداجوني وحفص في المطففين .

حكى الله تعالى أن موسى حين يئس من قومه ان يؤمنوا به ﴿دعا﴾ الله ﴿ربه﴾ فقال ﴿إن هؤلاء قوم مجرمون﴾ وقيل إنه دعا بما يقتضيه سوء افعالهم وقبح إجرامهم وسوء معاملتهم له ، فكأنه قال: اللهم عجل لهم بما يستحقونه باجرامهم ومعاصيهم بما به يكونون نكالا لمن بعدهم ، وما دعا بهذا الدعاء إلا بعد إذن الله له في الدعاء عليهم .

وقوله ﴿فاسر بعبادي﴾ الفاء وقعت موقع الجواب ، وتقديره فدعا فأجيب بأن قيل له ﴿فاسر بعبادي﴾ فهي عطف وقع موقع جواب الدعاء . وأمره الله تعالى بأن يسير بأهله والمؤمنين به لئلا يروهم إذا خرجوا نهاراً ، واعلمه ﴿إنكم متبعون﴾ أنه سيتبعهم فرعون وقومه ويخرجون خلفهم ، وامره بأن ﴿يترك البحر رهواً﴾ أي ساكناً على ما هو به من كثرته إذا قطعه ، ولا يرده إلى ما كان ويقال : عيش راه إذا كان خفضاً وادعاً . وقال قوم : معناه اترك البحر يبساً . وقيل: طريقاً يابساً . وقال ابن الاعرابي : معناه واسعاً ما بين الطاقات . وقال خالد ابن خيبري : معناه رمثاً أي سهلا ليس برمل ولا حزن . ذكره الأزهري يقال : جاءت الخيل رهواً أي متتابعة . وقال ابن الاعرابي الرهو من الخيل والطير السراع . وقال العكلي : المرهي من الخيل الذي تراه كأنه لا يسرع ، وإذا طلب لا يدرك . ويقال : أعطاه سهواً رهواً أي كثيراً لا يحصى . وإنما قيل ذلك ، لأنه كان أمره أولا ان يضرب البحر بعصاه ليفلق فيه طرقاً لقومه ثم أمره بأن يتركه على الحالة الأولى ليغرق فيه فرعون وجنده ، قال الشاعر :

طيراً رأت بازياً نضح الدماء به   وأمة اخرجت رهواً إلى عيد (١)

أي سكوناً على كثرتهم .

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٦٧

ثم اخبره عن فرعون وقومه بـ ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي سيغرقهم الله . وفي الكلام حذف ، لان تقديره ان موسى سار بقومه وتبعه فرعون وجنده وأن الله أهلكهم وغرقهم .

ثم اخبر عن حالهم بأن قال ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ يعني من بساتين لهم تركوها لم تنفعهم حين نزل بهم عذاب الله ﴿ وعيون ﴾ جارية لم تدفع عنهم عقاب الله ﴿ وزروع جمع زرع ومقام كريم ﴾ قيل : هو المجلس الشريف . وقيل : مقام الملوك والامراء والحكام . وقيل : المنازل الحسنة . وقال قتادة : يعني مقام حسن بهج . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : هي المناظر . وقيل : المنابر . وقيل : المقام الكريم هو الذي يعطي اللذة ، كما يعطي الرجل الكريم الصلة ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ ، فالنعمة ـ بفتح النون ـ التنعيم ـ وبكسرها ـ منفعة يستحق بها الشكر ، وإن كانت مشقة ، لأن التكليف نعمة وإن كانت فيه مشقة . ومعنى الآية انهم كانوا متمتعين . فالفاكه المتمتع بها بضروب اللذة ، كما يتمتع الآكل بضروب الفاكهة ، يقال : فكه يفكه فكهاً ، فهو فاكه ، وفكه وتفكه يتفكه تفكهاً ، فهو متفكه .

وقوله ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ فتوريثه النعمة إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة ، وتوريث العلم شبه بذلك ، لأن الأول تعب في إستخراجه وتوطئة الدلالة المؤدية اليه ، ووصل إلى الثاني وهو رافه وادع ، لم يكل لطول الفكر وشدة طلب العلم ، فلما كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم ، كان ذلك توريثاً من الله لهم . قال قتادة : يعني بقوم آخرين بني اسرائيل ، لأن بني اسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون على ما قيل ، وكذلك قال في موضع آخر ﴿ وأورثناها بني اسرائيل ﴾ (١).

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٠

وقوله ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال الحسن فما بكى عليهم ـ حين اهلكهم الله ـ أهل السماء واهل الأرض ، لانهم مسخوط عليهم مغضوب عليهم بانزال الخزي بهم .

الثاني ـ إن التقدير ان السماء والارض لو كانتا ممن يبكي على أحد إذا هلك لما بكتا على هؤلاء ، لانهم ممن أهلكهم الله بالاستحقاق وانزل عليهم رجزاً بما كانوا يكفرون . والعرب تقول : إذا أرادت أن تعظم موت إنسان : اظلمت الشمس وكسف القمر لفقده وبكت السماء والارض ، وإنما يريدوا المبالغة قال الشاعر :

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامه (١)

وقال آخر :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر (٢)

الثالث ـ انهم لم يبك عليهم ما يبكى على المؤمن اذا مات ، مصلاه ومصعد عمله ـ ذكره ابن عباس وابن جبير ـ ومعناه لم يكن لهم عمل صالح . وقال السدي : لما قتل الحسين ﷺ بكت السماء عليه وبكاؤها حمرة أطرافها . وقال الحسن : ما بكى عليهم المؤمنون والملائكة ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

وقوله ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي عوجلوا بالعقوبة ولم يمهلوا .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ

---

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٠ نسبه الى يزيد بن يربوع الحميري ، وقد مر في ٢ / ٤٠٠ (٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٠ نسبه الى جرير

عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَـؤٌ مُبِينٌ (٣٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٦)

سبع آيات كوفي وست في ما عداه، عدّ الكوفيون « ليقولون » ولم يعده الباقون.

اقسم الله تعالى أنه نجّى أي خلص بني اسرائيل الذين آمنوا بموسى من العذاب المهين الذي كان يفعله بهم فرعون وقومه لأنهم كانوا استعبدوهم، وكانوا يكلفونهم المشاق ويحملوهم القـذارات ويكلفونهم كنسها وتنظيفها وغير ذاـك، فخلصهم الله تعالى حين أهلك فرعون وقومه ووفقهم للايمان بموسى.

ثم اخبر تعالى ان فرعون كان عالياً من المسرفين أي متجبراً متكبراً من المسرفين فى الأرض الذين يتجاوزون حد ما يجوز فعله إلى ما لا يجوز فعله استكباراً وعلواً وعتواً، يقال : اسرف يسرف اسرافاً فهو مسرف، ومثله الافراط، وضده الاقتار، وإنما وصف المسرف بأنه عال، وإن كان وصف عال قد يكون صفة مدح، لانه قيده بأنه عال في الاسراف، لان العالي في الاحسان ممدوح والعالي فى الاسراف مذموم، والاطلاق صفة عال تعظيم، وإذا اطلق فالمدح به أولى.

ثم اخبر تعالى مقسماً بأنه اختارهم يعني موسى وقومه على علم على العالمين، فالاختيار هو اختيار الشيء على غيره بالارادة له لتفضيله عليه. ومثله الايثار، وليس فى مجرد الارادة تفضيل شيء على غيره، لانه قد يمكن أن يريد شيئاً من غير أن يخطر بباله ما هو فيه أولى منه فى العقل، فلا يكون اختياره تفضيلا. وإما ان يريد الأولى ولا يدري انه أولى، فيختاره عليه لجهله بأنه أولى او يختاره وهو يعلم انه غير

أولى ، ويختاره لحاجته اليه من جهة تعجل النفع به ، ومن اختار الادون في الصلاح على الأصلح كان منقوصاً مذموماً، لانه بمنزلة من اختار القبيح على الحسن .

وقيل : المعنى اخترناهم على عالمي زمانهم بدلالة قوله لأمة نبينا « كنتم خير أمة اخرجت للناس » (١) وذلك يوجب انه ما اختارهم على من هو خير منهم ، وإنما اختارهم على من هو في وقتهم من العالمين . وقال قتادة ، ومجاهـــد : على عالمي زمانهم . وإنما قال « اخترناهم على علم على العالمين » بما جعل فيهم من الأنبياء الكثيرين ، فهـذه خاصة لهم ليست لغيرهم ، لما في العلوم من مصالح المكلفين بأنبيائهم .

ثم بين ما به اختارهم بأن قال « وآتيناهم » يعني أعطيناهم « من الآيات » يعني الدلالات والمعجزات « ما فيـه بلاء مبين » قال الحسن : يعني ما فيه النعمة الظاهرة . قال الفراء : البلاء قد يكون بالعذاب ، وقد يكون بالنعمة ، وهو ما فعل الله بهم من إهلاك فرعون وقومـه ، وتخليصهم منه وإظهار نعمه عليهم شيئاً بعد شيء .

ثم اخبر تعالى عن كفار قوم نبينا صلى الله عليه وآله فقال « ان هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى » أي ليس هـــذا الا الموتة الاولى « وما نحن » أي لسنا بعدها بمبعوثين ولا معادين « بمنشرين » ويقولون « فأتوا بآبائنا » الذين ماتوا قبلنـا وأعيدوهم « ان كنتم صادقين » في ان الله تعالى يقدر على اعادة الأموات واحيائهم لان من قدر على النشأة الثانية قدر على اعادة الآباء ، وهذا باطل لان النشأة الثانية انما وجبت للجزاء لا للتكليف ، فلا تلزم اعادة الآباء ولا تجب .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠ .

قوله تعالى :

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) أربع آيات بلا خلاف.

ان قيل : لم لم يجابوا عن شبهتهم فى الآية ، ولم يبين لهم أن ذلك لا يلزم ، وما الوجه في جوابهم ؟ « أهم خير أم قوم تبع » قلنا : من تجاهل فى الحجاج الذي يجري مجرى الشغب الذي لا يعتقد بمثله مذهب لنفي الشبهة فيه ، فانه ينبغي أن يعدل عن مقابلته الى الوعظ له بما هو اعود عليه ، فلذلك عدل تعالى معهم الى هذا الوعيد الشديد ، و قال « أهم » هؤلاء الكفار « خير أم قوم تبع والذين من قبلهم » فانا « اهلكناهم » لما جحدوا الآيات وكفروا بنعم الله وارتكبوا معاصيه فما الذي يؤمن هؤلاء من مثل ذلك . وقيل : تبع الحميري كان رجل من حمير سار بالجيوش الى الحيرة حتى حيرها ، ثم أتى سمرقند فهدمها ، وكان يكتب باسم الذي ملك بحراً وبراً وضحا وريحاً ، ذكره قتادة . وقال سعيد بن جبير وكعب الاحبار ذم الله قومه ، ولم يذمه ونهى أن يسب . وحكى الزجاج : ان تبعاً كان مؤمناً ، وان قومه كانوا كافرين . وقيل : انه نظر الى كتاب على قبرين بناحية حمير (هذا قبر رضوي وقبر حبي ابني تبع لا يشركان بالله شيئاً) وقيل : سمي تبعاً ، لانه تبع من كان قبله من ملوك اليمن . والتبابعة اسم ملوك اليمن .

ثم قال تعالى « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين » أي لم نخلق ذلك لا لغرض حكمي بل خلقناهم لغرض حكمي ، وهو ان ننفع به المكلفين

ونعرضهم الثواب وننفع سائر الحيوان بالمنافع لهم فيها واللذات . وفي الآية دلالة على من انكر البعث ، لانه لو كان على ما توهموه انه لا يجر به الى الجزاء في دار أخرى مع ما فيه من الألم لكان لعبًا ، لانه ابتدأ باختيار ألم لا يجر به الى عوض .

ثم قال تعالى « وما خلقناهما » يعني السموات والارض « الا بالحق » قال الحسن معناه الا للحق الذى يصل اليه فى دار الجزاء . وقيل فيه قولان آخران :

احدهما ـ ما خلقناهما الا بداعي العلم الى خلقهما ، والعلم لا يدعو الا الى الصواب.

الثاني ـ وما خلقناهما الا على الحق الذى يستحق به الحمد خلاف الباطل الذى يستحق به الذم .

ثم قال « ولكن اكثرهم لا يعلمون » بصحة ما قلناه لعدولهم عن النظر فيه ، والاستدلال على صحته . وفي ذلك دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية ، لانها لو كانت لما نفى تعالى علمهم بذلك .

ثم قال تعالى « ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين » يعني اليوم الذى يفصل فيه بين المحق والمبطل بما يضطر كل واحد منهما الى حاله من حقه او باطله فيشفي صدور المؤمنين ويقطع قلوب الكافرين بما يرون من ظهور الامر وانكشافه ، وهو يوم القيامة ، وبين انه ميقات الخلق أجمعين وهو من له ثواب وعوض او عليه عقاب يوصله اليه .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣)

طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ (٥٠) .

عشر آيات كوفي وبصري وتسع في ما عداه ، عدّ الكوفيون والبصريون « الزقوم » ووافقهم عليه الشاميون والمدني الأول . وعدّ أيضاً العراقيون « يغلي في البطون » ووافقهم عليه المكيون والمدني الأخير .

قرأ « يغلي » بالياء كثير وابن عامر وحفص عن عاصم . الباقون بالتاء . من قرأ بالياء رده إلى المهل . ومن قرأ بالتاء رده إلى الشجرة . قال ابو علي : من قرأ بالياء حمله على الطعام ، لان الطعام هو الشجرة في المعنى ألا ترى انه خبر الشجرة والخبر هو المبتدأ بعينه إذا كان مفرداً في المعنى ، ولا يحمل على (المهل) لان المهل إنما ذكر ليشبه به في الذوق ، لان التقدير إن شجرة الزقوم طعام الأثيم تغلي في البطون كالمهل على الحميم .

لما ذكر الله تعالى أن يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم الله فيه ويفصل بينهم بالحق أي يوم هو ؟ فوصفه انه « يوم لا يغني فيه مولى عن مولى شيئاً » ، لأن الله تعالى أيأس من ذلك ، لما علم فيه من صلاح العباد ، ولولا ذلك لجاز أن يغرى . والمعنى إنه ليس لهم من ينتصر لهم من عقاب الله تعالى ، فلا ينافي ذلك ما نقوله : من أنه يشفع النبي والأئمة والمؤمنون في إسقاط كثير من عقاب المؤمنين ، لأن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله واذنه . والمراد في الآية أنه ليس لهم من يغني عنهم

من غير أن يأذن الله له فيه على وجه الدفع عنه والنصر له . وبين ذلك بقوله « ولاهم ينصرون » والمولى ـ ههنا ـ الصاحب الذي شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره ، فيدخل في ذلك ابن العم والحليف وغيره ممن هذه صفته وقد استثنا ماأشرنا اليه بقوله « إلا من رحم الله » فان من يرحمه الله اما أن يسقط عقابه ابتداء او يأذن في إسقاط عقابه بالشفاعة فيه .

ثم وصف نفسه بأنه القادر الذي لا يغلب ولا يقهر بدفع العقاب عمن يريد فعله به « الرحيم » أي المنعم لمن يريد العفو عنه باسقاط عقابه .

ثم اخبر تعالى « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » الذي يستحق العقاب بمعاصيه وعنى به ـ ههنا ـ أبو جهل ، فالزقوم ما أكل بتكرّه شديد له ، لانه يحشو به فمه ويأكله بشره شديد ، ولهذا حكي عن أبي جهل انه أتى بتمر وزبد ، فقال : نحن نتزقم هذا أي نملأ به أفواهنا فما يضرنا .

ثم شبه ذلك بأنه مثل المهل ، وهو الشيء الذي يذاب في النار حتى يشتد حره كالفضة والرصاص وغيرهما مما يماع بالنار ، وهو مهل ، لأنه يمهل في النار حتى يذوب . وقال ابن عباس : المهل ما أذيب بالنار كالفضة ، وهو قول ابن مسعود وروي عن ابن عباس ايضاً أن المهل دردي الزيت في النار . ثم وصف (المهل) بأنه « يغلي في البطون » من حرارته ، كما يغلي الحميم وهو الماء المغلي على النار ، فالمهل يغلي في بطون أهل النار ، كما يغلي الماء بحر الايقاد والغلي إرتفاع المائع من الماء ونحوه بشدة الحرارة. والحميم الحار ومنه أحم الله ذلك من لقاء أي ادناه وقربه لان ما حم فللاسراع وما برد فللابطاء، ومنه حمم ريش الطائر إذا قرب خروجه .

ثم بين أنه تعالى يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكافر وأن يعتلوه « إلى سواء الجحيم » يعني إلى وسطه . والعتل زعزعة البدن بالجفاء والغلظة للاهانة ، فمعنى

« اعتلوه » اعملوا به هذا العمل ، ومنه العتل ، وهو الجافي الغليظ يقال : عتله يعتله ويعتله عتلا إذا ساقه دفعاً وسحباً . قال الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك إباءهم حتى ترد إلى عطية تعتل (١)

و « سواء الجحيم » وسطه - في قول قتادة - وسمي وسط الشيء سواء ، لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به ، والسواء العدل كقولهم : هذا سواء بيننا وبينكم أي عدل .

ثم بين تعالى أنه يأمرهم بأن يصبوا فوق رأس الكافر من عذاب الحميم . وهو ما فسرناه . ثم يخاطبه فيقول له « ذق إنك أنت العزيز الكريم » على وجه التهجين له بما كان يدعي له مما ليس به أي أنت كذلك عند نفسك وقومك . ويجوز ان يكون على معنى النقيض ، كأنه قيل : إنك انت الذليل المهين إلا أنه قيل : على تلك الجهة للتبعيد منها على وجه الاستخفاف به . وقيل إن الآية نزلت في أبي جهل ، وقد كان قال : (أنا أعز من بها وأكرم) - ذكره قتادة - وقيل : المعنى أنت الذي كنت تطلب العز في قومك والكرم بمعصية الله . وقيل : المعنى إنك انت العزيز في قومك ، الكريم عليهم ، فما أغنى عنك .

ثم قال « إن هذا » يعني العذاب « ما كنتم به تمترون » أي تشكون فيه في دار الدنيا . وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورة .

وقرأ الكسائي « ذق أنك » بفتح الهمزة بمعنى لأنك أنت العزيز او بأنك الباقون - بكسر الهمزة - على وجه الابتداء بالخبر عنه ، ويكون التقدير ذق العذاب . ثم ابتدأ إنك . وقرأ « فاعتلوه » - بضم التاء - ابن كثير ونافع وابن عامر . الباقون بكسر التاء وهما لغتان على ما حكيناه .

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٧٣

قولـه تعـالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ (٥٩) تسع آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر ونافع « في مقام » بضم الميم ، وهو موضع الاقامة . الباقون بفتح الميم ، وهو موضع القيام .

لما اخبر الله تعالى عن الكفار وما يفعله بهم من أنواع العقاب ، أخبر عن حال المطيعين وما أعده لهم من الثواب ، فقال « إن المتقين » يعني الذين يجتنبون معاصيه لكونها قبائح ، ويفعلون طاعاته لكونها طاعة « في مقام أمين » أي موضع إقامة - فيمن ضم الميم - ومن فتحها يريد أنهم في موضع قيامهم ، ووصفه بأنهم في « مقام أمين » من كل ما يخاف ، وليس هذا في الدنيا ، لانه لا يخلو منها احد من موقف خوف من مرض او أذى او غير ذلك .

ثم بين ذلك المقام فقال « في جنات » يعني بساتين تجنها الأشجار « وعيون »

ماء نابعة فيها « يلبسون من سند واستبرق » فالسندس الحرير ـ في قول الحسن . والاستبرق الديباج الغليظ ـ في قول قتادة ـ وإنما رغبهم في ذلك بحسب ما كانوا يعرفونه ، وإن كان ـ ههنا ـ ما هو ارفع منها واحسن « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً بالمحبة ، لامتدابرين بالبغضة . ثم قال ومثل ما فعلنا بهم « كذلك زوجناهم بحور عين » فالحور جمع حوراء من الحور ، وهو شدة البياض . وقال قتادة « بحور » أي ببيض ، ومنه الحور لبياضه ، وحورته أي بيضته من حار يحور أي رجع إلى الحالة الأولى كما يرجع إلى حال الأبيض ، ومنه المحور « والعين » جمع عيناء وهي الواسعة العين الحسنة ، وكذلك لهم في حكم الله . وقال الحسن : العيناء الشديدة السواد سواد العين ، الشديدة البياض بياضها « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي يستدعون أي ثمرة شاؤا غير خائفين فوتها . ثم قال « لا يذوقون فيها » يعني في الجنة « الموت إلا الموتة الأولى » شبه الموت بالطعام الذي يذاق وينكر عند المذاق . ثم نفى ذاك ، وانه لايكون ذلك في الجنة ، وإنما خصهم بأنهم لا يذوقون الموت مع أن جميع الحيوان يوم القيامة لا يذوقون الموت ، لما في ذلك من البشارة لهم بانتهاء ذلك إلى الحياة الهنيئة في الجنة ، فأما من يكون فيها هو كحال الموت في الشدة ، فلا يطلق له هذه الصفة ، لانه يموت موتات كثيرة بما يلاقي ويقاسي من الشدة ، واما غير المكلفين ، فليس مما يعقل ، فتلحقه هذه البشارة وإن عم ذلك اهل الجنة .

وقوله « إلا الموتة الأولى » قيل ان (إلا) بمعنى (بعد) كأنه قال بعد الموتة الاولى . وقيل : معنى (إلا) سوى كأنه قال : سوى الموتة الأولى . وقيل : إنها بمعنى (لكن) وتقديره لكن الموتة الأولى قد ذاقوها . وقال الجبائي : هذا حكاية حال المؤمنين في الآخرة ، فلما اخبرهم بذلك في الدنيا ، وهم لم يذوقوا بعد

الموت جاز أن يقال لا يذوقون الموت فى المستقبل إلا الموتة الأولى يخرجون بها من دار التكليف ، وهذا ضعيف ، لان في ذلك خبر عن حكمهم فى الجنة وأنهم لا يذوقون فيها الموت ثم استثنى من ذلك الموتة الأولى ، وكيف يرد إلى دار الدنيا؟! وحقيقة (إلا) إخراج بعض عن كل وحقيقة (بعد) إخراج الثاني عن الوقت الاول.

وقوله « ووقاهم عذاب الجحيم » أي يصرف عنهم عذاب النار ، وليس فى ذلك ما يدل على أن الفاسق الملي لا يعذب ويخرج من النار ، من حيث أنه لا يكون قد وقي النار ، لانه يحتمل أمرين :

احدها ـ ان يكون ذلك مخصوصاً بمن لا يدخل النار ممن لا يستحقه او بمن عفي عنه .

والثاني ـ ان يكون المراد « ووقاهم عذاب الجحيم » على وجه التأبيد او على الوجه الذي يعذب عليه الكفار .

ثم بين أن ذلك فضل من الله ، ونصبه على المصدر ، وتقديره فضل فضلا منه تعالى . واخبر بأن « ذلك هو الفوز العظيم » يعني الفلاح العظيم .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « إنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » يعني باللغة العربية ليفقهوه ويتفكروا فيه ، فيعلموا ان الامر على ما قلناه . ثم أمره صلى الله عليه وآله فقال « فارتقب » أي انتظر يا محمد مجيء ما وعدتك به « إنهم منتظرون » ايضاً وهو قول قتادة ، وإنما قال فيهم « إنهم منتظرون » لانهم فى مثل حال المنتظر فى انه سيأتيه عاقبة حاله كما يأتي المنتظر .

٤٥ ـ سورة الجاثية

مكية في قول قتادة ومجاهد وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وست في البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي واربع في الباقي ، عد الكوفيون « حم » ولم يعده الباقون .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « لآيات » بالكسر في الثلاث مواضع . الباقون بالرفع في الثاني . والثالث . من خفض التاء فعلى أنه في موضع نصب رداً على (إن) وإنما كسرت التاء ، لانها تاء جمع التأنيث . وقال المبرد : هذا بعد الواو لانه عطف على عاملين على « إن » و « في » بحرف الواو ، لانه يكون عطف «وإختلاف» على (في) وعطف على (إن) بهذه الواو وحدها ، فأما « آيات» الثانية

فأجاز عطفها على الاولى ، لان معها (فى) وتقديره إن فى خلقكم. قال ابن خالويه ليس ذلك لحناً ، لان من رفع أيضاً فقد عطف على عاملين ، فيكون عطف جملة على جملة ويحتمل ان يكون عطف على موضع (إن) لان موضعها الرفع ، والاخفش كان يجيز العطف على عاملين ، فيقول مررت بزيد فى الدار والحجرة عمرو ، ويحتج بقول الشاعر :

اكل امرىء تحسبين امرأ ونار تأجج للحرب ناراً (١)

عطف على ما عملت فيه (كل) وما عملت فيه (تحسبين) وأجود من العطف على عاملين أن يجعل (آيات) الثانية بدلا من الأول ، فيكون غير عاطف على عاملين ، وتقديره إن فى السموات والأرض لآيات المؤمنين لآيات ، كما تقول: ضربت زيداً زيداً . فلا يحتاج إلى حرف العطف ، ومن رفع آيات الثانية حملها على الابتداء والخبر ، وجعل الثالثة تكرير الثانية بالرفع ، قال الزجاج : لأنه يرفع (آيات) عطفاً على ما قبلها ، كما خفض (واختلاف) عطفاً على ما قبلها . وقال ابو علي : وجه قراءة الكسائي أنه لم يحمل على موضع (إن) كما حمله من رفع (آيات) فى الموضعين أو قطعه واستأنف ، لكنه حمله على لفظ (إن) دون موضعها ، فحمل (آيات) في الموضعين على نصب (إن) في قوله « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ويكون على تقدير إن ، وإن كانت محذوفة من اللفظ ويجعلها فى حكم المثبت فيه ، لان ذكره قد تقدم فى قوله « إن فى السموات » وقوله « وفي خلقكم » فلما تقدم الجار في هذين الموضعين قدر فى الاثبات فى اللفظ ، وإن كان محذوفاً منه كما قدر سيبويه فى قوله :

اكل امرىء تحسبن امرءاً [ونار تأجج للجر ناراً]

(١) قائله ابو ذؤاد الايادي ، تفسير القرطبى ١٦ / ١٩٧

وقيل (كل) في حكم الملفوظ به واستغني عن إظهاره بتقدم ذكره، وكذلك فعلت العرب في الجار ألا ترى أنهم لم يجيزوا (من تمرر أمرر) واجازوا (بمن تمرر أمرر) و (على أيهم تنزل انزل) فحذف الجار حسن لتقدم ذكر الجار، وعلى هذا قول الشاعر:

ان الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل

لما ذكر (على) و (إن) كانت زائدة ـ في قول سيبويه ـ حسن حذف الجار من الصلة، ولو لم تذكر لم يجزه. وحكي في بعض القراءات عن أبي إنه قرأ في المواضع الثلاث «لآيات في خلقكم وما يبث من دابة لآيات» وكذلك الآخر فدخول اللام يدل على أن الكلام محمول على (إن) وإذا كان محمولا عليها حسن النصب على قراءة حمزة والكسائي وصار كل موضع من ذلك كأن (إن) مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأن هذه اللام إنما تدخل على خبر (إن) أو اسمها، وحكي أن أبيا قرأ «لآيات» بالرفع مع إدخال اللام عليها، وهذا لا يجيزه اكثر النحويين كالكسائي وغيره، كما لا يجوز في الدار لزيد، واجازه الفراء وانشد لحميد بن ثور:

إن الخلافة بعدهم لذميمة وخلائف طرف لمما أحقر (١)

وحكى الفراء أنه يقول العرب (إن) لي عليك مالاً وعلى أبيك مال بالرفع والنصب، وحكى ابو علي: إنه يجوز أن يعمل الثاني على التأكيد للاول وكذلك في الثالث، ولا يكون عطفاً على عاملين، كما قال بعض شيوخنا في قوله «ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له» (٢) حمل الثاني على أنه تأكيد للاول.

قد ذكرنا في ما تقدم ان (حم) اسم للسورة، وانه أجود الأقوال. قال الرماني: وفي تسمية السورة بـ (حم) دلالة على ان هذا القرآن المعجز كله من

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٧٧ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

حروف المعجم ، لأنه سمي به ايدل عليه بأوصافه ، ومن اوصافه انه مفصل قد فصلت كل سورة من اختها . ومن اوصافه أنه هدى ونور ، فكأنه قيل : هذا اسمه الدال عليه بأوصافه . ثم وصف تعالى الكتاب بأنه تنزيل من الله في مواضع من السور لاستفتاحه بتعظيم شأنه على تصريف القول بما يقتضي ذلك فيه من أضافته إلى الله تعالى من اكرم الوجوه وأجلها وما يتفق الوصف فيه يقتضى انه كالأول في علو المنزلة وجلالته عند الله وإذا أفاد هذا المعنى باقتضائه له لم يكن تكريراً ، ويقول القائل : اللهم اغفر لي اللهم ارحمني اللهم عافني اللهم اوسع عليّ في رزقي فيأتى بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعقد بكل ما يدعو به .

وقوله « من الله » يدل على ان ابتداءه منه تعالى « العزيز » ومعناه القادر الذي لا يغالب « الحكيم » معناه العالم . وقد يكون بمعنى أن أفعاله حكمة وصواب

ثم أخبر تعالى ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين الذين يصدقون بالله ويقرون بتوحيده وصدق انبيائه وإنما اضاف الآيات إلى المؤمنين وإن كانت ادلة للكافرين ايضاً ، لأن المؤمنين انتفعوا بها دون غيرهم من الكفار . والآيات هي الدلالات والحجج . وفي السموات والارض دلالات على الحق من وجوه كثيرة ، منها أنه يدل بخلقها على ان لها خالقاً ، وانه قادر لا يعجزه شيء وانه مخالف لها ، فلا يشبهها وعلى انه عالم بما فيها من الاتقان والانتظام . وفي استحالة تعلق القدرة بها دلالة على ان صانعها قديم غير محدث وبوقوفها مع عظمها وثقل اجرامها بغير عمد ولا سند يدل على أن القادر عليها قادر على الاتيان بما لا يتناهى ولا يشبه احد من القادرين وانه خارج عن حد الطبيعة .

ثم بين تعالى ان في خلقنا آيات ، والوجه في الدلالة في خلقنا ضروب كثيرة : منها خلق النفس على ما هو به من وضع كل شيء موضعه لما يصلح له .

وفي ذلك دلالة على أن صانعه عالم لأنه فعل الحواس الخمس على البنية التي تصلح له مما يختص كل واحد منها بادراك شيء بعينه ، لا يشركه فيه الآخر ، لان العين لاتصلح إلا لادراك المبصرات وكذلك الفم يصلح للذوق ، والأنف للشم ، والبشرة المس ، وكل شيء من ذلك يختص بما لا يشركه فيه الآخر وفي ذلك أوضح دلالة على ان صانعها عالم بها ، وأنه لا يشبهه شيء ، ولو لم يكن إلا خلق العقل الذي يهدي إلى كل أمر ، ويتميز به العاقل من كل حيوان ، ولا يشبهه شيء في جلالته وعظم منزلته لكان فيه كفاية على جلالة صانعه وعظم خالقه . وقيل : معنى اختلاف الليل والنهار تعاقبهما . وقيل : زيادتهما ونقصانهما ، وإنزال الماء من السماء من الغيث والمطر واحياء الأرض بالنبات بعد الجدب والقحط فيثبت الله بذلك رزق الحيوان .

وقوله « وبث فيها من كل دابة » أي فرق فيها من جميع الحيوان بأن خلقها وأوجدها ، وتصريف الرياح بأن يجعلها تارة جنوباً وتارة شمالا ومرة دبوراً ومرة صباً - في قول الحسن - وقال قتادة: يجعلها رحمة مرة وعذاباً أخرى . وقال الحسن : كثافة السماء مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء إلى سماء فتق مسيرة خمسمائة عام وبين كل أرضين فتق مسيرة خمسمائة عام ، وكثافة الأرض مسيرة خمسمائة عام .

قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ ٱللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي « تؤمنون » بالتاء على وجه الخطاب للكفار على تقدير قل لهم يا محمد . الباقون بالياء على وجه الاخبار عنهم والتعجب منهم .

لما اخبر الله تعالى عن القرآن بأنه تنزيل من الله وأن في السموات والأرض آيات ودلالات لمن نظر فيها تدل على الحق وأن في أنفس الخلق وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات وبث انواع الحيوان أدلة لخلقه تدلهم على توحيد الله وحكمته لمن انعم النظر فيها، بين ههنا أن ما ذكره أدلة الله التي نصبها لخلقه المكلفين لازاحة علتهم وانه يتلوها بمعنى يقرؤها على نبيه محمد ليقرءها عليهم بالحق دون الباطل . والتلاوة الاتيان بالثاني في أثر الأول في القراءة، فتلاوة الحروف بعضها بعضاً يكون في الكتابة والقراءة ، وفلان يتلو فلاناً أي يأتي بعده ، وفلان يتلو القرآن أي يقرؤه ، والحق الذي تتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به في جميع أنواعه . والفرق بين حديث القرآن وآياته ان حديثه قصص تستخرج منه عبر تدل على الحق من الباطل ، والآيات هي الأدلة التي تفصل بين الصحيح والفاسد فهو مصروف في الأمرين ليسلك الناظر فيه الطريقين ، لما له في كل واحد منهما من الفائدة في القطع بأحد الحالين في أمور الدين .

ثم قال على وجه التهجين لهم إن هؤلاء الكفار إن لم يصدقوا بما تلوناه فبأي شيء بعده يؤمنون .

ثم قال مهدداً لهم « ويل لكل أفاك أثيم » فالويل قيل : إنه واد سائل من جهنم صديد أهلها . وقيل : إن الويل كلمة يتلقى بها الكفار والفساق تتضمن استحقاقهم العقاب . والأفاك الكذاب ويطلق ذلك على من يكثر كذبه او يعظم كذبه وإن كان في خبر واحد ، ككذب مسيلمة في ادعاء النبوة . والأثيم ذو الاثم ، وهوصاحب المعصية التي يستحق بها العقاب .

ثم وصف هذا الأفاك الاثيم ، فقال « يسمع آيات الله » أي حججه « تتلى عليه » أي تقرأ « ثم يصر » أي يقيم مصراً على كفره « مستكبراً » متجبراً عن النظر في آيات الله لا ينظر فيها ولا يعتبر بها « كأن لم يسمعها » أصلا .

ثم أمر نبيه ﷺ أن يبشر من هذه صفته فقال « فبشره بعذاب اليم » أي مؤلم موجع . ثم عاد تعالى إلى وصفه فقال ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً ﴾ اتخذها هزواً أي إذا علم هذا الافاك الاثيم من حجج الله تعالى وأدلته شيئاً وسمعها ﴿ اتخذها هزواً ﴾ أي سخر منها وتلهى بها ، كما فعل ابو جهل حين سمع قوله ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الاثيم ﴾ (١) ثم قال أولئك يعني من هذه صفته ﴿لهم عذاب مهين ﴾ أي مذل لهم . ثم قال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي من بين أيديهم يعني يوم القيامة (جهنم) معدة لهم وإنما قيل : لما بين ايديهم من ورائهم ، والوراء هو الخلف ، لانه يكون مستقبل أوقاتهم بعد تقضيهم ومعناه ما توارى عنهم قد يكون قداماً وخلفاً فهو لهذه العلة يصلح فيه الوجهان ثم قال تعالى «ولا يغني عنهم» إذا جعلوا في جهنم ماكسبوه في دار الدنيا من جمع الاموال ﴿ ولاشيئاً يغني عنهم أيضاً ﴾ ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ يتولونهم ويحبونهم لينصروهم ويدفعوا عنهم ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ووصفه بأنه عظيم، لانه مؤبد نعوذ بالله منه .

---

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٤

قوله تعالى :

﴿هذا هُدًى وَالَّذينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللهُ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وحفص ﴿ من رجز اليم ﴾ بالرفع جعلاه صفة للعذاب . الباقون بالخفض جعلوه صفة للرجز ، فكأن قال : من رجز اليم ، والرجز هو العذاب فلذلك صح وصفه بأنه أليم . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ لنجزي ﴾ قوماً بالنون على وجه الأخبار من الله عن نفسه بأنه يجازيهم . الباقون بالياء رداً إلى ﴿ الله ﴾ على الاخبار عنه .

معنى قوله ﴿ هذا هدى ﴾ أي هذا القرآن الذي تلوناه والكلام الذي ذكرناه ﴿ هدى ﴾ أي دلالة موصلة إلى الفرق بين ما يستحق به الثواب والعقاب ، ويفرق به بين الحق والباطل من امر الدين والدنيا . ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ وجحدوها ﴿ لهم عذاب ﴾ من عند الله جزاء على كفرهم ﴿ من رجز اليم ﴾ .

ثم نبه تعالى خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ﴾ ووجه الدلالة من تسخير البحر لتجري الفلك فيه بأمره، لنبتغي بتسخيره من فضل الله، فهو محسن فى فعله يستحق الشكر به على وجه لا يجوز لغيره، وإن احسن، لانه أعظم من كل نعمة. وبين انه إنما فعل ذلك لكي يشكروه على نعمه. ثم قال ﴿ وسخر لكم ﴾ معاشر الخلق ﴿ ما في السموات وما فى الأرض جميعاً ﴾ من شمس وقمر ونجم وهواء وغيث وغير ذلك وجعل السماء سقفاً مزيناً وجوهراً كريماً وسخر الأرض للاستقرار عليها وما يخرج من الاقوات منها من ضروب النبات والثمار والبر فيها إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من ضروب نعمه مما لا يحاط به علماً، وسهل الوصول إلى الانتفاع به تفضلا ﴿ منه ﴾ على خلقه. ثم بين ﴿ إن فى ذلك ﴾ يعني فى ما بينه ﴿ لآيات ﴾ ودلالات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيه ويعتبرون به.

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي لا يخافون عذاب الله إذا أنالوكم الأذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكف عنكم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب الله المؤمنين، إن الله يعرفهم عقاب سيآتهم عما عملوا من ذلك وغيره. ومعنى ﴿ يغفروا ﴾ ههنا يتركوا مجازاتهم على أذاهم ولا يكافوهم ليتولى الله مجازاتهم. وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك: هو من المنسوخ. وقال ابو صالح: نسخها قوله ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ (١) و (يغفروا) جواب أمر محذوف دل عليه الكلام، وتقديره: قل لهم اغفروا يغفروا وصار (قل لهم) على هذا الوجه يغني عنه. وقال الفراء: معناه فى الأصل حكاية بمنزلة الأمر كقولك: قل للذين آمنوا اغفروا، وإذا ظهر الأمر مصرحاً فهو مجزوم

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٣٩

لأنه أمر وإن كان على الخبر مثل قوله ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ (١) فهذا مجزوم تشبيهاً بالجزاء .

وقوله ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ يحتمل معنيين :

احدهما ـ قل لهم يغفروا لهم ، فان الله يجازيهم يعني الكفار ، فانهم اليه يرجعون .

الثاني ـ ان يكون المعنى ليجزيهم الله يعني المؤمنين ، ويعظم أجرهم على احتمالهم وصبرهم ولن يفوتوه يعني الكافرين بل اليه مرجعهم .

ثم قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً ﴾ يعني طاعة وخيراً ﴿ فلنفسه ﴾ لان ثواب ذلك عائد عليه ﴿ ومن اساء ﴾ بأن فعل المعصية ﴿ فعليها ﴾ أي على نفسه لان عقاب معصيته يناله دون غيره . ثم قال ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ الذي خلقكم ودبركم تردون يوم القيامة اليه أي إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي والضر والنفع غيره ، فيجازي كل إنسان على قدر عمله .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٣١

وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف .

هذا قسم من الله تعالى بأنه أعطى بني إسرائيل الكتاب يعني التوراة وآتاهم الحكم ، وهو العلم بالفصل بين الخصمين وبين المحق والمبطل ، يقال : حكم في الامر يحكم حكما ، وحكمته في أمري تحكيماً ، واحكم العمل إحكاماً ، واستحكم الشيء استحكاماً ، وحاكمته إلى الحاكم محاكمة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ فالرزق العطاء الجاري على توقيت وتوظيف في الحكم ، وإنما قلنا في الحكم ، لانه لو حكم بالعطاء الموقت في الأوقات الدائرة على الاستمرار لكان رازقاً وإن أقتطعه ظالم عن ذلك العطاء . ثم قال ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ والتفضيل جعل الشيء أفضل من غيره باعطائه من الخير ما لم يعط غيره أو بالحكم لأنه افضل منه ، فالله تعالى فضل بني إسرائيل بما أعطاهم على عالمي زمانهم . قال الحسن : فضلهم الله على أهل زمانهم وقال قوم : فضلهم بكثرة الأنبياء منهم على سائر الامم ، وإن كانت أمة محمد صلى الله عليه وآله أفضل في كثرة المطيعين لله ، وكثرة العلماء منهم ، كما تقول هذا أفضل في علم النحو ، وذاك في علم الفقه ، فأمة محمد صلى الله عليه وآله افضل في علو منزلة نبيها عند الله على سائر الانبياء ، وكثرة العلماء منهم والعاملين بالحق لقوله تعالى ﴿ كنتم خير أمة اخرجت للناس ﴾ (١) فأولئك خالف اكثرهم أنبياءهم ووافق كثير من هؤلاء علماءهم واخذوا عنهم واقتبسوا من نورهم ، والفضل الخير الزائد على غيره وأمة محمد صلى الله عليه وآله أفضل

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠

بفضل نبيها .

ثم قال ﴿ وآتيناهم ﴾ يعني اعطيناهم ﴿ بينات من الأمر ﴾ أي دلالات وبراهين واضحات من الأمر ثم قال ﴿ فما اختلفوا ﴾ أي لم يختلفوا ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ فالاختلاف اعتقاد كل واحد من النفيسين ضد ما يعتقده الآخر إذا كان اختلافاً في المذهب ، وقد يكون الاختلاف في الطريق بأن يذهب احدهما يمنة ، والآخر يسرة ، وقد يكون الاختلاف في المعاني بأن لا يسد احدهما مسد الآخر في ما يرجع إلى ذاته . وإختلاف بني إسرائيل كان في ما يرجع إلى المذاهب .

وقوله ﴿ بغياً بينهم ﴾ نصب على المصدر ، ويجوز ان يكون على انه مفعول له أي اختلفوا للبغي وطلب الرياسة . ومعنى البغي الاستعلاء بالظلم ، وهو خلاف الاستعلاء بالحجة . والبغي يدعو إلى الاختلاف لما فيه من طلب الرفعة بما لايرجع إلى حقيقة ولا يسوغ في الحكمة ، وإنما كان ذلك طلباً الرياسة والامتناع من الانقياد للحق بالانفة . ثم قال ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة ﴾ أي يحكم ويفصل بين المحق منهم والمبطل في ما كانوا يختلفون في دار التكليف ، وقيل : الحكم العلم بالفصل بين الناس في الامور .

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ثم جعلناك ﴾ يا محمد ﴿ على شريعة من الامر ﴾ فالشريعة السنة التي من سلك طريقها أدته إلى البغية كالشريعة التي هي طريق إلى الماء ، وهي علامة منصوبة على الطريق إلى الجنة كأداء هذا الى الوصول إلى الماء ، فالشريعة العلامات المنصوبة من الأمر والنهي المؤدية إلى الجنة . ثم قال ﴿ فاتبعها ﴾ يعني اعمل بهذه الشريعة ﴿ ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون ﴾ الحق ولا يفصلون بينه وبين الباطل .

ثم اخبر النبي ﷺ فقال ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ يعني هؤلاء

الكفار لا يغنون عنك شيئاً ﴿ وإن الظالمين ﴾ نفوسهم ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ بفعل المعاصي ﴿ والله ولي المتقين ﴾ الذين يجتنبون معاصيه ويفعلون طاعاته .

ثم قال ﴿ هذا ﴾ يعني هذا الذي ذكرناه ﴿ بصائر للناس ﴾ أي ما يتبصرون به واحدها بصيرة ﴿ وهدى ﴾ أي ودلالة واضحة ﴿ ورحمة ﴾ أي ونعمة من الله عليهم ﴿ لقوم يوقنون ﴾ بحقيقة ذلك . وإنما اضافه إلى المؤمنين لانهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم يفكروا فيه .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّآتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ وَأَضَلَّهُ ٱللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر ﴿ سواء ﴾ نصباً ، الباقون بالرفع . وقرأ اهل

الكوفة إلا عاصماً ﴿ غشوة ﴾ على التوحيد الباقون ﴿ غشاوة ﴾ على الجمع . من رفع ﴿ سواء ﴾ جعله مبتدأ وما بعده خبراً عنه ، ويكون الوقف على قوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تاماً . وبجعل الجملة في موضع النصب ، لأنها خبر لـ (جعل) ورفع (سواء) لانه اسم جنس لا يجري على ما قبله كما لا تجري الصفة المشبهة بالمشبهة إذا كانت لسبب الاول كذلك نحو قولك : مررت بزيد خير منه أبوه . فمثل هذا في الحال والخبر والصفة سبيله واحد إذا كانت لسبب الأول . ومن نصب ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ جعل (سواء) في موضع (مستو) وعامله تلك المعاملة ، فجعل في موضع المفعول الثاني (أن نجعلهم) والهاء والميم المفعول الاول ، وإن جعلت ﴿ كالذين آمنوا ﴾ المفعول الثاني نصب (سواء) على الحال وهو وقف حسن . ويرفع (محياهم) بمعنى استوى محياهم ومماتهم . ومن قرأ ﴿ غشوة ﴾ جعله كالرجفة والخطفة . ومن قرأ ﴿ غشاوة ﴾ جعله مصدراً مجهولا ، والفعلة المرة الواحدة ، وقال قوم هما لغتان بمعنى واحد . وحكي الضم ايضاً . وقيل : في الضمير في قوله ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ قولان :

احدهما ـ إنه ضمير للكفار دون الذين آمنوا .

والثاني ـ انه ضمير للقبيلين. فمن جعل الضمير للكفار قال (سواء) على هذا القول مرتفع بأنه خبر ابتداء متقدم وتقديره محياهم ومماتهم سواء أي محياهم محيا سواء ومماتهم كذلك ، فعلى هذا لا يجوز النصب في (سواء) لانه إثبات الخبر بأن محياهم ومماتهم يستويان في الذم والبعد من رحمة الله . ومن قال الضمير يرجع إلى القبيلين قال يجوز ان ينتصب (سواء) على انه مفعول ثان لانه ملتبس بالقبيلين جميعاً ، وليس كذلك الوجه الاول ، لأنه للكفار دون المؤمنين ،فلا يلتبس بالمؤمن حيث كان للكفار دونهم

يقول الله تعالى على وجه التوبيخ للكفار على معاصيهم بكفرهم بلفظ الاستفهام ﴿ أم حسب ﴾ ومعنى (أم) يحتمل ان تكون الهمزة وتقديره أحسب الذين اجترحوا السيئات ، والحسبان هو الظن . وقد بيناه في ما مضى . والأجتراح الاكتساب اجترح السيئة اجتراحاً أي اكتسبها من الجراح ، لأن له تأثيراً كتأثير الجراح . ومثله الاقتراف ، وهو مشتق من قرف القرحة . والسيئة التي يسوء صاحبها ، وهي الفعلة القبيحة التي يستحق بها الذم ، والحسنة هي التي يسر صاحبها بأستحقاق المدح بها عليها ، ووصفها بهذا يفيد هذا المعنى . وقال الرماني : القبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله . والحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله قال : وكل فعل وقع لا لأمر من الأمور ، فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة ولا السفه . والجعل تصيير الشيء على صفة لم يكن عليها ، وهو انقلاب الشيء عما كان قادراً عليه . والمعنى أيظن هؤلاء الكفار المرتكبون المعاصي الذين اكتسبوا القبائح أن يحكم لهم بحكم المؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدقين لرسله العاملين بطاعته ؟ ! .

ثم اخبر عن الكفار فقال ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ أي هم متساوون حال كونهم أحياء وحال كونهم أمواتاً ، لأن الحي متى لم يفعل الطاعات فهو بمنزلة الميت وقال مجاهد : المؤمن يموت على ايمانه ويبعث عليه . والكافر يموت على كفره ويبعث عليه . ثم قال ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس الشيء الذي يحكمون به في هذه القصة . وانما قال ﴿ يحكمون ﴾ مع ان الحكم مأخوذ من الحكمة ، وهي حسنة ، لأن المراد على ما يدعون من الحكمة ، كما قال ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ (١) وقوله ﴿ وما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين ﴾ .

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

ثم قال تعالى ﴿ وخلق الله السموات والارض بالحق ﴾ أي للحق لم يخلقهما عبثاً ، وانما خلقهما لمنافع خلقه بأن يكلفهم فيها و يعرضهم للثواب الجزيل ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ من ثواب طاعة او عقاب على معصية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون حقوقهم .

ثم قال ﴿ أفرايت من اتخذ ﴾ يا محمد ﴿ الهه هواه ﴾ وانما سمي الهوى إلهاً من حيث أن العاصي يتبع هواه ويرتكب ما يدعوه اليه ولم يريد انه يعبد هواه أو يعتقد أنه يحق له العبادة ، لأن ذلك لا يعتقده احد . قال الحسن : معناه اتخذ إلهه بهواه ، لأن الله يحب أن يعرف بحجة العقل لا بالهوى . وقال سعيد بن جبير كانوا يعبدون العزى وهو حجر أبيض حيناً من الدهر ، فاذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر . وقال ابن عباس : معناه أفرايت من اتخذ دينه ما يهواه لانه يتخذه بغير هدى من الله ولا برهان . وقوله ﴿ وأضله الله على علم ﴾ معناه حكم الله بضلاله عالماً بعدوله عن الحق . ويحتمل ان يكون المعنى يعدل الله به عن طريق الجنة إلى طريق النار جزاء على فعله ، عالماً بأنه يستحق ذلك ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ وقد فسرناه في ما مضى . ومعناه أنه يجعل عليهما علامة تدل على كفره وضلاله واستحقاقه للعقاب ، لا أنه يفعل فيهما ما يمنع من فعل الايمان والطاعات ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ شبهه بمن كان على عينه غشاوة تمنعه من الابصار ، لان الكافر إذا كان لا ينتفع بما يراه ولا يعتبر به ، فكأنه لم يره ، ثم قال ﴿ فمن يهديه ﴾ إلى طريق الجنة او من يحكم بهدايته ﴿ من بعد الله ﴾ إن حكم الله بخلافه ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي افلا تتفكرون فتعلمون ان الأمر على ما قلناه .

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم ﴿ قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ليس الحياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها في دار الدنيا ﴿ نموت ونحيا ﴾ وقيل في

معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ انه على التقديم والتأخير وتقديره ونحيا ونموت من غير رجوع ولا بعث على ما تدعون .

والثاني ـ ان يكون المراد نموت ويحيا أولادنا كما يقال ما مات من خلف ابناً مثل فلان

والثالث ـ ان يكون المعنى يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، كما قال تعالى ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ (١) أي ليقتل بعضكم بعضاً . ثم حكى انهم يقولون ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ يعنون مرور الليل والنهار والشهور والاعوام

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ أي ليس لهم بما يقولونه علم ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي وليس هم في ما يذكرونه إلا ظانين وإنما الأمر فيه بخلافه . ثم قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا قرئت عليهم حججنا الظاهرة ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ﴾ يعني لم يكن لهم في مقابلتها حجة إلا قولهم ﴿ ائتوا بآبائنا ﴾ الذين ماتوا وبادوا ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أن الله يعيد الأموات ويبعثهم يوم القيامة . وإنما لم يجبهم الله إلى ذلك ، لانهم قالوا ذلك متعنتين مقترحين لا طالبين الحجة .

قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٤

تَعْمَلُونَ(٢٨) هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ الله يحييكم ﴾ فى دار الدنيا ، لانه لا يقدر على الأحياء احد سواه تعالى لانه قادر لنفسه ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد هذا ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء ، وإنما احتج بالاحياء فى دار الدنيا ، لأن من قدر على فعل الحياة في وقت قدر عليها في كل وقت . ومن عجز عنها فى وقت وتعذرت عليه مع كونه حياً ومع إرتفاع الموانع عجز عنها فى كل وقت . ثم بين أن يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لاشك فى كونه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما قلناه لعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحة ذلك . ثم قال تعالى ﴿ ولله ملك السموات والارض ويوم تقوم ﴾ أي وله الملك يوم تقوم ﴿ الساعة يخسر فيه المبطلون ﴾ ثواب الله . والمبطل هو من فعل الباطل وعدل عن الحق .

ثم اخبر تعالى عن حال يوم القيامة فقال ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ فالامة الجماعة التي على مقصد ، واشتقاقه من أمه يؤمه أماً إذا قصده ، والأمم أمم الانبياء ﴿ جاثية ﴾ وقال مجاهد والضحاك وابن زيد : معناه باركة مستوفرة على ركبها والجثو البروك . والجثو البروك على طرف الاصابع ، فهو ابلغ من الجثو .

وقوله ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ قيل معناه إلى كتابها الذي كان

يستنسخ لها ويثبت فيه أعمالها . وقال بعضهم : كتابها الذي انزل على رسولها ـ حكي ذالك عن الجاحظ ـ والاول الوجه .

ثم حكى إنه يقال لهم ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من طاعة او معصية على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . ثم قال تعالى ﴿ هذا كتابنا ﴾ يعني الذي أستنسخ ﴿ ينطق عليكم بالحق ﴾ جعل ثبوت ما فيه وظهوره بمنزلة النطق ، وإنه ينطق بالحق دون الباطل . ثم قال تعالى « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قال الحسن : نستنسخ ما حفظت عليكم الملائكة الحفظة . وقيل : الحفظة تستنسخ ما هو مدون عندها من أحوال بني آدم الجزائية فى قول ابن عباس ـ وروي عن علي عليه السلام أن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم يكتبون فيه أعمال بني آدم . ومعنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثواب وعقاب ونلقي ما عداه مما أثبته الحفظة ، لانهم يثبتون جميعه .

ثم قسم تعالى الخلق فقال « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي صدقوا بوحدانيته وصدقوا رسله وعملوا الاعمال الصالحات « فيدخلهم ربهم فى رحمته » من الثواب والجنة . ثم بين ان « ذالك هو الفوز المبين » أي الفلاح الظاهر .

قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٧) سبع آيات بلاخلاف

قرأ حمزة وحده « والساعة لا ريب فيها » نصباً عطفاً على « ان وعده » وتقديره ان وعد الله حق وإن الساعة آتية . الباقون بالرفع على الاستئناف او عطفاً على موضع (إن) .

لما اخبر الله تعالى عن حال المؤمنين العاملين بطاعة الله وانه يدخلهم الجنة أخبر عن حال الكفار ، فقال « واما الذين كفروا » أي جحدوا وحدانيتي وكذبوا رسلي ، يقال لهم « افلم تكن آياتي » وحججي « تتلى عليكم » قال الزجاج: جواب (إما) محذوف والفاء في « أفلم » دلالة عليه بتقدير فيقال لهم « أفلم » ومثله قوله « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » (١) وتقديره فيقال لهم اكفرتم بعد إيمانكم . وقال قوم : جواب « اما » الفاء في « أفلم تكن آياتي » إلا أن الالف تقدمته ، لان لها صدر الكلام .

وقوله « فاستكبرتم » فالاستكبار هو طلب التعظيم في أعلى المراتب فهو صفة

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

ذم في العباد وكذلك متكبر ، لانها تقتضي التعظيم في أعلى المراتب ، ولا يستحق التعظيم في اعلى المراتب إلا من لا يجوز عليه صفة النقص بوجه من الوجوه « وكنتم قوماً مجرمين » أي عاصين ، فالاجرام الانقطاع إلى الفساد ، واصله قطع الفعل عما تدعو اليه الحكمة . ثم حكى تعالى انه « إذا قيل ان وعد الله حق » أي ما وعدوا به من الثواب والعقاب كأن لامحة « وان الساعة لاريب فيها » أي لاشك في حصولها « قلتم » معاشر الكفار « ما ندري ما الساعة » أي لانعرفها « إن نظن إلا ظناً » ليس نعلم ذلك « ومانحن بمستيقنين » أى لسنا بمستيقنين ذلك .

ثم اخبر تعالى فقال « وبدا لهم سيئات ما عملوا » ومعناه ظهر لهم جزاء معاصيهم التي عملوها في دار التكليف من العقاب « وحاق بهم » أي حل بهم جزاء « ما كانوا به يستهزؤن » باخبار الله واخبار نبيه « وقيل » لهم « اليوم ننساكم » أى نترككم في العقاب ـ في قول ابن عباس ـ ونحرمكم ثواب الجنة « كما نسيتم » أى كما تركتم التأهب لـ « لقاء يومكم هذا » فلم تعملوا الطاعات وارتكبتم المعاصي وقال مجاهد : كنسيانكم يومكم « ومأواكم النار » أي مستقركم جهنم « ومالكم من ناصرين » يدفعون عنكم عذاب الله ولا لكم من مستنقذ من عذاب الله . ثم بين تعالى لم فعل بهم ذلك بان قال « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً » يعني حججه وآياته (هزواً) أي سخرية تسخرون منها « وغرتكم الحياة الدنيا » أي خدعتكم زينتها ومعناه اغتررتم بها ، « فاليوم لايخرجون منها » يعني من النار .

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « يخرجون » بفتح الياء وبضم الراء . الباقون بضم الياء وفتح الراء . ومن فتح الياء ، فلقوله « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها » (١) ومن ضم فلقوله « ولا هم يستعتبون » وطابق بينهما

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٠

ومعنى « ولا هم يستعبتون » أي لا يطلب منهم العتبى والاعتذار ، لان التكليف قد زال . وقيل : معناه لا يقبل منهم العتبى . وقيل : الوجـــه فى ظهور أحوالهم وسيئاتهم فى الآخرة التبكيت بها والتقريع بالتكذيب لما كان يمكنهم معرفته لظهور حججه على خلقه .

ثم قال تعالى « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » أي الشكر التام والمدحة التي لا يوازيها مدحة لله الذي خلق السموات والارض ودبرها وخلق العالمين « وله الكبرياء فى السموات والارض » أي له السلطان القاهر وله العظمة العالية التي هي فى أعلى المراتب لا يستحقها سواه « وهو العزيز » أي القادر الذي لا يغالب « الحكيم » فى جميع أفعاله . وقيل : (عزيز) فى أنتقامه من الكفار (حكيم) في ما يفعل بهم وبالمؤمنين من الثواب .

٤٦ ـ سورة الاحقاف

مكية بلا خلاف ، وهي خمس وثلاثون آية في الكوفي واربع وثلاثون في البصري والمدنيين عدأهل الكوفة (حم) آية ولم يعده الباقون . والباقي لاخلاف فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (٥) .

خمس آيات في الكوفي واربع في ما عداه عد الكوفي (حم) ولم يعده الباقون.

وقد بينا معنى قوله (حم) وإختلاف العلماء في ذلك ، وبينا ايضاً تأويل قوله « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فلا وجه لاعادته . وقيل : الوجه في

تكرير ذلك الابانة عن أن هذه السورة حالها حال السورة التي قبلها فى أنه تعالى نزلها وشرفها وكرّمها فى الاضافة إلى العزيز الحكيم . والعزيز القادر الذي لا يغالب ولا يقهر . وقيل هو العزيز فى انتقامه من أعدائه الحكيم فى افعاله . وقد يكون الحكيم بمعنى العالم بتصريف الأمور الذي لا يوقعها الا على مقتضى العلم فى التدبير وهو صفة مدح ، وضده السفيه ، وضد العزيز الذليل .

ثم قال تعالى مخبراً إنا « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ومعناه إنا لم نخلق السموات والارض وما بينهما إلا بالحق ومعناه إنه لم توجد السموات والأرض وما بينهما من الاجناس إلا للحق وتعريض الخلق لضروب النعم وتعريض المكلفين للثواب الجزيل ولم نخلقها عبثاً ولا سدى بل عرّضناهم للثواب بفعل الطاعات وزجرناهم بالعقاب عن فعل المعاصي ، وقدّرنا لهم اوقات نبعثهم اليها وأوقات نجازيهم فيها « واجل مسمى » أى مذكور للملائكة فى اللوح المحفوظ .

ثم قال « والذين كفروا » بوحدانية الله تعالى وجحدوا ربوبيته « عما انذروا » به معرضون وعما خوّفوا العمل من خلافه بالعقاب « معرضون » أى عادلون عن الفكر فيه والاعتبار به .

ثم قال « قل » يا محمد ﷺ لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام ويدعون مع الله إلهاً آخر « أرايتم ما تدعون من دون الله » آلهة وتوجهون عبادتكم اليها بأي شيء استحقوا ذلك « أروني ماذا خلقوا من الارض » فاستحقوا بخلق ذلك العبادة والشكر « أم لهم شرك فى السموات » أى في خلقها ، فانهم لا يقدرون على ادعاء ذلك .

ثم قال لهم « ائتوني بكتاب من قبل هذا » يعني هاتوا بكتاب انزله الله يدل على صحة قولكم قبل هذا القرآن « او أثارة من علم » يعني شيء يستخرج منه

فيثار فيعلم به ما هو منفعة لكم ـ وهو قول الحسن ـ وقال مجاهد : معناه او علماً تأثرونه عن غيركم ـ ويؤدي أثره ، وهما لغتان : اثره واثاره ، ومنه الحديث المأثور أي المرفوع ـ يدل على صحة ما تذهبون اليه . وقال ابو بكر وابن عباس : معناه او بقية من علم يشهد بصحة قولكم وصدق دعواكم « إن كنتم صادقين » في ما تذكرونه وتذهبون اليه . ويقال : اثر الشيء اثارة مثل قبح قباحة وسمح سماحة ، قال الراعي :

وذات أثارة اكلت عليه

يعني ذات بقية من شحم . ثم قال تعالى « ومن أضل » أي من اضل عن طريق الصواب « ممن يدعو من دون الله » أي يضرع اليه ويوجه عبادته إلى « من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » مع ظهور الدلالة علي توحيد الله ووضوح آثار نعمه على خلقه « وهم » مع ذلك « عن دعائهم » إياهم « غافلون » أي ذاهبون عن الفكر فيه ، لانهم لا يعقلون ولا يفقهون . والغفلة ذهاب المعنى عن نفس العاقل بمعنى يمتنع به إدراكه . وضده اليقظة ، وهو حضور المعنى لنفس العاقل بما يجد إدراكه ، وإنما كنى عن الاصنام بالواو والنون مع أنها لا تعقل لما أضاف اليها ما يكون من العقلاء ، كنى عنها بكناياتهم ، كما قال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » (١) وقوله « كل في فلك يسبحون » (٢) .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤　　(٢) سورة ٣٦ يس آية ٤٠

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما قال تعالى إنه لا أحد أضل عن طريق الحق ممن يدعو من لا يستجيب له ، يعني الاصنام التي عبدوها وإنهم عن دعائهم غافلون ايضاً ، ذكر انه « إذا حشر الناس » يوم القيامة وبعثهم الله للثواب والعقاب « كانوا لهم اعداء » يعني هذه الاوثان التي عبدوها ينطقهم الله حتى يجحدوا أن يكونوا دعو إلى عبادتها او شعرت بذكر من أمرها « وكانوا بعبادتهم كافرين » يعني يكفرون بعبادة الكفار لهم ويجحدون ذلك . ثم وصفهم ايضاً فقال « وإذا تتلى عليهم » يعني هؤلاء الكفار الذين وصفهم « آياتنا » أي أدلتنا التي انزلناها من القرآن ونصبناها لهم. والآية الدلالة التي تدل على ما يتعجب منه ، قال الشاعر :

بآية يقدمون الخيل زوراً كأن على سنابكها مداماً (١)

ويروى مناكبها و « بينات » أي واضحات « قال الذين كفروا » بوحدانية

(١) مر في ٦ / ٦٣

الله وجحدوا نعمه « للحق لما جاءهم » يعني القرآن ، والمعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ « هذا سحر مبين » أى حيلة لطيفة ظاهرة ، ومن اعتقد ان السحر حيلة لطيفة لم يكفر بلا خلاف . ومن قال انه معجزة كان كافراً ، لانه لا يمكنه مع هذا القول ان يفرق بين النبي والمتنبي .

ثم قال « أم يقولون افتراه » أي بل يقولون اختلقه واخترعه فقال الله تعالى له « قل » لهم « إن » كنت ﴿ افتريته ﴾ واخترعته ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أي ان كان الأمر على ما تقولون إني ساحر ومفتر لا يمكنكم أن تمنعوا الله مني إذا أراد اهلاكي على افترائي عليه ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ يقال : أفاض القوم في الحديث إذا مضوا فيه ، وحديث مستفيض أي شائع ، من قولكم هذا سحر وافتراء . ثم قل لهم ﴿ كفى به ﴾ يعني بالله ﴿ شهيداً بيني وبينكم ﴾ يشهد للمحق منا والمبطل ﴿ وهو الغفور ﴾ لذنوب عباده ﴿ الرحيم ﴾ بكثرة نعمه عليهم . وفي ذلك حث لهم على المبادرة بالتوبة والرجوع إلى طريق الحق . ثم قال ﴿ قل ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ فالبدع الاول في الأمر يقال : هو بدع من قوم أبداع قال عدي بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالا عرت من بعد بؤس واسعد (١)

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معناه ما كنت بأول رسول بعث وقوله ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال الحسن : معناه لا أدري ما يأمرني الله تعالى فيكم من حرب او سلم او تعجيل عقابكم او تأخيره . وقال قل لهم ﴿ إن اتبع إلا ما يوحي إلي ﴾ أي لست اتبع في أمركم من حرب او سلم او امر او نهي إلا ما يوحي الله إليّ ويأمرني به ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أي لست إلا مخوفاً من

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٤

عقاب الله ومحذراً من معاصيه ومرغباً في طاعاته . وقيل : إن اصحاب النبي صلى الله عليه وآله شكوا إليه ما يلقون من اهل مكة من الأذى ، فقال لهم ﴿ إني رأيت في المنام أني اهاجر إلى ارض ذات نخل وشجر ﴾ ففرحوا بذلك ، فلما تأخر ذلك ، قالوا : يا رسول الله ما نرى ما بشرتنا به ، فانزل الله الآية . وقوله ﴿ مبين ﴾ معناه مظهر لكم الحق فيه .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ يعني هذا القرآن ﴿ وكفرتم به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن وعون بن مالك الاشجعي صحابي ، وابن زيد : نزلت الآية في عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني اسرائيل ، فروي أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال : يا رسول الله سل اليهود عني فهم يقولون هو أعلمنا ، فاذا قالوا ذلك قلت لهم إن التوراة دالة على نبوتك وأن صفاتك فيها واضحة ، فلما سألهم عن ذلك ،قالوا ذلك ، فحينئذ اظهر ابن سلام إيمانه وأوقفهم على ذلك ، فقالوا هو شرنا وابن شرنا. وقال الفراء :هو رجل من اليهود. وقال مسروق : الشاهد من بني إسرائيل هو موسى عليه السلام شهد على التوراة كما شهد النبي صلى الله عليه وآله على القرآن ، قال: لان السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة .

وقوله ﴿ فآمن واستكبرتم ﴾ عن الايمان وجواب ﴿ إن كان من عند الله ﴾ محذوف . قال الزجاج : تقديره ﴿فآمن واستكبرتم ﴾ فلا تؤمنون . وقال غيره تقديره فآمن واستكبرتم إنما تهلكون . وقال الحسن : جوابه فمن أضل منكم .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ويحتمل أمرين :

احدهما ـ إنه لا يهديهم إلى الجنة لاستحقاقهم العقاب .

والثاني ـ إنه لايحكم بهداهم لكونهم ضلالا ظالمين . ولا يجوز ان يكون

المراد لا يهديهم إلى طريق الحق ، لأنه تعالى هدى جميع المكلفين بأن نصب لهم الأدلة على الحق ودعاهم إلى اتباعه ورغبهم فى فعله . وقد قال ﴿ واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ (١) فبين أنه هداهم إلى الحق وإن اختاروا الضلال .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير - فى إحدى الروايتين عنه - ونافع وابو جعفر وابن عامر

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٧

ويعقوب ﴿ لتنذر ﴾ بالتاء على وجه الخطاب . ويجوز ان يكون مردوداً إلى اللسان وهو مؤنث • الباقون بالياء على وجه الاخبار عن الكتاب او القرآن • وقرأ اهل الكوفة ﴿ إحساناً ﴾ بالف . الباقون ﴿ حسناً ﴾ بضم الحاء بلا ألف . وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وابو عمرو ﴿ كرهاً ﴾ بفتح الكاف . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وقرأ يعقوب ﴿ وفصله ﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير الف . الباقون﴿وفصاله﴾ بكسر الفاء وإثبات ألف ، وهما لغتان وباثبات الالف كلام العرب . وفي الحديث (لا رضاع بعد فصال) وروي بعد (فطام) •

اخبر الله تعالى عن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا نبيه محمد صلى الله عليه وآله أنهم قالوا ﴿ للذين آمنوا ﴾ وصدقوا رسوله ﴿ لو كان ﴾ هذا الذي يدعوننا هؤلاء المسلمون اليه : محمد ومن اتبعه ﴿ خيراً ﴾ أي نفعاً عاجلا أو آجلا يظهر لنا ذلك ﴿ ما سبقونا ﴾ يعني الكفار الذين آمنوا به ﴿ اليه ﴾ أي إلى إتباعه لانا كنا بذلك أولى وبه احرى ، وحكى ان اسلم وغفار وجهينة ومزينة لما اسلموا قال بنو عامر ابن صعصعة وغطفان وأسد واشجع هذا القول ، فحكاه الله . والسبق المصير إلى الشيء قبل غيره ، وكذلك السابق إلى الخير والتابع فيه ، فقال الله تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ يعني هؤلاء الكفار بهذا القرآن ولا استبصروا به ولا حصل لهم العلم بأنه مرسل داع إلى الله ﴿ فسيقولون هذا أفك قديم ﴾ أي كذب متقدم حيث لم يهتدوا به ، وصفه بالقديم للمبالغة في التقدم أي ليس أول من ادعى الكذب في ذلك بل قد تقدم اشباهه • والقديم في عرف اللغة هو المتقدم الوجود ، وفي عرف المتكلمين هو الموجود الذي لا أول لوجوده •

ثم قال تعالى ﴿ ومن قبله ﴾ يعني من قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ يعني

التوراة ﴿ إماماً ورحمة ﴾ أي جعلناه إماماً ورحمة وانزلناه إماماً يهتدى به ورحمة أي نعمة على الخلق . ثم قال ﴿ وهذا ﴾ يعني القرآن ﴿ كتاب مصدق ﴾ لذلك الكتاب ﴿ لساناً عربياً ﴾ نصبه على الحال ، ويجوز ان يكون حالا من هذا الكتاب ويجوز ان يكون حالا لما في ﴿ مصدق ﴾ من الضمير . وقوله ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ أي ليخوفهم ، ويعلمهم استحقاق العقاب على المعاصي واستحقاق الثواب على الطاعات. فمن قرأ بالتاء جاز أن يكون خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله ويجوز ان يكون رداً على اللسان على ما قدمناه ، وهو مؤنث . ومن قرأ بالياء رده إلى الكتاب الذي هو القرآن . وقوله ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ معناه ان يكون هذا القرآن بشارة لمن فعل الصالحات واختار الحسنات ، ويجوز في (بشرى) ان يكون رفعاً عطفاً على (مصدق) ويجوز ان يكون نصباً لوقوعه موقع (وبشيراً) فيكون حالا ، كما تقول : اتيتك لازورك وكرامة لك وقضاء لحقك .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الذين قالوا ﴾ بلسانهم ﴿ ربنا الله ﴾ واعتقدوا ذلك بقلوبهم ﴿ ثم استقاموا ﴾ على ذلك لم يعدلوا عنه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من العقاب في الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من أهوال القيامة .

ثم اخبر عنهم فقال ﴿ أولئك ﴾ يعني من تقدم ذكرهم ﴿ اصحاب الجنة ﴾ أي الملازمون لها ﴿ خالدين فيها جزاء ﴾ لهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا من الطاعات .

ثم قال تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً ﴾ أي امرناه بأن يحسن إلى والديه إحساناً . فمن قرأ بلا الف فالمعنى أن يحسن فعله معهما حسناً ، فالحسن والحسن . لغتان ، يقال : حسن يحسن حسناً ومن قرأ « إحساناً » جعله مصدر احسن . « وكرهاً » بفتح الكاف المصدر وبضمها الاسم . وقيل هما لغتان . وقوله « حملته أمه كرها ووضعته كرهاً » قال الحسن وقتادة ومجاهد : أي بمشقة . ثم

قال « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » نبه بذلك على ما يستحقه الوالدان من الاحسان اليهما ومعاملتهما من حيث أنهما تكفلا به وربياه ، وانه « حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً » أي بمشقة فى حال الولادة وارضعته مدة الرضاع . ثم بين ان أقل مدة الحمل وكمال مدة الرضاع ثلاثون شهراً ، وأنهما تكفلا به حتى بلغ حد الكمال « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » قيل اكثر الفصال واكثر مدة الرضاع اربعة وعشرون شهراً واقل مدة الحمل ستة اشهر ، والمعنى وصية بذلك ليكون إذا بلغ اشده أي حال التكليف وحال الاربعين ، قال هذا القول علمه الله إياه . وقال قتادة وابن عباس : أشده ثلاث وثلاثون سنة . وقال الشعبي : هو وقت بلوغ الحلم . وقال الحسن : اشده وقت قيام الحجة عليه . ثم « قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي » فالايزاع المنع من الانصراف عن الشيء فالايزاع الشكر المنع من الانصراف عنه باللطف ، ومنه قولهم يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ومنه قول الحسن : لا بد للسلطان من وزعة . قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا   فقلت ألما تصح والشيب وازع

اي مانع . وقيل : إيزاع الشكر هو الهام الشكر وقيل الاعزاء بالشكر « وأن أعمل صالحاً ترضاه واصلح لي فى ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين » تمام ما علمه الله للانسان ووصاه ان يدعو به إذا بلغ اشده : أن يقول : إني تائب الى الله من المعاصي وإني من جملة المسلمين لأمر الله .

قوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ

ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما حمزة والكسائي وخلف ، على وجه الاخبار من الله عن نفسه ولقوله « ووصينا » الباقون بالياء فيهما ، على ما لم يسم فاعله . وروى هشام « اتعداني » بنون مشددة . الباقون بنونين . وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم إلا الكسائي عن ابي بكر والحلواني عن هشام ﴿ وليوفيهم ﴾ بالياء . الباقون بالنون . وقرأ ابن ذكوان وروح ﴿ أ اذهبتم ﴾ بهمزتين مخففتين على الاستفهام . وقرأ ابن كثير وابو جعفر وهشام بتخفيف الاولى وتليين الثانية وفصل بينهما بالف ابو جعفر والحلواني عن هشام . الباقون بهمزة واحده على الخبر.

لما اخبر تعالى بما أوصى به الانسان ان يعمله ويقوله عند بلوغ أشده اخبره بعده بما يستحقه من الثواب إذا فعل ما أمره به تعالى فقال ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين فعلوا ما وصيناهم به من التائبين المسلمين هم ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من قرأ بالنون اضاف الفعل إلى الله وانه أخبر عن نفسه بأنه يفعل بهم . ومن

قرأ بالياء والضم فيهما لم يذكر الفاعل لانه معلوم أن المراد به أن الله الذي يتقبل الطاعات ويجازي عليها . وقوله ﴿ أحسن ما عملوا ﴾ يعني ما يستحق به الثواب من الواجبات والمندوبات ، لأن المباحات وإن كانت حسنة لا يستحق بها الثواب ولا توصف بأنها متقبلة ، لانه لايتقبل إلا ما ذكرناه من واجب او ندب .

ثم قال ﴿ ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ التي اقترفوها فلا نؤاخذهم بها إذا تابوا منها أو اردنا أن نتفضل عليهم باسقاطها . وقوله ﴿ فى اصحاب الجنة ﴾ أي هم فى اصحاب الجنة ﴿ وعد الصدق ﴾ أي وعدهم وعد الصدق لا الكذب ، فهو نصب على المصدر ﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ به فى دار الدنيا إذا اطاعوا الله .

ثم اخبر تعالى عن حال ﴿ الذي قال ﴾ أي الذي يقول ﴿ لوالديه أف لكما ﴾ ومعناه أنه فى موضع ضجر منهما . وقيل : معناه نتناً وقذراً لكما ، كما يقال عند شم الرائحة الكريهة . وقال الحسن : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث وانه يتأفف بهما إذا دعواه إلى الاقرار بالبعث والنشور . وقال قوم : نزلت الآية فى عبد الرحمن بن ابي بكر قبل ان يسلم .

ثم بين أنه يقول لهما ﴿ أتعدانني أن اخرج ﴾ من القبر وأحيا وابعث ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ أي مضت امم قبلي وماتوا فما أخرجوا ولا اعيدوا ﴿ وهما ﴾ يعني والديه ﴿ يستغيثان الله ﴾ ويقولان له ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق ﴾ والبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿ فيقول ﴾ فى جوابهما ﴿ ما هذا إلا اساطير الأولين ﴾ أي ليس هذا إلا أخبار الأولين وسطروها ، وليس لها حقيقة ، فقال تعالى ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ باستحقاق العقاب وإدخالهم النار ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم وجماعات ﴿ قد خلت من قبلهم من الجن والانس ﴾ على مثل حالهم ومثل اعتقادهم . وقال قتادة : قال الحسن : الجن لا يموتون ، قال قتادة :

فقلت ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ... ﴾ الآية تدل على خلافه ، ويجوز ان يكون الحسن أراد انهم لا يموتون فى دار الدنيا ويبقون إلى وقت قيام الساعة . ثم يميتهم الله كما ان ذلك سبيل كل خلق من الملائكة .

ثم قال تعالى مخبراً عن حالهم ﴿ إنهم ﴾ يعني الذين وصفهم ﴿ كانوا قوماً خاسرين ﴾ فى أمورهم ، لانهم خسروا الثواب الدائم وحصل لهم العقاب المؤبد . ثم قال ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل مطيع درجات ثواب ، وإن تفاضلوا فى مقاديرها .

وقوله ﴿ وليوفيهم ﴾ من قرأ بالياء معناه ليوفيهم الله . ومن قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه انه يوفيهم ثواب اعمالهم من الطاعات «وهم لا يظلمون» أي من غير ان ينقص منه شيئاً .

ثم قال تعالى ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ أي يقال لهم على وجه التهجين والتوبيخ ﴿ أذهبتم طيباتكم ﴾ أي انفقتم ذلك فى ملاذ الدنيا ، وفي معاصي الله ، ولم تستعملوها فى طاعاته . فمن خفف الهمزتين أراد بالف الاستفهام التوبيخ . ومن لين الثانية كره الجمع بين الهمزتين . ومن قرأ على الخبر ، فعلى تقدير يقال لهم ﴿ أذهبتم ﴾ أو يكون حذف احدها تخفيفاً ويكون المحذوفة الاصلية ، لان همزة الاستفهام ادخلت لمعنى .

وقوله ﴿ واستمتعتم بها ﴾ يعني بالطيبات . ثم حكى ما يقال لهم بعد ذلك فانه يقال لهم ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ يعني عذاب الهوان - في قول مجاهد ﴿ بما كنتم تستكبرون فى الارض ﴾ أي جزاء بما كنتم تطلبون التكبّر والتجبر على الناس ﴿ بغير الحق ﴾ أي بغير استحقاق ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أي تخرجون

من طاعة الله الى معاصيه .

قولــه تعــالى :

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ عاصم وحمزة وخلف ﴿ لا يرى ﴾ بالياء مضمومة ، على ما لم يسم فاعله ﴿ إلا مساكنهم ﴾ برفع النون . الباقون ـ بالتاء ـ ونصب النون . من ضم الياء فعلى ما لم يسم فاعله . ومن فتح التاء ، فعلى الخطاب ، والمعنيان متقاربان .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ واذكر ﴾ يا محمد ﴿ أخا عاد ﴾ يعني هوداً عليه السلام ﴿ اذ أنذر قومه ﴾ أي خوفهم من الكفر بالله وحذرهم معاصيه ودعاهم إلى طاعته ﴿ بالاحقاف ﴾ قال ابن عباس : هو واد بين عمان ومهوة ، وقال ابن اسحاق : الاحقاف الرمل في ما بين عمان إلى حضرموت . وقال قتـادة : الاحقاف رمال

مشرفة على البحر بالشجر من اليمن ، وقال الحسن : الاحقاف أرض خلالها رمال . وقال الضحاك : جبل بالشام يسمى بذلك ، قال العجاج :

بات إلى ارطات حقف أحقفا (١)

أي رمل مشرف ، وقال ابن زيد : الحقف الرمل يكون كهيئة الجبل . وقال المبرد : الحقف هو كثيب المكثر غير المظيم وفيه اعوجاج ، قال العجاج :

سماوة الهلال حتى احقوقفا (٢)

وهو انحناؤه . وقوله ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أي مضت الرسل ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أي قدامه ووراءه ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي انذرهم وخوفهم بان لا تعبدوا إلا الله . وقال لهم ﴿ إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ يعني عذاب يوم القيامة .

ثم حكى ما اجاب به قومه وانهم ﴿ قالوا اجئتنا ﴾ يا هود ﴿ لتأفكنا ﴾ أي لتلفتنا وتصرفنا ﴿ عن ﴾ عبادة ﴿ آلهتنا ﴾ بالكذب والافك ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت ﴾ صادقاً ﴿ من الصادقين ﴾ فانا لا نصدقك في ما تقوله ، فقال هود لهم ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ يريد العلم بوقت إنزال العذاب بكم عند الله ، وهو العالم به ولا أعلمه مفصلا ﴿ وابلغكم ما أرسلت به ﴾ أي أؤدي اليكم ما بعثت به اليكم من الدعاء إلى عبادة الله وإخلاص القربة اليه ، فلست اراكم تقبلون ذلك ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي تفعلون ما يفعله الجهال .

وقوله « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم » معناه فلما رأو العذاب وشاهدوه أطل عليهم « قالوا هذا عارض » أي سحاب « ممطرنا » والعارض المار بمعنى انه

(١) تفسير القرطبي ١٦\ ٢٠٣ ومجاز القرآن ٢/٢١٣ والطبري ٢٦\ ١٥

(٢) تفسير القرطبي ١٦\ ٢٠٣ وقد مر في ٦\ ٧٩ و ٨ / ٢٩

لا يلبث من خير أو شر ، فلما رأو العارض ظنوا انه عارض خير بالمطر ، فقيل لهم ليس الأمر كما ظننتم « بل هو ما استعجلتم » أي هو عارض من العذاب الذي استعجلتموه وطلبتموه مكذبين به ، وقال (عارض) نكرة و (ممطرنا) معرفة ، وإنما وصفه به لان التقدير ممطر إيانا ، كقولك : مررت برجل مثلك أي مثل لك ثم فسره فقال « هو ريح فيه عذاب عظيم » أي مؤلم ، وسمي السحاب عارضاً ، لأخذه في عرض السماء ، وقال الاعشى :

يامن رأى عارضاً قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته الشعل (١)

وقيل : كانت الريح ترفع الظعينة بحملها حتى ترى كأنها جرادة ـ في قول عمرو بن ميمون ـ وقوله تعالى « تدمر كل شيء » أي تخرب وتلقي بعض الأشياء على بعض حتى تهلك ، قال جرير :

وكان لهم كبكر ثمود لما رغا ظهراً فدمرهم دمارا (٢) .

وقوله « فاصبحوا » يعني اهل الاحقاف « لا يرى إلا مساكنهم » وما عداها قد هلك . فمن فتح التاء نصب النون من (مساكنهم) على وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله . ومن ضم الياء ضم النون وتقديره فأصبحوا لا يرى شيء في مساكنهم وقرأ الحسن بالتاء والضم . وقال النحويون : القراءة بالياء ضعيفة في العربية ، لأن العرب تذكر ما قبل (الا) في الجحد ، فتقول : ما قام إلا اختك ، لان المحذوف (أحد) وتقديره ما قام احد إلا اختك قامت

ثم قال تعالى مثل ما أهلكنا اهل الاحقاف وجازيناهم بالعذاب « كذلك نجزي القوم المجرمين » الذين سلكوا مسلكهم .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٦ (٢) تفسير الطبري ٢٦ / ١٦

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلاخلاف .

يقول الله تعالى على وجه القسم في خبره أنه مكن هؤلاء الكفار الذين اخبر عنهم بأنه اهلكهم انه مكنهم من الطاعات ومن جميع ما أمرهم به من انه جعلهم قادرين متمكنين بنصب الدلالة على توحيده ، ومكنهم من النظر فيها ، ورغبهم فى ذلك بما ضمن لهم من الثواب وزجرهم عما يستحق به العقاب ، ولطف لهم وازاح عللهم ى جميع ذلك ، لان التمكين عبارة عن فعل جميع ما لا يتم الفعل إلا معه ، ثم قال « وجعلنا لهم سمعاً » يسمعون به الادلة « وأبصاراً » يشاهدون بها الآيات « وافئدة » يفكرون بها ويعتبرون بالنظر فيها « فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم

ولا افئدتهم من شيء » أي لم ينفعهم جميع ذلك ، لانهم لم يعتبروا بها ولا فكروا فيها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » وأدلته « وحاق بهم » أي حل بهم عذاب « ما كانوا به يستهزؤن » ويسخرون منه .

وقوله « ما ان مكناكم فيه » قال ابن عباس وقتادة : معناه في ما لم نمكنكم فيه . وقال المبرد : (ما) الاولى بمعنى (الذي) و (إن) بمعنى (ما) وتقديره في الذي ما مكناكم ، والمراد بالآية وعيد كفار قريش وتهديدهم وأن الله قد مكن قوم عاد بما لم يمكن هؤلاء منه ، من عظيم القوة وشدة البطش والقدرة على جميع ما يطلبونه ، وأنهم مع تمكينهم لم ينفعهم ذلك لما نزل بهم عذاب الله حين كفروا به وجحدوا ربوبيته ولم يغنهم جميع ذلك .

ثم قال « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى » يعني قوم هود وصالح ، لأنهم كانوا مجاورين لبلاد العرب وبلادهم حول بلادهم ، فاذا أهلكهم الله بكفرهم كان ينبغي أن يعتبروا بهم « وصرفنا الآيات » وتصريف الآيات تصييرها فى الجهات وتصريف الشيء تصييره فى الجهات ، وتصريف المعنى تصييره تارة مع هذا الشيء وتارة مع ذلك ، وتصريف الآيات تصييرها تارة فى الاعجاز وتارة فى الاهلاك ، وتارة فى التذكير بالنعم وتارة فى وصف الابرار ، وتارة في وصف الفجار ، ليجتنب مثل فعلهم « لعلهم يرجعون » أي لكي يرجعوا إلى طاعته .

ثم قال « فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » ومعناه فهلا نصرهم الذين اتخذوا آلهة من دون الله من الاصنام ، توبيخاً لهم على فعلهم واعلاماً بأن من لا يقدر على نصرة أوليائه كيف تصح عبادته « قرباناً آلهة » أي يقربون اليهم قرباناً وسموها آلهة .

ثم قال لم ينصرونهم « بل ضلوا عنهم » واخبر أن « ذلك إفكهم وما كانوا

يفترون » أي كذبهم الذي كذبوه ، والذي كانوا يفترونه ، ويخترعونه .

ثم قال لنبيه ﷺ واذكر يا محمد « إذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه » يعني القرآن او النبي « قالوا » بعضهم لبعض « انصتوا فلما قضي » أي حين فرغ من تلاوته « ولوا إلى قومهم منذرين » لهم مخوفين من معاصي الله . وقال قوم : إن الله تعالى أمر نبيه ان يقرأ القرآن على الجن ، وأمره بأن يدعوهم إلى عبادته . وقال قوم : هم يسمعون من قبل نفوسهم لقراءة القرآن فلما رجعوا « قالوا » لقومهم « يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه » يعني التوراة « يهدي إلى الحق » أي يرشد اليه « ويهدي إلى طريق مستقيم » من توحيد الله ومعرفة نبيه المؤدي إلى الجنة . وقال ابن عباس وسعيد ابن جبير : صرفوا اليه بالرجم بالشهب ، فقالوا عند ذلك إن هذا الأمر كبير . وقال قتادة : صرفوا اليه من جهة . وفي رواية عن ابن عباس من نصيبين . وقيل : ان نصيبين من أرض اليمن . وقال رزين بن حبيش : كانوا تسعة نفر ، وقال ابن عباس : كانوا سبعة نفر . وقال قوم : صرفوا اليه بالتوفيق .

قوله تعالى :

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلاخلاف ·

قرأ يعقوب « يقدر » بالياء جعله فعلا مستقبلا . الباقون ـ بالباء ـ اسم فاعل .

لما حكى الله تعالى أن نفراً من الجن استمعوا القرآن وتدبروه ورجعوا به إلى قومهم مخوفين لهم من معاصي الله وأنهم قالوا إنا سمعنا كتاباً يعني القرآن انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يعني التوراة يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، حكى انهم قالوا ايضاً « يا قومنا أجيبوا داعي الله » يعنون محمداً ﷺ إذ دعاهم إلى توحيده وخلع الانداد دونه ، وقال قوم : يجوز ان يكون المراد كل من دعا إلى الله تعالى . والاجابة موافقة الفعل للدعاء اليه بأنه عمل من أجله ، ولهذا لا تكون موافقة الكافر ـ وإن كان إذا دعا به ـ إجابة له إذ لم يعمل من أجل دعائه اليه ، وإنما عمل لأمر آخر · وعلى هذا قال بعضهم : إنه لا يجيب الله دعاء الكافر لان فيه إجلالا له كما لا يعمل شيئاً لأن فيه مفسدة .

فان قيل : لو ان الكافر دعا إلى حق هل تلزم اجابته ؟

قلنا : يجب العمل بما يدعو اليه ، ولا تلزم إجابته ، وإنما يجب العمل به ، لأنه حق . وقيل : يجوز إجابته إذا لم يكن فيه مفسدة .

وقالوا لهم « آمنوا به » أي آمنوا بالله « يغفر لكم من ذنوبكم » (من) زائدة ، والمعنى يغفر لكم ذنوبكم « ويجركم من عذاب اليم » فالاجارة من النار جعلهم في جوار الأولياء المباعدين من النار . وفي الدعاء : اللهم أجرني من النار واللهم اعذني منها .

ثم قالوا ايضاً « ومن لا يجب داعي الله » تاركاً له إلى خلافه « فليس بمعجز » أي بفائت « في الارض وليس له من دونه اولياء » ينصرونهم ويدفعون عنهم العذاب إذا نزل بهم ، ويجوز ان يكون ذلك من كلام الله ابتداء . ثم قال « اولئك » يعني الذين لا يجيبون داعي الله « في ضلال » أي في عدول عن الحق « مبين » .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته على الاعادة والبعث « او لم يروا » أي او لم يعلموا « ان الله الذي خلق السموات والارض » وانشأها « ولم يعي بخلقهن » أي لم يصبه في خلق ذلك إعياء ولا تعب « بقادر » فالباء زائدة وموضعه رفع بأنه خبر (أن) ودخول الباء في خبر (ان) جائز إذا كان اول الكلام نفياً نحو ما ظننت أن زيداً بقائم ولو قلت : إن زيداً بقائم لا يجوز ، لانه إثبات « على ان يحيي الموتى » ثم قال « بلى » هو قادر عليه « إنه على كل شيء قدير » ثم قال « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » أي يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم أليس هذا الذي جزيتم به حق لا ظلم فيه لانكم شاهدتموه الآن « قالوا بلى وربنا » فيحلفون على ذلك ، فيقال لهم عند ذلك « ذوقوا العذاب » جزاء « بما كنتم تكفرون » أي بما كنتم تجحدون من نعمه وتنكرون من وحدانيته ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « فاصبر » يا محمد على أذى هؤلاء الكفار على ترك إجابتهم الك « كما صبر اولوا العزم من الرسل » قبلك على اممهم . وقال قوم : أولوا العزم

هم الذين يثبتون على عقد القيام بالواجب وإجتناب المحارم ، فعلى هـذا الانبياء كلهم أولوا العزم ، ومن قال ذلك جعل (من) ههنا للتبيين لا للتبعيض . ومن قال : إن أولى العزم طائفة من الرسل وهم قوم مخصوصون قال (من) ههنا للتبعيض وهو الظاهر فى روايات اصحابنا ، وأقوال المفسرين ، ويريدون بأولي العزم من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدم من الانبياء ، قالوا وهم خمسة أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صلى الله عليه وآله .

ثم قال « ولا تستعجل لهم » العقاب « كأنهم يوم يرون ما يوعدون » من يوم القيامة لقرب مجيئه « لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » من قلة لبثهم فى الدنيا . وقوله « بلاغ » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ ذلك اللبث بلاغ . والآخر ـ هذا القرآن بلاغ .

ثم قال « فهل يهلك » بهذا النوع من الاهلاك على وجه الاستحقاق « إلا القوم الفاسقون » الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته ومن ولايته إلى عداوته .

٤٧ ـ سورة محمد ﷺ

هي مدنية كلها إلا آية واحدة قال ابن عباس وقتادة : فالآية الواحدة نزلت حين خرج النبي ﷺ من مكة وجعل ينظر إلى البيت ، وهو يبكي حزناً عليه فنزل قوله « فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي اخرجتك ... » الآية وهي ثمان وثلاثون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في المدنيين واربعون في البصري .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَاطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللهُ لَٱنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (٥) .

خمس آيات كوفي وست في ما عداه .

قرأ اهل البصرة وحفص عن عاصم « والذين قتلوا » على ما لم يسم فاعله بضم القاف وكسر التاء . الباقون « قاتلوا » بألف من المفاعلة . وقرىء شاذاً « قتّلوا » بفتح القاف وتشديد التاء . من قرأ بألف كان أعم فائدة ، لأنه يدخل فيه من قتل . ومن قرأ بغير الف لم يدخل فى قراءته القاتل الذى لم يقتل وكلاهما لم يضل الله أعمالهم ، فهو اكثر فائدة . ومن قرأ بغير الف خص هذه الآية بمن قتل . وقال : علم أن الله لم يضل اعمال من قاتل بدليل آخر ولأن من قاتل لم يضل عمله بشرط ألا يحبط عند من قال بالاحباط ، وليس من قتل كذلك ، لانه لا يضل الله أعمالهم على وجه بلا شرط ، ولأنه لايقتل إلا وقد قاتل فصار معناهما واحد .

قال مجاهد عن ابن عباس إن قوله « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله » نزلت فى أهل مكة . وقوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » فى الانصار .

يقول الله تعالى مخبراً بأن الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا معه غيره وكذبوا محمداً نبيه ﷺ فى الذي جاء به وصدوا من أراد عبادة الله والاقرار بتوحيده وتصديق نبيه عن الدين، ومنعوه من الاسلام« أظل اعمالهم » ومعناه حكم الله على أعمالهم بالضلال عن الحق والعدول من الاستقامة وسماها بذلك لأنها عملت على غير هدى وغير رشاد . والصد عن سبيل الله هو الصرف عن سبيل الله بالنهي عنه والمنع منه . والترغيب فى خلافه ، وكل ذلك صد، فهؤلاء كفروا فى أنفسهم ودعوا

غيرهم إلى مثل كفرهم . والضلال الاهـلاك حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل ، وليس في الآية ما يدل على القول بصحة الاحباط إذا حملناها على ما قلناه . ومن قال بالتحابط بين المستحقين لابد ان يترك ظاهر الآية .

ثم قال « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » يعني صدقوا بتوحيـد الله والاقرار بنبوة نبيه واضافوا إلى ذلـك الاعمال الصالحات « وآمنوا بما انزل على محمد » من القرآن والعبادات وغيرها « وهو الحق من ربهم » الذي لا مرية فيه « كفـر الله عنهم سيئاتهم » وقوله « وهو الحق » يعني القرآن ـ على ما قاله قوم ـ وقال آخرون إيمانهم بالله وبالنبي صلى الله عليه وآله « هو الحق من ربهم » أي بلطفه لهم فيه وحثه عليه وأمره به . ومعنى تكفير السيئات هو الحكم باسقاط المستحق عليها من العقاب ، فاخبر تعالى انه متى فعل المكلف الايمان بالله والتصديق لنبيـه أسقط عقاب معاصيه حتى يصير بمنزلة ما لم يفعل . وقوله « وأصلح بالهم » قال قتادة : معناه وأصلح حالهم في معائشهم وأمر دنياهم . وقال مجاهـد : واصلح شأنهم ، والبال لا يجمع ، لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن .

ثم بين تعالى لم فعل ذلك ولم قسمهم هذين القسمين فقال « ذلـك بأن الذين كفروا » فعلنا ذلك بهم وحكمنا بابطال أعمالهم جزاء على انهم « اتبعوا الباطل » والمعاصي ، وفعلنا بالمؤمنين من تكفير سيئاتهم لانهم « اتبعوا الحق » الذى أمر الله باتباعه . وقيل الباطل هو الشيطان ـ ههنـا ـ والحق هو القرآن ، ويجوز ان يكون التقدير الامر ذلك، وحذف الابتداء .

ثم قال تعالى « كذلك يضرب الله للناس امثالهم » أي هؤلاء الذين حكمنا بهلاكهم وضلالهم بمنزلة من دعاه الباطل فاتبعه ، والمؤمن بمنزلة من دعاه الحق من الله فاتبعه ويكون التقدير يضرب الله للناس صفات أعمالهم بأن بينها وبين ما يستحق

عليها من ثواب وعقاب .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال ﴿ فاذا لقيتم ﴾ معاشر المؤمنين «الذين كفروا» بالله وجحدوا ربوبيته من أهل دار الحرب ﴿ فضرب الرقاب ﴾ ومعناه اضربوهم على الرقاب ، وهي الاعناق ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أي اثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ ومعناه احكموا وثاقهم فى الأمر . ثم قال ﴿ فاما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ومعناه اثقالها .

وقوله ﴿ فاما مناً بعد ﴾ نصب على المصدر والتقدير إما أن تمنوا مناً وإما أن تفدوا فداء وقال قتادة وابن جريج : الآية منسوخة بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (١) وقوله ﴿ فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ (٢) وقال ابن عباس والضحاك : الفداء منسوخ . وقال ابن عمر والحسن وعطا وعمر ابن عبد العزيز : ليست منسوخة . وقال الحسن يكره أن يفادى بالمال ، ويقال يفادي الرجل بالرجل ، وقال قوم : ليست منسوخة ، والامام مخير بين الفداء والمن والقتل بدلالة الآيات الاخر ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أي اثقالها ، وقال قتادة : حتى لايكون مشرك . وقال الحسن : إن شاء الامام أن يستفد الاسير من المشركين ، فله ذلك بالسنة ، والذي رواه اصحابنا ان الاسير إن اخذ قبل انقضاء الحرب والقتال بأن تكون الحرب قائمة والقتال باق ، فالامام مخير بين أن يقتلهم أو يقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتى ينزفوا ، وليس له المن ولا الفداء . وإن كان أخذ بعد وضع الحرب أوزارها وانقضاء الحرب والقتال كان مخيراً بين المن والمفادات . إما بالمال او النفس ، وبين الاسترقاق ، وضرب الرقاب ، فان أسلموا فى الحالين سقط جميع ذلك وصار حكمه حكم المسلم .

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٥٨

وقوله ﴿ ذلك ﴾ أي الذي حكمنا به هو الحق الذي يجب عليكم إتباعه ﴿ ولو يشاء الله لا نتصر منهم ﴾ وأهلكهم بانزال العذاب عليهم ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ ويختبرهم ويتعبدهم بقتالهم إن لم يؤمنوا .

ثم اخبر تعالى أن ﴿ الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ قال قتادة هم الذين قتلوا يوم احد . ومن قرأ ﴿ قاتلوا ﴾ أراد قاتلوا سواء قتلوا او لم يقتلوا لن يهلك الله أعمالهم ولا يحكم بضلالهم وعدولهم عن الحق . ثم قال ﴿ سيهديهم ﴾ يعني إلى طريق الجنة ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي شأنهم او حالهم ، وليس في ذلك تكرار البال ، لان المعنى يختلف ، لان المراد بالاول انه يصلح حالهم في الدين والدنيا وبالثاني يصلح حالهم في النعيم ، ، فالاول سبب النعيم ، والثاني نفس النعيم .

قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

لما اخبر الله تعالى انه سيهدي المؤمنين إلى طريق الجنة ، ويصلح حالهم فيها ، بين أنه ايضاً ﴿ يدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ وقيل في معنى ﴿ عرفها لهم ﴾ قولان :

احدها ـ بانه عرفها لهم بان وصفها على ما يشوق اليها ، ليعملوا بما يستوجبونها

به من طاعة الله واجتناب معاصيه .

والثاني ـ عرفها لهم بمعنى طيبها بضروب الملاذ ، مشتقاً من العرف ، وهي الرائحة الطيبة التي تتقبلها النفس تقبل ما تعرفه ولا تنكره . وقال ابو سعيد الخدري وقتادة ومجاهد وابن زيد : معناه انهم يعرفون منازلهم فيها كما كانوا يعرفون منازلهم فى الدنيا . وقال الحسن : وصف الجنة فى الدنيا لهم ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ بتوحيد الله وصدقوا رسوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ومعناه إن تنصروا دينه بالدعاء اليه ، واضافه إلى نفسه تعظيماً كما قال ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ (١) وقيل معناه ﴿ تنصروا الله ﴾ تدفعوا عن نبيه ﴿ ينصركم ﴾ الله ، أي يدفع عنكم اعداءكم في الدنيا عاجلا ، وعذاب النار آجلا ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ فى حال الحرب . قيل : ويثبت أقدامكم يوم الحساب .

ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بنعم الله وجحدوا نبوة نبيه ﴿ فتعساً لهم ﴾ أي خزياً لهم وويلا لهم ، فالتعس الانحطاط والعثار عن منازل المؤمنين ﴿ وأضل اعمالهم ﴾ أي أهلكها وحكم عليها بالضلال . وإنما كرر قوله ﴿ وأضل اعمالهم ﴾ و ﴿ احبط أعمالهم ﴾ تأكيداً ، ومبالغة فى الزجر عن الكفر والمعاصي وكرر ذكر النعيم إذا ذكر المؤمنين مبالغة فى الترغيب فى الطاعات . وإنما عطف قوله ﴿ واضل ﴾ وهو (فعل) على قوله ﴿ فتعساً ﴾ وهو اسم ، لأن المعنى اتعسهم الله وأضل اعمالهم فلذلك حسن العطف .

ثم بين تعالى لم فعل ذلك ، فقال فعلنا ﴿ ذلك ﴾ جزاء لهم على معاصيهم ﴿ بأنهم كرهوا ما انزل الله ﴾ من القرآن والاحكام وأمرهم بالانقياد لها ، فخالفوا

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١

ذلك ﴿ فاحبط أعمالهم ﴾ من أجل ذلك أي حكم ببطلانها ، لأنها وقعت على خلاف الوجه المأمور به .

ثم نبههم على الاستدلال على صحة ما دعاهم اليه من توحيده وإخلاص العبادة له ، فقال ﴿ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ حين أرسل الله اليهم الرسل فدعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، فلم يقبلوا منهم وعصوهم وعملوا بخلافه ، فأهلكهم الله جزاء على ذلك ﴿ ودمر عليهم ﴾ مثل ما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وأشباههم . ثم قال ﴿ وللكافرين ﴾ بك يا محمد إن لم يقبلوا ما تدعوهم اليه ﴿ أمثالها ﴾ أي امثال تلك العقوبات أي هم يستحقون مثلها، وإنما يؤخر عذابهم تفضلا منه .

قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ

مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٥) ٠

ست آيات بصري ، وخمس في ما عداه، عدّ البصريون ﴿ للشاربين ﴾ ولم يعده الباقون ٠

قرأ ابن كثير ﴿ أسن ﴾ على وزن (فعل) ٠ الباقون على وزن (فاعل) ومعناها واحد ، لان المعنى من ماء غير متغير ٠

لما اخبر الله تعالى انه أهلك الامم الماضية بكفرهم وأن للكافرين أمثالها بين أنه لم كان كذلك ؟ فقال ﴿ ذلك ﴾ أي الذي فعلناه فى الفريقين ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم لأن الله مولى كل مؤمن ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ينصرهم من عذابه إذا نزل بهم ولا أحد يدفع عنهم لاعاجلا ولاآجلا ٠

ثم اخبر تعالى انه ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ بتوحيده وصدقوا نبيه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ مضافة اليها ﴿ جنات ﴾ أي بساتين تجنها الاشجار ﴿ تجري من تحتها الانهار ﴾ وقيل : ان أنهار الجنة فى أخاديد من الارض ، فلذلك قال من تحتها ٠

ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بتوحيده وكذبوا رسله ﴿ يتمتعون ﴾ فى دار الدنيا ويلتذون فيها ﴿ ويأكلون ﴾ المآكل فيها ﴿ كما تأكل الانعام ﴾ أي مثل ما تأكل الانعام والبهائم ، لانهم لا يعتبرون ولا ينظرون ولا يفكرون ولا يفعلون ما أوجبه الله عليهم ، فهم بمنزلة البهائم ٠ وقيل : إن المعنى بذلك الاخبار عن خستهم فى أكلهم بأنهم يأكلون للشره والنهم ، لانهم جهال ٠ ثم قال ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي موضع مقامهم الذي يقيمون فيه ٠

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله مهدداً لكفار قومه ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من

قريتك ﴾ يعني مكة ﴿ التي اخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ الآن فما الذي يؤمن هؤلاء أن يفعل بهم مثل ذلك . ومعنى (وكأين) (وكم) والأصل فيها (أي) قرية إلا أنها إذا لم تضف تؤنث . ثم قال على وجه التهجين للكفار والتوبيخ لهم ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي حجة واضحة . قال قتادة : يعني محمداً ﷺ. وقال قوم : يعني به المؤمنين الذين عرفوا الله تعالى وأخلصوا العبادة ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ من المعاصي زينها لهم الشيطان وأغواهم بها ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ أي شهواتهم في ذلك ، وما تدعوهم اليه طباعهم .

ثم اخبر تعالى عن وصف الجنة التي وعد المتقين بها ، فقال ﴿ مثل الجنة ﴾ أي وصف الجنة ﴿ التي وعد المتقون ﴾ بها ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير اطول المقام ﴿ وأنهار من ابن لم يتغير طعمه ﴾ لمثل ذلك ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ يلتذون بشربها ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ من كل أذى ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ تلحقهم أي لا يلحقهم في الجنة توبيخ بشيء من معاصيهم ، لان الله قد تفضل بسترها عليهم فصارت بمنزلة مالم يعمل بابطال حكمها .

وقوله ﴿ مثل الجنة ﴾ مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، وتقديره ما يتلى عليكم مثل الجنة التي وعد المتقون ، ولو جعل المثل مقحماً جاء الخبر المذكور عن الجنة كأنه قيل الجنة التي وعد المتقون فيها كذا وفيها كذا .

وقوله ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ أي يتساوى من له نعيم الجنة على ما وصفناه ومن هو في النار مؤبد ! ؟ ومع ذلك ﴿ سقوا ماء حميماً ﴾ أي حاراً ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ من حرارتها ، ولم يقل أمن هو في الجنة لدلالة قوله ﴿ كمن هو خالد ﴾ عليه . وقيل : معنى قوله ﴿ كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع

امعاءهم ﴾ أي هل يكون صفتهما وحالهما سواء ؟ ! . ويتماثلان فيه ؟ ! فانه لايكون ذلك أبداً .

قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢٠)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابن كثير فى احدى الروايتين ﴿ انفاً ﴾ على وزن (فعل) الباقون ﴿ آنفاً ﴾ بالمد على وزن (فاعل) قال ابو علي الفارسي : جعل ابن كثير ذلك مثل (حاذر ، وحذر . وفاكه ، وفكه) والوجه الرواية الأخرى .

حكى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله أن من الكفار من إذا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله واستمع

لقراءة القرآن منه وسمع ما يؤديه إلى الحق من الوحي وما يدعوه اليه ، فلا يصغي اليه ولا ينتفع به حتى إذا خرج من عنـده لم يدر ما سمعه ولا فهمه ، ويسألون أهل العلم الذين آتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ اي أي شيء قال الساعة ؟ وقيل : معناه قريباً مبتدياً . وقيل : إنهم كانوا يتسمعون للخطبة يوم الجمعة وهم المنافقون ، والآنف الجائي باول المعنى ومنه الاستئناف ، وهو استقبال الأمر بأول المعنى ، ومنه الانف لأنه اول ما يبدو من صاحبه ، ومنه الأنفة رفع النفس عن أول الدخول في الرتبة . وإنما قال ﴿ ومنهم من يستمع اليك ﴾ فرده إلى لفظة (من) وهي موحدة . ثم قال ﴿ حتى إذا خرجوا ﴾ بلفظ الجمع برده إلى المعنى ، لان (من) يقع على الواحد والجماعة .

ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ أي وسم قلوبهم وجعل عليها علامة تدل على انهم كفار لا يؤمنون ، وهو كالختم وإن صاحبه لا يؤمن فطبع الله على قلوب هؤلاء الكفار ذماً لهم على كفرهم أي لكونهم عادلين عن الحق واخبر أنهم ﴿ اتبعوا ﴾ في ذلك ﴿ اهواءهم ﴾ وهو شهوة نفوسهم وما مال اليه طبعهم دون ما قامت عليه الحجة يقال : هوى يهوي هوى فهو هاو ، واستهواه هذا الأمر أي دعاه إلى الهوى .

ثم وصف تعالى المؤمنين فقال ﴿ والذين اهتدوا ﴾ إلى الحق ، ووصلوا إلى الهدى والايمان ﴿ زادهم هدى ﴾ فالضمير في زادهم يحتمل ثلاثة اوجه :

احدها - زادهم الله هدى بما ينزل عليهم من الآيات والاحكام ، فاذا اقروا بها وعرفوها زادت معارفهم ،

الثاني - زادهم ما قال النبي صلى الله عليه وآله هدى .

الثالث - زادهم استهزاء المنافقين إيماناً .

والوجه فى إضافة الزيادة فى الهـدى إلى الله هو ما يفعله تعالى بهم من الألطاف التي تقوي دواعيهم إلى التمسك بما عرفوه من الحق وتصرفهم عن العدول إلى خلافه . ويكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحق وصارفاً لهم عن تقليد الرؤساء من غير حجة ولا دلالة . ثم قال ﴿ وآتاهم ﴾ على زيادة الهدى ﴿ تقواهم ﴾ أي خوفاً من الله من معاصيه ومن ترك مفترضاته بما فعل بهم من الالطاف فى ذلك . وقيل معناه ﴿ آتاهم ﴾ ثواب ﴿ تقواهم ﴾ ولا يجوز ان يكون المراد خلق لهم تقواهم لانه يبطل أن يكون فعلهم .

ثم قال ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة ﴾ أي ليس ينتظرون إلا القيامـة ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة ، فقوله ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة ، وتقديره إلا الساعة إتيانها بغتة ، فان حذف الساعة كان التقدير هل ينظرون إلا إتيانهم الساعة بغتة . ثم قال تعالى ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي علاماتها . وقيل : منها إنشقاق القمر فى وقت النبي ﷺ ومنها مجيء محمد ﷺ بالآيات لأنه آخر الأنبياء ، فالاشراط العلامات واحدها شرط قال جرير :

ترى شرط المعزى مهور نسائهم وفي شرط المعزى لهن مهور (١)

وأشرط فلان لنفسه إذا علمها بعلامة ، وقال أوس بن حجر :

فاشرط فيها نفسه وهو معصم والقى باسباب لهموتوكلا (٢)

والفاء في قوله ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء ، والتقدير إن تأتهم بغتة ، فقد جاء اشراطها . وقـد قرئ شاذاً عن أبي عمرو ﴿ الا إن ﴾ والقراءة بفتح (أن) وقال المبرد : هذا لا يجوز لانه تعالى أخبر انه لا تأتي الساعة إلا بغتة ، فكيف تعلق بشرط . وقال تعالى ﴿ فأنى لهم ﴾ أي من اين لهم ﴿ إذا

(١) الطبري ٢٦ / ٣٠ (٢) الطبري ٢٦ / ٣١

جاءتهم ﴾ يعني الساعة ﴿ ذكراهم ﴾ أي ما يذكرهم أعمالهم من خير او شر ، فانه لا ينفعهم فى ذلك الوقت الايمان والطاعات لزوال التكليف عنهم .

ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع المكلفين ﴿ فاعلم ﴾ يا محمد ﴿ أنه لا إله إلا الله ﴾ أي لا معبود يحق له العبادة إلا الله . وفي ذلك دلالة على ان المعرفة بالله اكتساب ، لأنها لو كانت ضرورية ، لما أمر بها ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فالخطاب له والمراد به الأمة لأنه ﷺ لا ذنب له يستغفر منه ، ويجوز ان يكون ذلك على وجه الانقطاع اليه تعالى .

ثم قال ﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ أي الموضع الذي تتقلبون فيه وكيف تتقلبون وموضع استقراركم ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم طاعة كانت او معصية . وقيل : يعلم متقلبكم فى أسفاركم ومثواكم فى اوطانكم ، وقيل : متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى نومكم .

ثم قال تعالى حكاية عن المؤمنين أنهم كانوا يقولون ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ أي هلا نزلت سورة لانهم كانوا يأنسون بنزول الوحي ويستوحشون من ابطائه فقال الله تعالى حاكياً عن حالهم عند نزول السورة فقال ﴿ وإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ أي ليس فيها متشابه ولا تأويل ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أي أوجب عليهم القتال ﴿ رأيت الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أي نفاق وشك ﴿ ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ لثقل ذلك عليهم وعظمه فى نفوسهم ﴿ فأولى لهم ﴾ قال قتادة : هو وعيد ، وكأنه قال العقاب اولى بهم ، وهو ما يقتضيه قبح أحوالهم. وروي عن ابن عباس ، انه قال : قال الله تعالى ﴿ فأولى ﴾ ثم استأنف فقال ﴿ لهم طاعة وقول معروف ﴾ يعني المؤمنين فصارت أولى للذين فى قلوبهم مرض . وقيل : المعنى ﴿ أولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ من أن يجزعوا عن فرض الجهاد

عليهم . وقال الجبائي : معنى الكلام ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم أن يعاقبوا ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ في ما أمرهم به ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ ودخل بين الكلامين ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ وليس من قصته وإنما هي من صفة المؤمن يأمره الله أن يطيعه ، ويقول له قولا معروفاً . وقرأ ابن مسعود « سورة محدثة » وهو شاذ .

قولـه تعـالى :

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو « وأملي لهم » على ما لم يسم فاعله . الباقون « وأملى لهم » بمعنى الشيطان أملى لهم ويجوز أن يريد ان الله أملى لهم كما قال « إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم » (١) وقرأ يعقوب مثل أبي عمرو إلا انه أسكن الياء بمعنى الاخبار عن الله عن نفسه وابو عمرو جعله لما لم يسم فاعله . وقرأ رويس « تُولِّيتم » بضم التاء والواو وكسر اللام . الباقون بفتحهما . وقوله « طاعة وقول معروف » قيل في معناه قولان :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨

احدهما ـ قولوا أمرنا طاعة وقول معروف . قال مجاهد أمر الله بذلك المنافقين . وقيل هو حكاية عنهم أنهم يقولون « طاعة وقول معروف » مثل فرض الجهاد . لأنه يقتضيه قوله « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

الثاني ـ طاعة وقول معروف أمثل أي اولى بالحق من أقوال هؤلاء المنافقين وقيل : طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد ـ ذكره الحسن ـ والطاعة موافقه الارادة الداعية إلى الفعل بطريق الترغيب فيه . والقول المعروف هو القول الحسن ، وسمي بذلك لأنه معروف صحته ، وكذلك الأمر بالمعروف أي المعروف أنه حق . والباطل منكر ، لانه تنكر صحته ، فعلى هـذا المعنى وقع الاعتراف والانكار .

وقوله « فاذا عزم الأمر » معناه إذا انعقـد الأمر بالارادة انه يفعله فاذا عقد على انه يفعل قيل عزم الأمر على طريق البلاغة . وقيل معنى عزم أي جـد الأمر ﴿فلو صدقوا الله﴾ يعني في ما أمرهم به من القتال وامتثلوا أمره ﴿لكان خيراً لهم﴾ لأنهم كانوا يصلون إلى نعيم الأبد .

ثم خاطبهم فقال « فهل عسيتم » يا معشر المنـافقين أن توليتم . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ « إن توليتم » الاحكام وجعلتم ولاة « أن تفسدوا » في الارض بأخـذ الرشا . وقيل أن اعرضتم عن كتاب الله ان تعودوا إلى ما كنتم من أمر الجاهلية أن يقتل بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه .

والثاني ـ ان وليتم الأمر أن يقطع بعضكم رحم بعض ، ويقتل بعضكم بعضاً كما قتلت قريش بني هاشم . وقتل بعضهم بعضاً . وقيـــل المعنى ان اعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه من وجوب القتال « أن تفسدوا في الارض » بان

تعملوا فيها بالمعاصي « وتقطعوا أرحامكم» فلا تصلونها ، فان الله تعالى يعاقبكم عليه بعذاب الأبد ويلعنكم .

ثم قال « أولئك الذين لعنهم الله » أي أبعدهم الله عن رحمته « فأصمهم وأعمى ابصارهم » أي سماهم عمياً وصماً ، وحكم عليهم بذلك ، لانهم بمنزلة الصم والعمي من حيث لم يهتدوا إلى الحق ولا أبصروا الرشد ، ولم يرد الاصمام فى الجارحة والاعماء في العين ، لانهم كانوا بخلافه صحيحي العين صحيحي السمع .
ثم قال موبخاً لهم « افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » معناه أفلا يتدبرون القرآن بأن يتفكروا فيه ويعتبروا به أم على قلوبهم قفل يمنعم من ذلك تنبيهاً لهم على ان الأمر بخلافه . وليس عليها ما يمنع من التدبر والتفكر والتدبر فى النظر فى موجب الأمر وعاقبته ، وعلى هذا دعاهم الى تدبر القرآن .

وفى ذلك حجة على بطلان قول من يقول لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع .

وفيه تنبيه على بطلان قول الجهال من اصحاب الحديث انه ينبغي ان يروى الحديث على ما جاء وإن كان مختلا فى المعنى ، لأن الله تعالى دعا إلى التدبر والتفقه وذلك مناف للتجاهل والتعامي .

ثم قال « إن الذين ارتدوا على ادبارهم » أي رجعوا عن الحق والايمان « من بعد ما تبين لهم الهدى » أي ظهر لهم الطريق الواضح المفضي إلى الجنة . وليس فى ذلك ما يدل على ان المؤمن على الحقيقة يجوز ان يرتد ، لأنه لا يمتنع ان يكون المراد من رجع عن إظهار الايمان بعد وضوح الأمر فيه وقيام الحجة بصحته .
ثم قال « الشيطان سول لهم » أي زين لهم ذلك . وقيل : معناه أعطاهم سؤلهم من خطاياهم « وأملى لهم » أي أمهلهم الشيطان ، وأملى لهم بالاطماع والاغترار .

وقيل : المعنى واملى الله لهم أي اخرهم فاغتروا بذلك . ومن قرأ - على ما لم يسم فاعله - احتمل الامرين ايضاً .

وقيل الآية نزلت في اليهود ، لأنهم عرفوا صفات النبي صلى الله عليه وآله في التوراة فلما جاءهم كفروا به . وقيل نزلت في المنافقين حين صدوا عن القتال معه من بعد ما علموا وجوبه في القرآن .

قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « إسرارهم » بكسر الهمزة على انه مصدر . الباقون بفتحها على انه جمع سر .

لما اخبر الله تعالى عن حال المرتدين على اعقابهم والراجعين عن إظهار الحق خلافه ، بين لم فعلوا ذلك ، فقال « ذلك بأنهم » يعني الشياطين « قالوا للذين كرهوا ما انزل الله » من القرآن وما أمرهم به من الأمر والنهي والحلال والحرام

وشبهوا عليهم ذلك ومالوا إلى خلافه . وقيل : هذا قول اليهود المنافقين « سنطيعكم في بعض الأمر » أي نفعل بعض ما تريدونه من الميل اليكم وإعطاء شهواتكم .

ثم قال « والله يعلم اسرارهم » أي بواطنهم ـ فمن فتح الهمزة ، ومن كسرها ـ أراد يعلم ما يسرونه . ثم قال « فكيف إذا توفتهم الملائكة » والمعنى كيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وحذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم « يضربون وجوههم وأدبارهم » على وجه العقوبة لهم في القبر ويوم القيامة .

ثم بين تعالى لم يفعل الملائكة بهم ذلك ، فقال « ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله » يعني المعاصي التي يكرهها الله ويعاقب عليها « وكرهوا رضوانه » أي كرهوا سبب رضوانه من الايمان والطاعات والامتناع من القبائح « فأحبط أعمالهم » أي حكم بأنها باطلة محبطة لا يستحق عليها الثواب .

ثم قال « أم حسب الذين في قلوبهم مرض » أي نفاق وشك يظنون « أن لن يخرج الله اضغانهم » أي احقادهم مع المؤمنين ولا يظهرها ولا يبدي عوراتهم للنبي صلى الله عليه وآله « ولو نشاء لأريناكهم » يعني المنافقين بأعيانهم ، ولو شئت لعرفتكم حتى تعرفهم . ثم قال « فلعرفتهم بسيماهم » أي بعلاماتهم التي نصبها الله لكم ، يعرفهم بها يعني الامارات الدالة على سوء نياتهم . ثم قال « ولتعرفنهم في لحن القول » أي في نحوى أقوالهم ومتضمنها . ومنه قوله صلى الله عليه وآله (ولعل بعضكم ألحن بحجته) أي أذهب بها في الجهات لقوته على تصريف الكلام ، واللحن الذهاب عن الصواب في الاعراب ، واللحن ذهاب الكلام إلى خلاف جهته . ثم قال « والله يعلم أعمالكم » الطاعات منها والمعاصي ، فيجازيكم بحسبها .

قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو بكر عن عاصم « وليبلونكم حتى يعلم .... ويبلو أخباركم » بالياء فيهن رداً على اسم الله في قوله « والله يعلم أعمالكم » الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . وقرأ حمزة وابو بكر عن عاصم « إلى السلم » بكسر السين . الباقون بفتحها ، وهما لغتنان على ما بيناه في ما تقدم في الاسلام والمصالحة(١)

يقول الله تعالى مقسماً إنا نبلو هؤلاء الكفار ، ومعناه نختبرهم بما نكلفهم من الامور الشاقة ، فالابتلا والاختبار واحد . وقوله « حتى نعلم المجاهدين منكم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ حتى نعلم جهادكم موجوداً لأن الغرض ان تفعلوا الجهاد فيثيبكم

(١) انظر ٥ / ١٧٥

على ذلك ، لانكم لا تستحقون الثواب على ما يعلم الله انه يكون .

الثاني ـ حتى نعاملكم معاملة من كأنه يطلب ان يعلم .

وقيل : معناه حتى يعلم أوليائي المجاهدين منكم ، وأضافه إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً ، كما قال « إن الذين يؤذون الله ورسوله » (١) يعني يؤذون أولياء الله . وقيل: معناه حتى يتميز المعلوم في نفسه ، لأنهم إنما يتميزون بفعل الايمان . وقيل : المعنى حتى تعلموا أنتم ، واضافه إلى نفسه تحسناً كما أن الانسان العالم إذا خولف في ان النار تحرق الحطب يحسن ان يقول : نجمع بين النار والحطب لنعلم هل تحرق ام لا ، ولا يجوز ان يكون المراد حتى نعلم بعد ان لم نكن عالمين ، لانه تعالى عالم في ما لم يزل بالأشياء كلها ، ولو تجدد كونه عالماً لاحتاج إلى علم محدث كالواحد منا وذلك لا يجوز أن يكون غرضاً بالتكليف ، لكن يجوز ان يكون الغرض ظهور حق الذم على الاساءة ، وإنما جاز في وصف الله الابتلاء ، لأن المعنى انه يعامل معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل بالجزاء لها . والجهاد احتمال المشقة في قتال المشركين واعداء دين الله . وافضل الأعمال علم الدين ، والجهاد في سبيل الله ، لأن علم الدين به يصح العمل بالحق والدعاء اليه . والجهاد داع إلى الحق مع المشقة فيه . والصابر هو الحابس نفسه عما لا يحل له . وهي صفة مدح . ومع ذلك ففيها دليل على حاجة الموصوف بها ، لأنه إنما يحبس نفسه ويمنعها مما تشتهيه او تنازع اليه من القبيح « ونبلو أخباركم » أي نختبر اخباركم ونعلم المطيع من العاصي .

ثم اخبر تعالى « إن الذين كفروا » بوحدانيته وجحدوا نبوة نبيه « وصدوا » أي منعوا غيرهم « عن » إتباع « سبيل الله » بالقهر تارة وبالاغراء أخرى « وشاقوا الرسول » أي عاندوه وباعدوه بمعاداته « من بعدما تبين لهم الهدى » ووضح لهم

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٧

سبيله « لن يضروا الله » بذلك « شيئاً » وإنما ضروا نفوسهم « وسيحبط اعمالهم » ويستحقون عليها العقاب . والهدى الدلالة المؤدية إلى الحق . والهادي الدال على الحق

وفي الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كان قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه او يكون ظهر لهم أمر النبي ، فلم يقبلوه . وقيل : تبين لهم الهدى ، لأنهم كانوا قد عرفوا الايمان ورجعوا عنه .

ثم خاطب المؤمنين فقال « يا ايها الذين آمنوا » بالله وصدقوا رسوله « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أي افعلوا الطاعات التي أمركم الله بهـا وامركم بها رسوله « ولا تبطلوا اعمالكم » بأن توقعوها على خلاف الوجه المأمور به فيبطل ثوابكم عليها وتستحقون العقاب .

ثم اخبر تعالى فقال « إن الذين كفروا » أي جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله « وصدوا عن سبيل الله » بالمنع والاغراء والدعاء إلى غيره « ثم ماتوا وهم كفار » أي في حال كفرهم « فلن يغفر الله لهم » معاصيهم بل يعاقبهم عليها . ثم قال « فلا تهنوا » أي لا تتوانوا . وقال مجاهد وابن زيد : لا تضعفوا « وتدعوا إلى السلم » يعني المصالحة « وأنتم الأعلون » أي وانتم القاهرون الغالبون ـ في قول مجاهد ـ « والله معكم » اي ناصركم والدافع عنكم فلا تميلوا مع ذلك إلى الصلح والمسالمـة بل جاهدوا واصبروا عليه . وقوله « ولن يتركم اعمالـــكم » أي لن ينقصكم اجور اعمالكم يقال : وتره يتره وتراً إذا أنقصه . وهو قول مجاهد . وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد والضحاك : لن يظلمكم واصله القطع ، فمنه البتر القطع بالقتل . ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره . وقوله « وتدعوا » يجوز ان يكون جراً عطفاً على « تهنوا » أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم ، ويجوز ان يكون في موضع نصب على الظرف (١)

(١) المقصود من (الظرف) واو المعصية الذي تضمر (ان) بعدها

قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مزهداً لخلقه فى الانهماك على الدنيا ، ومرغباً لهم في التوفر على عمل الآخرة ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ وإنما زهدهم فى الدنيا لكونها فانية ورغبهم فى الآخرة لكونها باقية ، فمن اختار الفاني على الباقي كان جاهلا ومنقوصاً ومعنى ﴿ الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي ذات لعب ولهو ، لأن غالب أمر الناس فى الدنيا اللعب واللهو ، وذلك عبث وغرور وانصراف عن الحد الذي يدوم به السرور والحبور . وقيل : شبهت باللعب واللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة ، فالتقدير على هذا إنما الحياة الدنيا كاللعب واللهو فى سرعة الانقضاء ، والآخرة كالحقيقة فى اللزوم والامتداد ، فاحداهما كالحقيقة ، والأخرى كالمخرقة . ثم قال ﴿ وإن تؤمنوا ﴾ بوحدانيته وتصديق رسوله ﴿ وتتقوا ﴾ معاصيه ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ على ذلك وثوابكم على طاعتكم ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ أن تدفعوها اليه . وقيل ﴿ لا يسألكم أموالكم ﴾ كلها وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم . وقيل المعنى ﴿ لا يسألكم أموالكم ﴾ بل أمواله ، لانه تعالى مالكها والمنعم بها .

ثم بين تعالى لم لايسألـهم أموالهم ، فقال ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ فالاحفاء الالحاح فى المسألة حتى ينتهى إلى مثل الحفا ، والمشي بغير حذاء ، احفاه بالمسألة يحفيه إحفاء . وقيل الاحفاء طلب الجميع ﴿ تبخلوا ﴾ أي تمنعونه . والبخل قال قوم : هو منع الواجب . وقال الرماني : البخل منع النفع الذي هو أولى فى العقـل ، قال : ومن زعم أن البخل منع الواجب عورض بأن البخل منع ما يستحق بمنعه الذم ، لأن البخيل مذموم بلا خلاف ، وقد يمنع الواجب الصغير فلا يجوز وصفه بأنه بخيل ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ لأن في سؤال الأموال بالاحفـاء خروج الاضغان وهي الاحقاد التي فى القلوب والعداوات الباطنة. وقيل (الاضغان) هي المشاق التي فى القلوب ،ولذلك ذكر الاخراج . وقيل : ويخرج الله المشقة التي في قلوبكم بسؤال أموالكم . وإنما قدم المخاطب على الغائب فى قوله ﴿ أن يسألكموها ﴾ لأنه ابتداء بالاقرب مع انه المفعول الاول ، ويجوز مع الظاهر أن يسألها جماعتكم ، لأنه غائب مع غائب ، فالمتصل أولى بأن يليه من المنفصل .

ثم قال ﴿ ها انتم هؤلاء ﴾ وإنما كرر التنبيه فى موضعين للتوكيد ، فقال ﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ وقيل (ها) للتقريب ، ودخل على المضمر لمشاكلة(المبهم) في انه معرفة تصلح صيغته لكل مكنى عنه على جهة جماعة المخاطب ، كما يصلح (هؤلاء) لكل خاص مشار اليه ، ولم يجز مع الظاهر لبعده من المبهم . وقال بعضهم : العرب إذا ارادت التقريب جعلت المكنى بين(ها) و بين (ذا)، فيقولون ما أنت ذا قائماً ، لان التقريب جواب الكلام فربما اعادت (ها) مع (ذا) وربما اجتزأت بالاولى وحذفت الثانية ، ولا يقدمون (أنتم) على (ها) لأن (ها) جواب ، فلا يقرب بها بعد الكلمة . وقوله ﴿ تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ﴾ لينيلكم الجزيل من ثوابه وهو غني عنكم وعن جميع خلقه ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ فلا ينفق ماله فى سبيل الله .

ثم قال ﴿ ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ﴾ أي عن داعي نفسه ، لا عن داعي ربه لأن الله قد صرفه عن البخل بالنهي عنه والذم له . ثم قال ﴿ والله الغني ﴾ الذي ليس بمحتاج لا اليكم ولا إلى احد ﴿ وانتم الفقراء اليه وإن تتولوا ﴾ أي ان تعرضوا عن أمره ونهيه ولا تقبلونهما ، ولا تعملون بما فيهما ﴿ يستبدل قوماً غيركم ﴾ قال قوم يستبدل الله بهم من فى المعلوم أنهم يخلقون بعد ، ويجوز أن يكونوا من الملائكة وقيل : هم قوم من اليمن ، وهم الانصار . وقيل : مثل سلمان واشباهه من ابناء فارس ، ولم يجز الزجاج أن يستبدل الملائكة ، لانه لا يعبر بالقوم عن الملائكة ، لا يكونوا أمثالكم ، لأنهم يكونون مؤمنين مطيعين ، وأنتم كفار عاصون . وقال الطبري لا يكونوا أمثالكم فى البخل والانفاق فى سبيل الله ، ولما نزلت هذه الآية فرح النبي ﷺ وقال : هي أحب إلي من الدنيا .

٤٨ ـ سورة الفتح

مدنية بلا خلاف وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ ٱللهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾(٥)

خمس آيات .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال البلخي : الفتح يكون في القتال وبالصلح ، وباقامة الحجج ، ويكون المعنى ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ بحجج الله وآياته ﴿ فتحاً مبيناً ﴾ لينصرك الله بذلك على من ناواك . وقال قتادة : نزلت

هذه الآية عند رجوع النبي ﷺ من الحديبية ، بشر في ذلك الوقت بفتح مكة ، وتقديره ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ مكة . وقال البلخي عن الشعبي في وقت الحديبية بويع النبي ﷺ بيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وبلغ الهدي محله . والحديبية بئر، فروي انها غارت فمج النبي ﷺ فيها فظهر ماؤها حتى امتلاءت به . وقال قتادة : معنى ﴿ فتحنا ﴾ قضينا لك بالنصر . وقيل : معناه اعلمناك علماً ظاهراً في ما أنزلناه عليك من القرآن واخبرناك به من الدين ، وسمي العلم فتحاً ، كما قال ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ (١) أي علم الغيب . وقال ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ (٢) وقال الزجاج : معناه ارشدناك إلى الاسلام ، وفتحنا لك الدين بدلالة قوله ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ (٣) وقال مجاهد ﴿ فتحنا لك فتحاً مبينا ﴾ يعني نحره بالحديبية وحلقه . وقال قتادة : معناه قضينا لك قضاء بيناً . وفي الحديبية مضمض رسول الله ﷺ في البئر وقد غارت فجاشت بالرواء . والفتح هو القضاء من قولهم : اللهم أفتح لي . وقوله تعالى ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (٤) والفتح الفرج المزيل للهم . ومنه فتح المسألة إذا انفرجت عن بيان ما يؤدي إلى المطلوب . ومنه فتح عليه القراءة ، لانه متعلق بالسهو ، وينفتح بالذكر والفتح المبين هو الظاهر ، وكذلك جرى فتح مكة .

وقوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قيل جعل غفرانه جزاء عن ثوابه على جهاده في فتح مكة . وقيل في معناه اقوال :

(١) سورة ٦ الانعام آية ٥٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ١٩
(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٧٣ (٤) سورة ٧ الاعراف آية ٨٨

احدها - ما تقدم من معاصيك قبل النبوة وما تأخر عنها .

الثاني - ما تقدم قبل الفتح وما تأخر عنه .

الثالث - ما قد وقع منك وما لم يقع على طريق الوعد بأنه يغفره له إذا كان.

الرابع - ما تقدم من ذنب أبيك آدم ، وما تأخر عنه .

وهذه الوجوه كلها لا تجوز عندنا ، لأن الانبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم فعل شيء من القبيح لاقبل النبوة ولا بعدها ، لاصغيرها ولا كبيرها فلا يمكن حمل الآية على شيء مما قالوه ، ولا صرفها إلى آدم لان الكلام فيه كالكلام في نبينا محمد صلى الله عليه وآله ومن حمل الآية على الصغائر التي تقع محبطة فقوله فاسد ، لأنا قد بينا أن شيئاً من القبائح لا يجوز عليهم بحال . على ان الصغائر تقع مكفرة محبطة لا يثبت عقابها ، فكيف يمتن الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله أنه يغفرها له وهو تعالى لو آخذه بها لكان ظالماً وإنما يصح التمدح بما له المؤاخذة أو العفو عنه ، فاذا غفر استحق بذلك الشكر . وللاية وجهان من التأويل :

احدها - ليغفر لك ما تقدم من ذنب امتك وما تأخر بشفاعتك ولمكانك . وأضاف الذنب إلى النبي وأراد به أمته ، كما قال ﴿ واسأل القرية ﴾ (١) يريد اهل القرية فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وذلك جائز لقيام الدلالة عليه ، كما قال ﴿ وجاء ربك ﴾ (٢) والمراد وجاء أمر ربك .

الثاني - أراد يغفر ما اذنبه قومك اليك من صدهم لك عن الدخول إلى مكة في سنة الحديبية ، فازال الله ذلك وستر عليك تلك الوصمة بما فتح عليك من مكة ودخلتها في ما بعد ، ولذلك جعله جزاء على جهاده في الدخول إلى مكة . والذنب مصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول ، فيكون - ههنا - مضافاً

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢ (٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

إلى المفعول . والذنب وإن كان غير متعدّ إلى مفعول جاز ان يحمل على المصدر الذي هو في معناه، والصد متعد كما قال الشاعر :

جئني بمثل بني بدر لقومهم　　او مثل اسرة منظور بن سيار (١)

لما كان معنى جئني هات أعطني عطف او (مثل) على المعنى فنصبه ، ومثله كثير في اللغة .

وقوله ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ فاتمام النعمة فعل ما يقتضيها من تبقيتها على صاحبها والزيادة منها ، فالله تعالى قد أنعم على النبي صلى الله عليه وآله وتممها بنصره على اعدائه الرادين لها المكذبين بها حتى علا بالحجة والقهر لكل من ناواه . وقيل يتم نعمته عليك بفتح مكة وخيبر والطائف . وقيل بخضوع من تكبر وطاعة من تجبر .

وقوله ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي يرشدك إلى الطريق الذي إذا سلكته أداك إلى الجنة . لا يعدل بك إلى غيرها ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ فالنصر العزيز هو الذي يمنع من كل جبار عنيد وعات أثيم . وقد فعل الله تعالى ذلك بنبيه محمد صلى الله عليه وآله فصار دينه أعز الاديان وسلطانه أعظم السلطان .

وقوله ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ وهو ما يفعل الله تعالى بهم من الالطاف الذي يحصل لهم عنده بصيرة بالحق تسكن اليها نفوسهم ويجدون الثقة بها بكثرة ما ينصب الله لهم من الأدلة الدالة على الحق فهذه النعمة التامة للمؤمنين خاصة . فأما غيرهم فتضطرب نفوسهم لاول عارض من شبهة ترد عليهم ، لانهم لايجدون برد اليقين في قلوبهم . وقيل : السكينة ما تسكن اليه قلوبهم من التعظيم لله ورسوله والوفاء له .

وقوله ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أي ليزدادوا معارف أخر بما أوجب

---

(١) قد مر في ٣ / ٤٥٥ و ٦ / ٣٠

الله عليهم زيادة على المعرفة الحاصلة ، فبين الله تعالى ما لنبيه عنده وللمؤمنين ليزدادوا ثقة بوعده . وقوله ﴿ ولله جنود السموات والارض ﴾ قيل : معناه انصار دينه ينتقم بهم من اعدائه . وقيل : معناه إن جميع الجنود عبيده ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بالاشياء قبل كونها وعالماً بعد كونها ﴿ حكيماً ﴾ في افعاله لانها كلها محكمة وصواب .

وقوله ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ إنما لم يدخل واو العطف في (ليدخل) اعلاماً بالتفصيل ، كأنه قال إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ، إنا فتحنا لك فتحاً ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات أي بساتين تجري من تحت اشجارها الانهار « خالدين فيها » أي مؤبدين لا يزول عنهم نعيمها ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي عقاب معاصيهم التي فعلوها في دار الدنيا ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ أي الظفر ، والصلاح بما طلبوه من الثواب العظيم .

قوله تعالى :

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ دائرة السوء ﴾ بضم السين . الباقون بفتحها ، وقد فسرناه في ما تقدم . فالسوء المصدر والسوء الاسم . وقال قوم ـ بالفتح ـ الفساد مثل قوله ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ لأنهم ظنوا أن النبي ﷺ لا يعود إلى موضع ولادته أبداً . وقرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه و سبحوه ﴾ بالياء أربعهن ، على وجه الاخبار من الله عز وجل عن نفسه .

لما اخبر الله تعالى عن نفسه أنه يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ، ووصفها اخبر فى هذه الآية انه يعذب المنافقين والمنافقات وهم الذين يظهرون الايمان ويبطنون الشرك . والنفاق إسرار الكفر وإظهار الايمان ، فكل نفاق هو إظهار خلاف الابطان . وأصله من نافقاء اليربوع ، وهو أن يجعل لسربه بابين يظهر أحدهما ويخفي الآخر ، فاذا أتي من الظاهر خرج من الآخر ، فالمنافق يقوي الباطل على الحق بالظن له ، وإلقاء خلافه لتضييعه الدليل المؤدي اليه ، ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين يعبدون مع الله غيره ، ويدخل فى ذلك جميع الكفار . ثم وصفهم فقال ﴿ الظانين بالله ﴾ يعني الذين يظنون بالله ﴿ ظن السوء ﴾ أي يتوهمون ان الله ينصرهم على رسوله ، وذاك قبيح لا يجوز وصف الله بذلك . ثم قال تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ فالدائرة هي الراجعة بخير او شر قال حميد بن ثور :

ودائرات الدهر ان تدورا (١)

ومن قرأ ﴿ دائرة السوء ﴾ بضم السين ـ أراد دائرة العذاب . ومن قرأ ـ بالفتح ـ أراد ما عاد عليهم من قتل المؤمنين وغنمهم أموالهم ، فهذا حسن . وقيل ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي جزاء ظنهم السوء من العذاب . ومن ضم اراد الشر . ويقال : رجل سوء ـ بالفتح ـ أي رجل فساد . ثم قال ﴿ وغضب الله

(١) قد مر فى ٣ / ٥٤٣ او ٥٥١

عليهم ﴾ أي لعنه لهم وعذابه ﴿ ولعنهم ﴾ أي أبعدهم من رحمته. وقوله ﴿ وأعد لهم جهنم ﴾ يجعلهم فيها.

ثم قال ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي ساءت جهنم مآلا ومرجعاً، لما فيها من انواع العقاب.

وقوله ﴿ ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ قد فسرناه، وإنما أعيد ذكر ﴿ ولله جنود .... ﴾ لأنه متصل بذكر المنافقين أي وله الجنود التي يقدر على الانتقام منكم بها، وذكر أولا، لأنه متصل بذكر المؤمنين أي له الجنود التي يقدر ان يغنيكم بها. والعزيز القادر الذي لا يقهر. وقيل ﴿ هو العزيز ﴾ في إنتقامه من أعدائه « الحكيم » في جميع أفعاله. ثم خاطب نبيه محمد ﷺ فقال « إنا أرسلناك » يا محمد « شاهداً » يعني على أمتك بالبلاغ والدعاء إلى إخلاص عبادته. أو شاهداً بما عملوه من طاعة ومعصية (وشاهداً) نصب على حال مقدر على القول الأول، وعلى حال غير مقدرة على القول الثاني. (ومبشراً) نصب على الحال الحاصلة. والمعنى ومبشراً بالجنة لمن أطاع « ونذيراً » أي مخوفاً من النار لمن عصى - ذكره قتادة - ثم بين الغرض بالارسال، فقال: أرسلناك بهذه الصفة « لتؤمنوا » ومن قرأ - بالياء - أي ليؤمنوا هؤلاء الكفار « بالله ». ومن قرأ - بالتاء - وجه الخطاب إلى لخلق أي أرسلته اليكم « لتؤمنوا بالله » فتوحدوه « ورسوله » فتصدقوه و « تعزروه » أي تنصروه، فالهاء راجعة إلى النبي ﷺ وقال المبرد: معنى (تعزروه) تعظموه يقال: عزرت الرجل إذا كبرته بلسانك « وتوقروه » أي تعظموه يعني النبي ﷺ - في قول قتادة - وقال ابن عباس (تعزروه) من الاجلال (وتوقروه) من الاعظام.

وقوله « وتسبحوه » يعني الله تعالى أي تنزهوه عما لا يليق به « بكرة

واصيلا » أى بالغداة والعشي . وقيل معناه تصلوا له بالغدوات والعشيات .

وقوله « لتؤمنوا بالله ورسوله » فيه دلالة على بطلان قول المجبرة إن الله تعالى يريد من الكفار الكفر ، لأنه تعالى بين انه أراد من جميع المكلفين الطاعة ، ولم يرد أن يعصوا .

ثم قال « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » فالمراد بالبيعة المذكورة ـ ههنا ـ بيعة الحديبية ، وهي بيعة الرضوان ـ في قول قتادة ومجاهد ـ والمبايعة معاقدة على السمع والطاعة ، كالمعاقدة فى البيع والشراء بما قد مضي فلا يجوز الرجوع فيه . وقيل : إنها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنة للزومهم فى الحرب النصرة .

وقوله « يد الله فوق أيديهم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ عقد الله فى هذه البيعة فوق عقدهم لأنهم بايعوا الله ببيعة نبيه ﷺ

والآخر ـ قوة الله فى نصرة نبيه ﷺ فوق نصرتهم .

وقيل يد الله في هدايتهم ، فوق أيديهم بالطاعة .

وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » والنكث النقض للعقد الذى يلزم الوفاء به ، فبين تعالى أن من نقض هذه المبايعة ، فانما ينكث على نفسه ، لان ما في ذلك من استحقاق العقاب عائد عليه « ومن أوفى » يقال : اوفى بالعقد ، ووفى . وأوفى لغة الحجاز . وهي لغة القرآن « بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » أى إذا اوفى بالبيعة و نصر دينه ونبيه آتاه الله في ما بعد أجراً عظيماً وثواباً جزيلا . ومن ضم الهاء في « عليه » وهو حفص ، فلأنها الأصل . ومن كسرها فللمجاورة للياء

قوله تعالى :

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١٥)

خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « كلم الله » على الجمع . الباقون « كلام الله » على التوحيد ، لانه يدل على الكثير من حيث هو اسم جنس ، قال ابو علي « كلام الله » يقع على ما يفيد ، والكلم يقع أيضاً على الكلام ، وعلى ما لا يفيد والكلم جمع كلمة .

وقرأ حمزة والكسائي « ضراً » بالفتح . الباقون بالضم . فمن قرأ - بالفتح - أراد المصدر . ومن قرأ بالضم أراد الاسم . وقيل بالفتح ضد النفع وبالضم سوء

الحال ، كقوله « مسني الضر » (١) ويقال : ضرني الشيء وأضرني ، ولا يقال : أضر بي ، وضره يضره وضاره يضيره بمعنى واحد .

هذا اخبار عن الله تعالى لنبيه ﷺ انه « سيقول لك » يا محمد « المخلفون من الاعراب » قال ابن اسحاق ومجاهد : لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى مكة عام الحديبية أحرم بعمرة ودعا الاعراب الذين حول المدنية إلى الخروج ، فتثاقلوا : أسلم وغفار وجهينة ومزينة، فاخبر الله تعالى بذلك . والمخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين عن البلد ، وهو مشتق من المتخلف وضده المتقدم . تقول خلفته كما تقول قدمته تقديماً ، وإنما تخلفوا لتثاقلهم عن الجهاد وإن اعتذروا بشغل الأموال والاولاد . والاعراب الجماعة من عرب البادية ، وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب ، ففرقوا بينهما ، وإن كان اللسان واحد .

وقوله « شغلتنا أموالنا وأهلونا » أخبار بما اعتلوا به ، فالشغل قطع العمل عن عمل ، لا يمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابهما كالكتابة والرمي عن القوس والله لا يشغله شأن عن شأن لانه لا يعمل بآلة . وقوله « فاستغفر لنا » حكاية ما قالوه للنبي وسألوه أن يستغفر لهم والاستغفار طلب المغفرة بالدعاء مع التوبة عن المعاصي فهؤلاء سألوا الدعاء بالمغفرة ، وفي قلوبهم خلاف ما أظهروه بافواههم ففضحهم الله وهتك أستارهم ، وأبدى ما نافقوا به في جهادهم ، فقال « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » .

ثم قال للنبي ﷺ « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً » لا يقدر احد على دفعه « أو اراد بكم نفعاً » لا يقدر احد على إزالته « بل كان

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٣

الله بما تعملون خبيراً » أي عالماً نافعاً لكم لايخفى عليه شيء منها . ثم قال له قل لهم « بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ابداً » أي ظننتم انهم لا يرجعون ويقتلون ويصطلمون . وهو قول قتادة « وزين ذلك في قلوبكم » زينه الشيطان ذلك وسوّله لكم « وظننتم ظن السوء » في هلاك النبي والمؤمنين ، وإن الله ينصر عليهم المشركين « وكنتم قوماً بوراً » والبور الفاسد وهو معنى الجمع وترك جمعه في اللفظ لانه مصدر وصف به قال حسان :

لا ينفع الطول من نوك القلوب   وقد يهدي الا له سبيل المعشر (١)

البور والبوار الهلاك وبارت السلعة إذا كسدت والبائر من الفاكهة مثل الفاسدة . وقال قتادة « بوراً » أي فاسدين . وقال مجاهد : هالكين . ثم قال تعالى مهدداً لهم « ومن لم يؤمن بالله ورسوله » أي لم يصدق بهما « فانا أعتدنا للكافرين سعيراً » أي ناراً تسعرهم وتحرقهم . ثم قال « ولله ملك السموات والارض » بأن يتصرف فيهما كما يشاء لا يعترض أحد عليه فيها « يغفر لمن يشاء » معاصيه « ويعذب من يشاء » إذا استحق العقاب بارتكاب القبائح « وكان الله غفوراً رحيماً » أي ساتراً على عباده معاصيهم إذا تابوا لا يفضحهم بها رحيماً باسقاط عقابهم الذي استحقوها بالتوبة على وجه الابتداء .

ثم قال تعالى « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » يعني غنائم خيبر « ذرونا نتبعكم » أي اتركونا نجيء معكم ، فقال الله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله قل » لهم يا محمد « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » قال مجاهد وقتادة : يعني ما وعد به أهل الحديبية أن غنيمة خيبر لهم خاصة ، فارادوا تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها فمنعهم الله من ذلك . وقال ابن زيد : أراد بقوله

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٤٥

﴿ لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وهـذا غلط لأن هـذه الآية نزلت في الذين تأخروا عن تبوك بعد خيبر وبعد فتح مكة ، فقال الله تعالى لهم ﴿ لن تخرجوا معي ابداً ﴾ لان النبي ﷺ لم يخرج بعد ذلك في قتال ولا غزو الى أن قبضه الله تعالى . ثم قال ﴿ كذلك قال الله من قبل ﴾ أي مثل ذلك حكم الله وقال ابن زيد : غنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصة لا يشركهم فيها أحد . ثم حكى ما قالوه بأنهم ﴿ فسيقولون ﴾ عند ذلك ليس الأمر كذلك ﴿ بل تحسدوننا ﴾ فقال ليس الأمر على ما قالوه ﴿ بل كانوا لا يفقهون ﴾ الحق وما يدعون اليه ﴿ إلا قليلا ﴾ وقيل معناه لا يفقهون الحق إلا القليل منهم ، وهم المعاندون . وقال بعضهم لا يفقهون إلا فقها قليلا أو الاشياء قليلا . وإنما قالوا : تحسدوننا ، لان المسلمين لما توجهوا إلى خيبر وأخذوا غنائمها ، قال المخلفون ﴿ ذرونا نتبعكم ﴾ قالوا نعم على ان لا شيء لكم من الغنيمة ، فقالوا عند ذلك تحسدوننا ، فقال تعالى ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَن

ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٢٠) خمس آيات .

قرأ أهل المدينة ، وابن عامر ﴿ ندخله ونعذبه ﴾ بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه . الباقون - بالياء - رداً على اسم الله . يقول الله تعالى لنبيه ﴿ قل للمخلفين من الاعراب ﴾ أي لهؤلاء المخلفين الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿ ستدعون ﴾ في ما بعد ﴿ إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ﴾ قال ابن عباس : اولوا البأس الشديد أهل فارس . وقال ابن أبي ليلى والحسن : هم الروم . وقال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة : هم هوازن بحنين . وقال الزهري : هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب ، وكانوا بهذه الصفة .

واستدل جماعة من المخالفين بهذه الآية على إمامة أبي بكر ، من حيث ان أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم ، وكانوا قد حرموا القتال مع النبي ﷺ بدليل قوله ﴿ لن تخرجوا معي ابداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وهذا الذي ذكروه غير صحيح من وجهين :

احدهما - أنه غلط في التاريخ ووقت نزول الآية .

والثاني - أنه غلط في التأويل ، ونحن نبين فساد ذلك أجمع ، وانما في الكلام في تأويل الآية وجهان :

احدهما - إنه تنازع في اقتضائها داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبي ﷺ وبين أن الداعي لهم في ما بعد كان النبي ﷺ على ما حكيناه عن قتادة وسعيد ابن جبير في ان الآية نزلت في اهل خيبر ، وكان النبي ﷺ هو الداعي إلى ذاك .

والآخر - ان يسلم ان الداعي غيره ، ونبين انه لم يكن أبا بكر ولا عمر بل كان أمير المؤمنين عليه السلام .

فاما الوجه الاول فظاهر ، لأن قوله ﴿ سيقول لك المخلفون ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ قد بينا انه أراد به الذين تخلفوا عن الحديبية باجماع المفسرين ثم قال ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم .... ﴾ إلى آخر الآية ، فبين أن هؤلاء المخلفين سألوا ان يخرجوا إلى غنيمة خيبر فمنعهم الله من ذلك ، وأمر نبيه ﷺ ان يقول لهم ﴿ قل لن تتبعونا .... ﴾ إلى هذه القرية ، لأن الله تعالى حكم من قبل بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وانه لاحظ فيها لمن لم يشهدها ، وهذا هو معنى قوله ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ وقوله ﴿ كذلك قال الله من قبل ﴾ ثم قال ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ﴾ وإنما أراد الرسول سيدعوهم في ما بعد إلى قتال قوم بهذه الصفة ، وقد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة . وقال قوم : أولي بأس شديد ، كموقعه حنين وتبوك وغيرها ، فمن أين يجب أن يكون الداعي لهم غير النبي ﷺ فأما قولهم إن معنى قوله ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ هو انه أراد قوله ﴿ فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ مملوء بالغلط الفاحش في التاريخ ، لانا قد بينا أن هذه الآية التي في التوبة نزلت بـ (تبوك) سنة تسع . وآية سورة الفتح نزلت سنة ست ، فكيف تكون قبلها ، وينبغي لمن تكلم في تأويل القرآن أن يرجع إلى التاريخ ويراعي اسباب نزول

الآية على ما روي ، ولا يقول على الآراء والشهوات . وتبين أيضاً أن هؤلاء المخلفين غير أولئك ، وإن لم يرجع إلى تاريخ . ونقول قوله ﴿ فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ فلم يقطع على طاعة ، ولا على معصية بل ذكر الوعد والوعيد على ما يتعلق به من طاعة او معصية وحكم المذكورين فيهم في سورة التوبة ، بخلافه لانه تعالى قال بعد قوله ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ إلى قوله ﴿ وهم كافرون ﴾ (١) فاختلاف احكامهم يدل على اختلافهم ، وقد حكينا عن سعيد بن جبير انه قال هذه الآية نزلت في هوازن يوم حنين . وقال الضحاك : هم ثقيف ، وقال قتادة : هم هوازن وثقيف ، وأما الوجه الذي يسلم معه أن الداعي غير النبي صلى الله عليه وآله فهو أن نقول الداعي أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنه قاتل بعده أهل الجمل وصفين وأهل النهروان ، وبشره النبي صلى الله عليه وآله بقتالهم ، وكانوا أولي بأس شديد ، فان قالوا من قاتلهم علي عليه السلام كانوا مسلمين ، وفي الآية قال تقاتلونهم او يسلمون ! كيف تتناولهم الآية ؟ !

قلنا : أول ما نقوله : إنهم غير مسلمين عندنا ، ولا عند جميع من خالفنا من المعتزلة ، لأن عندهم صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ، ولا مسلم . وأما مذهبنا في تكفير من قاتل علياً عليه السلام معروف ، وقد ذكرناه في كتب الامامة لقوله صلى الله عليه وآله (حربك يا علي حربي) وغير ذلك من الاخبار والادلة التي ذكرناها في غير موضع واستوفينا ما يتعلق بذلك في كتاب الامامة ، ويمكن على تسليم أن الداعي ابو بكر وعمر ، أن يقال : ليس في الآية ما يدل على مدح الداعي ولا على امامته ، لانه قد يدعو إلى الحق من ليس عليه ، ويجب ذلك من حيث كان واجباً من

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٤ - ٨٦

أجل دعاه الداعي ، وابو بكر دعاهم إلى الدفاع عن الاسلام ، وهذا واجب على كل واحد بلا دعاه داع ، ويمكن ان يكون المراد بقوله ﴿ ستدعون ﴾ دعاء الله لهم بايجاب القتال عليهم ، لانه إذا دلهم على وجوب قتال المرتدين ودفعهم عن بيضة الاسلام ، وقد دعاهم إلى القتال ووجبت عليهم طاعته ، والكلام فى هذه الآية كالتي قبلها فى أنا إذا قلنا لا تدل على إمامة الرجلين ، لا نكون طاعنين عليهما ، بل لا يمتنع أن يثبت فضلهما وإمامتهما بدليل غير الآية ، لأن المحصلين من العلماء يذهبون إلى امامتهما من جهة الاخبار لامن جهة الآية .

وقوله ﴿ تقاتلونهم او يسلمون ﴾ بالرفع معناه إن احد الأمرين لابد أن يقع لامحالة ، وتقديره أوهم يسلمون . وقرئ شاذاً بالنصب ، والوجه فيه حتى يسلموا ولو نصبه ، فقال او يسلموا لكان دالا على ان ترك القتال من أجل الاسلام .

وقوله ﴿ ليس على الاعمى حرج ... ﴾ الآية ، فالأعمى هو من لا يبصر بجارحة العين . والاعرج الذي برجله آفة تمنعه من المشي مأخوذ من رفعها عند محاولة المشي بغيرها ، ومنه العروج الصعود إلى السماء ، والمريض من به علة تمنعه من الحركة من اضطراب فى البدن حتى يضعف وتحصل فيه آلام ، بين الله تعالى انه ليس على وجه هؤلاء الذين بهم هذه الآفات من ضيق ولا حرج فى ترك الحصول مع المؤمنين والحضور معهم فى الجهاد . قال قتادة : كل ذلك فى الجهاد . ثم قال ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ في ما أمره به ونهاه عنه ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتول ﴾ عن إتباعهما وامتثال أمرهما ونهيهما ﴿ يعذبه ﴾ الله ﴿ عذاباً أليماً ﴾ فمن قرأ بالياء رده إلى الله . ومن قرأ بالنون أراد الاخبار من الله عن نفسه .

وقوله ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ إخبار

من الله تعالى انه رضي عن الذين بايعوا تحت الشجرة النبي ﷺ وكانوا مؤمنين في الوقت الذي بايعوه ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من إيمان ونفاق فرضي عن المؤمنين وسخط على المنافقين . وقيل معناه فعلم ما في قلوبهم من صدق النية في القتال وكراهتهم له ، لانه بايعهم على القتال - ذكره مقاتل - ﴿ فانزل السكينة عليهم ﴾ يعني على المؤمنين ، والسكينة الصبر لقوة البصيرة ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى : يعني فتح خيبر وقال قوم : فتح مكة ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ فالغيمة ملك أموال اهل الحرب من المشركين بالقهر والغلبة في حكمه تعالى ، وكان القتال من أجلها . و (المغانم) ههنا يراد به غنائم خيبر .

وقوله ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ يعني سائر الغنائم وقال قوم : أراد بها ايضاً غنائم خيبر . وقوله ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني الصلح وسميت بيعة الرضوان لقول الله تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾ وقال ابن عباس كان سبب بيعة الرضوان بالحديبية تأخر عثمان حين بعثه النبي ﷺ إلى قريش أنهم قتلوه ، فبايعهم على قتال قريش . وقال ابن عباس : كانوا ألفاً وخمسمائة نفس . وقال جابر : كانوا ألفاً وأربعمائة نفس . وقال ابن أوفى ألفاً وثلثمائة . والشجرة التي بايعوا تحتها هي السمرة .

واستدل بهذه الآية جماعة على فضل أبي بكر ، فانه لاخلاف أنه كان من المبايعين تحت الشجرة . وقد ذكر الله أنه رضي عنهم ، وانه أنزل السكينة عليهم وانه علم ما في قلوبهم من الايمان ، واثابهم فتحاً قريباً .

والكلام على ذلك مبني على القول بالعموم ، وفي أصحابنا من قال لا صيغة للعموم ينفرد بها . وبه قال كثير من المخالفين ، فمن قال بذلك كانت الآية عنده مجملة لا يعلم المعنى بها ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من المنافقين بلا خلاف ، فلا بد

من تخصيص الآية على كل حال . على انه تعالى وصف من بايع تحت الشجرة بأوصاف قد علمنا أنها لم تحصل في جميع المبايعين ، فوجب أن يختص الرضا بمن جمع الصفات لأنه قال ﴿ فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً ﴾ ولا خلاف بين أهل النقل ان الفتح الذى كان بعد بيعة الرضوان بلا فصل هو فتح خيبر . وان رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك قال: (لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرّاراً غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يده) فدعا علياً فأعطاه الراية ، وكان الفتح على يده ، فوجب ان يكون هو المخصوص بحكم الآية ، ومن كان معه في ذلك الفتح لتكامل الصفات فيهم . على ان ممن بايع بيعة الرضوان طلحة والزبير ، وقد وقع منهما من قتال علي عليه السلام ما خرجا به عن الايمان وفسقا عند جميع المعتزلة ومن جرى مجراهم ، ولم يمنع وقوع الرضاء في تلك الحال من مواقعة المعصية في ما بعد ، فما الذي يمنع من مثل ذلك في غيره . وليس إذا قلنا : أن الآية لا تختص بالرجلين ، كان طعناً عليهما بل إذا حملناها على العموم دخلا ، وكل متابع مؤمن معهما ، فكان ذلك أولى .

وقوله ﴿ ومغانم كثيرة تأخذونها ﴾ يعني ما غنمتموه من خيبر من انواع الغنائم ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بمصالح عباده ﴿ حكيماً ﴾ في جميع أفعاله . ثم قال ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ يعني غنائم خيبر . والباقي كل ما يغنمه المسلمون من دار الحرب ﴿ وكف ايدي الناس عنكم ﴾ يعني أسداً وغطفان ، فانهم كانوا مع خيبر فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله فكفوا عنه . وقيل: يعني اليهود كف ايديهم عنكم بالمدينة من قبل الحديبية ومجيء قريش ، فلم يغلبوكم ﴿ ولتكون آية المؤمنين ﴾ يستدلون بها على صحة قولكم ﴿ ويهديكم ﴾ أي ويرشدكم ﴿ صراطاً

مستقيماً ﴾ يفضي بكم إلى الحق وما يؤدي إلى الثواب . والواو في قوله ﴿ولتكون﴾ معناه إنا وعدناكم الغنائم لكف أيدي الناس عنكم وليكون ذلك آية للمؤمنين إذ وقع الخبر على ما أخبر به ، لانه علم غيب لا يعلمه إلا الله .

قولــه تعــالى :

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٢٥) خمس آيات .

قرأ ابو عمرو «بما يعملون بصيراً» بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب

لما ذكر الله تعالى انه وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها وانه عجل لهم هذه منها ، يعني غنائم خيبر وعدهم بالغنائم الأخر ، فقال ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ أي

وغنيمة أخرى ـ عن ابن عباس والحسن ـ إنها فارس والروم . وقال قتادة : هي مكة ﴿ قد أحاط الله بها ﴾ أي قدر الله عليها واحاط بها علماً فجعلهم بمنزلة ما قد أدير حولهم بما يمنع ان يفلت احد منهم ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي ما يصح أن يكون مقدوراً له ، فهو قادر عليه . ثم قال ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا ﴾ يعني من قريش يا معشر المؤمنين ﴿ لولوا الأدبار ﴾ منهزمين بخذلانه إياهم ونصرة الله إياكم ، ومعونته لكم ـ في قول قتادة ـ ﴿ ثم لا يجدون ﴾ يعني الكفار ﴿ولياً ﴾ يواليهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ يدفع عنهم .

وقوله ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ معناه سنة الله جارية في خذلانه أهل الكفر ونصرة أهل الايمان في ما مضى من الامم السالفة ، ونصره هو أمره بالقتال ﴿ ولن تجد ﴾ يا محمد « لسنة الله تبديلا » أي لن تجد لسنة الله ما يدفعها فالسنة الطريقة المستمرة في معنى ومن ذلك قوله ﷺ (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها . ومن سن سنة سيئة فعليه اثمها واثم من عمل بها) والتبديل رفع احد الشيئين وجعل الآخر مكانه ، في ما حكم أن يستمر على ما هو به ولو رفع الله حكما يأتي بخلافه لم يكن تبديلا لحكمه لأنه لا يرفع شيئاً إلا في الوقت الذي تقتضي الحكمة رفعه . وقال ابن عباس : كان المشركون بعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين ، فأتى بهم رسول الله ، فخلى سبيلهم ، وهو المراد بقوله « وهو الذي كف أيديهم عنكم » بالرعب « وأيديكم عنهم » بالنهي نزلت في أهل الحديبية واهل مكة ، لافي أهل خيبر . وقيل لم ينهوا عن قتالهم ، لانهم لا يستحقون القتل بكفرهم وصدهم لكن للابقاء على المؤمنين الذين في ايديهم « ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم» يعني فتح مكة « وكان الله بما تعملون بصيراً » يدبركم بحسب ماتقتضيه مصالحكم

وقوله « هم الذين كفروا » أي بوحدانية الله ، وهم كفار قريش « وصدوكم

عن المسجد الحرام » في الحديبية ، وصدوكم أن تعتمروا وتطوفوا بالبيت « والهدي معكوفاً أن يبلغ محله » أي المحل الذي يحل نحره فيه . والمعكوف المحبوس أي منعوا الهدي ايضاً ليذبح بمكة ، لأن هدي العمرة لا يذبح إلا بمكة كما لا يذبح هدي الحج إلا بمنى ، ثم قال « ولولا رجال مؤمنون » بالله ومصدقون بالنبي « ونساء مؤمنات » مثل ذلك بمكة - في قول قتادة - « لم تعلموهم » أي لم تعلموا بايمانهم « أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » أي ينالكم أثم لاجلهم من غير علم منكم بذلك - في قول ابن زيد - وقال قوم : معناه عنت . وقال ابن اسحاق : هو غرم الدية في كفارة قتل الخطأ عتق رقبة مؤمنة ومن لم يطق فصيام شهرين، وهو كفارة قتل الخطأ في الحرب . وجواب لولا محذوف ، وتقديره ولولا المؤمنون الذين لم تعلموهم لو طئتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم . والمعكوف الممنوع من الذهاب في جهة بالاقامة في مكانه ، ومنه الاعتكاف ، وهو الاقامة في المسجد للعبادة ، وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً إذا اقام عليه . وقوله « ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا » أي لو تميز المؤمنون منهم ، وقيل لو تفرقوا والمعنى واحد « لعذبنا الذين كفروا منهم » يعني من أهل مكة « عذاباً أليماً » بالسيف والقتل والاليم المؤلم ، وكان النبي ﷺ : ساق سبعين بدنة في عام الحديبية ، ودخل في العام المقبل لعمرة القضاء في الشهر الذي صد فيه ونزل قوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » (١) ذكره قتادة .

قوله تعالى :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ ٱللهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِٱللهِ شَهِيداً (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرٰيهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرٰيةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (٢٩) أربع آيات .

قرأ ابن كثير إلا ابن فليح « شطأه » بفتح الطاء ومثله ابن ذكوان . الباقون باسكانها . وقرأ اهل الشام « فازره » مقصور . الباقون بالمد ، وهما لغتان من فعل الشيء وفعله غيره نحو كسبت مالا وكسبني غيرى ، ونزحت البئر ونزحتها ويقال : أزر النبت وآزره غيره . وقوله « إذ جعل » متعلق بقوله « لعذبنا الذين

كفروا منهم عذاباً اليماً إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية » يعني الأنفة . ثم فسر تلك الأنفة ، فقال « حمية الجاهلية » الاولى يعني عصبتهم لآلهتهم من أن يعبدوا غيرها . وقال الزهري : هي انفتهم من الاقرار لمحمد بالرسالة . والاستفتاح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) على عادته فى الفاتحة ، حيث أراد ان يكتب كتاب العهد بينهم . ودخولهم مكة لاداء العمرة .

ثم قال تعالى « فأنزل الله سكينته على رسوله » أي فعل به ﷺ من اللطف والنعمة ما سكنت اليه نفسه وصبر على الدخول تحت ما أرادوه منه « وعلى المؤمنين » أي ومثل ذلك فعل بالمؤمنين « وألزمهم كلمة التقوى » قال ابن عباس وقتادة : كلمة التقوى قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال مجاهد : هي كلمة الاخلاص « وكانوا أحق بها وأهلها » يعني المؤمنين كانوا أهلها واحق بها . قال الفراء : ورأيتها فى مصحف الحارث بن سويد التميمي من أصحاب عبد الله (وكانوا أهلها واحق بها) وهو تقديم وتأخير ، وكان مصحفه دفن أيام الحجاج . وقيل : ان التقدير كانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلاً لها . وقيل : المعنى فكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها . وإنما قال « أحق » لأنه قد يكون حق أحق من حق غيره ، لأن الحق الذي هو طاعة يستحق به المدح أحق من الحق الذي هو مباح لا يستحق به ذلك « وكان الله بكل شيء عليماً » لما ذم الكفار تعالى بحمية الجاهلية ومدح المؤمنين بالسكينة والزوم الكلمة الصادقة بين علمه ببواطن أمورهم وما تنطوي عليه ضمائرهم إذ هو العالم بكل شيء من المعلومات .

وقوله « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام » قسم من الله تعالى ان النبي ﷺ صادق فى قوله انه رأى فى المنام انه يدخل هو والمؤمنون المسجد الحرام ، وانه لابد من كون ذلك . وقوله « إن شاء الله آمنين » قال قوم

تقييد لدخول الجميع او البعض . وقال قوم : ليس ذلك شرطاً لأنه بشارة بالرؤيا التي رآها النبي ﷺ وطالبه الصحابة بتأويلها وحققها . قوله « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » ثم استؤنف على طريق الشرح والتأكيد « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله » على الفاظ الدين ، كأنه قيل بمشيئة الله ، وليس ينكر أن يخرج مخرج الشرط ما ليس فيه معنى الشرط ، كما يخرج مخرج الأمر ما ليس في معنى الأمر لقرينة تصحب الكلام . وقال البلخي : معنى « إن شاء الله » أي أمركم الله بها ، لأن مشيئة الله تعالى بفعل عباده هو أمره به . وقال قوم : هو تأديب لنا ، كما قال « ولا تقولن لشيء ... » (١) الآية .

وقوله « آمنين » أي بلا خوف عليكم « محلقين رؤسكم ومقصرين » أي منكم من يحلق رأسه ومنكم من يقصر « لاتخافون » احداً في ذلك ، وكذلك جرى الأمر في عمرة القضاء وفي السنة الثانية للحديبية . وروي أن عمر قال لرسول الله ﷺ حيث قاضا اهل مكة يوم الحديبية ، وهمّ بالرجوع إلى المدينة : أليس وعدتنا يا رسول الله أن تدخل المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، فقال له رسول الله ﷺ (قلت لكم إنا ندخلها العام) ؟ ! فقال : لا ، فقال ﷺ (فانكم تدخلونها إن شاء الله) فلما كان في القابل في ذي القعدة خرج النبي ﷺ لعمرة القضاء ، ودخل مكة مع أصحابه في ذي القعدة واعتمروا ، وقام بمكة ثلاثة ايام ، ثم رجع إلى المدينة .

ثم قال « فعلم » يعني علم الله « وما لم تعلموا » انتم من المصلحة في المقاضاة وإجابتهم إلى ذلك . وقيل المعنى فعلم النبي ﷺ من دخولهم إلى سنة ما لم تعلموا معاشر المؤمنين . وقيل : فعلم ان بمكة رجالا مؤمنين ونسلء مؤمنات لم تعلموهم

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٤

« فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » قال ابن زيد : يعني بذلك فتح خيبر . وقال الزهري : هو فتح الحديبية .

ثم قال تعالى « هو الذي ارسل رسوله » يعني محمداً ﷺ « بالهدى يعني الدليل الواضح ، والحجة البينة « ودين الحق » يعني الاسلام وإخلاص العبادة « ليظهره على الدين كله » قيل بالحجج والبراهين . وقيل : لان الاسلام ظاهر على الاديان كلها . وقيل : إنه إذا خرج المهدي صار الاسلام في جميع البشر ، وتبطل الأديان كلها .

ثم قال ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ بذلك من إظهار دين الحق على جميع الأديان.

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ محمد رسول الله ﴾ ﷺ ارسله إلى خلقه ﴿ والذين معه ﴾ من المؤمنين يعني المصدقين بوحدانية الله المعترفين بنبوته الناصرين له ﴿اشداء على الكفار ﴾ لانهم يقاتلونهم ويجاهدونهم بنية صادقة ﴿ رحماء بينهم ﴾ أي يرحم بعضهم بعضاً ويتحنن بعضهم على بعض ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ لقيامهم بالصلاة والاتيان بها ، فهم بين راكع وساجد ﴿ يبتغون فضلا من الله ورضواناً ﴾ اي يلتمسون بذلك زيادة نعيمهم من الله ويطلبون مرضاته من طاعة وترك معصية ﴿ سيماهم في وجوههم من اثر السجود ﴾ قال ابن عباس : اثر صلاتهم يظهر في وجوههم . وقال الحسن . هو السمت الحسن . وقال قوم : هو ما يظهر في وجوههم من السهر بالليل . وقال مجاهد : معناه علامتهم في الدنيا من اثر الخشوع . وقيل : علامة نور يجعلها الله في وجوههم يوم القيامة - في قول الحسن وابن عباس وقتادة وعطية - و ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ اي وصفهم ، كأنه مثلهم في التوراة ﴿ ومثلهم في الانجيل ﴾ اي وصفهم الله في الانجيل ﴿ كمثل زرع اخرج شطأه ﴾ يشبههم بالزرع الذي ينبت في حواليه بنات ويلحق به ، فالشطأ فراخ الزرع الذي

ينبت في جوانبه ومنه شاطىء النهر جانبه ، يقال أشطأ الزرع ، فهو مشطىء إذا أفرخ في جوانبه « فآزره » أي عاونه فشد فراخ الزرع لأصول النبت وقواها يقال أزرت النبت وآزره غيره بالمد ، ويقال أزر النبت وازرته مثل رجع ورجعته وقال ابو الحسن : هما لغتان . وقال ابو عبيدة : أزره ساواه فصار مثل الأم ، وفاعل (آزر) الشطأ أي أزر الشطأ الزرع ، فصار في طوله « فاستغلظ » أي صار غليظاً باجتماع الفراخ مع الأصول « فاستوى » معه أي صار مثل الأم « على سوقه » وهو جمع ساق وساق الشجرة حاملة الشجر ، وهو عوده الذي يقوم عليه ، وهو قصبته . ومثله قوى المحبة بما يخرج منها ، كما قوي النبي صلى الله عليه وآله باصحابه .

وقوله « يعجب الزراع » يعني الذين زرعوا ذلك « ليغيظ بهم الكفار » قيل: معناه ليغيظ بالنبي وأصحابه الكفار المشركين . ووجه ضرب هذا المثل بالزرع الذي أخرج شطأه هو ان النبي صلى الله عليه وآله حين ناداهم إلى دينه كان ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه وقوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه وفراخه ، وكان هذا من أصح مثل وأوضح بيان وقال البلخي : هو كقوله « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » (١) يريد بالكفار - ههنا - الزراع واحدهم كافر ، لانه يغطي البذر ، وكل شيء غطيته فقد كفرته . ومنه قولهم : تكفر بالسلاح . وقيل : ليل كافر لأنه يستر بظلمته كل شيء قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها (٢)

أي غطاها . ثم قال « وعد الله الذين آمنوا » يعني من عرف الله ووحده

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٠ (٢) مر في ١ / ٦٠

وأخلص العبادة له وآمن بالنبي ﷺ وصدقه « وعملوا » مع ذلك الاعمال « الصالحات منهم » قيل: انه بيان يخصهم بالوعدون غيرهم. وقيل يجوز ان يكون ذلك شرطاً فيمن أقام على ذلك منهم ، لان من خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصي فلا يتناوله هذا الوعد « مغفرة » أي ستراً على ذنوبهم الماضية « وأجراً » أي ثواباً « عظيماً » يوم القيامة .

وقرأ ابن كثير وحده « على سؤقه » بالهمزة . الباقون بلا همزة ، وهو الأصح . قال ابو علي : من همز فعلى قولهم (أحب المؤقدين إلى موسى) واستعمال السوق فى الزرع مجاز .

٤٩ ـ سورة الحجرات

مدنية إلا آية واحدة وهي قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم ... » إلى آخرها. وقال قوم: كلها مدنيه، وهي ثمان عشر آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) خمس آيات.

قرأ يعقوب «لا تقدموا» بفتح التاء والدال. الباقون بضم التاء وكسر الدال

من التقديم . وقيل : انهما لغتان . قدم وتقدم مثل عجل وتعجل وقال ابن عباس والحسن : الآية « لا تقـدموا » فى الحكم أو في الأمر قبل كلامه ﷺ ـ بفتح الدال والتاء ـ وقال الحسن : ذبح قوم قبل صلاة العيد يوم النحر ، فأمروا باعادة ذبيحة اخرى . وقال الزجاج : المعنى لا تقدموا أعمال الطاعـة قبل الوقت الذي أمر الله والنبي ﷺ به حتى قيل : لا يجوز تقدم الزكاة قبل وقتها . وقال قوم : كانوا إذا سألوا عن شيء قالوا فيه قبل النبي ﷺ نهوا عن ذلك . والأولى حمل الآية على عمومها فيقال : كل شيء إذا فعل كان خلافاً لله ورسوله فهو تقدم بين أيديهما فيجب المنع من جميع ذلك .

هذا خطاب من الله تعالى المؤمنين الذين اعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وأقروا بنبوة نبيه محمد ﷺ ينهاهم أن يتقدموا بين يدي النبي ﷺ بأن يفعلوا خلاف ما أمر به او يقولوا في الاحكام قبل ان يقول او يخالفوا أوقات العبادة ، فان جميع ذلك تقدم بين يديه ، وأمرهم ان يتقوا الله بأن يجتنبوا معاصيه ويفعلوا طاعاته « إن الله سميع » لما يقولونه « عليم » بما ينطوون عليه ويضمرونه . ثم أمرهم ثانياً بأن قال « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » على وجه الاستخفاف به ﷺ ، فان مجاهد وقتادة قالا : جاء أعراب اجلاف من بني تميم ، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات : يا محمد إخرج إلينا ، ولو أن إنساناً رفع صوته على صوت النبي ﷺ على وجه التعظيم له والاجابة لقوله لم يكن مأثوماً . وقد فسر ذلك بقوله « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » فان العادة جارية أن من كلم غيره ورفع صوته فوق صوته أن ذلك على وجه الاستخفاف به ، فلذلك نهاهم عنه .

وجهر الصوت اشد من الهمس ، ويكون شديداً وضعيفاً ووسطاً . والجهر ظهور الصوت بقوة الاعتماد ، ومنه الجهارة فى المنطق . ويقال : نهـاراً جهاراً ، وجاهر

بالأمر مجاهرة . ونقيض الجهر الهمس .

ثم بين تعالى انهم متى فعلوا ذلك بان يرفعوا الصوت على صوت النبي ﷺ على الوجه الذي قلناه أن يحبط اعمالهم ، والتقدير لا ترفعوا أصواتكم لأن لا تحبط قال الزجاج : ويكون اللام لام العاقبة ، والمعنى يحبط ثواب ذلك العمل ، لانهم لو أوقعوه على وجه الاستحقاق لاستحقوا به الثواب ، فلما فعلوه على خلاف ذلك استحقوا عليه العقاب ، وفاتهم ذلك الثواب فذاك إحباط أعمالهم ، فلا يمكن أن يستدل بذلك على صحة الاحباط فى الآية على ما يقوله أصحاب الوعيد ، ولأنه تعالى علق الاحباط في الآية بنفس العمل ، وأكثر من خالفنا يعلقه بالمستحق على الأعمال ، وذلك خلاف الظاهر .

ثم مدح تعالى من كان بخلاف من يرفع الصوت بين يدي النبي ﷺ ، فقال « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » اعظاماً للنبي وإجلالا له ، والغض الحط من منزلة على وجه التصغير له بحالة ، يقال : غض فلان عن فلان إذا ضعف حاله عن حال من هو أرفع منه ، وغض بصره إذا ضعف عن حدة النظر ، وغض صوته إذا ضعف عن الجهر ، وقال جرير :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً (١)

ثم قال « اولئك » يعني الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم « الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » أي لاخلاص التقوى فعاملهم معاملة المختبر كما يمتحن الذهب لاخلاص جيده . وقيل « امتحن الله قلوبهم للتقوى » اخلصها ـ فى قول مجاهد وقتادة ـ وقال قوم : معناه أولئك الذين علم الله التقوى فى قلوبهم ، لان الامتحان يراد به العلم ، فعبر عن العلم بالامتحان .

(١) ديوانه والطبري ٢٦ \ ٦٩

ثم قال تعالى « لهم مغفرة » من الله لذنوبهم « وأجر عظيم » على افعالهم وطاعاتهم

ثم خاطب النبي ﷺ على وجه الذم لمن يرفع صوته من اجلاف الاعراب على النبي ﷺ « إن الذين ينادونك » يا محمد « من وراء الحجرات » وهي جمع حجرة وكل (فعلة) بضم الفاء يجمع بالالف والتاء ، لانه ليس بجمع سلامة محضة إذ ما يعقل من الذكر ألحق به ، لانه اشرف المعنيين ، فهو احق بالتفصيل ، قال الشاعر :

اما كان عباد كفياً لدارم   بلى ولأبيات بها الحجرات (١)

أي بلى ولبني هاشم . وقرأ ابو جعفر الحجرات بفتح الجيم . قال المبرد : أبدل من الضمة الفتحة استثقـالا لتوالي الضمتين . ومنهم من أسكن مثل (عضد وعضد) وقال ابو عبيدة : جمع حجرة وغرفة يقال : حجرات وغرفات .

ثم قال « اكثرهم لا يعقلون » لانهم بمنزلة البهائم لا يعرفون مقدار النبي ﷺ وما يستحقه من التوقير والتعظيم . وقيل : إن الذين رفعوا أصواتهم على النبي ﷺ قوم من بني تميم . وفي قراءة ابن مسعود (اكثرهم بنو تميم لا يعقلون) .

ثم قال « ولو أنهم صبروا » فلم ينادوك « حتى تخرج اليهم » من منزلك « لكان خيراً لهم » من أن ينادونك من وراء الحجرات « والله غفور رحيم » أي ساتر لذنوبهم إن تابوا منها لان ذلك كفر لا يغفره الله إلى بالتوبة

قولـه تعـالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ

(١) الطبري ٢٦ / ٦٩

ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٠) خمس آيات ٠

قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ خطاب من الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بأنه ﴿ إذا جاءكم فاسق ﴾ وهو الخارج من طاعة الله إلى معصيته ﴿ بنبأ ﴾ أي بخبر عظيم الشأن ﴿ فتبينوا ﴾ صدقه من كذبه ولا تبادروا إلى العمل بمتضمنه ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ لانه ربما كان كاذباً وخبره كذباً ، فيعمل به فلا يؤمن بذلك وقال ابن عباس ومجاهد ويزيد بن رومان وقتادة وابن أبي ليلا : نزلت الآية في الوليد ابن عقبة بن أبي معيط ، لما بعثه رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق خرجوا يتلقونه فرحاً به وإكراماً له ، فظن أنهم هموا بقتله ، فرجع إلى النبي ﷺ فقال : انهم منعوا صدقاتهم ، وكان الأمر بخلافه ٠

وفي الآية دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل ، لأن المعنى إن جاءكم فاسق بالخبر الذي لا تأمنون أن يكون كذباً فتوقفوا فيه ، وهذا التعليل موجود في خبر العدل ، لان العدل على الظاهر يجوز أن يكون كاذباً في خبره ،

فالأمان غير حاصل فى العمل بخبره . وفى الناس من استدل به على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان راويه عدلا ، من حيث انه اوجب تعالى التوقف فى خبر الفاسق ، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه . وهذا الذي ذكروه غير صحيح ، لانه استدلال بدليل الخطاب ودليل الخطاب ليس بدليل عند جمهور العلماء . ولو كان صحيحاً فليست الآية بأن يستدل بدليلها على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلا بأولى من ان يستدل بتعليلها فى دفع الأمان من أن يصاب بجهالة إذا عمل بها على ان خبر العدل مثله ، على أنه لا يجب العمل بخبر الواحد ، وإن كان راويه عدلا .

فان قيل : هذا يؤدي إلى أن لا فائدة في إيجاب التوقف فى خبر الفاسق إذا كان خبر العدل مثله فى الفائدة .

قلنا : والقول بوجوب العمل بخبر الواحد يوجب أنه لا فائدة فى تعليل الآية فى خبر الفاسق الذي يشاركه العدل فيه ، فاذا تقابلا سقط الاستدلال بها على كل حال وبقي الأصل فى انه لا يجوز العمل بخبر الواحد إلا بدليل .

ومن قرأ ﴿ تبينوا ﴾ أراد تعرفوا صحة متضمن الخبر الذي يحتاج إلى العمل عليه ، ولا تقدموا عليه من غير دليل ، يقال : تبين الأمر إذا ظهر ، وتبين هو نفسه بمعنى واحد، ويقال ايضاً : تبينته إذا عرفته . ومن قرأ ﴿ فتثبتوا ﴾ - بالتاء والثاء - أراد توقفوا فيه حتى يتبين لكم صحته .

وقوله ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ معناه متى عملتم بخبر الواحد وبان لكم كذب راويه أصبحتم نادمين على ما فعلتموه .

ثم خاطبهم يعني المؤمنين فقال ﴿ واعلموا ﴾ معاشر المؤمنين ﴿ أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ ومعناه لو فعل ما تريدونه فى كثير من

الأمور ﴿ لعنتم ﴾ أي اصابكم عنت ومكروه ، يقال : أعنت الرجل إذا حملت عليه عامداً لما يكره ، يقال : اعنته فعنت ، وسمي موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً لأن الطاعة يراعى فيها الرتبة ، فلا يكون المطيع مطيعاً لمن دونه ، وإنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به ، ألا ترى انه لا يقال فى الله تعالى : إنه مطيع لنا إذا فعل ما أردناه . ويقال فينا إذا فعلنا ما أراده الله : انه مطيع . والنبي ﷺ فوقنا فلا يكون مطيعاً لنا ، فاطلاق ذلك مجاز .

وقوله ﴿ ولكن الله حبب اليكم الايمان ﴾ بما وعد من استحقاق الثواب عليه ﴿ وزينه فى قلوبكم ﴾ بنصب الأدلة على صحته ﴿ وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ بما وصفه من العقاب عليه ـ وهو قول الحسن ـ وفي الآية دلالة على أن اضداد الايمان ثلاثة كفر وفسوق وعصيان .

ثم قال ﴿ أولئك ﴾ يعني الذين وصفهم الله بالايمان ،وزين الايمان فى قلوبهم وانه كره اليهم الفسوق وغيره ﴿ هم الراشدون ﴾ أي المهتدون إلى طريق الحق الذين أصابوا الرشد .

ثم قال ﴿ فضلا من الله ونعمة ﴾ أي فعل الله ذلك بهم فضلا منه على خلقه ونعمة مجددة ، وهو نصب على المفعول له ـ فى قول الزجاج ـ ﴿ والله عليم ﴾ بالاشياء كلها ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفعاله .

ثم قال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ يقتل بعضهم بعضاً ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ حتى يصطلحا . وقرأ يعقوب ﴿ بين أخوتكم ﴾ حمله على أنه جمع (أخ) أخوة لأن الطائفة جمع . ومن قرأ على التثنية رده إلى لفظ الطائفتين . وقرأ زيد ابن ثابت وابن سيرين وعاصم الجحدري ﴿ بين اخويكم ﴾ والمعاني متقاربة .

وقوله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين ﴾ لا يدل على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الايمان ، ويطلق عليهما هذا الاسم ، بل لايمتنع ان يفسق احدالطائفتين او يفسقا جميعاً ، وجرى ذلك مجرى ان تقول : وإن طائفة من المؤمنين ارتدت عن الاسلام فاقتلوها . ثم قال ﴿ فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء ﴾ أي فان بغت إحدى الطائفتين على الأخرى بأن تطلب ما لايجوز لها وتقابل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿ فقاتلوا التي تبغي ﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الاخرى ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة . ثم قال ﴿ فان فاءت ﴾ أي رجعت وتابت وأقلعت وأنابت إلى طاعة الله ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ يعني بينها وبين الطائفة التي كانت على الايمان ولم تخرج عنه بالقول ، فلا تميلوا على واحدة منهما ﴿ وأقسطوا ﴾ أي اعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ يعني العادلين ، يقال : أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار . قال الله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ (١) .

وقيل : إن الآية نزلت في قبيلتين من الانصار وقع بينهما حرب وقتال ـ ذكره الطبري ـ .

ثم اخبر تعالى ﴿ إنما المؤمنون ﴾ الذين يوحدون الله تعالى ويعملون بطاعاته ويقرون بنبوة نبيه ويعملون بما جاءبه ﴿ أخوة ﴾ يلزمهم نصرة بعضهم بعضاً ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني إذا رجعا جميعاً إلى الحق وما أمر الله به ﴿ وأتقوا الله ﴾ أي اجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعته واتقوه في مخالفتكم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ معناه لكي ترحمون لان (لعل) بمعنى الشك والشك لا يجوز على الله تعالى ، قال الزجاج : سموا المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم بأنهم أخوة ، لاتفاقهم في الدين ورجوعهم إلى اصل النسب

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

لانهم لآدم وحواء .

قولـه تعـالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١٢) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقيكم إن الله عليم خبير (١٣) قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم (١٤) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ (١٥)

خمس آيات .

قرا اهل البصرة ﴿ لا يألتكم ﴾ بالهمزة . الباقون ﴿ لا يلتكم ﴾ بلا همزة ، وهما لغتان ، يقال : ألت يألت إذا أنقص ، ولات يليت مثل ذلك . وفى المصحف بلا الف وقال الشاعر :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتني عن سراها ليت (١)

ومعنى الآية لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، ومنه قوله ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ (٢) أي ما نقصناهم . وقرأ يعقوب ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد . الباقون بالتخفيف . والتشديد الأصل ، وهو مثل سيد وسيد .

يقول الله مخاطباً المؤمنين الذين وحدوه وأخلصوا العبادة له وصدقوا نبيه وقبلوا ما دعاهم الله اليه ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾ ومعناه لا يهزأ به ويتلهى منه ، وقال مجاهد : لا يسخر غني من فقير لفقره بمعنى لا يهزأ به ، والسخرية بالاستهزاء ولو سخر المؤمن من الكافر احتقاراً له لم يكن بذلك مأثوماً ، فأما فى صفات الله ، فلا يقال إلا مجازاً كقوله ﴿ فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ (٣) معناه إنا نجازيكم جزاء السخرية .

ثم قال ﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ لانه ربما كان الفقير المهين فى ظاهر الحال خيراً عند الله وأجل منزلة واكثر ثواباً من الغني الحسن الحال . وقال الجبائي : يجوز ان يكونوا خيراً منهم فى منافع الدنيا ، وكثرة الانتفاع بهم . وقوله ﴿ ولا نساء من نساء ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء على هذا المعنى ﴿ عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ ويقال : هذا خير من هذا بمعنى أنفع منه في مايقتضيه العقل ، وكذلك كان نسب رسول الله صلى الله عليه وآله خير من نسب غيره . ثم قال ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾

(١) تفسير الطبري ٢٦ / ٨٢ وقد مر فى ٦ \ ٤٤٥ . (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢١
(٣) سورة ١١ هود آية ٣٨

فاللمز هو الرمي بالعيب لمن لا يجوز ان يؤذى بذكره ، وهو المنهي عنه ، فأما ذكر عيبه ، فليس بلمز ، وروي انه ﷺ قال (قولوا فى الفاسق ما فيه كي يحذره الناس) وقال الحسن : فى صفة الحجاج أخرج الينا نباتاً نباتاً قصيراً قل ما عرفت فيها إلا عنه فى سبيل الله ثم جعل يطبطب بشعيرات له ، ويقول : يابا سعيد . ولو كان مؤمناً لما قال فيه ذلك . وقال ابن عباس وقتادة : معناه لا يطعن بعضكم على بعض كما قال ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ (١) لان المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتله اخاه قاتل نفسه .

وقوله ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال ابو عبيدة : الانباز والالقاب واحد فالنبز القذف باللقب ، نهاهم الله أن يلقب بعضهم بعضاً . وقال الضحاك : معناه كل اسم او صفة يكره الانسان أن يدعى به ، فلا يدع به . وإنما يدعى بأحب اسمائه اليه . وقوله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ﴾ لا يدل على ان المؤمن لا يكون فاسقاً لأن الايمان والفسق لا يجتمعان ، لأن ذلك يجري مجرى ان يقال : بئس الحال الفسوق مع الشيب على ان الظاهر يقتضي ان الفسوق الذي يتعقب الايمان بئس الاسم ، وذلك لايكون إلا كفراً ، وهو بئس الاسم .

ثم قال ﴿ ومن لم يتب ﴾ يعني من معاصيه ويرجع إلى طاعة الله ومات مصراً ﴿ فاولئك هم الظالمون ﴾ الذين ظلموا نفوسهم بأن فعلوا ما يستحقون به العقاب .

ثم خاطبهم ايضاً فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بوحدانيته ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ وإنما قال ﴿ كثيراً ﴾ لان فى جملته ما يجب العمل عليه ، ولا يجوز مخالفته . وقوله ﴿ ان بعض الظن اثم ﴾ فالظن الذي يكون إثماً

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٢٨

إنما هو ما يفعله صاحبه وله طر ق إلى العلم بدلا منه مما يعمل عليه ، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله ، فأما ما لا سبيل له إلى دفعه بالعلم بدلا منه ، فليس بإثم ، فلذلك كان بعض الظن أثم ، دون جميعه ، والظن المحمود قد بينه الله ودل عليه في قوله ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ (١) وقيل : يلزم المؤمن أن يحسن الظن به ولا يسيء الظن في شيء يجد له تأويلا جميلا ، وإن كان ظاهره القبيح . ومتى فعل ذلك كان ظنه قبيحاً .

وقوله ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تتبعوا عثرات المؤمن ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ وقال ابو عبيدة التجسس والتحسس واحد وهو التبحث يقال : رجل جاسوس ، والجاسوس والناموس واحد . وقيل للمؤمن حق على المؤمن ينافي التجسس عن مساوئه . وقيل : يجب على المؤمن أن يتجنب ذكره المستور عند الناس بقبيح ، لان عليهم أن يكذبوه ويردّوا عليه ، وإن كان صادقاً عند الله ، لان الله ستره عن النـاس ، وإنما دعى الله تعالى المؤمن إلى حسن الظن في بعضهم ببعض للألفة والتناصر على الحق ، ونهوا عن سوء الظن لما في ذلك من التقاطع والتدابر .

وقوله ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ فالغيبة ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه . ويروى في الخبر إذا ذكرت المؤمن بما فيه مما يكرهه الله ، فقد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه ، فقد بهته .

وقوله ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ معناه ان من دعي إلى اكل لحم أخيه فعافته نفسه ، فكرهته من جهة طبعه ، فانه ينبغي إذا دعي إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله ، فينبغي أن يكرهه ، لأن داعي العقل أحق بأن يتبع من داعي الطبع لان داعي الطبع أعمى وداعي العقل بصير ، وكلاهما

(١) سورة ٢٤ النور آية ١٢

في صفة الناصح ، وهذا من أحسن ما يدل على ما ينبغي ان يجتنب من الكلام .
وفي الكلام حذف ، وتقديره أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فيقولون : لا ،
بل عافته نفوسنا ، فقيل لكم فكرهتموه ، فحذف لدلالة الكلام عليه . وقال الحسن :
معناه فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حياً ، فهذا هو تقدير الكلام .

وقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ معطوف على هذا الفعل المقدر ، ومثله ﴿ ألم نشرح
لك صدرك ووضعنا عنك ﴾ (١) والمعنى ألم نشرح ، قد شرحنا فحمل الثاني على
معنى الأول ، لأنه لايجوز ان يقول ألم وضعنا عنك .

ثم قال ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ ان الله تواب ﴾
أي قابل لتوبة من يتوب اليه ﴿ رحيم ﴾ بهم .

ثم قال ﴿ قالت الاعراب آمنا ﴾ قال قتادة :نزلت الآية في اعراب مخصوصين
انهم قالوا ﴿ آمنا ﴾ أي صدقنا بالله وأقررنا بنبوتك يا محمد ، وكانوا بخلاف ذلك
في بواطنهم ، فقال الله تعالى لنبيه ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ ان تؤمنوا ﴾ على الحقيقة في
الباطن ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي استسلمنا خوفاً من السبي والقتل ـ وهو قول
سعيد بن جبير وابن زيد ـ ثم بين فقال ﴿ ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾ بل
أنتم كفار في الباطن . ثم قال لهم ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ وترجعوا إلى
ما يأمركم به من طاعة الله والانتهاء عن معاصيه ﴿ لايلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أي
لا ينقصكم من جزاء أعمالكم شيئاً ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ أي ساتر لذنوبهم إذا
تابوا رحيم بهم في قبول توبتهم .

ثم وصف المؤمن على الحقيقة فقال ﴿ إنما المؤمنون ﴾ على الحقيقة ﴿ الذين
آمنوا بالله ﴾ وصدقوا وأخلصوا بتوحيده ﴿ ورسوله ﴾ أي واقروا بنبوة نبيه

---

(١) سورة ٩٤ الانشراح آية ١ ـ ٢

﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يشكوا في شيء من أقوالهما ﴿ وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ ثم قال ﴿ اولئك هم الصادقون ﴾ في أقوالهم دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه .

وقوله « يا ايها الناس » خطاب للخلق كافـة من ولد آدم يقول لهم « إنا خلقناكم » باجمعكم « من ذكر وانثى » يعني آدم وحوا عليهما‌السلام وقال مجاهد : خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة بدلالة الآية « وجعلناكم شعوباً وقبائل » فالشعوب النسب الأبعد ، والقبائل الأقرب ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقيل الشعوب أعم ، والقبائل اخص . وقال قوم : الشعوب الأفخاذ والقبائل اكثر منهم . والشعوب جمع شعب ، وهو الحي العظيم ، والقبائل مأخوذ من قبائل الرأس ، وقبائل الحقبة التي يضم بعضها إلى بعض ، فاما الحي العظيم المستقر بنفسه فهو شعب ، قال ابن احمر :

من شعب همدان او سعد العشيرة او   خولان او مذحج جواله طربا (٢)

والقبائل جمع قبيلة . وقوله « لتعارفوا » معناه جعلكم كذلك لتعارفوا ، فيعرف بعضكم بعضاً . ومن قرأ بالياء مشددة ، أدغم أحداهما في الأخرى ، ومن خفف حذف أحداهما . ثم قال « إن اكرمكم عند الله أتقاكم » لمعاصيه « واعملكم بطاعته

قال البلخي : اختلف الناس في فضيلة النسب ، فانكرها قوم ، واثبتها آخرون والقول عندنا في ذلك انه ليس احد أفضل من مؤمن تقي ، فان الحسب والنسب والشرف لا يغنيلان في الدين شيئاً ، لأن لهما فضلا كفضل الخز على الكرباس والكتان على البهاري وكفضل الشيخ على الشاب . فان الطبائع مبنية والاجماع واقع على أن شيخا وشاباً لو استويا في الفضل في الدين لقـدم الشيخ على الشاب

(١) الطبري ٢٦ / ٨٠ نسبه الى ابن عمر الباهلي وروايته (هاجر آله) بدل (جواله)

وزيد فى تعظيمه وتبجيله ، وكذلك الأب والابن لو استويا فى الفضل فى الدين لقدم الأب ، وكذلك السيد وعبده . وهذا مما لاخلاف فيه بين العقلاء ، وكذلك لو أن رجلين استويا فى الدين ثم كان احدهما له قرابة برسول الله أو بالخيار الصالحين لوجب أن يقدم المتصل برسول الله وبالصالح ، ويزاد إكرامه فى تعظيمه وتبجيله ، وكذلك إذا استويا وكان في آباء احدهما أنبياء ثلاثة وأربعة ، وكان فيآباء الآخر نبي واحد كان الأول مستحقاً للتقديم ، وكذلك لو كان لاحدهم أب نبي إلا انه من الانبياء المتقدمين ، وكان ابو الآخر هو النبي الذي بعث الينا كان الثاني اعظم حقاً وأحق بالتقديم ، وكذلك لو كان احدهما له آباء معروفون بالفضل والأخلاق الجميلة والأفعال الشريفة وبالوقار وبالنجدة والادب والعلم كانت الطبايع مبنية على تقديمه على الآخر. فان قيل : الطبائع مبنية على تقديم ذوي المال فيجب ان يكون الغنى وكثرة المال شرفاً . قلنا : كذلك هو لا ننكر هذا ولا ندفعه. فان قيل : إذا كان لأحدهما مال لا يبذل ، والآخر قليل المال يبذل قدر ما يملكه من الحقوق ويضعه فى مواضعه ؟ قلنا الباذل أفضل من الذي لا يبذل . وإنما تكلمنا فى الرجلين إذا استويا في خصالهما وفضل أحدهما كثرة المال وكان واضعاً له في موضعه باذلاله فى حقوقه وكذلك لو أن رجلا كان ذا حسب وشرف في آبائه إلا انه كان فاسقاً او سخيفاً او وضيعاً في نفسه كان الذي لا حسب له وهو عفيف نبيل افضل منه بالأوصاف التي لا تخفى . وكان حسب ذلك السخيف مما يزيده وبالا ، ومعنى الحسب أنه يحسب لنفسه آباء أشرافاً فضلا ، وعمومة وأخوة ـ انتهى كلام البلخي ـ .

وقوله « إن الله عليم خبير » يعني بمن يعمل طاعاته ويتقي معاصيه «خبير»

بذلك لا يخفى عليه شيء من ذلك . ثم وصف المؤمنين الذين تقدم ذكرهم فقال « اولئك هم الصادقون » على الحقيقة الذين يستحقون ثواب الله تعالى .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْارْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰيكُمْ لِلْايمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وحده « بما يعملون » بالياء على الغيبة . الباقون بالتاء على الخطاب .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « قل » لهؤلاء الكفار « أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الارض والله بكل شيء عليم » فالتعليم تعريض من لا يعلم حتى يعلم بافهام المعنى اوخلق العلم له في قلبه ، فعلى هذا لايجوز ان يعلم العالم لنفسه الذي يعلم المعلومات كلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى من يعلمه ولا إلى علم يعلم به ، كما انه من يكون قديماً بنفسه استغنى عن موجد يوجده ، وإنما يحتاج إلى التعليم من يجوز أن يعلم وألا يعلم ، ومن يخفى عليه شيء دون شيء ، ففي الآية دلالة على ان العالم بكل وجه لا يجوز ان يعلم . والمعني بالآية هم الذين ذكرهم في الآية الأولى وبين أنهم منافقون لقول الله لهم « أتعلمون الله بدينكم » إنا آمنا بالله وبرسوله ، وهو تعالى يعلم منكم خلاف ذلك من الكفر والنفاق ، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد

به الانكار .

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال « يمنون عليك أن أسلموا » فالمن القطع بإيصال النفع الموجب للحق، ومنه قوله « فلهم اجر غير ممنون » (١) أي غير مقطوع ، ومنه قولهم : المنة تكدر الصنيعة وقيل : إذا كفرت النعمة حسنت المنة . ومن لا أحد إلا وهو محتاج اليه ، فليس في منه تكدير النعمة ، لان الحاجة لازمة لامتناع أن يستغني عنه بغيره . واكثر المفسرين على ان الآية نزلت في المنافقين . وقال الحسن : نزلت في قوم من المسلمين قالوا : أسلمنا يا رسول الله قبل ان يسلم بنو فلان ، وقاتلنا معك بني فلان . وقال الفراء : نزلت في اعراب من بني أسد قدموا على النبي ﷺ بعيالاتهم طمعاً في الصدقة ، وكانوا يقولون أعطنا ، فانا أتيناك بالعيال والاثقال وجاءتك العرب على ظهور رواحلها ، فأنزل الله فيهم الآية . ثم قال « بل الله يمن عليكم » بانواع نعمه و« بأن هداكم للايمان » وارشدكم اليه بما نصب لكم من الأدلة عليه ورغبكم فيه « إن كنتم صادقين » في إيمانكم الذي تدعونه . ومتى كنتم صادقين يجب أن تعلموا ان المنة لله عليكم في إيمانكم ، لا لكم على الله ورسوله .

وموضع « أن اسلموا » نصب بـ « يمنوا » وهو مفعول به . وقيل : موضعه الجر ، لأن تقديره بأن اسلموا . ثم قال إن الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما يعملون من طاعة ومعصية وإيمان وكفر في باطن او ظاهر لايخفى عليه شيء من ذلك .

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

٥٠ ـ سورة ق

مكية بلا خلاف : وهي خمس وأربعون آية بلا خلاف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ (٥)

لم يعد أحد (ق) آية ، وكذلك نظائره مثل (ن) و (ص) لانه من المفرد ، وكل مفرد فانه لا يعد لعبده عن شبه الجملة . وأما المركب فما اشبه الجملة ووافق رؤس الآي ، فانه يعد مثل (طه) و (حم) و (ألم) وما أشبه ذلك . و (قاف) قيل هو اسم للجبل المحيط بالأرض . وقيل : هو اسم من اسماء السورة ومفتاحها على ما بيناه في حروف المعجم . وهو الأقوى . وقيل : (ق) من قضي الأمر و (حم) من حم أي دنا.

وقوله « والقرآن » قسم من الله تعالى بالقرآن . وجواب القسم محذوف ، وتقديره لحق الأمر الذي وعدتم به انكم لمبعوثون ، تعجبوا فقالوا « أئذا متنا

وكنا تراباً ﴾ ! وقيل : تقديره : ورب القرآن . واستدل بذلك على حدوثه ، وهو خلاف الظاهر . والمجيد العظيم الكرم . ووصف القرآن وبعثه بأنه مجيد معناه انه عظيم القدر عالي الذكر . ويقال مجد الرجل ومجد مجداً وهما لغتان إذا عظم كرمه وأمجد كرمت فعاله ، والمجيد في اسم الله تعالى العظيم الكرم ، ومجده خلقه : عظموه بكرمه ، ورجل ماجد عظيم الكرم . وتماجد القوم تماجداً ، وذلك إذا تفاخروا باظهار مجدهم . والمجد مأخوذ من قولهم : مجدت الابل مجوداً ، وذلك إذا عظمت بطونها لكثرة أكلها من كلأ الربيع . وأمجد القوم ابلهم وذلك في الربيع ، كأنهم أصابوا أكلاً عظيماً كريماً قال الشاعر:

رفعت مجد تميم باهلال لها ... رفع الطراف على العلياء بالعمد(١)

وقوله ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ اخبار منه تعالى عن حال الكافرين الذين بعث الله اليهم النبي ﷺ من كفار قريش وغيرهم مخوفاً لهم من معاصيه وترك طاعاته باستحقاق العقاب على ذلك وانه تعالى سيبعثهم ويجازيهم على ذلك بعد الموت ، فقال الكافرون جواباً لهذا القول : هذا شيء عجيب ، والتعجب بثير النفس تعظيم الأمر الخارج عن العادة الذي لا يقع بسببه معرفة ، يقال عجب عجباً وتعجب تعجباً ، فالذي يتعجب منه عجب . وقيل : العجب هو كل ما لا يعرف علته ولا سببه ، وأفحش العجب التعجب مما ليس بعجب على طريق الانكار للحق ، لانه يجتمع فيه سببا القبيح ، فهؤلاء تعجبوا من مجيء النذير من الله تعالى اليهم فقد فحشوا غاية التفحش ، مع انهما يعظم ضرر الجهل به . ثم قالوا أيضاً في الجواب عن ذلك أئذا متنا وخرجنا من كوننا أحياء وكنا تراباً يبعثنا الله ! ? وحذف لدلالة الكلام عليه . ثم قالوا ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾

(١) مر في ٦ | ٣٤

أي يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت ، لان ذلك غير ممكن ، فقال الله تعالى « قد علمنا ما تنقص الارض منهم » أي علمنا الذي تأكل الارض من لحومهم ، لا يخفى علينا شيء منه « وعندنا كتاب حفيظ » أي ممتنع الذهاب بالبلى والدروس ، كل ذلك ثابت فيه ولا يخفى منه شيء وهو اللوح المحفوظ ثم قال « بل كذبوا بالحق لما جاءهم » يعني بالنبي والقرآن الذي جاء به دالا على صدقه ، وبالبعث والنشور ، الذي أنذرهم به فهم في أمر مريج أي مختلط ملتبس واصله ارسال الشيء مع غيره في المرج من قولهم : مرج الخيل الذكور مع الأناث وهو مرج بالخيل أي المسرح الذي يمرج فيه ، و «مرج البحرين» ارسلهما في مرج « يلتقيان» ولا يختلطان .

وقوله « من مارج من نار » أي مرسل الشعاع بانتشاره . قال ابوذؤيب

فخالت فالتمست به حشاها   فخر كانه غصن مريج (١)

أي قد التبس بكثرة تشعبه ومرجت عهودهم وأمرجوها أي خلطوها ، ولم يفوا بها . وقال ابو عبيدة : مرج أمر الناس إذا اختلط ، قال ابو ذؤيب (فخر كأنه خوط مريج) أي سهم مختلط الأمر باضطرابه ، فهؤلاء الكفار حصلوا في أمر مختلط ملتبس من أمر النبي ﷺ ، فقالوا تارة هو مجنون وأخرى هو كاهن وأخرى هو شاعر ، فلم يثبتوا على شيء واحد ، فلذلك كانوا في أمر مريج .

قوله تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ

(١) الطبري ٢٦ / ٨٦ وروايته (فحط كأنه خوط مريج)

مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ» (١١) ست آيات.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم كذبوا بالحق الذي هو القرآن وجحدوا البعث والنشور والثواب والعقاب، وتعجبوا من ذلك نبههم الله تعالى على ذلك وبين لهم الطريق الذي إذا نظروا فيه علموا صحته، فقال «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها» ومعناه أفلم يفكروا في بناء هذه السماء وعظمها، وحسن تزيينها فيعلموا أن لها بانياً بناها وصانعاً صنعها وانه لا بد أن يكون قادراً عليها، وانه لا يعجزه شيء، لأنه لا يقدر على مثل ذلك إلا القادر لنفسه الذي لا يجوز عليه العجز ويعلمه، لانه عالم بما يرون من إحكام الصنعة فيها وانه الذي لا يخفى عليه خافيه وقوله «وزيناها» يعني حسنا صورتها بما خلقنا فيها من النجوم الثاقبة والشمس والقمر، وانه «مالها من فروج» أي ليس فيها فتوق يمكن السلوك فيها وإنما يسلكها الملائكة بأن يفتح لها أبواب السماء إذا عرجت اليها.

ثم قال «والارض مددناها» أي بسطناها، وتقديره ومددنا الارض مددناها، كما قال «والقمر قدرناه» (١) فيمن نصب ولو رفع كان جائزاً، والنصب أحسن ـ ههنا ـ لكونه معطوفا على بنيناها، فعطف الفعل على الفعل احسن.

ثم قال «والقينا فيها رواسي» أي طرحنا جبالا تمنعها من الحركة ليتمكن استقرار الحيوان عليها «وانبتنا فيها من كل زوج بهيج» قال ابن زيد: البهيج الحسن المنظر والبهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية، كالزهرة والاشجار الملتفة

(١) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

والرياض الخضرة في الأنواع المتشاكلة والمباري المصطفة خلالها الأنهار الجارية .

وقوله « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » أي فعلنا ذلك وخلقناه على ما وصفناه ليتبصر به ويتفكر به كل مكلف كامل العقل يريد الرجوع إلى الله والانابة اليه .

ثم قال « ونزلنا من السماء ماء مباركاً » يعني مطراً وغيثاً « فانبتنا به » ذلك الماء « جنات » أي بساتين فيها أشجار تجنها « وحب الحصيد » يعني البرّ والشعير ، وكل ما يحصد ـ في قول قتادة ـ لان من شأنه ان يحصد ، والحب هو الحصيد، وإنما أضافه إلى نفسه ، كما قال «لحق اليقين» (١) وكما قالوا: مسجد الجامع وغير ذلك . وقوله « والنخل » عطف على (جنات) فلذلك نصبه و « باسقات » أي عاليات يقال : بسقت النخلة بسوقاً قال ابن نوفل لابن هبيرة :

يابن الذين بفضلهم ... بسقت على قيس فزاره (٢)

وقال ابن عباس « باسقات » طوال النخل ، وبه قال مجاهد وقتادة « لها طلع نضيد » أي لهذه النخل التي وصفها بالعلو « طلع نضيد » نضد بعضه على بعض ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقوله « رزقاً للعباد » أي خلقنا ما ذكرنا من حب الحصيد والطلع النضيد رزقاً للعباد وغذاء لهم ، وهو نصب على المصدر أي رزقناهم رزقاً ، ويجوز أن يكون مفعولا له أي لرزق العباد والرزق هو ما للحي الانتفاع به على وجه ليس لغيره منعه منه ، والحرام ليس برزق ، لان الله تعالى منع منه بالنهي والحظر وكل رزق فهو من الله تعالى إما بأن يفعله او يفعل سببه ، لانه مما يريده . وقد يرزق الواحد منا غيره ، كما يقال: رزق السلطان الجند .

وقوله « واحيينا به بلدة ميتاً » أي احيينا بذلك الماء الذي انزلنا من السماء

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥١ (٢) تفسير الطبري ٢٦/٨٧

بلدة ميتاً أي جدباً قحطاً، لاتنبت شيئاً، فأنبتت وعاشت ثم قال « كذلك الخروج » أي مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، مثل ذلك نحيي الموتى يوم القيامة فيخرجون من قبورهم لأن من قدر على أحدهما قدر على الآخر، وإنما دخلت على القوم شبهة من حيث انهم رأوا العادة جارية باحياء الارض الموات بنزول المطر عليها، ولم يروا إحياء الاموات، فظنوا انه يخالف ذلك، ولو انعموا النظر لعلموا ان القادر على احدهما قادر على الآخر.

قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١٥) أربع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تسلية له عن كفر قومه وتركهم الايمان به ومهدداً لكفار قومه أنه كما كذبوك يا محمد هؤلاء وجحدوا نبوتك مثل ذلك كذب قبلهم من الأمم الماضية قوم نوح فأهلكهم الله واغرقهم واصحاب الرس وهم اصحاب البئر الذين قتلوا نبيهم ورسوه فيها ـ في قول عكرمة ـ وقال الضحاك: الرس بئر قتل فيها صاحب يا سين. وقيل: الرّس بئر لم يطو بحجر ولا غيره. قال الجعدي:

تنابلة يحفرون الرساسا (١)

---

(١) مر في ٧ / ٤٩٠

و « ثمود » هم قوم صالح حيث كذبوه ونحروا ناقة الله التي اخرجها آية له من الجبل « وعاد » وهم قوم هود ، فكذبوه فأهلكهم الله « وفرعون واخوان لوط » أي كذب فرعون موسى ، وقوم لوط لوطاً ، وسماهم اخوته لكونهم من نسبه « واصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب ، والايكة الغيظة « وقوم تبع » روي في الحديث لا تلعنوا تبعاً ، فانه كان اسلم ، وإنما ذم الله قومه .

ثم اخبر تعالى عنهم كلهم فقال « كل كذب الرسل » المبعوثة اليهم ، وجحدوا نبوتهم « فحق وعيد » فاستحقوا بما وعدهم به من العقاب ، فاذا كانت منازل الأمم الخيالية إذا كذبوا الرسل الهلاك والدمار ، وأنتم معاشر الكفار قد سلكتم مسلكهم في التكذيب فحالكم كحالهم في استحقاق مثل ذلك .

ثم قال الله تعالى على وجه الانكار عليهم ، بلفظ الاستفهام « أفعيينا بالخلق الأول » قال الحسن الخلق الأول آدم وقد يكون ذلك المراد لاقرارهم به وأنهم ولده يقال : عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه واعييت إذا تعبت ، وكل ذلك من التعب في الطلب . والمعنى إنا كما لم نعي بالخلق الأول لا نعيا بخلقهم على وجه الاعادة ، والعي عجز بانقلاب المعنى على النفس ، ثم قال « بل هم في لبس من خلق » فاللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له « من خلق جديد » وهو القريب الانشاء ، يقال : بناء جديد وثوب جديد ، وخلق جديد وأصله القريب العهد ، بالقطع للبس لأنه من جددته أجده جداً إذا قطعته فهو كفرت العهد بالقطع للبس .

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ

وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ (٢٠) خمس آيات.

يقول الله تعالى مقسماً إنه خلق الانسان أي اخترعه وانشأه مقدراً . والخلق الفعل الواقع على تقدير وترتيب . والمعنى إنه يوجده على ما تقتضيه الحكمة من غير زيادة ولا نقصان . وأخبر انه يعلم ما يوسوس به صدر الانسان . فالوسوسة حديث النفس بالشيء في خفي ، ومنه قوله « فوسوس اليه الشيطان » (١) ومنه الواسوس كثرة حديث النفس بالشيء من غير تحصيل قال رؤبة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق (٢)

ثم اخبر تعالى انه اقرب إلى الانسان من حبل الوريد . قال ابن عباس ومجاهد : الوريد عرق في الحلق وهما وريدان في العنق : من عن يمين وشمال ، وكأنه العرق الذي يرد اليه ما ينصب من الرأس ، فسبحان الله الخلاق العليم الذي احسن الخلق والتدبير ، وجعل حبل الوريد العاتق ، وهو يتصل من الحلق إلى العاتق هذا العرق الممتد للانسان من ناحيتي حلقه إلى عاتقه ، وهو الموضع الذي يقع الرداء عليه لأنه يطلق الرداء من موضعه . قال رؤبة :

كان وريديه رشاخلب

أي ليف . وقال الحسن : الوريد الوتين : وهو عرق معلق به القلب ، فالله تعالى أقرب إلى المرء من قلبه . وقيل : المعنى ونحن أقرب اليه ممن كان بمنزلة حبل

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٠

(٢) مر في ٤ / ٣٩٧

الوريد فى القرب فى أني أعلم به . وقيل : معناه اقرب اليه بما يدركه من حبل الوريد لو كان مدركاً . وقيل : ونحن أملك به من حبل الوريد فى الاستيلاء عليه ، وذلك أن حبل الوريد فى حيز غير حيزه . والله تعالى مدرك له بنفسه ومالك له بنفسه .

وقوله « إذ يتلقى المتلقيان » (إذ) متعلقة بقوله « ونحن اقرب اليه » حين يتلقى المتلقيان ، يعني الملكين الموكلين بالانسان « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أي عن يمينه وعن شماله . وإنما وحد « قعيد » لاحد وجهين :

احدهما ـ إنه حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف(١)

أي نحن بما عندنا راضون ، فتقدير الآية عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد

الثاني ـ إنه يكون القعيد على لفظ الواحد ، ويصلح للاثنين والجمع كالرسول لانه من صفات المبالغة ، وفيه معنى المصدر ، كأنه قيل : ذو المراقبة . وقال مجاهد : القعيد الرصيد . وقيل : عن اليمين ملك يكتب الحسنات ، وعن الشمال ملك يكتب السيئات ـ فى قول الحسن ومجاهد ـ وقال الحسن : حتى إذا مات طويت صحيفة عمله وقيل له يوم القيامة « إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (٢) فقد عدل ـ والله ـ عليه من جعله حسيب نفسه . وقال الحسن : الحفظة أربعة : ملكان بالنهار وملكان بالليل .

وقوله « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » أي لا يتكلم بشيء من القول إلا وعنده حافظ يحفظ عليه ، فالرقيب الحافظ والعتيد المعد اللزوم الأمر .

وقوله « وجاءت سكرة الموت بالحق » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ جاءت السكرة بالحق من أمر الآخرة حتى عرفه صاحبه واضطر اليه

---

(١) مر في ١ \ ١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٣ و ٥ \ ٣٤٦ ، ٢٨٩ و ٨ \ ٤٥٧

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤

والآخر ـ وجاءت سكرة الموت بالحق الذي هو الموت . وروي ان أبا بكر وابن مسعود كانا يقرآن « وجاءت سكرة الحق بالموت » وهي قراءة اهل البيت عليهم السلام و (سكرة الموت) غمرة الموت التي تأخذه عند نزع روحه فيصير بمنزلة السكران .

وقوله « ذلك ما كنت منه تحيد » أي يقال له عند ذلك هذا الذي كنت منه تهرب وتروغ . وقوله « ونفخ في الصور » قيل فيه وجهان :

احدهما ـ إنه جمع صورة ينفخ الله في الصور بأن يحييها يوم القيامة .

الثاني ـ ان الصور قرن ينفخ اسرافيل فيه النفخة الأولى فيموت الخلق، والنفخة الثانية فيحيون يوم القيامة ، وهو يوم الوعيد الذي وعد الله أن يعاقب فيه من يكفر به ويعصى أمره ، ويثيب من يؤمن به ويمتثل .

قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴾ (٢٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى إن يوم الوعيد الذي بينه تجيء كل نفس من المكلفين « معها سائق » يسوقها « وشهيد » يشهد عليها ، وهما ملكان احدهما يسوقه ويحثه على السير ، والآخر يشهد عليه بما يعلمه من حاله ويشاهده منه وكتبه عليه ، فهو يشهد بذلك على ما بينه الله ودبره .

وقوله « لقد كنت في غفلة » أي يقال له « لقد كنت في غفلة » أي في سهو ونسيان « من هذا » اليوم ، فالغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، وضده اليقظة . وقوله « فكشفنا عنك غطاءك » أي أزلنا الغطاء عنك حتى ظهر لك الأمر ، وإنما تظهر الأمور في الآخرة بما يخلق الله فيهم من العلوم الضرورية ، فيصير بمنزلة كشف الغطاء عما يرى ، والمراد به جميع المكلفين : برّهم وفاجرهم ، لان معارف الجميع ضرورية . وقوله « فبصرك اليوم حديد » معناه إن عينك حادة النظر لا يدخل عليها شك ولا شبهة . وقيل : المعنى فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ ليس يراد به بصر العين ، كما يقال : فلان بصير بالنحو أو بالفقه . وقال الرماني : حديد مشتق من الحد ، ومعناه منيع من الادخال في الشيء ما ليس منه والاخراج عنه ما هو منه ، وذلك في صفة رؤيته للاشياء في الآخرة .

وقوله « وقال قرينه » قال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني الملك الشهيد عليه . وقال بعضهم : قرينه من الشياطين . والأول الوجه « هذا ما لدي عتيد » أي معدّ محفوظ « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » إنما قيل : ألقيا ، لأن المأمور به إلقاء كل كافر في النار إثنان من الملائكة . وقيل : يجوز ان يكون على لفظ الاثنين والمأمور واحد ، لأنه بمنزلة إلقاء اثنين في شدته ، كما قال الشاعر :

فان تزجراني يابن عفان انزجر وإن تدعاني احم عرضاً ممنعا (١)

والأول اظهر ، وحكى الزجاج عن بعض النحويين : أن العرب تأمر الواحد بلفظ الاثنين تقول : قوما ، واقعدا ، قال الحجاج : (يا حرسي إضربا عنقه) وإنما قالوا ذلك ، لأن اكثر ما يتكلم به العرب فيمن تأمر به بلفظ الاثنين نحو :

خليلي مرابي على أم جندب (٢)

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٦ (٢) قائله امرؤ القيس ديوانه ٢٧ القصيدة ٢

وقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل (١)

وقال المبرد هذا فعل مبني للتأكيد ، كأنه قال : ألق ألق ، والعنيد الذاهب عن الحق وسبيل الرشد « مناع للخير » الذي أمر الله به من بذل المال في وجوهه من الزكاة وغيرها ، لأنه صفة ذم تعم منع الخير الذي يجب بذله . ويدخل فيه الأول على وجه التبع « معتد » أي متجاوز للحق في قوله وفعله ﴿ مريب ﴾ أي آت من المنكر بما يشكك فى أمره .

قوله تعالى :

﴿ أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٣٠) خمس آيات .

قرأ نافع وابو بكر عن عاصم ﴿ يوم يقول ﴾ بالياء بمعنى يقول الله تعالى ﴿ لجهنم ﴾ الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه و (يوم) متعلق بقوله ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ وقيل : إنه متعلق بمحذوف بتقدير (إذكر) يا محمد يوم . وقوله ﴿ الذى جعل ﴾ موضعه الجر ، لأنه من صفة ﴿ كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ... الذى جعل مع الله إلهاً آخر ﴾ أى اتخذ مع الله معبوداً آخر من الاصنام والاوثان ، ووجه قربانه اليه . والجعل تكوين الشيء على

(١) قائله امرؤ القيس ديوانه ٤٣ . قصيدة ٥٣

غير ما كان بقادر عليه فمن جعل مع الله إله آخر فقد صير ذلك الشيء على غير ما كان عليه باعتقاده انه إله آخر مع الله وذلك جهل منه عظيم وذهاب عن الصواب بعيد ، فيقول الله للملكين الموكلين به يوم القيامة « ألقيا » أي اطرحاه « في العذاب الشديد » والالقاء الرمي بالشيء إلى جهة السفلى ، وقولهم : ألقى عليه مسألة بمعنى طرحها عليه مشبه بذلك . وأصل الإلقاء المماسة ، والالتقاء من هذا ففي الالقاء طلب مماسة الشيء الارض بالرمي « قال قرينه ربنا ما اطغيته » قال ابن عباس : قرينه - ههنا - شيطانه . وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك . وسمي قرينه لأنه يقرن به في العذاب ، وهو غير قرينه الذي معه يشهد عليه ، والقرين نظير الشيء من جهة مصيره بازائه .

حكى الله من شيطانه الذي أغواه انه يقول « ما أطغيته » فالاطغاء الاخراج إلى الطغيان ، وهو تجاوز الحد في الفساد أطغاه وطغى يطغى طغياناً ، فهو طاغ . والاول مطغي . وقال الحسن : ما اطغيته باستكراه ، وهو من دعاه إلى الطغيان . والمعنى لم أجعله طاغياً « ولكن كان » هو بسوء اختياره « في ضلال » عن الايمان « بعيد » عن إتباعه . ومثله قوله « وما كان لي عليكم من سلطان إلا ان دعوتكم فاستجبتم لي » (١) فيقول الله تعالى لهم « لا تختصموا لدي » أي لا يخاصم بعضكم بعضاً عندي « وقد قدمت اليكم بالوعيد » في دار التكليف ، فلم تنزجروا وخالفتم أمري « ما يبدل القول لدي » معناه إن الذي قدمته اليكم في الدنيا من أني أعاقب من جحدني وكذب برسلي وخالفني في أمري لا يبدل بغيره ، ولا يكون خلافه « وما أنا بظلام للعبيد » أي لست بظالم لاحد في عقابي لمن استحقه بل هو الظلام لنفسه بارتكاب المعاصي التي استحق بها ذلك . وإنما قال : بظلام للعبيد على وجه المبالغة رداً لقول من أضاف جميع الظلم اليه - تعالى الله عن ذلك - .

---

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٢

وقوله ﴿ يوم نقول لجهنم ﴾ من قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه . ومن قرأ - بالياء - وهو نافع وابو بكر ، فعلى تقدير يقول الله لجهنم ﴿ هل امتلأت ﴾ من كثرة من ألقي فيك من العصاة ﴿ فتقول ﴾ جهنم ﴿ هل من مزيد ﴾ أي ما من مزيد ؟؟ أي ليس يسعني اكثر من ذلك . وقال قوم : هذا خطاب من الله لخزنة جهنم على وجه التقريع والتقرير لهم هل امتلأت جهنم ، فتقول الخزنة هل من مزيد ؟ وقال قوم : وهو الأظهر إن الكلام خرج مخرج المثل أي ان جهنم من سعتها وعظمها في ما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة التي إذا قيل لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد أي لم امتلىء اي فى سعه كثرة ، ومثله قول الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني (١)

والحوض لم يقل شيئاً ، وإنما أخبر عن امتلائها وانها لو كانت ممن تنطق لقالت قطني مهلا رويداً قد ملأت بطني . وكذلك القول فى الآية . وقال الحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء : معنى هل من مزيد ما من مزيد ، وانه بمعنى لا مزيد وانكروا أن يكون طلباً الزيادة ، لقوله ﴿ لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ (٢) وقال بعضهم : هذا ليس بمنكر من وجهين :

احدهما - أن يكون ذلك حكاية عن الحال التي قبل دخول جميع اهل النار فيها ولم تمتلأ بعد وان امتلأت في ما بعد .

والآخر - ان يكون طلب الزيادة بشرط ان يزاد في سعتها . وقال قوم : هل من مزيد بمنزلة قول النبي ﷺ يوم فتح مكة وقد قيل له ألا تنزل دارك ، فقال (وهل ترك لنا عقيل من ربع) لأنه كان قد باع دور بني هاشم لما خرجوا

---

(١) مر في ١ | ٤٣١ و ٨ | ٨٥ ، ٣٦٩ ، ٤٧١ (٢) سورة ١١ هود آية ١١٩

إلى المدينة ، وإنما أراد ان يقول : لم يترك لنا داراً . وقال انس بن مالك : هل من مزيد طلباً الزيادة . وقال مجاهد : هو بمعنى الكفاية .

قوله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٣٥) خمس آيات .

لما حكى الله تعالى ما أعده للكافرين والعصاة من جهنم وعظم موضعها وسعتها أخبر عما اعده للمتقين المجتنبين لمعاصيه الفاعلين لطاعاته فقال ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ والازلاف التقريب إلى الخير ، ومنه الزلفة ، والزلفى . ويقولون : أزدلف اليه أي اقترب والمزدلفة قريب من الموقف . وهو المشعر وجمع ، ومنه قول الراجز :

ناج طواه الاين مما وجفا   طي الايالي زلفا فزلفا

سماوه الهلال حتى احقوقفا (١)

والجنة التي وعد الله المتقين بها هي البستان الذي يجمع من اللذة ارفع كل نوع في الزينة من الابنية الفاخرة بالياقوت والزمرد وفاخر الجوهر ، ومن الانهار والاشجار وطيب الثمار ومن الأزواج الكرام والحور الحسان وكريم الخدم من الولدان الذين هم زينة لكل ناظر ومتعة لكل مبصر ، قد أمن اهلها العلة وانواع

(١) مر في ٦ / ٧٩ و ٨ / ٢٩

الاذى من فضول الاطعمة والاشربة ، نسأل الله حسن الاستعداد لها بالعمل الصالح المقرب منها الموجب لرضوان مالكها .

وقوله ﴿ غير بعيد ﴾ أي ليس ببعيد مجيء ذلك ، لان كل آت قريب ، ولذلك قال الحسن : كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل .

ثم قال ﴿ هذا ما توعدون ﴾ من قرأ بالتاء فعلى الخطاب أي هذا الذي ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب ﴿ لكل أواب ﴾ أي رجاع إلى الله تائب اليه ﴿ حفيظ ﴾ لما أمر الله به يتحفظ من الخروج الى مالا يجوز من سيئة تدنسه او خطيئة تحط منه وتشينه . وقال ابن زيد : الأواب التواب ، وهو من آب يؤب اوبًا إذا رجع .

وقوله ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ فالخشية انزعاج القلب عند ذكر السيئة وداعي الشهوة حتى يكون فى اعظم حال من طلبه سبع يفترسه او عدو يأتي على نفسه او طعام مسموم يدعى إلى اكله هذه خشية الرحمن التي تنفعه والتي دعا اليها ربه ومعنى ﴿ بالغيب ﴾ أي في باطنه وسريرته ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي راجع إلى الله من اناب ينيب إنابة ، وموضع (من) يحتمل وجهين من الاعراب :

احدهما ـ الجر على البدن من (كل) كأنه قيل لمن خشى .

والثاني ـ الرفع على الاستئناف كأنه قال ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يقال لهم ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي بأمان من كل مكروه ويحيون بذلك على وجه الاكرام .

وقوله ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي الوقت الذي يبقون فيه فى النعيم مؤبدين لا إلى غاية .

وقوله ﴿ لهم ما يشاؤن فيها ﴾ أي ما يريدونه ويشتهونه يجعل لهم فيها ﴿ ولدينا مزيد ﴾ من نعم الله الذي يعطيهم زيادة على مقدار استحقاقهم بعملهم .

قولـه تعـالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) (٤٠) خمس آيات

قرأ ﴿ وإدبار ﴾ بكسر الألف ابن كثير ونافع واهل الحجاز وحمزة على المصدر من أدبر إدباراً ، وتقديره وقت إدبار السجود . والمصادر تجعل ظرفاً على إرادة اضافة اسماء الزمان إليها وحذفها ، كقولهم جئتك مقدم الحاج وخفوق النجم ونحو ذلك يريدون في ذلك كله وقت كذا وكذا فحذفوه . الباقون بفتح الألف على انه جمع (دبر) :

يقول الله تعالى مخبراً ﴿ وكم أهلكنا ﴾ ومعناه وكثيراً أهلكنا وذلك أن (كم) تكون إستفهاماً تارة في معنى الخبر للتكثير وإنما خرجت عن الاستفهام إلى التكثير لتكون نقيضة (رب) في التقليل وكانت احق به ، لانها (اسم) مع إحتمالها للتقليل ، فأما رب في الكلام ، فهي حرف يجري مجرى حرف النفي ، لان التقليل أقرب إلى النفي ، وإنما وجب لـ (كم) صدر الكلام في الخبر إعلاماً بأنها خرجت عن الاستفهام مع انها نقيضة (رب) التي هي بمنزلة حروف النفي ، ودخلت (من) على مفسر (كم) في الخبر بمنزلة عدد يفسر بالمضاف كقولك عشر أثواب ، وعشرة من الاثواب . فجاز حرف الاضافة

كما جازت الاضافة . وليس كذلك عشرون درهماً ، وجاز ان يفسر فى الخبر بالواحد وبالجمع : والقرن المقدار من الزمان الذي يقترون بالبقاء فيه أهله على مجرى العادة . وقال قوم : هو مئة وعشرون سنة . وقيل : ثمانون سنة وقال آخرون : هو سبعون سنة . وقال قوم : أربعون سنة . وقيل ثلاثون سنة . وقيل : عشر سنين «هم اشد منهم بطشاً» أى الذين أهلكناهم مثل هؤلاء الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء واكثر عدة كقوم عاد وغيرهم فلم يتعذر علينا ذلك ، فما الذى يؤمن هؤلاء من مثل ذلك .

وقوله ﴿ فنقبوا فى البلاد ﴾ أى فتحوا مسالك فى البلاد بشدة بطشهم فالتنقيب التفتيح بما يصلح للسلوك من نقض البنية ، ومنه النقب الفتح الذى يصلح للمسالك وقد يفتح الله على العباد فى الرزق بأن يوسع عليهم فى رزقهم ، ولا يصلح فيه النقب . وكل نقب فتح . وليس كل فتح نقباً ، فالنقب نقض موضع بما يصلح للسلوك . وقال مجاهد : نقبوا فى البلاد أى ضربوا فى الارض ضرب جاعل المسالك بالنقب ، قال امرؤ القيس :

لقد نقبت فى الافاق حتى رضيت من الغنيمة بالآياب (١)

وقوله ﴿ هل من محيص ﴾ أى هل من محيد ، وهو الذهاب فى ناحية عن الأمر للهرب منه ، حاص يحيص حيصاً فهو حايص مثل حاد يحيد حيداً فهو حايد والمعنى إن أولئك الكفار الذين وصفهم بشدة البطش لما نزل بهم عذاب الله لم يكن لهم مهرب ولا محيص عنه . وقيل هل من محيد من الموت ، ومنجاً من الهلاك . قال الزجاج : هؤلاء الكفار طوفوا فى البلاد ، فلم يجدوا مخلصاً من الموت .

وقوله ﴿ إن فى ذلك لذكرى ﴾ يعني في ما أخبرته وقصصته لك لذكرى أى

---

(١) ديوانه ٤٨ ومجاز القرآن ٢ / ٢٢٤ الشاهد ٨٣٦

ما يتفكر فيه ويعتبر به ﴿ لمن كان له قلب ﴾ قيل معنى القلب - ههنا - العقل من قولهم اين ذهب قلبك ، وفلان ذاهب القلب ، وفلان قلبه معه ، وإنما قال ﴿ لمن كان له قلب ﴾ لان من لا يعي الذكر لا يعتد بماله من القلب .

وقوله ﴿ او القى السمع وهو شهيد ﴾ قال ابن عباس : معناه استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع ، فهو شهيد لما يسمع ويفقهه غير غافل عنه ، وهو قول مجاهد والضحاك وسفيان ، يقال ألق إلي سمعك أى استمع . وقال قتادة : وهو شهيد على صفة النبي ﷺ في الكتب السالفة ، وهذا فى أهل الكتاب . والأول اظهر .

ثم أقسم الله تعالى فقال ﴿ ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ﴾ وقد مضى تفسير مثله فى غير موضع (١) ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أى من نصب وتعب - فى قول ابن عباس ومجاهد - واللغوب الاعياء . قال قتادة : أكذب الله تعالى بذلك اليهود ، فانهم قالوا : استراح الله يوم السبت ، فهو عندهم يوم الراحة . وقيل : إنما خلق الله السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام مع قدرته على ان يخلقهما فى وقت ، لان فى ذلك لطفاً للملائكة حين شاهدوه يظهر حالا بعد حال وقيل : لأن فى الخبر بذلك لطفاً للمكلفين في ما بعد إذا تصوروا أن ذلك يوجد شيئاً بعد شيء مع أدب النفس به فى ترك الاستعجال إذا جرى فى فعل الله لضروب من التدبير .

ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد ﴿ على ما يقولون ﴾ من قولهم : هو ساحر ، وكذاب ، ومجنون ، واحتمل ذلك حتى يأتي الله بالفرج ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أى نزهه عما لا يليق به ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ صلاة الفجر ﴿ وقبل الغروب ﴾ صلاة العصر - في قول قتادة وابن زيد - ﴿ ومن الليل ﴾ يعني صلاة الليل يدخل

(١) انظر ٤ | ٤٥١ و ٥ | ٣٨٥ . ٥١٧ و ٧ | ٥٠٠ و ٨ | ٢٩٣ و ٩ | ٩ ١

فيه صلاة المغرب والعتمة . وقال ابن زيد : هو صلاة العتمة ﴿ وأدبار السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب ـ في قول الحسن بن علي عليهما السلام ومجاهد والشعبي وابراهيم . وقال الحسن ﴿ وقبل الغروب ﴾ صلاة الظهر والعصر . وقال الركعتان بعد المغرب تطوعاً . وقيل : التسبيح بعد الصلاة ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ وقيل : النوافل ـ عن ابن زيد ـ وأصل التسبيح التنزيه لله عن كل ما لايجوز في صفة ، وسميت الصلاة تسبيحاً لما فيها من التسبيح ، يقال : سبحان ربي العظيم ، وروي ايضاً أراد بـ ﴿ ادبار السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب . وأدبار النجوم الركعتان قبل طلوع الفجر . وروي في الشواذ عن أبي عمرو أنه قرأ «فنقبوا» بتخفيف القاف ، وهي لغة في التشديد . ورجل نقاب أى حاذق فطن عالم كان ابن عباس نقاباً ، والنقبة الجرب ونقب خف البعير إذا انتقب وقرىء على لفظ الأمر وهو شاذ .

قولـه تعـالى :

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٤٥) خمس آيات .

قرأ ابن كثير ﴿يوم تشقق﴾ مشددة الشين على معنى تتشقق وحذف احدى التائين . والتشقق التفطير . يقول الله تعالى لنبيه عليه السلام والمراد به جميع المكلفين ﴿ واستمع ﴾ أي اصغ إلى النداء وتوقعه ﴿ يوم ينادي المنادي ﴾ فالنداء الدعاء بطريقة

يا فلان ، وكأن الناس يدعون فيقال لهم : يا معشر الناس قوموا إلى الموقف الجزاء والحساب . وقيل : ينادي المنادي من الصخرة التي في بيت المقدس ، فلذلك قال ﴿ من مكان قريب ﴾ فيقول : يا أيها العظام البالية قومي لفصل القضاء وما اعدّ من الجزاء - في قول قتادة - ﴿ من مكان قريب ﴾ أي يسمع الخلق كلهم على حد واحد ، فلا يخفى على احد لا قريب ولا بعيد .

وقوله ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ فالصيحة المرة الواحدة من الصوت الشديد ونقيضها الخفدة تقول صاح يصيح صياحاً وصيحة ، فهو صائح ، وتصايح وتصايحوا في الأمر تصايحا ، وصيح تصييحاً وصايحه مصايحة ، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية للحشر إلى أرض للموقف ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ .

وقوله ﴿ إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير ﴾ اخبار منه تعالى عن نفسه بأنه هو الذي يحيي الخلق بعد ان كانوا جماداً أمواتاً . ثم يميتهم بعد أن كانوا أحياء ثم يحييهم يوم القيامة وإلى الله يصيرون ويرجعون يوم القيامة ﴿ يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ﴾ أي الينا المصير في اليوم الذي تشقق الارض عن الأموات ﴿ سراعاً ﴾ أي بسرعة لا تأخير فيها ثم قال ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي سهل علينا غير شاق . والحشر الجمع بالسوق من كل جهة .

ثم قال ﴿ نحن اعلم بما يقولون ﴾ يعني هؤلاء الكفار من جحدهم نبوتك وإنكارهم البعث والنشور ، لا يخفى علينا من أمرهم شيء ﴿ وما أنت عليهم ﴾ يامحمد ﴿ بجبار ﴾ قال الحسن : ما أنت عليهم برب تجازيهم بأعمالهم . وإنما أنا المجازي لهم . وقيل : وما انت عليهم بفظ في دعائهم إلى توحيد الله وإخلاص عبادته . والجبار العالي السلطان بأنه قادر على اذلال جميع العصاة بحسب الاستحقاق وهذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى وحده ، فان وصف بها الانسان كان ذماً ، لانه جعل

انفسه من المقدرة ما ليس لها ، وانشد الفضل :

عصينا حرمة الجبار حتى صبحنا الخوف الفاً معلمينا (١)

وقيل ﴿ وما أنت بجبار ﴾ أي لاتتجبر عليهم ، قال الفراء : يجوز ان يكون لا يجبرهم على الاسلام يقال : جبرته على الامر واجبرته بمعنى واحد . وقال غيره : لم يسمع (فعال) من (أفعلت) إلا (دراك) من (أدركت) ويكون الجبار العالي السلطان على كل سلطان باستحقاق ، ويكون العالي السلطان بادعاء .

ثم قال ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾إنما خص بالتذكير من يخاف وعيد الله ، لانه الذي ينتفع به وإن كان تذكيره متوجهاً إلى جميع المكلفين . قال الزجاج : إنما قال الله للنبي صلى الله عليه وآله ذلك قبل ان يأمره بالقتال .

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ | ١٠٣

٥١ ـ سورة الذاريات

مكية بلا خلاف . وهي ستون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً (١) فَٱلْحَامِلاَتِ وِقْراً (٢) فَٱلْجَارِيَاتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٤) أربع عشر آية .

روى عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وابن عباس (رحمة الله عليه) ومجاهد ان ﴿ الذاريات ﴾ الرياح يقال : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً ، وهي ذارية إذا طيرته وأذرت تذري إذراء بمعنى واحد وسأل ابن الكوا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر ﴿ ما الذاريات ذرواً ﴾ قال : الرياح ، قال ما

﴿ الحاملات وقراً ﴾ فقال السحاب . فقال ما ﴿ الجاريات يسراً ﴾ قال السفن . والمعنى إنها تجري سهلا ، فقال ما ﴿ المقسمات أمراً ﴾ قال الملائكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن ، وهذا قسم من الله تعالى بهذه الأشياء . وقال قوم : التقدير القسم برب هذه الاشياء لأنه لا يجوز القسم إلا بالله . وقد روي عن أبي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام أنه لا يجوز القسم إلا بالله . والله تعالى يقسم بما يشاء من خلقه .

وقيل : الوجه في القسم بالذاريات تعظيم ما فيها من العبرة في هبوبها تارة وسكونها اخرى ، وذلك يقتضي مسكناً لها ومحركاً لا يشبه الاجسام ، وفي مجيئها وقت الحاجة لتنشئة السحاب وتذرية الطعام ما يقتضي مصرفاً لها قادراً عليها ، وما في عصوفها تارة ولينها أخرى ما يقتضي قاهراً لها ولكل شيء سواها .

والوجه في القسم بالحاملات وقراً ، ما فيه من الآيات الدالة على محل حملها الماء وأمسكه من غير عماد واغاث بمطره العباد واحيي البلاد وصرفه في وقت الغنى عنه بما لو دام لصاروا إلى الهلاك ، ولو انقطع اصلا لاضر بهم جميعاً . والوجه في القسم بالجاريات يسراً ما فيها من الدلائل وبتسخير البحر الملح والعذب بجريانها وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق ولو ركد لأهلك ، وبما في هداية النفوس إلى تدبير مصالحها وما في عظم النفع بها في ما ينقل من بلد إلى بلد بها .

والوجه في القسم بالملائكة ما فيها من اللطف وعظم الفائدة وجلالة المنزلة بتقسيم الأمور بأمر الله تعالى من دفع الآفة عن ذا واسلام ذاك ومن كتب حسنات ذا وسيئات ذاك ، ومن قبض روح ذا وتأخير ذاك . ومن الدعاء للمؤمنين ولعن الكافرين ، ومن استدعائهم إلى طريق الهدى وطلب ما هو أولى بصد داعي الشيطان والهوى عدو الانسان .

وقوله ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ جواب القسم . ومعناه إن الذي وعدتم به من الثواب والعقاب والجنة والنار وعد صدق لابد من كونه ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ معناه إن الجزاء لكائن يوم القيامة ، وهذا يفيد ان من استحق عقاباً ، فانه يجازى به ويدخل في ذلك كل مستحق للعقاب ، كأنه قال : إن جميع الجزاء واقع بأهله يوم القيامة في الآخرة . ثم استأنف قسماً آخر فقال ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ فالحبك الطرائق التي تجري على الشيء كالطرائق التي ترى في السماء . وترى في الماء الصافي إذا مرت عليه الريح ، وهو تكسر جار فيه . ويقال للشعر الجعد حبك والواحد حبيك وحبيكة ، والحبك أثر الصنعة في الشيء واستوائه، حبكه يحبكه ويحبكه حبكاً « والسماء ذات الحبك » أي ذات حسن الطرائق ، وحبك الماء طرائقه قال زهير :

مكلل باصول النجم تنسجه ريح خريق لصافي مائه حبك(١)

وتحبكت المرأة بنطاقها إذا شدته في وسطها ، وذلك زينة لها ، وحبك السيف إذا قطع اللحم دون العظم . وقال الحسن وسعيد بن جبير : ذات الحبك ذات الزينة بالنجوم والصنعة وللطرائق الحسنة . وقيل : الحبك النسج الحسن ، يقال : ثوب محبوك . وقوله ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ معناه إنكم في الحق لفي قول مختلف ، لا يصح إلا واحد منه ، وهو أمر النبي صلى الله عليه وآله وما دعا اليه ، وهو تكذيب فريق به وتصديق فريق . ودليل الحق ظاهر ، وفائدته أن احد الفريقين في هذا الاختلاف مبطل ، لانه اختلاف تناقض فاطلبوا الحق منه بدليله وإلا هلكتم . وقوله ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ معناه يصرف عنه من صرف ، ومنه قوله ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ (٢) أي لتصرفنا ، وتصدنا . وإنما قيل ﴿ يؤفك ﴾ عن الحق

(١) ديوانه ١٧٦ ومجاز القرآن ٢/٢٢٥ والقرطبي ١٧ / ٣٢ (٢) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٢

لأنه يمكن فيه ذلك من غيره ، ولا يمكن من نفسه ، لان الحق يدعو إلى نفسه ولا يصرف عنها إلى خلافه .

وقوله ﴿ قتل الخراصون ﴾ معناه لعن الكذابون ، ومثله ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ (١) والخراص الكذاب . وأصله الخرص وهو القطع من قولهم : خرص فلان كلامه واخترصه إذا افتراه ، لانه اقتطعه من غير أصل . والخرص جريد يشقق ويتخذ منه الحصر قال الشاعر :

ترى قصد المران فيهم كأنه تذرع خرصان بأيدي شواطب (٢)

والخرص حلقة القرط المنقطعة عن ملاصقة الاذن ، والخريص الخليج من من البحر ، والخرص الخرز من العدد والكيل ، ومنه خارص النخل ، وهو خارزه وجمعه خراص . وقوله ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ صفة للخراصين وموضعه رفع وتقديره في غمرة ساهون عن الحق كقوله ﴿ طبع الله على قلوبهم ﴾ (٣) والغمرة المرة من علو الشيء على ما هو فائض فيه ، غمره الماء يغمره غمراً وغمرة ، فهو غامر له ، والانسان مغمور ، ويقال : غمره الشغل وغمره الموت وغمره الحياء وغمره الجهل وأصل الغمرة من الغمر وهو السيد الكثير العطاء ، لانه يغمر بعطائه ، والغمر الفرس الكثير الجري ، لانه يغمر بجريه ، والغمر الذي لم يجرب الأمور والغمر الحقد والغمرة رائحة الزهومة في اليد ، وغمار الناس مجتمعهم ، وغمرة المرأة ما تطلى به من الطيب وغيره مما يحسن اللون . والغمر القدح الصغير ، والغمر النبت الصغار ، لانه تغمره الكبار . والمعنى ان هؤلاء الكفار لجهلهم بما يجب عليهم معرفته ساهون عما يلزمهم العلم به أي غافلون عن الحق متعامون عنه ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ يعني يسأل

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٧ (٢) مر في ٤ / ٢٦٩ مع اختلاف يسير

(٣) سورة ٩ التوبة آية ٩٤ وسورة ١٦ النحل آية ١٠٨ وسورة ٤٧ محمد آية ١٦

هؤلاء الكفار الذين وصفهم بالجهل والغمرة : متى يوم الجزاء ؟ ! على وجه الانكار لذلك لا على وجه الاستفادة لمعرفته ، فاجيبوا بما يسوءهم من الحق الذي لا محالة انه نازل بهم فقيل ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يحرقون بالنار ويعذبون فيها وأصل الفتنة تخليص الذهب باحراق الغش الذي فيه ، فهؤلاء يفتنون بالاحراق كما يفتن الذهب . ومنه قوله ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ (١) أي أخلصناك للحق ، ورجل مفتون بالمرءة أي مخلص بحبها . وهي صفة ذم ، ﴿ وفتناهم ﴾ أي اختبرناهم بما يطلب به خلاصهم للحق . وقيل : يفتنون أي يحرقون ، كما يفتن الذهب في النار - في قول مجاهد والضحاك - وقوله ﴿ يوم هم ﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ، لانك أضفته إلى شيئين، ويصلح فيه النصب على الظرف والبناء ، وكله على جواب ﴿أيان﴾

وقوله ﴿ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ معناه انه يقال للكفار الذين يعذبون بها هذا الذي كنتم به تستعجلون في دار التكليف إستبعاداً له ، فقد حصلتم الآن فيه وعرفتم صحته .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَيٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٠

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٢٣) تسع آيات.

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر عن عاصم ﴿لحق مثل﴾ بالرفع على أنه صفة للحق الباقون بالنصب ، ويحتمل نصبه وجهين :

أحدهما ـ قول الجرمي أن يكون نصباً على الحال ، كأنه قيل : حق مشبهاً لنطقكم في الثبوت .

الثاني ـ قال المازني إن (مثل) مبني ، لانه مبهم أضيف إلى مبني ، كما قال الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات اوقال (١)

وقال : فجعل (مثل) مع (ما) كالأمر الواحد ، كما قال ﴿ لا ريب فيه ﴾ (٢) وقولهم : خمسة عشر ، فيكون على هذا (ما) زائدة وأضاف (مثل) إلى ﴿ إنكم تنطقون ﴾ فبناه على الفتح حين أضافه إلى المبني ، ولو كان مضافاً إلى معرب لم يجز البناء نحو : مثل زيد . وقيل : يجوز أن يكون نصباً على المصدر ، وكأنه قال إنه لحق حقاً كنطقكم .

لما حكى الله تعالى حكم الكفار وما أعده لهم انواع العذاب ، أخبر بما أعده للمؤمنين المطيعين الذين يتقون معاصي الله خوفاً من عقابه ، ويفعلون ما أوجبه عليهم فقال ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ أي في بساتين تجنها الاشجار ﴿ وعيون ﴾ ماء تجري لهم في جنة الخلد ، فهؤلاء ينعمون وأولائك يعذبون ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ من كرامته وثوابه بمعنى آخذين ما أعطاهم الله من ذلك ونصب (آخذين) على الحال ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ يفعلون الطاعات وينعمون على غيرهم

(١ مر في ٤ : ٤٧٩ (٢ سورة ٢ البقرة آية ١

بضروب الاحسان ، ثم وصفهم فقال ﴿ كانوا ﴾ يعني المتقين الذين وعدهم بالجنات ﴿ قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ في دار التكليف أي كان هجوعهم قليلا - في قول الزهري وإبراهيم - وقال الحسن : (ما) صلة وتقديره كانوا قليلا يهجعون ، وقال قتادة : لا ينامون عن العتمة ينتظرونها لوقتها ، كأنه قيل هجوعهم قليلا في جنب يقظتهم للصلاة والعبادة . وقال الضحاك : تقديره كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا ، ثم ابتدأ فقال ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ وتكون (ما) بمعنى النفي والمعنى إنهم كانوا يحيون الليل بالقيام في الصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك . ولا يجوز ان تكون (ما) جحدا لانه لا يتقدم عليها معمولها . والهجوع النوم - في قول قتادة وابن عباس وإبراهيم والضحاك ﴿ وبالاسحار هم يستغفرون ﴾ أي يطلبون من الله المغفرة والستر لذنوبهم في قول الحسن وابن زيد - وقال مجاهد : معناه يصلون في السحر.

وقوله ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ وهو ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات وغير ذلك أو ما التزموه من مكارم الاخلاق ، فهو الذي رغب الله فيه بقوله ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ فالسائل هو الذي يسأل الناس ، والمحروم هو المحارف - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك - وقال قتادة والزهري : المحروم هو المتعفف الذي لا يسأل . وقال إبراهيم: المحروم الذي لا سهم له في الغنيمة . وقيل : المحروم الممنوع الرزق بترك السؤال أو إذهاب مال او سقوط سهم او خراب ضيعة إذا صار فقيراً من هذه الجهة . وقال الشعبي : اعياني أن أعلم ما المحروم . وفرق قوم بين الفقير والمحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الاعطاء ، وقد يحرم نفسه بترك السؤال ، فاذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال ، وإنما حرمه الغير ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه وحرمه الناس .

وقوله ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ أي دلالات واضحات وحجج نيرات ﴿ للموقنين ﴾

الذين يتحققون بتوحيد الله ، وإنما أضافها إلى الموقنين ، لانهم الذين نظروا فيها وحصل لهم العلم بموجبها وآيات الأرض جبالها ونباتها ومعادنها وبحارها ، ووقوفها بلا عمد لتصرف الخلق عليها .

وقوله ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ معناه وفى أنفسكم أفلا تتفكرون بأن ترونها مصرفة من حال إلى حال ومنتقلة من صفة إلى أخرى ، فكنتم نطفاً فصرتم أحياء ثم كنتم أطفالا فصرتم شباباً ، ثم صرتم كهولا وكنتم ضعفاء فصرتم أقوياء ، فهلا دلكم ذلك على ان لها صانعاً صنعها ومدبراً دبرها يصرفها على ما تقتضيه الحكمة ويدبرها بحسب ما توجبه المصلحة . وقيل :المعنى أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنه يرى الحق بعينه .

وقوله ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ ينزله الله اليكم بأن يرسل عليكم الغيث والمطر فيخرج به من الارض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنتفعون به ﴿ وما توعدون ﴾ به من العذاب ينزله الله عليكم إذا استحققتموه . وقال الضحاك : وفى السماء رزقكم يعني المطر الذي هو سبب كل خير وهو من الرزق الذي قسمه الله وكتبه للعبد فى السماء . وقال مجاهد : وما توعدون يعني من خير او شر . وقيل وما توعدون الجنة ، لانها في السماء الرابعة .

ثم قال تعالى ﴿ فورب السماء والارض ﴾ قسما منه تعالى ﴿ إنه لحق ﴾ ومعناه إن ما وعدتكم به من الثواب والعقاب والجنة والنار لابد من كونه « مثل ما تنطقون » أي مثل نطقكم الذي تنطقون به فكما لا تشكون في ما تنطقون ، فكذلك لا تشكوا في حصول ما وعدتكم به . وقيل الفرق بين قوله « حق مثل ما إنكم تنطقون » وبين ما تنطقون مثل الفرق بين أحق منطقك وبين أحق إنك تنطق أي أحق إنك من

ينطق ، ولم يثبت له نطقاً . والاول قد أثبته إلا أنه قال : أحق هو أم باطل ، ذكره الفراء . ومعنى الآية أن هذا القرآن وأمر محمد ﷺ وما توعدون به من أرزاقكم حق ككلامكم ، كقول القائل : إنه لحق مثل ما أنت ههنا أي كما أنت ههنا . وقال الفراء : وإنما جمع بين (ما) و (إن) مع انه يكتفي باحدهما ، كما يجمع بين اللائي والذين ، وأحدهما يجزي عن الآخر قال الشاعر :

من النفر اللائي والذين إذا هم يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا (١)

فجمع بين اللائي والذين ، ولو أفرده بـ (ما) لكان المنطق في نفسه حقاً ، ولم يرد ذلك ، وإنما أراد أنه لحق كما حق أن الآدمي ناطق ، ألا ترى ان قولك أحق منطقك معناه أحق هو أم كذب ، وقولك أحق إنك تنطق معناه إن للانسان النطق لا لغيره ، فادخلت (أن) ليفرق بين المعنيين . قال وهذا أعجب الوجهين إليّ

قوله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبْرٰهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [٢٤] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [٢٥] فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [٢٦] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ [٢٧] فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ [٢٨] فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ [٢٩] قَالُوا كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [٣٠] سبع آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « هل أتاك » يا محمد « حديث ضيف إبراهيم

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ | ١١٣

المكرمين » قال الحسن : يعني المكرمين عند الله . وقيل : اكرمهم إبراهيم برفع مجالسهم في الاكرام والاعظام الذى يسر بالاحسان . والاجلال هو الاعظام بالاحسان ، وكذلك يلزم اعظام الله وإجلاله في جميع صفاته ، ولا يجوز مثل ذلك في الاكرام ، ولكن الله يكرم أنبياءه والمؤمنين على طاعتهم .

وقوله « إذ دخلوا عليه » يعني حين دخلوا على إبراهيم « فقالوا » له « سلاماً » على وجه التحية له أي اسلم سلاماً « فقال » لهم جواباً عن ذلك « سلام » وقرىء سلم ، فلما ارتاب عليه السلام بهم قال « قوم منكرون » أى انتم قوم منكرون ، والانكار بنفي صحة الأمن ونقيضه الاقرار ، ومثله الاعتراف . وإنما قال : منكرون ، لأنه لم يكن يعرف مثلهم في أضيافه ، وسماهم الله أضيافاً ، لأنهم جاؤه فى صفة الاضياف وعلى وجه مجيئهم . ومعنى (سلاماً) أي اسلم سلاماً ، وقوله « قال سلام » أي سلام لنا . وقوله « فراغ إلى أهله » أي ذهب اليهم خفياً ، فالروغ الذهاب فى خفى ، راغ يروغ روغاً وروغاناً ، وراوغه مراوغة ورواغاً ، وأراغه على كذا إذا أراده عليه فى خفى أنفاً من رده . وقوله « فجاء بعجل سمين » فالعجل واحد البقر الصغير مأخوذ من تعجيل أمره بقرب ميلاده ، وسمي عجولا وجمعه عجاجيل . وقال قتادة : كان عامة مال نبي الله إبراهيم عليه السلام البقر . والسمين الكثير الشحم على اللحم ، سمن يسمن سمناً ، وسمنه تسميناً واسمنه اسماناً وتسمن تسمناً ، ونقيض السمن الهزال . وقوله « فقربه اليهم » أي ادناه لهم وقدمه بين أيديهم وقال لهم : كلوه ، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم فـ « قال ألا تأكلون » وفي الكلام حذف ، لان تقديره فقدمه اليهم فأمسكوا عن الاكل فقال ألا تأكلون فلما أمتنعوا من الأكل « أوجس منهم خيفة » أي خاف منهم وظن أنهم يريدون به سوء ، فالايجاس الاحساس بالشيء خفياً ، أوجس يوجس إيجاساً وتوجس توجساً .

ومنه قوله « فاوجس فى نفسه خيفة موسى » (١) فقالت حينئذ له الملائكة «لاتخف» يا إبراهيم فانا رسل الله وملائكته أرسلنا الله إلى قوم لوط لنهلكهم . وقيل : إنهم دعوا الله فأحيا العجل له فعلم إبراهيم عند ذلك انهم من الملائكة عليهم السلام « وبشروه » عند ذلك « بغلام عليم » أي يكون عالماً إذا كبر وبلغ . قال مجاهد : المبشر به إسماعيل . وقال غيره : هو اسحاق ، لانه من سارة ، وهذه القصة لها لا لهاجر ، سمعت البشارة امرأته سارة « فأقبلت فى صرة » يعني فى صيحة ـ فى قول ابن عباس ومجاهد وسفيان ـ وقال مجاهد وسفيان أيضاً فى رنة « فصكت وجهها » قال ابن عباس لطمت وجهها . وقال السدي : ضربت وجهها تعجباً ، وهو قول مجاهد وسفيان ، فالصك الضرب باعتماد شديد « وقالت عجوز عقيم » فالتقدير أنا عجوز عقيم كيف ألد ؟! والعقيم الممتنعة من الولادة لكبر او آفة . وقال الحسن : العقيم العاقر . وأصل العقم الشدة مما جاء في الحديث (يعقم أصلاب المشركين) أى يشد ، فلا يستطيعون السجود ، وداء عقام إذا أعيا ، اي اشتد حتى أيأس ان يبرأ ، ومعاقم الفرس مفاصله يشد بعضها إلى بعض ، والعقم والعقمة ثياب معلمة أي شدت بها الاعلام ، وعقمت المرأة ، فهي معقومة وعقيم . وقالوا عقمت ايضاً ورجل عقيم مثل المرأة من قوم عقيمين والريح العقيم التي لا تنشيء السحاب المطر ، والملك عقيم يقطع الولاء لان الابن يقتل أباه على الملك ، فقالت الملائكة عند ذلك لها « كذلك » أي مثل ما بشرناك به « قال ربك » ما بشرناك به فلا تشك فيه « إنه هو الحكيم » في أفعاله « العليم » بخفايا الأمور لا يخفى عليه خافية والمعنى كما ان إخبارنا وبشارتنا لاشك فيه ، كذلك قال الله ما بشرناك به .

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ٦٧

قولـه تعـالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٣٧) سبع آيات .

لما سمع إبراهيم عليه السلام بشرى الملائكة له بالغلام العليم ، وعلم أنهم ليسوا ببشر ولا أضياف « قال » لهم « فما خطبكم أيها المرسلون » أي ما شأنكم . والخطب هو الأمر الجليل ، فكأنه قال قد بعثتم لأمر جليل ، فما هو ؟ ومنه الخطبة ، لانها كلام بليغ لعقد أمر جليل تستفتح بالتحميد والتمجيد. والخطاب أجل من الابلاغ .

وقوله « أيها » لا يثنى ولا يجمع لانه مبهم يقتضي البيان عنه ما بعده من غير أن يلزم ما قبله ، كما يلزم (الذي وهذا) كقولك مررت بالرجلين هذين ، فتبعه فى تثنيته ، كما تبعه فى اعرابه .

فاجابته الملائكة فقالوا « إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » عاصين لله كافرين انعمه أستحقوا العقاب والهلاك « لنرسل عليهم حجارة من طين مسمومة عند ربك المسرفين » فالمسرف المكثر من المعاصي ، وهو صفة ذم ، لأنه خروج عن الحق . ونقيض الاسراف الافتار ، وهو التقصير عن بلوغ الحق . وليس فى الاكثار من طاعة الله سرف ، ولا في نعمه اقتار ، لأنه سائغ على مقتضى الحكمة ، وإرسال الرسول إطلاقه بالأمر إلى المصير إلى من أرسل اليه ، فالملائكة أمروا بالمصير إلى

قوم لوط لاهلاكهم وإرسال الحجارة إطلاقها . وليست برسل ولكن مرسلة . والمسومة المعلمة بعلامات ظاهرة للحاسة ، لان التسويم كالسيماء في انه يرجع إلى العلامة الظاهرة من قولهم : عليه سيماء الخير . ومنه قوله « يمددكم ربكم بخمسة الآف من الملائكة مسومين » والمجرم القاطع للواجب بالباطل ، فهؤلاء أجرموا بقطع الايمان بالكفر . وأصل الصفة القطع . وقال ابن عباس : التسويم نقطة فى الحجر الأسود بيضاء ،او نقطة سوداء فى الحجر الابيض . وقيل : كان عليها أمثال الخواتيم وقوله « حجارة من طين » أي أصلها الطين لا حجارة البرد التي أصلها الماء . والمسومة هي المعلمة بعلامة يعرفها بها الملائكة أنها مما ينبغي أن يرمى بها الكفرة عند أمر الله بذلك . وقيل : حجارة من طين كأنها آجر - فى قول ابن عباس - وقال الحسن : مسومة بأنها من حجارة العذاب . وقيل : مسومة بأن جعل على كل حجر اسم من يهلك به .

وقوله « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين » أي اخرجنا من كان فى قرية لوط من المؤمنين ، نحو لوط وأهله وخلصناهم من العذاب والاهلاك . وقوله « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » يدل على ان الاسلام هو الايمان والايمان هو التصديق بجميع ما اوجب الله التصديق به . والاسلام هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الذي اوجبه الله والزمه. والمسلم هو المخلص لعمل الفرض على ما أمر الله به ، لان صفة (مسلم) كصفة مؤمن فى انها مدح . والبيت الذي وجده فى تلك القرية من المؤمنين هم أتباع لوط ووجدان الضالة هو إدراكها بعد طلبها ، ووجدت الموجدة إدراك ما يوجب العتاب والائمة فى القلب ، ووجدت المال أجده أدركت ملكاً لي كثيراً ، ووجدت زيداً الصالح بمعنى علمته ، ووجدت الضالة وجداناً . والبيت هو البناء المهيأ للايواء اليه والمبيت فيه .

وقوله « وتركنا فيها آية » فالترك في الاصل ضد الفعل ينافي الاخذ في محل القدرة عليه . والقدرة عليه قدرة على الأخذ . والمعنى في الآية أبقينا فيهـا آية ، ومثله قوله « وتركهم في ظلمات »(١) بمعنى لم ينفها مع انه قادر على نفيها ، وفلان ترك السوق أي قطعها بأن صار لا يمضي اليها . ومعنى « تركنا فيهـا آية » بمنزلة ما فعل ضدما تنافيه الآية . وقيل : إن الآية اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلا الله تعالى

وقوله « للذين يخافون العذاب الأليم » إنما خص الخائفين من العذاب الأليم بالآية لأنهم الذين يعتبرون بها وينتفعون بها .

قوله تعالى :

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ (٤٥) ثمان آيات .

قرأ الكسائي « الصعقة » الباقون « الصاعقة » ، فالصعقة مصدر صعق يصعق صعقاً وصعقة واحدة . والصاعقة الاسم تقول : صاقعة وصاعقة مقدماً ومؤخراً ،

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٧

وصواعق وصوافع ، وقيل : هما لغتان .

قوله « وفي موسى » عطف على قوله « وتركنا فيها آية » فكأنه قال : وتركنا فى موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين أي بحجة ظاهرة « فتولى بركنه » قال ابن عباس وقتادة ومجاهد : معناه بقوته . وقيل : معناه تولى بما كان يتقوى به من جنده وملكه . والركن الجانب الذي يعتمد عليه . والمعنى ان فرعون أعرض عن حجة موسى ولم ينظر فيها بقوته في نفسه « وقال ساحر » أي هو ساحر « او مجنون » فالسحر حيلة توهم المعجزة بحال خفية . واصله خفاء الأمر فمنه السحر الوقت الذي يخفى فيه الشخص . والسحر الرئة لخفاء سببها فى الترويح عن القلب بها . والسحارة لخفاء السبب فى تلون خيطها . والمجنون الذي أصابته جنة فذهب عقله . وقال الزجاج (او) ههنا بمعنى الواو ، والتقدير ساحر ومجنون . وقال غيره : في ذلك دلالة على عظم جهل فرعون ، لأن الساحر هو اللطيف الحيلة وذلك ينافي صفة المجنون المختلط العقل ، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين فقال الله تعالى مخبراً عن نفسه « فأخذناه وجنوده فنبذناه » يعني إنا نبذنا فرعون وجنوده « في اليم » أي طرحناه في البحر كما يلقى الشيء في البر « وهو مليم » أي آت بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتو والتجبر والتكبر واحد . والملوم الذي وقع به اللوم ، والمليم الذي أتى بما يلام عليه .

وقوله « وفي عاد » عطف ايضاً على قوله « وتركنا فيها » أي وتركنا في عاد ايضاً آية أي دلالة فيها عظة « إذ ارسلنا » أي اطلقنا « عليهم الريح العقيم » وهي التي عقمت عن ان تأتي بخير من تنشئة سحاب او تلقيح شجرة او تذرية طعام او نفع حيوان ، فهي كالممنوعة من الولادة . وجمع الريح أرواح ورياح ، ومنه راح الرجل إلى منزله أي رجع كالريح ، والراحة قطع العمل المتعب . وقال ابن عباس :

الريح العقيم التي لاتلقح الشجر ولا تنشيء السحاب . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور) .

وقوله « ما تذر من شيء أتت عليه » أي لم تترك هذه الريح شيئاً تمر عليه « إلا جعلته كالرميم » وهو السحيق الذي انتفى رمه بانتفاء ملاءمة بعضه لبعض ، وأما رمه يرمه رماً فهو رام له والشيء مرموم فهو المصلح بملاءمة بعضه لبعض ، وهو اصل الرميم الذي رمه بنقصه . وقيل : الرميم الذى ديس من يابس النبات . وقيل : الرميم العظم البالي المنسحق .

وقوله « وفي ثمود إذ قيل لهم » أيضاً عطف على قوله « وتركنا فيها آية ... وفي ثمود » وهم قوم صالح لما كفروا وجحدوا نبوة صالح وعقروا ناقة الله واستحقوا الاهلاك « قيل لهم تمتعوا حتى حين » أى انتفعوا في اسباب اللذات من المناظر الحسنة والروائح الطيبة والاصوات السجية وكل ما فيه منفعة على هذه الصفة « حتى حين » أى إلى حين قدر الله ابقاءكم اليه . وقيل : إلى حين آجالكم إن اطعتم الله ـ في قول الحسن ـ « فعتوا عن أمر ربهم » فالعتو الامتناع عن الحق ، وهو الجفاء عنه ترفعاً عن إتباع الداعي اليه « فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » أى ارسل الله اليهم الصاعقة التي أهلكتهم واحرقتهم وهم يبصرونها « فما استطاعوا من قيام » أى لم يقدروا على النهوض به « وما كانوا منتصرين » أى طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله ـ عز وجل ـ وقرأ الكسائي « الصعقة » بغير الف . وقد بيناه .

قوله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٤٦)

وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى ٱللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٥) عشر آيات .

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي « وقوم نوح » جرا عطفا على قوله « وفي عاد» وتقديره وفي قوم نوح آية . الباقون بالنصب على تقدير وأهلكناقوم نوح ، ويحتمل ان يكون على تقدير فأخذت صاعقة العذاب قوم نوح، إذ العرب تسمى كل عذاب مهلك صاعقة . الثالث على تقدير : واذكر قوم نوح ، كقوله « وإبراهيم الذي وفى » (١) والقوم الجماعة الذين من شأنهم أن يقوموا بالأمر ، واضافتهم اليه تقتضي انه منهم فى النسب . ولم يفرد لـ (قوم) واحد . ثم بين لما أهلكهم فقال « إنهم كانوا قوماً فاسقين » خارجين من طاعة الله - عز وجل - إلى الكفر بالله فاستحقوا لذلك الاهلاك .

وقوله « والسماء بنيناها بأيد » معناه بقوة - فى قول ابن عباس ومجاهد وقتادةوابن‌زيد - والايدي القوة ، ووجه‌اتصال قوله« والسماء بنيناها بأيد » بما قبله

---

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٧

وهو ان فى قوم نوح آية وفي السماء ايضاً آية فهو متصل به فى المعنى .

وقوله « وإنا لموسعون » قيل فى معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال الحسن : التوسعة فى الرزق بالمطر . الثاني ـ قال ابن زيد : بقوة وإنا لموسعون السماء . الثالث ـ انا لقادرون على الاتساع باكثر من اتساع السماء . والاتساع الاكثار من إذهاب الشيء فى الجهات بما يمكن أن يكون اكثر مما فى غيره يقال أوسع يوسع ايساعاً ، فهو موسع . والله تعالى قد اوسع السماء بما لابناء اوسع منه وايساع الرحمة هو الاكثار منها بما يعم .

وقوله « والارض فرشناها » عطف على قوله « والسماء بنيناها » وتقديره وبنينا السماء بنيناها وفرشنا الأرض فرشناها أي بسطناها « فنعم الماهدون » والماهد الموطىء للشيء المهيء لما يصلح الاستقرار عليه ، مهد يمهد مهداً ، فهو ماهد ، ومهد تمهيداً ، مثل وطأ توطئة .

وقوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين » معناه خلقنا من كل شيء اثنين مثل الليل والنهار ، والشمس والقمر والارض والسماء ، والجن والانس ـ فى قول الحسن ومجاهد ـ وقال ابن زيد « خلقنا زوجين » الذكر والانثى . وفى ذلك تذكير بالعبرة فى تصريف الخلق والنعمة في المنفعة والمصلحة « لعلكم تذكرون » معناه لتتذكروا وتفكروا فيه وتعتبروا به .

وقوله « ففروا الى الله » أي فاهربوا الى الله من عقابه الى رحمته باخلاص العبادة له . وقيل : معناه ففروا الى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته ويقطعكم عما أمركم به « اني لكم منه نذير » مخوف من عقابه « مبين » عما اوجب عليكم من طاعته .

ثم نهاهم فقال « ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر » أي لا تعبدوا معه معبوداً

آخر من الأصنام والاوثان « اني لكم منه نذير مبين » أي من الله مخوف من عقابه مظهر ما اوجب عليكم وأمركم به . وقيل : الوجه في تكرار ﴿ اني لكم منه نذير مبين ﴾ هو ان الثاني منعقد بغير ما انعقد به الاول اذ تقديره اني لكم منه نذير مبين في الامتناع من جعل اله آخر معه ، وتقدير الاول اني لكم منه نذير مبين في ترك الفرار اليه بطاعته فهو كقولك : انذرك أن تكفر بالله انذرك ان تتعرض لسخط الله ، ويجوز أن يقول الله ولا تجعلوا مع الله قديماً آخر ، كما قال ﴿ ولا تجعلوا مع الله الهاً ﴾ لان جعلهم ذلك باعتقادهم الهاً معه او اظهارهم انه مذهب لهم . ولا يجوز ان يقول : لا تكونوا قدماء مع الله لانه نهي عما لا يمكن ، وهو محال ، وكذلك لا يجوز ان يقول لاتصيروا قدماء ولا آلهة ، لانه محال . والنذير هو المخبر بما يحذر منه ويصرف عنه وهو يقتضي المبالغة . والمنذر صفة جارية على الفعل تقول : انذر ينذر انذاراً ، فهو منذر ، ونذره أي علم به واستعد له والمبين الذي يأتي ببيان الحق من الباطل .

ثم قال مثل ما أتى هؤلاء الكفار نبي فكذبوه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم ﴾ من الامم ﴿ رسول إلا قالوا ﴾ هو ﴿ ساحر او مجنون ﴾ فالساحر هو الذي يحتال بالحيل اللطيفة . والمجنون الذي به جنون . وإنما قال الجهال ذلك في الرسل لان الاقدام عندهم على إنكار عبادة الاوثان لا يكفي فيه الشبهة دون الجنة ، فالمجنون المغطى على عقله بما لا يتوجه للادراك به ، فكذلك شبه حال قريش في التكذيب بحال الامم حتى قالوا : ساحر او مجنون . وإنما جاز منهم الاتفاق على تكذيب الرسل من غير تواص ولا تلاق ، لان الشبهة الداعية اليه واحدة .

وقوله ﴿ أتواصوا ﴾ فالتواصي هو إيصاء بعض القوم إلى بعض بوصية ، والوصية التقدمة في الأمر بالاشياء المهمة مع النهي عن المخالفة ، كالوصية بقضاء الدين ورد

الوديعة والحج والصدقة وغير ذلك ، فكأن هؤلاء الجهال قد تواصوا بعبادة الأوثان بما هم عليه من الملازمة وشدة المحافظة وصورة الكلام صورة الاستفهام والمراد به الانكار والتوبيخ .

وقوله ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ معناه لم يتواصوا بذلك لكنهم طاغون طغوا فى معصية الله وخرجوا عن الحد .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ فتول عنهم ﴾ أي اعرض عنهم يا محمد ـ فى قول مجاهد ـ ﴿ فما أنت بملوم ﴾ فى كفرهم وجحودهم بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم اليه ، وليس المراد أعرض عن تذكيرهم ووعظهم ، وإنما أراد أعرض عن مكافأتهم ومقابلتهم ومباراتهم وما أنت فى ذلك بملوم ﴿ وذكر ﴾ بالموعظة ﴿ فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ الذين يتعظون بمواعظ الله ويستدلون بآياته . قال حسين بن صمصم .

أما بنو عبس فان هجينهم ولى فوارسه وافلت اعورا (١)

قولـه تعـالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٦٠) خمس آيات .

---

(١) مجاز القرآن ٢ | ٢٢٨

هذا اخبار من الله تعالى أنه لم يخلق الجن والأنس إلا لعبادته ، فاذا عبدوه أستحقوا الثواب ، واللام لام الغرض ولا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأن كثيراً من الخلق لا يعبدون الله . وفى الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة القائلين : بأن الله خلق كثيراً من خلقه للكفر به والضلال عن دينه وخلقهم ليعاقبهم بالنيران ، لأنه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى تناقض ، ولا إختلاف وقوله ﴿ ولقد ذرانا لجهنم ﴾ (١) قد بينا في ما مضى أن اللام لام العاقبة . والمعنى إنه خلق الخلق كلهم لعبادته وتصير عاقبة كثير منهم إلى جهنم بسوء اختيارهم من الكفر بالله وإرتكاب معاصيه .

فان قيل : أليس قد خلق الله كثيراً من خلقه لطفاً لغيرهم ، فكيف يكون خلقهم لعبادته ؟ ! .

قلنا : ما خلقه الله تعالى على ضربين : مكلف ، وغير مكلف ، فما ليس بمكلف خلقه للطف المكلفين ، جماداً كان او حيواناً . وما هو مكلف خلقه لعبادته وإن كان فى خلقه أيضاً لطف للغير ، وكأنه يكون خلقه للأمرين ويكون بمنزلة ما خلقته إلا ليعبد مع عبادة غيره لأن عبادة غيره مماهو غرض فى خلقه ، ولولا ذلك لم يكن في خلق النبي عليه لطف لغيره ، فالتقدير ما خلقته إلا لعبادته مع عبادة غيره به ، وهو بمنزلة قول القائل ما أدبت ولدي إلا ليصلح جميعهم أي بتأديبي له مع تأديب غيره الذي يدعوه إلى خلافه ، وليس المعنى ما خلقت كل مكلف إلا ليعبد هو فقط.

وفى الآية دلالة على انه تعالى لا يريد المباح ، لانه ليس من العبادة .

وقوله ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون ﴾ معناه نفي الايهام عن خلقهم لعبادته ان يكون ذلك لفائدة تقع وتعود عليه تعالى ، فبين انه لفائدة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٨

النفع العائد على الخلق دونه تعالى لاستحالة النفع عليه ودفع المضار ، لانه غني بنفسه لا يحتاج إلى غيره ، وكل الناس محتاجون اليه . ومن زعم ان التأويل ما اريد ان يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ، فقد ترك الظاهر من غير ضرورة . وقال ابن عباس : معنى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ الا ليتقربوا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً .

ثم بين تعالى انه ـ جل وعز ـ هو الرازق لعباده فقال ﴿ ان الله هو الرزاق ﴾ والخلق لا يرزقونه ﴿ ذو القوة ﴾ صاحب القدرة ﴿ المتين ﴾ ومعناه انه القوي الذي يستحيل عليه العجز والضعف ، لانه ليس بقادر بقدرة ، بل هو قادر لنفسه ، ولانه ليس بجسم ، والجسم هو الذي يلحقه ضعف . ومن خفض ﴿ المتين ﴾ ـ وهو يحيى ابن وثاب ـ جعله صفة للقوة ، وذكره لانه ذهب الى الحبل والشيء المفتون يريد القوة ، قال الشاعر :

لكل دهر قد لبست أثوبا من ريطة واليمنية المعصبا (١)

فذكر لان اليمنية ضرب من الثياب وصنف منها ، ومن فسر (المتين) بالشديد فقد غلط ، لان الشديد هو الملتف بما يصعب معه تفكيكه . ووصف القوة بأنها أشد يؤذن بالمجاز ، وانه بمعنى أعظم .

ثم اخبر تعالى بأن ﴿ الذين ظلموا ﴾ نفوسهم بارتكاب المعاصي ﴿ ذنوباً ﴾ أي نصيباً ، وأصله الدلو الممتلىء ماء ، كما قال الراجز :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فان ابيتم فلنا القليب (٢)

وقال علقمة :

---

(١) اللسان (ثوب) وتفسير القرطبي ١٧ / ٥٧

(٢) مر في ٢ / ٤٠٥

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشاش من نداك ذنوب (١)

أي نصيب ، وإنما قيل الدّلو : ذنوب ، لأنها في طرف الحبل ، كأنها في الذنب . وقيل : معناه لهم بلاء وويل . والذنوب الدلو العظيمة يؤنث ويذكر . وقوله ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي مثل نصيب اصحابهم من الكفار الذين تقدموهم ﴿ فلا تستعجلون ﴾ قل لهم لا تستعجلون بانزال العذاب عليهم ، فانهم لا يفوتون .

ثم قال ﴿ فويل الذين كفروا ﴾ وحدانيتي وجحدوا نبوة رسولي ﴿ من يومهم الذي يوعدون ﴾ فيه بانزال العذاب بالعصاة وهو يوم القيامة ، والويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع في مهلكة .

(١) تفسير القرطبي ١٧ \ ٥٧

٥٢ ـ سورة الطور

مكية بلا خلاف وهي تسع وأربعون آية في الكوفي، وثمان في البصري، وسبع فى المدنيين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (٨).

سبع آيات حجازي وثمان في ما عداه، عدّ الكوفيون والشاميون ﴿ والطور ﴾ ولم يعده الحجازيون.

الوجه فى القسم بالطور هو ما قدمناه فى قوله ﴿ والذاريات ﴾ وغير ذلك، وهو أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس للعباد ان يقسموا إلا به. وقيل: الطور هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. وقال مجاهد: الطور جبل. وقال المبرد: يقال لكل جبل طور. فاذا ادخلت عليه الألف واللام كان

معرفة لشيء بعينه . ومنه قوله ﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ (١) وقيل : إنه سرياني ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي مكتوب ـ في قول قتادة والضحاك ـ قال رؤبة :

إني واسطار سطرن سطرا (٢)

وقيل : الكتاب المسطور : هو الذي كتبه الله على خلقه من الملائكة في السماء يقرؤن فيه ما كان ويكون . وقيل : هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ، وهو الرق المنشور . وقال الفراء : الكتاب المسطور صحائف الاعمال فمن أخذ كتابه بيمينه ، ومن أخذ كتابه بشماله . والسطر ترتيب الحروف . والمسطور المرتب الحروف على وجه مخصوص ، سطرته أسطره سطراً ، فأنا ساطر وذلك مسطور ﴿ في رق منشور ﴾ فالرق جلد رقيق يصلح للكتابة . وقال ابو عبيدة : الرق هو الورق . وقيل : إنما ذكر الرق ، لانه من أحسن ما يكتب عليه ، فذكر لهذه العلة ، فاذا كتبت الحكمة فيما هو على هذه الصفة كان أبهى وأولى . والمنشور المبسوط . وإنما قيل : منشور ، لانه أبهى في العيون .

وقوله ﴿ والبيت المعمور ﴾ قيل : هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة ، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة . وروي ذلك عن علي عليه‌السلام وابن عباس ومجاهد . قال علي عليه‌السلام يدخل كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون فيه . وقال الحسن البيت المعمور : البيت الحرام . وقال أمير المؤمنين عليه‌السلام ومجاهد وقتادة وابن زيد ﴿ السقف المرفوع ﴾ هو السماء . وقوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ فالبحر المجرى الواسع العظيم من مجاري الماء ، واصله الاتساع . والبحيرة الناقة التي يوسع شق أذنها وتخلى في المرع . وتبحر فلان في العلم إذا اتسع فيه ، والمسجور المملوء . ومنه سجرت التنور إذا ملأته ناراً . وعين سجراء ممتلئة فيها حمرة كأنها احمرت

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٣ ، ٩٣　　(٢) مر في ٤ / ١١٠

مما هو لها كسجار التنور . وقال مجاهد وابن زيد : البحر المسجور الموقد . وقال قتادة : هو المملوء قال لبيد :

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاوز أقدامها (١)

وروي في الحديث ان البحر يسجر ، فيكون ناراً في جهنم .

وقوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ جواب القسم ، أقسم الله تعالى بالاشياء التي تقدم ذكرها ليتحقق عند العباد أن عذابه واقع لا محالة لمن وافى على الصفة التي يستحق بها العقوبة ، وأن لا يطمع أن ينفعه سؤال حميم او قريب منه قال النمر ابن تولب العكلي : شاهداً في المسجور :

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والسما سما (٢)

وإنما هي بقعة مملوة شجراً .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً (١٣) هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ٱصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) .

ثمان آيات كوفي وشامي ، وسبع في ما عداها ، عد الكوفيون والشاميون

---

(١) مر في ٧ | ١١٨ (٢) تفسير القرطبي ١٧ | ٦١ ومجاز القرآن ٢ | ٢٣٠

﴿ دعًا ﴾ ولم يعده الباقون .

قوله ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ يعني يوم القيامة ، وهو متعلق بقوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ... يوم تمور السماء موراً ﴾ والمور تردد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل ، مار يمور موراً فهو مائر . وقيل : يمور موراً بمعنى يدور دوراً - في قول مجاهـد - وقال الضحاك : معناه يموج موجاً قال الاعشى انشده أبو عبيدة :

كان مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل (١)

ورواه غيره من السحابة ﴿ وتسير الجبال سيراً فويل يومئذ المكذبين ﴾ الذين ينكرون اخبار الله تعالى فهؤلاء الجهال أنكروا ما اخبر به الانبياء بأن نسبوه إلى الكذب ﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ فالخوض الدخول في الماء بالقدم وشبه به الدخول في الأمر بالقول ، يقال خاض يخوض خوضاً ، فهو خائض . وخوضه في الشراب تخويضاً ، ومنه المخوض . واللعب طلب الفرح بمثل حال الصبي في إنتفاء العمل على مقتضى العقل ، لعب لعباً فهو لاعب . ودخلت الفاء في ﴿ فويل ﴾ لما فيه من معنى الجزاء ، لان تقديره إذا كان كذا وكذا فويل ، ومعنى الآية إني سأعلمهم بكفرهم وتصير عاقبتهم العذاب .

وقوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعًا ﴾ معناه يوم يدعون إلى نار جهنم للعذاب فيها ، دعه يدعه دعاً إذا دفعه . ومثله صكه يصكه صكاً ، والداع الدافع وقيل : الدع الدفع بانزعاج وإرهاق - في قول قتادة والضحاك - .

وقوله ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي يقال لهم على وجه التوبيخ: هذه النار التي كنتم تكذبون بها في دار التكليف حين جحدتم الثواب والعقاب

(١) ديوان الاعشى ١٤٤ ومجاز القرآن ٢ / ٢٣١

والنشور . ويقال لهم على وجه الانكار عليهم ﴿ أفسحر هذا ﴾ قد غطى على ابصاركم ﴿ أم انتم لا تبصرون ﴾ ثم يقال لهم ﴿ اصلوها ﴾ يعني النار ﴿ فاصبروا او لاتصبروا سواء عليكم ﴾ كونكم في العقاب صبرتم أو لم تصبروا ، فانه لا يخف عليكم ﴿ إنما تجزون ما كنتم ﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿ تعملون ﴾ في الدنيا من المعاصي والصلي لزوم النار المعذب بها صلى يصلي صلياً ، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها ، ومنه :

صلى على دنها وارتسم (١)

أي لزم ، والمصلي الذي يجيء في اثر السابق على لزوم أثره والأصل لزوم الشيء ، والصبر حبس النفس على الأمر بالعمل فكأنه قال : احبسوا أنفسكم على النار لتعاملوا بالحق او لا تحبسوا سواء عليكم في ان الجزاء لا محالة واقع بكم ولاحق لكم . والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه في العقل من خير او شر . والسواء والاستواء والاعتدال بمعنى واحد . والاستواء إمتناع كل واحد من المقدارين من ان يكون زائداً على الآخر او ناقصاً عنه ، فالصبر وترك الصبر لا ينفع واحد منهما في رفع العذاب عن أهل النار .

قولـه تعـالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ (٢٠) أربع آيات بلا خلاف .

(١) مر في ١ / ٥٦ ، ١٩٣ و ٢ / ٤١ و ٥ / ٣٣٧

لما أخبر الله تعالى عن حال الكفار وما أعد لهم من أليم العقاب، أخبر أيضاً بما أعده للمؤمنين المتقين من أنواع الثواب فقال ﴿ إن المتقين ﴾ الذين يجتنبون معاصي الله خوفاً من عقابه ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين تجنها الأشجار ﴿ ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أي متنعمين بما أعطاهم ربهم من أنواع النعم وقال الزجاج: معنى ﴿ فاكهين ﴾ معجبين بما آتاهم. وقال الفراء: مثل ذلك ﴿ ووقاهم ربهم ﴾ أي منع عنهم عذاب الجحيم. والفاكه الكثير الفاكهة، كقولهم لابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر. والفكه المسرور بأحواله كسرور آكل الفاكهة بفاكهته.

وقوله ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ قيل متكئين على النمارق وهي الوسائد إلا انه حذف ذكرها. والمعنى (عليه)، لأنه أصل الاتكاء، وتقديره متكئين على النمارق الموضوعة على السرر، وهو جمع سرير. وقوله ﴿ مصفوفة ﴾ أي مصطفة. وقوله ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ فالحور البيض النقيات البياض في حسن وكمال، والعين الواسعة الأعين في صفاء وبهاء، والمعنى قرنا هؤلاء المتقين بالحور العين على وجه التنعيم لهم والتمتيع.

قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف ٠

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة ﴿ واتبعتهم ﴾ بالتاء ﴿ ذريتهم ﴾ على واحدة ﴿ بهم ذريتهم ﴾ على واحدة أيضاً . وقرأ نافع ﴿ واتبعتهم ﴾ بالتاء ﴿ ذريتهم ﴾ على واحدة ﴿ بهم ذرياتهم ﴾ على الجمع . وقرأ ابن عامر ﴿ واتبعتهم ذرياتهم ﴾ بالتاء على الجمع ﴿ بهم ذرياتهم ﴾ جماعة ايضاً . وقرأ ابو عمرو ﴿ أتبعناهم ﴾ بالنون ﴿ ذرياتهم ﴾ جماعة ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ جماعة ايضاً . وقرأ ابن كثير وحده ﴿ وما ألتناهم ﴾ بفتح الألف وكسر اللام . الباقون ـ بفتح الألف واللام ـ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لا لغوا فيها ولا تأثيم ﴾ نصباً . الباقون بالرفع والتنوين . قال الزجاج : فمن رفع فعلى ضربين : احدهما ـ على الابتداء و (فيها) الخبر ، والثاني ـ أن تكون (لا) بمعنى ليس رافعة وانشد سيبويه :

من فر عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح (١)

ومن نصب بنى كقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ (٢) والاختيار عند النحويين إذا كررت (لا) الرفع . والنصب جائز حسن .

يقول الله تعالى ﴿ والذين آمنوا ﴾ بالله وأقروا بتوحيده وصدقوا رسله ﴿ وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ من قرأ بالنون معناه ، وألحقنا بهم ذرياتهم أي ألحق الله بهم ذرياتهم يعني حكم لهم بذلك . ومن قرأ ﴿ واتبعتهم ﴾ نسب الاتباع إلى الذرية . والمعنى إنهم آمنوا كما آمنوا ، فمن جمعه فلاختلاف اجناس الذرية ، ومن وحد ، فلانه يقع على القليل والكثير ، وإنما قرأ ابو عمرو

(١) اللسان (برح) وسيبويه ١ /٢٨ ، ٣٥٤

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢

﴿ أتبعناهم ﴾ بالنون لقوله بعد ذلك ﴿ ألحقنا ﴾ وقال البلخي : معنى الآية إن ثواب الذرية إذا عملوا مثل أعمال الاباء يثابون مثل ثواب الاباء ، لان الثواب على قدر الاعمال . ولما قال ﴿ واتبعناهم ذرياتهم ﴾ بين أن ذلك يفعل بهم من غير ان ينقص من أجورهم ، لئلا يتوهم انه يلحقهم نقص أجر . وقال الزجاج : معنى الآية إن الابناء إذا كانوا مؤمنين فكانت مراتب آبائهم فى الجنة أعلا من مراتبهم ألحق الابناء بالآباء ، ولم ينقص الآباء من أعمالهم ، وكذلك إن كان اعمال الآباء انقص ألحق الآباء بالابناء . والاتباع إلحاق الثاني بالاول فى معنى عليه الأول ، لانه لو ألحق به من غير أن يكون فى معنى هو عليه لم يكن إتباعاً ، وكان إلحاقاً . وإذا قيل : اتبعه بصره فهو الادراك ، وإذا قيل : تبعه فهو يصرف البصر بتصرفه.

وقوله ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الحقوا الاولاد بالأباء إذا آمنوا من أجل إيمان الأباء . وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أن التابعين الحقوا بدرجة آبائهم ، وإن قصرت اعمالهم تكرمة لآبائهم والاول هو الوجه . وإنما وجب بالايمان إلحاق الذرية بهم مع أنهم قد يكون ليس لهم ذرية لانه إنما يستحق ذلك السرور على ما يصح ويجوز مع أنه إذا اتبع الذرية على ما أمر الله به استحق الجزاء فيه ، فان أبطلته الذرية عند البلوغ بسوء عمل ، وفّي سروره فى أمر آخر كما أن اهل الجنة من سرورهم ما ينزل باعدائهم فى النار ، فلو عفى عنهم لوفوا سرورهم بأمر آخر .

وقوله ﴿ وما ألتناهم ﴾ معناه ما نقصناهم يقال : ألته يألته ألتاً ، وألاته يلته إلاتة ، ولاته يليته ثلاث لغات ـ ذكرها ابو عبيدة : إذا نقصه ، فبين ـ عز وجل ـ أنه لا يجوز عليه نقصان شيء من جزاء عمله ، لانه لا يجوز عليه الظلم لاقليله ولا كثيره ولاصغيره ولا كبيره ، وقال ابن عباس ومجاهد والربيع ﴿ وما ألتناهم ﴾ ما نقصناهم

قال الشاعر :

ابلغ بني ثعل عني مغلغلة جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذبا (١)

وقوله ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي كل إنسان يعامل بما يستحقه ويجازى بحسب ما عمله إن عمل طاعة أثيب عليها وإن عمل معصية عوقب بها لا يؤاخذ احد بذنب غيره . والرهين والمرهون والمرتهن هو المحتبس على أمر يؤدى عنه بحسب ما يجب فيه ، فلما كان كل مكلف محتبساً على عمله ، فان صح له اداؤه على الواجب فيه تخلص ، وإلا هلك ، فلهذا قال ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ .

قوله ﴿ وامددناهم بفاكهة ﴾ فالامداد هو الاتيان بالشيء بعد الشيء يقال : مد الجرح وأمد النهر . والفاكهة هي الثمار ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾ أي وامددناهم ايضاً بلحم من الجنس الذي يشتهونه .

وقوله ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ أي يتعاطون كأس الخمر ، قال الاخطل :

نازعتهم طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري(٢)

والكأس الأناء المملوء بالشراب ، فان كان فارغاً فلا يسمى كأساً ـ ذكره الفراء ـ وقوله ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ معناه لا يجري بينهم باطل ولا ما يلغى فيه ولا مافيه أثم كما يجري فى الدنيا عند شرب الخمر . وقوله ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ يعني فى صفائه وبياضه وحسن منظره ، والمكنون المصون . وقيل : ليس على الغلمان مشقة فى خدمة أهل الجنة ، بل لهم فى ذلك لذة ، لأنه ليس هناك دار محنة . وقوله ﴿ واقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً عن حاله ، وما هو فيه من انواع النعيم فيسرون بذلك ويزداد فرحهم

(١) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٥ (٢) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٦ والقرطبى ١٧ / ٦٨

وقيل : يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه في دار الدنيا مما استحقوا به المصير إلى الثواب والكون فى الجنان بدلالة قوله ﴿ إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ نافع والكسائي ﴿ ندعوه أنه ﴾ بفتح الهمزة على تقدير بأنه او لأنه . الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف .

لما حكى الله تعالى ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض ويسأل بعضهم بعضاً عن احوالهم ذكر ما يقولونه فانهم يقولون ﴿ إنا كنا ﴾ فى دار الدنيا ﴿ في أهلنا مشفقين ﴾ أي خائفين رقيقي القلب ، فالاشفاق رقة القلب عما يكون من الخوف على الشيء ، والشفقة نقيض الغلظة . واصله الضعف من قولهم : ثوب شفق أي ضعيف النسج رديئه ، ومنه الشفق ، وهو الحمرة التي تكون عند غروب الشمس إلى العشاء الآخرة ، لانها حمرة ضعيفة . والأهل هو المختص بغيره من جهة ما هو اولى به ، وكلما كان أولى به فهو احق بأنه أهله ، فمن ذلك اهل الجنة وأهل النار . ومن ذلك اهل الجود والكرم ، وفلان من اهل القرآن ، ومن أهل العلم ، ومن أهل الكوفة . ومن هذا قيل : لزوجة الرجل : أهله ، لانها مختصة به من جهة هي أولى

به من غيره .

فقوله ﴿ في أهلنا مشفقين ﴾ اي من يختص به ممن هو أولى بنا .

وقوله ﴿ فمن الله علينا ﴾ فالمن القطع عن المكاره إلى المحاب ، يقال : من على الاسير يمن منّاً إذا اطلقه واحسن اليه ، وامتن عليه بصنيعه أي اقتطعه عن شكره بتذكير نعمته والمنية قاطعة عن تصرف الحي ﴿ وأجر غير ممنون ﴾ (١) أي غير مقطوع .

وقوله ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ الوقا : منع الشيء من المخوف بما يحول بينه وبينه ، ومنه الوقاية ، ووقاه يقيه وقاه فهو واق ، ووقاه توقية قال الراجز :

إذ الموقي مثل ما وقيت عذاب السموم

فالسموم الحر الذي يدخل في مسام البدن بما يوجد ألمه ، ومنه ريح السموم ، ومسام البدن الخروق الدقاق .

ثم قالوا ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ يعني في دار التكليف ندعوه ﴿ أنه هو البر الرحيم ﴾ أي ندعوه بهـذا ، فيمن فتح الهمزة ، ومن كسرها أراد إنا كنا ندعوه ونتضرع اليه ، ثم ابتدأ فقال ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ قال ابن عباس : البر هو اللطيف وأصل الباب اللطف مع عظم الشأن ، ومنه البر للطفها مع عظم النفع بها ، ومنه البر لأنه لطف النفع به مع عظم الشأن ، ومنه البرية للطف مسالكها مع عظم شأنها ، والبر بالكسر الفاره ، والبر بر الوالدين ، وقولهم : فلان لا يعرف هره من برّه قيل في معناه ثلاثة اشياء :

احدها ـ لا يعرف السنور من الفاره .

الثاني ـ لا يعرف من يبره ممن يكرهه .

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

الثالث - لا يعرف دعاء الغنم وهو برها من سوقها .

ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه وآله ﴿ فذكر ﴾ يا محمد أي اعظ هؤلاء المكلفين ﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ قسم من الله تعالى بنعمته ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ على ما يرمونك به . وقال البلخي : معناه ما أنت بنعمة الله عليك بكاهن ، ولا يلزم ان يكون الله تعالى لم ينعم على الكاهن ، لأن الله تعالى قد عم على جميع خلقه بالنعم وإن كان ما انعم به على النبي اكثر ، وقد مكن الله الكاهن وسائر الكفار من الايمان به ، وذلك نعمة عليه . فالكاهن الذي يذكر انه يخبر عن الجن على طريق العزائم ، والكهانة صنعة الكاهن ، والكاهن الموهم انه يعلم الغيب بطريق خدمة الجن والمجنون المؤف بما يغطي على عقله حتى لايدرك به فى حال يقظة ، وقد علموا أنه ليس بشاعر ، كما علموا أنه ليس بمجنون ، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه ليستريحوا إلى ذلك كما يستريح السفهاء إلى التكذب على أعدائهم .

ثم قال ﴿ أم ﴾ ومعناه بل ﴿ يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ قال مجاهد : ريب المنون حوادث الدهر . وقال ابن عباس وقتادة : الموت ، والمنون المنية ، وريبها الحوادث التي تريب عند مجيئها وقال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها ... سيهلك عنها بعلها وشحيح (١)

قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ

(١) تفسير الطبري ٢٧ / ١٧

خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (٤٠) عشرة آيات بلاخلاف ٠

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا في النبي ﷺ أنه كاهن ومجنون، وانه شاعر نتربص به ريب المنون أي نتوقع فيه حوادث الدهر والهلاك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ تربصوا فاني معكم من المتربصين ﴾ فالتربص هو الانتظار بالشيء إنقلاب حال إلى خلافها . والمعنى إنكم إن تربصتم بي حوادث الدهر والهلاك ، فاني معكم من المنتظرين لمثل ذلك ، فتربص الكفار بالنبي ﷺ والمؤمنين قبيح ، وتربص النبي والمؤمنين بالكفار وتوقعهم لهلاكهم حسن ، وقوله ﴿ فتربصوا ﴾ وإن كان بصيغة الامر فالمراد به التهديد .

وقوله ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ على طريق الانكار عليهم ان هذا الذي يقولونه ويتربصون بك من الهلاك . أحلامهم أي عقولهم تأمرهم به ، وتدعوهم اليه والاحلام جمع الحلم ، وهو الامهال الذي يدعو إليه العقل والحكمة ، فالله تعالى حليم كريم ، لانه يمهل العصاة بما تدعو اليه الحكمة ، ويقال : هذه أحلام قريش أي عقولهم . ثم قال تعالى ليس الأمر على ذلك ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ والطاغي هو الطالب للارتفاع بالظلم لمن كان من العباد ، ومنه قوله ﴿ انا لما طغى الماء ﴾ (١) لانه

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

طلب الارتفاع كطلب الظالم للعباد في الشدة ، فحسن على جهة الاستعارة .

وقوله ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ معناه بل يقولون أفتراه واخترعه وافتعله ، لان التقول لا يكون إلا كذباً ، لانه دخله معنى تكلف القول من غير حقيقة معنى يرجع اليه ، وكذلك كل من تكلف أمراً من غير اقتضاء العقل أن له فعله فهو باطل . ثم قال ﴿ بل ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ لا يصدقون ﴾ بنبوتك ولا بأن القرآن انزل من عند الله . والآية ينبغي ان تكون خاصة فيمن علم الله انه لا يؤمن .

ثم قال على وجه التحدي لهم ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ يعني مثل القرآن وما يقاربه ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ في انه شاعر وكاهن ومجنون وتقوله ، لانه لا يتعذر عليهم مثله . وقيل المثل الذي وقع التحدي به هو ما كان مثله في أعلا طبقة البلاغة من الكلام الذي ليس بشعر . واعلا طبقات البلاغة كلام قد جمع خمسة أوجه : تعديل الحروف في المخارج ، وتعديل الحروف في التجانس وتشاكل المقاطع مما تقتضيه المعاني وتهذيب البيان بالايجاز في موضعه والاطناب في موضعه ، والاستعارة في موضعها والحقيقة في موضعها . واجراء جميع ذلك في الحكم العقلية بالترغيب في ما ينبغي ان يرغب فيه . والترهيب مما ينبغي ان يرهب منه ، والحجة التي يميز بها الحق من الباطل . والموعظة التي تليق للعمل بالحق .

وقوله ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ معناه أخلقوا من غير خالق ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لنفوسهم فلا يأتمرون لامر الله ولا ينتهون عما نهاهم عنه . وقيل : معنى ﴿ أخلقوا من غير شيء ﴾ أخلقوا لغير شيء أي أخلقوا باطلا لا لغرض . وقيل : المعنى أخلقوا من غير أب ولا أم فلا يهلكون ، كما أن السموات والارض خلقتا من غير شيء ، فاذا هم أضعف من السماء الذي خلق لامن شيء ، فاذا كان ما خلق لامن شيء يهلك فما كان دونه بذلك أولى . وقوله ﴿ أم خلقوا السموات

والارض ﴾ واخترعوهـا فلذلك لا يقرون بالله أنه خالقهم . ثم قال تعالى ﴿ بل لا يوقنون ﴾ بان لهم إلهاً يستحق العبادة وحده ولا يقرون بانك نبي من جهة الله.

وقوله ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ معناه اعندهم خزائن نعمة ربك وخزائن الله مقدوراته ، لأنه يقدر من كل جنس على ما لا نهاية له فشبه ذلك بالخزائن التي تجمع اشياء مختلفة . والمعنى كأنه قال : أعندهم خزائن رحمة ربك فقد أمنوا أن تجيء الأمور على خلاف ما يحبون « أم هم المسيطرون » على الناس فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوم ، فالمسيطر الملزم غيره امراً من الامور قهراً . وهو مأخوذ من السطر يقال :سيطر يسيطر سيطرة ، وهو (فيعل) من السيطرة، ونظيره بيطر بيطرة . وقيل : المسيطر الملك القاهر . وقيل : هو الجبار المتسلط ، ومنه قوله « است عليهم بمسيطر » (١) يقولون : سيطر علي أي اتخذني خولا ، وقال ابو عبيدة : المسيطرون الارباب ، والمسيطر والمبيقر والمبيطر والمهيمن والكميت اسماء جاءت مصغرة لانظير لهـا . وقرأ قتادة « بمسيطر » بفتح الطاء ، بمعنى لست عليهم بمسلط . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر والكسائي « المسيطرون » بالسين . الباقون بالصاد إلا ان حمزة يشم الصاد زاياً .

وقوله « أم لهم سلم يستمعون فيه » فالسلم مرتقى إلى العلو من مشيد الدرجة مرتقى إلى علو من بناه مصمت . ويقال : جعلت فلاناً سلما لحاجتي أي سبباً . وقال ابن مقبل :

لا يحرز المروء احجاء البـلاد ولا تبنى له فى السموات السلاليم (٢)

فكأنه قيل أم يستمعون الوحي من السماء ، فقـد وثقوا بما هم عليه وردوا

---

(١) سورة ٨٨ الغاشية آية ٢٢

(٢) تفسير الطبري ٢٧ \ ١٩ ومجاز القرآن ٢ \ ٢٣٤

ماسواه « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » أي بحجة يظهر صحة قولهم . والاستماع الاصغاء إلى الصوت ، وإنما قيل لهم ذلك ، لان كل من ادعى ما لم يعلم ببداهة العقول فعليه إقامة الحجة .

وقوله « أله البنات ولكم البنون » معناه ألكم البنون ولله البنات ، فصاحب البنين أعلى كلمة من صاحب البنات ، وهذا غاية التجهيل لهم والفضيحة عليهم . وقيل : لو جاز اتخاذ الأولاد عليه لم يكن يختار على البنين البنات فدل بذلك على افراط جهلهم في ما وصفوا الله تعالى به من اتخاذ الملائكة بنات .

وقوله « أم تسألهم اجراً » أي ثواباً على اداء الرسالة اليهم بدعائك إياهم إلى الله « فهم من مغرم مثقلون » فالمغرم إلزام الغرم - فى المال - على طريق الابذال . والمغرم انفاق المال من غير إبذال . واصله المطالبة بالحاح فمنه الغريم ، لانه يطالب بالدين بالحاح ، ومنه « ان عذابها كان غراماً » (١) أي ملحاً دائماً . والمغرم لانه يلزم من جهة المطالبة بالحاح لا يمكن دفعه . والمثقل المحمول عليه ما يشق حمله لثقله .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥

يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (٤٩) تسع آيات بلاخلاف ·

قرأ عاصم وابن عامر ﴿يصعقون﴾ بضم الياء ـ على ما لم يسم فاعله ـ الباقون بفتح الياء على اضافة الفعل اليهم ، وهما لغتان · يقال : صعق فلان فهو مصعوق وصعق فهو صاعق · وروي عن عاصم أيضاً « يصعقون » بضم الياء وكسر العين بمعنى يحصلون فى الصاعقة · وقيل : الصعق الهلاك بصيحة تصدع القلب · وقيل : الصعق عند النفخة الاولى · قال قوم : إن قوله « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » جواب لقولهم ان كان امر الآخرة على ما تدعون حقاً فلنا الجنة كقولهم « ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » (١) ذكره الحسن · والغيب الذي لا يعلمه إلا الله هو ما لم يعلمه العاقل ضرورة ولا عليه دلالة · والله تعالى عالم به ، لانه يعلمه لنفسه ، والعالم لنفسه لا يخفى عليه شيء من وجه من الوجوه ·

وقوله « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » فالكيد هو المكر · وقيل : هو فعل ما يوجب الغيظ فى خفي يقال : كاده يكيده كيداً ، فهو كائد ، والمفعول مكيد وكايده مكايدة مثل غايظة مغايظة · والكيد من الله هو التدبير الذي

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٥٠

يدبره لأوليائه على اعدائه ليقهروهم ويستعلوا عليهم بالقتل والاسر . وقال الزجاج : معناه أيريدون بكفرهم وطغيانهم كيداً ، فالله تعالى يكيدهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة .

وقوله « أم لهم إله غير الله » أي على حقيقية معنى الالهية وهو القادر على ما تحق به العبادة فلذلك عبدوه ؟! فانهم لا يقدرون على دعوى ذلك . ثم نزه نفسه فقال « سبحان الله عما يشركون » من ادعاء آلهة معه من الاصنام والاوثان .

وقوله « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً » فالكسف جمع كسفة كقولك : سدر وسدرة ، وهو جواب قولهم « او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً » (١) فقال الله تعالى لو سقط عليهم ما آمنوا ولقالوا ﴿ سحاب مركوم ﴾ والكسف القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس . والكسف من السماء القطعة منها . والسحاب الغيم سمي بذلك لا نسحابه فى السماء ، والمركوم الموضوع بعضه على بعض . وكل الأمور المذكورة بعد (أم) إلزامات لعبدة الاوثان على مخالفة القرآن . ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه وآله « فذرهم » أي اتركهم « حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » أي يهلكون فيه بوقوع الصاعقة عليهم . وقيل : الصعقة هي النفخة الاولى التي يهلك عندها جميع الخلائق . ثم وصف ذلك اليوم بأن قال « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً » أي لا ينفعهم كيدهم وحيلتهم ولا تدفع عنهم شيئاً ، لان جميعه يبطل « وهم لا ينصرون » بالدفاع عنهم . والفرق بين الغنى بالشيء والغنى عنه أن الغنى عنه يوجب أن وجوده وعدمه سواء فى أن الموصوف غني ، وليس كذلك الغنى به ، لانه يبطل أن يكون الموصوف غنياً . والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج ، وليس بهذه الصفة إلا الله تعالى . ومعنى « لا يغني عنهم » أي لا يصرف عنهم شيئاً من

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٢

الضرر الذي يقع إلى نفع يصير بمنزلة الغنى لهم .

وقوله « وإن الذين ظلموا عذاباً دون ذلك » قال ابن عباس : هو عذاب القبر ، وبه قال البراء ، وقال مجاهد : هو الجوع في الدنيا . وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا . وقال قوم : هو عموم جميع ذلك .

ثم قال « ولكن اكثرهم لا يعلمون » ومعناه إن اكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون صحة ما أمرناهم و أمرناك به لجحدهم نبوتك .

ثم قال تعالى للنبي ﷺ « واصبر » يا محمد « لحكم ربك » الذي حكم به وألزمك التسليم له « فانك باعيننا » أي بمرأى منا ندركك ، ولا يخفى علينا شيء من أمرك، نحفظك لئلا يصلوا إلى شيء من مكروهك . وأمره بالتنزيه له عما لا يليق به فقال « وسبح بحمد ربك حين تقوم » قال ابو الاحوص : معناه حين تقوم من نومك . وقال الضحاك : معناه إذا قمت إلى الصلاة المفروضة ، فقل سبحانك اللهم وبحمدك . وقال ابن زيد : معناه صل بحمد ربك حين تقوم من نوم القائلة إلى صلاة الظهر . ثم قال « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » معناه من الليل يعني من المغرب والعشاء الآخرة « وإدبار النجوم » قال الضحاك وابن زيد : هو صلاة الفجر قال ابن عباس وقتادة . هما الركعتان قبل صلاة الفجر . وقال الحسن : هما الركعتان قبل صلاة الفجر تطوعاً . والنجوم هي الكواكب واحدها نجم ، ويقال : نجم النبت ونجم القرن والسن إلا انه إذا اطلق أفاد الكواكب . وقرأ « وادبار النجوم » بفتح الهمزة زيد عن يعقوب على انه جمع . الباقون ـ بكسرها ـ على المصدر .

٥٣ ـ سورة النجم

هي مكية ، وهي اثنتان وستون آية في الكوفي وستون في البصري والمدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (١٠)

عشر آيات بلا خلاف .

قوله « والنجم » قسم من الله تعالى . وقد بينا أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه ، وليس للعباد أن يحلفوا إلا به . وقال قوم : معناه ورب النجم لحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، وفي معنى « النجم » ههنا ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال مجاهد : المراد به الثريا إذا سقطت مع الفجر .

الثاني ـ في رواية أخرى عن مجاهد أن المراد به القرآن إذا نزل .

الثالث ـ قال الحسن : معناه جماعة النجوم . « إذا هوى » أي إذا سقط يوم

القيامة كقوله - عز وجل - « وإذا الكواكب انتثرت » (١) وقيل : النجم على طريق الجنس ، كما قال الراعي :

وباتت تعد النجم في مستحيرة ... سريع بأيدي الآكلين جمودها (٢)

(مستحيرة) شحمة مذابة صافية في إهالة، لأنها من شحم سمين.

وقوله « إذا هوى » قيل : معناه إذا هوى للمغيب ودل على ما فيه من العبرة بتصريف من يملك طلوعه وغروبه ، ولا يملك ذلك إلا الله تعالى . وقيل : كان القرآن ينزل نجوماً ، وبين أول نزوله وآخره عشرون سنة - ذكره الفراء وغيره - والنجم هو الخارج عن الشيء بخروج المنتشىء عنه . والهوى ميل الطباع إلى ما فيه الاستمتاع ، وهو مقصور وجمعه أهواء ، والهواء الذي هو الجو ممدود وجمعه أهوية .

وقوله « ما ضل صاحبكم » يعني النبي ﷺ ما ضل عن الحق « وما غوى » أي وما خاب عن إصابة الرشد ، يقال : غوى يغوي غياً إذا خاب ، وقال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً (٣)

أي من يخب « وما ينطق عن الهوى » أي ليس ينطق عن الهوى أي بالهوى ، يقال : رميت بالقوس وعن القوس . والمعنى إنه لا يتكلم في القرآن وما يؤديه اليكم عن الهوى الذي هو ميل الطبع « إن هو إلا وحي يوحى » معناه ليس الذي يتلوه عليكم من القرآن إلا وحي أوحاه الله اليه ، فالوحي القاء المعنى إلى النفس في خفى إلا أنه صار كالعلم في ما يلقيه الملك إلا النبي ﷺ من البشر

(١) سورة ٨٢ الانفطار آية ٢

(٢) مجاز القرآن ٢/٢٣٥ واللسان (نجم)

(٣) مر في ٨ / ٣٦ ، ٤٩٣ وهو في القرطبي ١٧ / ٨٤

عن الله تعالى ، ومنه قوله « فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً » (١) وقوله « وأوحى ربك إلى النحل » (٢) أي ألهمها مراشدها ، وهو راجع إلى ما قلناه من إلقاء المعنى إلى النفس في خفي .

وقوله « علمه شديد القوى » في نفسه وعلمه . والقوة هي القدرة . وقد تستعمل القوة بمعنى الشدة التي هي صلابة العقد كقوى الحبل .

وقوله « ذو مرة » صفة لجبرائيل عليه السلام أي صاحب مرة ، وهي القوة . واصل المرة شدة الفتل ، وهو ظاهر في الحبل الذي يستمر به الفتل حتى ينتهي إلى ما يصعب به الحل . ثم تجري المرة على القدرة ، لانه يتمكن بها من الفعل ، كما يتمكن من الفعل بالآلة ، فالمرة والقوة والشدة نظائر . وقوله « فاستوى » معناه استولى بعظم القوة ، فكأنه استوت له الامور بالقوة على التدبير . ومنه قوله « استوى على العرش » (٣) أي استولى عليه بالسلطان والقهر . وقال ابن عباس وقتادة : معنى « ذو مرة » ذو صحة بخلق حسن . وقال مجاهد وسفيان وابن زيد والربيع : ذو قوة ، وهو جبرائيل . والمرة واحدة المرر ، ومنه قوله عليه السلام (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) وقيل « فاستوى » جبرائيل ومحمد عليهما السلام « بالافق الاعلى » أي سماء الدنيا عند المعراج . وقيل في « هو » قولان :

احدهما – انه مبتدأ وخبره في موضع الحال ، وتقديره ذو مرة فاستوى في حال كونه بالافق الاعلى .

الثاني – إنه معطوف على الضمير في (استوى) وحسن ذلك كي لا يتكرر

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ١٠ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ وسورة ١٠ يونس آية ٣ وسورة ١٣ الرعد آية ٢ وسورة ٢٥ الفرقان ٥٩ وسورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ وسورة ٥٧ الحديد آية ٤

(هو) وانشد الفراء :

ألم تر ان النبع تصلب عوده ولا يستوي والخروع المتقصف (١)

وقال الزجاج: لا يجوز عطف (هو) على الضمير من غير تأكيد إلا في الشعر وقال تعالى « أئذا كنا ترابا وآباؤنا » (٢) فرد الآباء على المضمر . وقال الربيع : واستوى يعني جبرائيل عليه السلام (وهو) كناية عنه على هـذا . وفي الوجه الأول (هو) كناية عن النبي صلى الله عليه وآله . وقال قتادة : الافق الأعلى الذي يأتي منه النهار . وقيل : هو مطلع الشمس « شديد القوى » في أمر الله « ذو مرة » أي ذو قوة في جسمه . وقيل : فاستوى جبرائيل على صورته التي خلقه الله ، لان جبرائيل كان يظهر قبل ذلك للنبي صلى الله عليه وآله في صورة رجل .

وقوله « ثم دنا فتدلى » قال الحسن وقتادة والربيع : يعني جبرائيل عليه السلام وفيه تقديم وتأخير والتقدير ثم تدلى فدنا . وقال الزجاج : معنى دنا وتدلى واحد، لأن المعنى إنه قرب وتدلى زاد في القرب ، كما يقال : دنا فلان وقرب . والمعنى ثم دنا جبرائيل إلى محمد صلى الله عليه وآله ، فتدلى اليه من السماء « فكان قاب قوسين او أدنى » معناه كان بينه وبين جبرائيل مقدار قاب قوسين من القسي العربية او أقرب بل أقرب منه . وقيل : معنى (او) في الآية معنى (الواو) كقوله « وأرسلناه إلى مئة ألف او يزيدون » (٣) ومعناه ويزيدون . وقيل : إنه رأى جبرائيل عليه السلام في صورته له ستمائة جناح ـ في قول ابن مسعود ـ ومعنى « قاب قوسين » قدر الوتر من القوس مرتين « او أدنى » منه وأقرب .

وقوله « فاوحى إلى عبده ما أوحى » قيل اوحى جبرائيل إلى عبد الله محمد

---

(١) تفسير الطبري ٢٧ / ٢٣ والقرطبي ١٧ / ٨٥ (٢) ـ سورة ٢٧ النمل آية ٦٧

(٣) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧

ما أوحى . وقيل أوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى . ويحتمل ان تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير فأوحى إلى عبده وحياً . ويحتمل ان يكون بمعنى الذي وتقديره فأوحى إلى عبده الذي أوحى اليه . والمعنى أوحى جبرائيل إلى محمد ما أوحى اليه ربه - وهو قول ابن زيد -

وقوله « ما كذب الفؤاد ما رأى » قال ابن عباس رأى ربه بقلبه وهو معنى قوله « علمه » وإنما علم ذلك بالآيات التي رآها . وقال ابن مسعود وعائشة وقتادة : رآى محمد جبرائيل على صورته . وقال الحسن: يعني ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته . وقال الحسن : عرج بروح محمد ﷺ إلى السماء وجسده في الأرض . وقال اكثر المفسرين - وهو الظاهر من مذهب اصحابنا والمشهور في اخبارهم - أن الله تعالى صعد بجسمه حياً سليماً حتى رأى - ملكوت السموات وما ذكره الله - بعيني رأسه ، ولم يكن ذلك في المنام بل كان في اليقظة . وقد بيناه في سورة بني إسرائيل .

قوله تعالى :

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ (٢٠) عشر آيات بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ويعقوب « افتمرونه » بمعنى افتجحدونه ، وهو

قول إبراهيم . وقرأ الباقون « افتمارونه » بمعنى افتجادلونه في انه رأى ربه بقلبه أو آيات الله ومعجزاته . وقرأ ابن عامر ـ في رواية هشام ـ وأبي جعفر «ما كذب» مشددة الدال الباقون بالتخفيف . وقرأ ابن كثير والأعشى إلا ابن غالب «ومناة» مهموزة ممدودة . الباقون « ومناة » مقصورة ، وهما لغتان .

يقول الله تعالى إنه لم يكذب فواد محمد ما رآه بعينه يعني لم يكذب محمد بذلك بل صدق به والفؤاد القلب . وقال ابن عباس : يعني ما رأى بقلبه . وقال الحسن :إنه رأى ربه بقلبه . وهذا يرجع إلى معنى العلم . ومعنى « ما كذب الفؤاد» أي ما توهم أنه يرى شيئاً وهو لا يراه من جهة تخيله لمعناه ، كالرائي للسراب يتوهمه ماء ويرى الماء من بعيد فيتوهمه سراباً . ومن شدد أراد لم يكذب فؤاد محمد ما رأت عيناه من الآيات الباهرات فمدّاه . ومن خفف فلأن في العرب من يعدي هذه اللفظة مخففة ، فيقولون صدقني زيد وكذبني خفيفاً ، وصدقني وكذبني ثقيلا وانشد:

وكذبتني وصدقتني والمرؤ ينفعه كذابه (١)

والفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام أن رؤية الشيء في اليقظة إدراكه بالبصر على الحقيقة ، ورؤيته في المنام لصورة في القلب على توهم الادراك بحاسة البصر من غير ان يكون كذلك .

وقوله « افتمارونه » فمن قرأ « افتمرونه » أراد أفتجحدونه . ومن قرأ « أفتمارونه » أراد أفتجادلونه وتخاصمونه مأخوذ من المراء وهو المجادلة ﴿ على ما يرى ﴾ يعني على الشيء الذي يراه .

---

(١) مر في ٨ / ٣٩٠

وقوله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال عبد الله بن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع : رأى محمد ﷺ جبرائيل عليه السلام دفعة أخرى . وروي أنه رآه في صورته التي خلقه الله عليها مرتين . وقوله ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ قيل : هي شجرة النبق وقيل لها : سدرة المنتهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء - في قول ابن مسعود والضحاك - وقيل : لانه ينتهي اليها أرواح الشهداء . وقوله ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ معناه عند سدرة المنتهى جنة المقام وهي جنة الخلد ، وهي في السماء السابعة . وقيل : إنه يجتمع اليها أرواح الشهداء . وقال الحسن : جنة المأوى هي التي يصير اليها أهل الجنة .

وقوله ﴿ إذ يغشي السدرة ما يغشى ﴾ معناه يغشى السدرة من النور والبهاء والحسن والصفاء الذي يروق الابصار ماليس لوصفه منتهى . وقال ابن مسعود ومجاهد - وروي ذلك عن النبي ﷺ أنه غشى السدرة فراش الذهب . وقال الربيع : غشيها من النور نور الملائكة . وقوله ﴿ ما يغشى ﴾ أبلغ لفظ في هذا المعنى والغشيان لباس الشيء مما يعمه ، يقال غشيه يغشاه غشياناً .

وقوله « ما زاغ البصر » اي ما ذهب عن الحق المطلوب ، والزيغ الذهاب عن الحق المطلوب ، يقال : زاغ بصره وقلبه يزيغ زيغاً ، ومنه قوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (١) ومنه قوله « فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » (٢) والزيغ الميل عن الحق « وما طغى » معناه ما طغى البصر أي ما ذهب يميناً وشمالا . وقيل : ما ارتفع كارتفاع الظالم عن الحق لمن يريده ، والطاغي الذي لا يلوي على شيء . والطغيان طلب الارتفاع بظلم العباد : طغى يطغي طغياناً . والطاغي والباغي نظائر . وهم الطغاة والبغاة ، والمعنى ما زاغ بصر محمد وما طغى

(١) سورة ٦١ الصف آية ٥ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧

أي ما جاوز القصد ولا عدل فى رؤية جبرائيل ، وقد ملأ الأفق .

وقوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » قسم من الله تعالى ان النبي ﷺ رأى من آيات الله ودلائله أكبرها جنـة الخلد وهي فى السماء السابعة وقيل : إنه يجتمع فيها أرواح الشهداء وهي الكبرى التي تصغر عندها الآيات فى معنى صفتها . والاكبر هو الذي يصغر مقدار غيره عنده فى معنى صفته . وقيل رأى رفوفا أخضر من رفارف الجنة قد سد الأفق ـ فى قول ابن مسعود ـ .

وقوله ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ اسماء أصنام كانت العرب تعبدها ، والعزى كانت تعبدها غطفان ، وهي شجرة سمرة عظيمة ، واللات صنم كانت ثقيف تعبدها ، ومنات كانت صخرة عظيمة لهذيل وخزاعة كانوا يعبدونها فقيل لهم: أخبرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها وتعبدون معها الملائكة وتزعمون ان الملائكة بنات الله ، فوبخهم الله تعالى فقال ﴿ أفرايتم ﴾ هـذه ﴿ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ والمعنى أخبرونا عن هذه الآلهـة التي تدعونها من دون الله هل لها من هذه الآيات والصفات شيء .

قولـه تعـالى :

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (٢٥) خمس يات بلا خلاف .

قرأ اهل مكة ﴿ ضئزى ﴾ مهموز إلا ابن فليح . الباقون بلا همز .

يقول الله تعالى على وجه الانكار على كفار قريش الذين أضافوا إلى الله تعالى الملائكة بأنهم بنات الله ، فقال لهم : كيف يكون ذلك وانتم لو خيرتم لاخترتم الذكر على الأنثى ، فكيف تضيفون إليه تعالى مالا ترضون لانفسكم ، فقد أخطأتم في ذلك من وجهين : احدهما ـ أنكم أضفتم اليه ما يستحيل عليه ولا يليق به ، فهو قسم فاسد غير جائز . الثاني ـ أنكم اضفتم اليه مالا ترضون لانفسكم ، فكيف ترضونه لله تعالى . وقيل : إنما فضل الذكر على الانثى لان الذكر يصلح لما لا تصلح له الانثى ، وينتفع به في ما لا ينتفع فيه بالانثى ، ولهذا لم يبعث الله نبياً من الأناث .

وقوله ﴿ تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ أي تلك قسمة فاسدة غير جائزة بأن تجعلوا لانفسكم الأفضل ولربكم الأدون ، ولو كان ممن يجوز عليه الولد لما اختار الأدون على الأفضل ، كما قال ﴿ لو أراد الله ان يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ (١) فهذا على تقدير الجواز لا على صحة الجواز . والضيزة الجائرة الفاسدة ووزنه (فعلى) إلا أنه كسر أوله لتصح الياء من قبل انه ليس في كلام العرب (فعلى) صفة ، وصفة (فعلى) نحو (حبلى) يحمل على ماله نظير . وأما الاسم فانه يجيىء على (فعلى) كقوله ﴿ فان الذكرى ﴾ (٢) وتقول العرب ضزته حقه أضيزه وضأزته ـ لغتان ـ إذا أنقصته حقه ومنعته ، ومنهم من يقول : ضزته ـ بضم الضاد ـ أضوزه ، وانشد ابو عبيدة والاخفش :

فان تنأعنا ننتقصك وان تغب فسهمك مضؤز وانفك راغم (٣)

ومنهم من يقول : ضيزى ـ بفتح الضاد ـ ومنهم من يقول ـ ضأزى بالفتح

---

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤ (٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥

(٣) مجاز القرآن ٢ \ ٢٣٧ الشاهد ٨٨٣ والقرطبي ١٧ / ١٠٢

والهمز ، ومنهم من يقول : ضؤزى ـ بضم الضاد والهمزة ـ وقال ابن عباس وقتادة ﴿ قسمه ضيزى ﴾ جائرة . وقال سفيان: منقوصة .

ثم قال ان تسميتكم لهذه الاصنام بأنها آلهة وللملائكة بأنها بنات الله ﴿ ماهي إلا اسماء سميتموها أنتم واباؤكم ﴾ بذلك ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ يعني من حجة ولا برهان إن يتبعون أي ليس يتبعون في ذلك ﴿ إلا الظن ﴾ الذي ليس بعلم ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أي وما تميل اليه نفوسكم ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ عدل عن خطابهم إلى الاخبار عنهم بأنهم قد جاءهم الهدى يعني الدلالة على الحق .

وقوله ﴿ أم للانسان ما تمنى ﴾ قيل معناه : بل لمحمد ﷺ ما تمنى من النبوة والكرامة . وقيل التقدير أللانسان ما تمنى ؟ ! من غير جزاء . لا ، ليس الامر كذلك ، ﴿ فلله الآخرة والاولى ﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء . وقال الجبائي معناه ليس للانسان ما تمنى من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا ، وإنما المالك لذلك الله تعالى المالك للسموات والارض ، لا يعطي الكفار ما يتمنونه ، وإنما يعطي الثواب من يستحقه .

قوله تعالى :

﴿ وَكَم مِنْ مَلَكٍ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلا مِنْ بَعْدِأَنْ يَأْذَنَ ٱللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨)

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا(٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ (٣٠) ۰

خمس آيات كوفي وأربع في ما عداه ، عدّ الشاميون ﴿ فأعرض عن من تولى ﴾ ولم يعده الباقون . وعد الكوفيون ﴿ من الحق شيئاً ﴾ ولم يعده الباقون وعد الكل ﴿ الحياة الدنيا ﴾ إلا الشاميون ، فانهم عدّوا آخر الآية ﴿ اهتدى ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً بان كثيراً من ملائكة السموات ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ أي لاتنفع شفاعتهم في غيرهم باسقاط العقاب عنهم ﴿ شيئاً إلا من بعد أن باذن الله لمن يشاء ﴾ ان يشفعوا فيه ويطلق لهم ذلك ﴿ ويرضى ﴾ ذلك ۰ وقيل : إن الغرض بذلك الانكار على عبدة الاوثان وقولهم : إنها تشفع لأن الملك إذا لم تغن شفاعته شيئاً فشفاعة من دونه أبعد من ذلك . وفي ذلك التحذير من الاتكال على الشفاعة ، لانه إذا لم يغن شفاعة الملائكة كان شفاعة غيرهم أبعد من ذلك ۰ ولا ينافي ما نذهب اليه من أن النبي ﷺ والأئمة والمؤمنين يشفعون في كثير من أصحاب المعاصي ، فيسقط عقابهم لمكان شفاعتهم ، لان هؤلاء - عندنا - لا يشفعون إلا باذن من الله ورضاه ، ومع ذلك يجوز أن لا يشفعوا فيه فالزجر واقع موقعه ۰

ثم أخبر الله تعالى ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي لا يصدقون بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب ﴿ يسمون الملائكة تسمية الانثى ﴾ قال الحسن كانوا يسمون الملائكة بنات الله ۰ ثم قال ﴿ ومالهم به من علم ﴾ أي بما يقولونه ويسمونه ﴿ من علم ﴾ أي ليسوا عالمين بذلك ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أي ليس يتبعون في قولهم ذلك إلا الظن الذي يجوز أن يخطىء ويصيب ، وليس معهم شيء من العلم ۰

وقوله ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ معناه إن الظن لا يغني من العلم لأنه لا بد من علم بحسن الفعل حتى يجوز أن يفعل ، وإن كان الظن في بعض الاشياء علامة للحسن ، فما أغنى عن العلم .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ فاعرض ﴾ يا محمد ﴿ عمن تولى عن ذكرنا ﴾ ولم يقر بتوحيدنا وجحد نبوتك ومال إلى الدنيا ومنافعها ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ والتمتع فيها أي لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم ، ولم ينهه عن تذكيرهم ووعظهم . ثم قال ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ ومعناه إن علمهم انتهى إلى نفع الدنيا دون نفع الآخرة ، وهو صغير حقير في نفع الآخرة ، فطلبوا هذا وتركوا ذلك جهلا به .

ثم قال ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ هو أعلم ﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿ بمن ضل عن سبيله ﴾ أي بمن جار وعدل عن طريق الحق الذي هو سبيله ﴿ وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ اليها فيجازي كل واحد على حسب ذلك إن عملوا طاعة أثابهم عليها وإن عملوا معصية عاقبهم عليها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) أَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ

فَهُوَ يَرَى﴾ (٣٥) خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ كبير الاثم ﴾ على لفظ الواحد . الباقون بلفظ الجمع ﴿ كبائر ﴾ وقد بيناه في سورة ﴿ حم عسق ﴾ .

هذا اخبار من الله بأن له ملك ﴿ ما في السموات ﴾ وملك ﴿ما في الارض﴾ من جميع الاجناس بالحق ﴿ ليجزى الذين اساؤا ﴾ أي يعاقبهم ﴿ بما عملوا ﴾ من المعاصي ﴿ ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى يثيبهم على طاعاتهم بنعيم الجنة والخلود فيها . ثم وصف الذين احسنوا فقال هم ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم ﴾ أى عظائم الذنوب ﴿ والفواحش ﴾ .والمعاصي - عندنا - كلها كبائر غير ان بعضها اكبر من بعض ، فقد تكون المعصية كبيرة بالاضافة إلى مادونها، وقد تكون صغيرة بالاضافة إلى ما هو اكبر منها . والفواحش جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها ، والاساءة مضرة يستحق بها الذم ، ولا يستحق الذم إلا مسيء ، وذم من ليس بمسيء قبيح ، كذم المحسن بالقبيح ، والاحسان فعل ما هو نفع فى نفسه أو هو سبب للنفع ليستحق به الحمـــد ، ولا يستحق الحمد إلا محسن . والكبير من الذنوب هو الذي يعظم به الزجر إلى حد لا يكفره إلا التوبة منه - عند من لم يحسن إسقاط العقاب تفضلا - والصغير هو الذي يخف فيه الزجر إلى حد يصح تكفيره من غير توبة - عند من قال بالصغائر -

وقوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال قوم : هو الهم بالمعصية من جهة مقاربتها في حديث النفس بها من غير مواقعتها ولا عزم عليها ، لان العزم على الكبير كبيرة . ولكن يقرب من مكانها لشهوته لها غير عازم عليها . وقال قوم ﴿ إلا اللمم ﴾ استثناء منقطع ، لأنه ليس من الكبائر ولا الفواحش ، كما قال الشاعر :

وبلدة ليس بهـا أنيس　　　إلا اليعافير وإلا العيس (١)

---

(١) مر في ١ / ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٥ / ٤٩٨ و ٧ / ٥٠١

واليعفور من الظباء الأحمر والاعيس الابيض. وقيل ﴿ اللمم ﴾ مقاربة الشيء من غير دخول فيه ، يقال : ألمّ بالشيء يلم إلماماً إذا قاربه . وقيل ﴿اللمم﴾ الصغير من الذنوب ، كما قال ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ﴾(١) ذهب اليه ابن عباس وابن مسعود . وقيل ﴿ اللمم ﴾ اتيان الشيء من غير اقامة عليه قال الحسن : هو إصابة الفاحشة من غير إقامة للمبادرة بالتوبة .

ثم أخبر عن نفسه تعالى بأنه واسع المغفرة للمذنبين بقوله ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ واسع المغفرة هو اعلم بكم إذ أنشأكم من الارض ﴾ يعني أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض . وقال البلخي : يجوز ان يكون المراد به جميع الخلق ، من حيث خلقهم الله تعالى من الطبائع الاربع على حسب ما أجرى العادة من خلق الاشياء عند ضرب من تركيبها ، وخلق الحيوان عند تناول أغذية مخصوصة خلقها الله من الأرض ، فكأنه تعالى أنشأهم منها .

وقوله ﴿ وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ أي هو أعلم بكم في هذه الأحوال كلها لم يخف عليه من أحوالكم شيء منها .

ثم نهاهم تعالى فقال ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ أي لا تعظموها ولا تمدحوها بما ليس لها ، فاني أعلم بها ﴿ هو اعلم بمن اتقى ﴾ معاصيه وفعل طاعاته والفرق بينه وبين من خالفه . وقال قوم : نهاهم أن يزكوا انفسهم بفعل الواجبات ، وفعل المندوبات ، وترك القبائح لانه اقرب إلى النسك والخشوع . والأجنة جمع جنين . وهو الدفين في الشيء قال الحارث :

ولا شمطاء لم تترك شفاها لها من تسعة إلا جنينا (٢)

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٠ (٢) اللسان (جنن)

أي إلا دفينا فى قبره . ثم قال للنبي ﷺ ﴿ أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا وأكدى ﴾ قال مجاهـد : نزلت فى الوليد ابن المغيرة وكان أعطى قليلا من ماله لمن يتحمل عنه العذاب فى الآخرة . ثم منع ما ضمن له . وقيل : إن ﴿ الذي أعطى قليلا وأكدى ﴾ هو المنافق الذي يعطي قليلا فى المعونة على الجهاد ثم يمنع وقال ابن عباس ومجاهد : معنى ﴿ وأكدى ﴾ قطع العطاء ، كما يقطع البئر الماء واشتقاق (أكدى) من كدية الركية ، وهي صلابة تمنع الماء إذا بلغ الحافر اليها يئس من الماء، فيقول بلغنا كديتها أي صلابتها التي تويئس من الماء ، يقال : أكدى يكدي إكداء إذا منع الخير ، وكديت اظفاره إذاغلظت ، وكديت أصابعه إذا كلت ، فلم تعمل شيئا ، وكدى النبت إذا قل ريعه ، والاصل واحد . وقيل : الكدية صخرة يبلغ اليها حافر البئر فلا يمكنه الحفر .

وقوله ﴿ اعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ إنكار على من ذكره ، وهو الذي تولى واعطى قليلا من ماله ليتحمل عنه خطأه ، فقال ﴿ اعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أي يعلم صدق الذي وعده ليتحمل خطاياه ؟ !

قولـه تعـالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ

وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ (٤٦)احدى عشرة آية بلا خلاف .

لما وبخ الله تعالى الذي أعطى قليلا واكدى، وبين أنه ليس عنده علم الغيب فيصدق من قال إنه يتحمل خطاياه ، بين ان الذى وعده بذلك ﴿ أم لم ينبأ ﴾ أى لم يخبر بما في صحف الانبياء ولم يعلم ذلك فـ (أم) بمعنى (بل) وتقديره بل لم ينبأ بما في صحف موسى والصحف جمع صحيفة والمراد ـ ههنا ـ مكتوب الحكمة ، لانها كتب الله .

وقوله ﴿ وابراهيم ﴾ أى ولا فى صحف ابراهيم ﴿ الذى وفى ﴾ أى وفى بما يجب عليه لله ـ عز وجل ـ واستحق أن يمدح بهذا المدح . وقال مجاهد ﴿ وابراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ وقيل في رسالة ربه في هـذا أو في غيره ـ ذكره سعيد بن جبير وقتادة وابن زيد ـ وهو أليق بالعموم . وقوله ﴿ الذى وفى ﴾ قيل : استحق المدح بذبح ولده وإلقائه فى النار وتكذيبه فى الدعاء إلى الله فوفى ما عليه فى جميع ذلـك . وقوله ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي بين الله تعالى فى صحف ابراهيم وموسى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ومعناه أنه لا يؤاخذ احد بذنب غيره . يقال : وزر يزر إذا كسب وزراً ، وهو الاثم ، فهو وازر .

وقوله ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ معناه ليس له من الجزاء إلا جزاء ما عمل دون ما عمله غيره ، ومتى دعا إلى الايمان من أجاب اليه فهو محمود عليه على طريق التبع كأنه من أجل عمله صار له الحمد على هـذا ، ولو لم يعمل شيئاً ما استحق شيئاً لا ثواباً ولا عقاباً .

وقوله ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ معناه إن ما يفعـله الانسان ويسعى فيه لابد أن يرى فى ما بعد بمعنى أنه يجازى عليه من ثواب او عقاب ، وبين ذلك بقوله

﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي يجازى على اعماله الطاعات بأوفى ما يستحقه من الثواب الدائم ، والهاء في (يجزاه) عائدة على السعي .

وقوله ﴿ وأن الى ربك المنتهى ﴾ معناه وأن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمور . والمنتهى هو المصير إلى وقت بعد الحال الأولى عن حال مثلها ، فالتكليف منتهى ، وليس للجزاء في دار الآخرة منتهى . والمنتهى قطع العمل الى حال أخرى والمنتهى والآخر واحد . وقوله ﴿ وأنه هو اضحك وأبكى ﴾ قيل اضحك بأن فعل سبب ذلك من السرور والحزن ، كما يقال أضحكني فلان وأبكاني اذا كان سبب ذلك بما يقع عنده ضحكي وبكائي ، فعلى هذا الضحك والبكاء من فعل الانسان . وقد قال الله تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً ﴾ (١) ولو لم يكن من فعلنا لما حسن ذلك . وقال تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ (٢) وقال ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ (٣) فنسب الضحك اليهم . وقال الحسن : الله تعالى هو الخالق للضحك والبكاء ، والضحك تفتح اسرار الوجه عن سرور وعجب في القلب ، فاذا هجم على الانسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله الذي أضحك وابكى . والبكاء جريان الدموع على الخد عن غم في القلب ، وإنما يبكي الانسان عن فرح يمازجه تذكر حزن ، فكأنه عن رقة في القلب يغلب عليها الغم .

وقوله ﴿ إنه امات واحيا ﴾ معناه انه تعالى الذي يخلق الموت فيميت به الأحياء لا يقدر على الموت غيره ، لأنه لو قدر على الموت غيره لقدر على الحياة ، لأن القادر على الشيء قادر على ضده ، ولا احد يقدر على الحياة إلا الله .

---

(١) سورة ٩ التوبة آيه ٨٣　　(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٦٠

(٣) سورة ٨٣ المطففين آية ٣٤

وقوله ﴿ وأحيا ﴾ أي هو الذي يقدر على الحياة التي يحيي بها الحيوان لا يقدر عليها غيره من جميع المحدثات .

ثم بين ايضاً ﴿ أنه ﴾ الذي ﴿ خلق الزوجين الذكر ﴾ منهما ﴿ والانثى من نطفة ﴾ أي خلق الذكر والانثى من النطفة ، وهي ماء الرجل والمرأة التي يخلق منها الولد ﴿ إذا تمنى ﴾ يعني إذا خرج المني منهما وجعل في الرحم خلق الله تعالى منها الولد إما ذكراً واما انثى ، ومعنى تمنى أي تلقى على تقدير في رحم الانثى ، واصله التقدير يقولون : منى يمني فهو مان إذا قدر قال الشاعر :

حتى تقلاقي ما يمني لك الماني (١)

أي يقدر ومنه التمني تقدير المعنى للاستمتاع به .

قولـه تعـالى :

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ (٥٥) تسع آيات بلا خلاف .

قرأ اهل البصرة غير سهل ﴿ عاد الولى ﴾ مدغمة بلا همز ، وعن نافع خلاف فانه ادغم وترك الهمزة إلا قالون ، فانه همز ، الباقون بالهمز والاظهار . من أدغم القى حركة الهمزة على اللام ، فانضمت ثم سكنها وحذف همزة الوصل ، ولقيتها

(١) مر في ١ | ٣١٩ وهو في القرطبي ١٧ | ١١٨

النون فأدغمت في اللام ، ونظير ذلك قول العرب : قم الان عنا ، يريدون قم الآن عنا . وقولهم : صم الثنين أى صم الاثنين . الباقون تركوه على حاله . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ وثمود ﴾ بلا تنوين . الباقون بتنوين . قال الفراء : وقوله ﴿ وآتينا ثمود الناقة ﴾ (١) ترك صرفها لأنه ليس فيها الف .

لما بين الله تعالى انه هو الذى يخلق الذكر والانثى من النطفة إذا تمنى ذكر ﴿ وان عليه النشأة الاخرى ﴾ وهي البعثة يوم القيامة . والنشأة الصنعة المخترعة خلاف المسببة ، وهما نشأتان : الأولى في الدنيا ، والثانية في الآخرة .

ثم قال « وانه هو اغنى واقنى » ومعناه أغنى بالمال واقنى باصول الأموال . وقال مجاهد : اقنى أي اخدم . وقال الزجاج : ومعناه اغنى بعد الفقر واقنى بالمال الذى يقتنى . وقيل: معنى (اقنى) انه جعل له اصل مال ، وهو القنية التي جعلها الله للعبد ، فاما (اغنى) فقد يكون بالعافية والقوة والمعرفة قال الاعشى :

فاقنيت قوماً واعمرتهم واخربت من ارض قوم ديارا (٢)

اى جعل لهم قنية . واصل (اقنى) الاقتناء ، وهو جعل الشيء للنفس على اللزوم ، فمنه القناة ، لانها مما يقتنى . ومن ذلك اقنى الانف ، لانه كالقناة في ارتفاع وسطه ودقة طريقه . والقنو العذق قبل ان يبلغ لأنه كالذى يقتنى في اللزوم حتى يبلغ ، والمقاناة المشاكلة في اللون .

وقوله ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ معناه وان الله الذى خلق الشعرى واخترعها . والشعرى النجم الذى خلف الجوزاء وهو احد كوكبي ذراع الاسد وقم المرزم ، وكانوا يعبدونهما في الجاهلية - في قول مجاهد وقتادة - ثم قال « وانه اهلك عاداً الاولى » قيل هو عاد بن ارم ، وهم الذين اهلكهم الله بريح صرصر عاتية . وعاد

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩ (٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٢ وروايته (فأقللت)

الآخرة أهلكوا ببغي بعضهم على بعض ، فتفانوا بالقتل ـ ذكره ابن اسحاق ـ وقال الحسن: الأولى أي قبلكم ، وإنما فتحت (أن) في المواضع كلها ، لانها عطف على قوله « أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى » وبكذا وكذا ، فلما حذف الباء نصبه . وقوله « وثمود فما ابقى » نصب بـ (اهلك) الذي قبله ، وتقديره وأهلك ثموداً فما ابقى ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله « فما أبقى » لان (ما) لا يعمل ما بعدها في ما قبلها ، لاتقول: زيداً ما ضربت ، لأنها من الحروف التي لها صدر الكلام ، كألف الأستفهام .

وقوله « وقوم نوح من قبل » معناه وأهلكنا قوم نوح من قبل قوم صالح « إنهم كانوا هم اظلم وأطغى » فالأظلم الأعظم ظلماً ، والأطغى الاعظم طغياناً ، فالظلم يتعاظم كما يتعاظم الضرر ، وعظم الظلم بحسب عظم الزاجر عنه . وقيل : مكث نوح في قومه يدعوهم إلى الله وكلما دعاهم فما يزدادون إلا تتابعاً في الضلال وتواصياً بالتكذيب لأمر الله ـ في قول قتادة ـ

وقوله « والمؤتفكة » يعني المنقلبة ، وهي التي صار اعلاها أسفلها ، واسفلها اعلاها ائتفكت بهم تؤتفك ائتفاكاً ، ومنه الافك الكذب، لأنه قلب المعنى عن وجهه . ومعنى « اهوى » نزل بها في الهوى ، ومنه الهوى : أهوى بيده ليأخذ كذا ، وهوى هواء إذا نزل في الهواء ، فأما إذا نزل في سلم أو درجة ، فلا يقال : أهوى ، ولا هوى . وقيل : قرية سدوم : قوم لوط ، رفعها جبرائيل إلى السماء ثم اهوى بها قالباً لها ـ في قول مجاهد وقتادة ـ وقوله « فغشاها ما غشى » يعني من الحجارة المسومة التي رموا بها من السماء ـ في قول قتادة وابن زيد ـ والمعنى فجللها من العذاب ما يعمها حتى أتى عليها (ما غشى) وفيه تفخيم شأن العذاب الذي رماها به ونالها من جهة إبهامه في قوله « ما غشى » كأنه قد جل الأمر عن أن يحتاج

إلى تفصيل وصفه .

وقوله « فبأي آلاء ربك تمارى » معناه بأي نعم ربك ترتاب يا بن آدم ! - ذكره قتادة - وإنما قيل بعد تعديد النعم « فبأي آلاء ربك تمارى » لأن النقم التي عددت على من ذكر نعم من الله علينا لما لنا في ذلك من اللطف في الانزجار عن القبيح مع أنه نالهم ما نالهم بكفرهم النعم فبأي نعم ربك أيها المخاطب تمارى حتى تكون مقارناً لهم في سلوك بعض مسالكهم، أي فما بقيت لك شبهة بعد تلك الأهوال في جحد نعمه .

قوله تعالى :

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢) سبع آيات بلا خلاف .

قوله « هذا نذير » إشارة إلى رسول الله ﷺ - في قول قتادة - وقال ابو مالك : هو إشارة إلى القرآن « من النذر الاولى » في صحف إبراهيم وموسى.

يقول الله تعالى « هذا » يعني محمداً « نذير » أي مبين لما ينبغي أن يحاذر منه وما ينبغي ان يرغب فيه بأحسن البيان ، وهذه صفة رسل الله عليهم السلام . والنبي أحسن الناس انذاراً وأكرمهم إبلاغاً لما امر الله بتبليغه إلى أمته . وقوله « من النذر الأولى » من جملة الرسل الذين بعثهم الله ، وإن كان هو آخرهم ، كما تقول : هو من بني آدم ، وإن كان أحدهم .

وقوله « ازفت الآزفة » معناه دنت القيامة ، وهي الدانية . قال النابغة الذبياني

ازف الترحل غير ان ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد (١)

وقال كعب بن زهير :

بان الشباب وامسى الشيب قد أزفا ولا ارى لشباب ذاهب خلفا(٢)

وإنما سميت القيامة آزفة ، وهي الدانية ، لان كل آت قريب ، فالقيامة قد قربت بالاضافة إلى ما مضى من المدة من لدن خلق الله الدنيا . وقوله « ليس لها من دون الله كاشفة » معناه لا يقدر أن يقيمها إلا الله وحده ، وليس يجلي عنها ويكشف عنها سواه . وقيل كاشفة أي جامعة كاشفة أي نفس كاشفة ، ويجوز ان يكون مصدراً مثل العافية والعاقبة والواقية ، فيكون المعنى ليس لها من دون الله كشف أي ذهاب أي لا يقدر أحد غير الله على ردها . وقال الحسن : هو مثل قوله « لا يجليها لوقتها إلا هو » (٣) وقيل : كاشفة بمعنى الانكشاف كقوله « ليس لوقعتها كاذبة » (٤) ومثله « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » (٥) أي خيانة . والسامد اللاهي ، يقال دع عنك سمودك أي امرك ، وكأنه المستمر في اللهو ، يقال : سمد يسمد سموداً فهو سامد ، وقال الشاعر :

قيل قم فانظر اليهم ثم دع عنك السمودا (٦)

ويقال للجارية : اسمدي لنا أي غني . وقوله « فاسجدوا لله واعبدوا » أمر من الله تعالى بالسجود له والصلاة وان يعبدوه خاصاً مخلصاً لا يشركون به احداً في العبادة ، فتعالى الله عن ذلك . وفي الآية دلالة على ان السجود ـ ههنا ـ فرض على ما يذهب اليه اصحابنا لان الأمر يقتضي الوجوب .

(١) القرطبي ١٧ | ١٢٢ والطبري ٢٧ | ٤٣ (٢) تفسير الطبري ٢٧ | ٤٣
(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ (٤) سورة ٥٦ الواقعة آية ٢
(٥) سورة ٥ المائدة آية ١٤ (٦) اللسان (سمد)

٥٤ ـ سورة القمر

مكية بلا خلاف . وهي خمس وخمسون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ ابو جعفر « وكل امر مستقر » بالجر صفة لـ (أمر) . الباقون بالرفع على انه خبر (كل) .

هذا اخبار من الله تعالى بدنو الساعة وقرب أوانها ، فقوله « اقتربت » أي دنت وقربت وفي (اقتربت) مبالغة ، كما أن في (اقتدر) مبالغة على القدرة ، لأن اصل (افتعل) طلب اعداد المعنى بالمبالغة نحو (اشتوى) إذا أتخذ شوى في المبالغة في اتخاذه ، وكذلك (اتخذ) من (اخذ) . والساعة القيامة . وقال الطبري : تقديره اقتربت الساعة التي يكون فيها القيامة . وجعل الله تعالى من علامات دنوها انشقاق القمر المذكور معها ، وفي الآية تقديم وتأخير ، وتقديره انشق القمر واقتربت

الساعة . ومن أنكر إنشقاق القمر وأنه كان ، وحمل الآية على كونه في ما بعد ـ كالحسن البصري وغيره ، واختارة البلخي ـ فقد ترك ظاهر القرآن ، لأن قوله « انشق » يفيد الماضي ، وحمله على الاستقبال مجاز . وقد روى إنشقاق القمر عبدالله بن مسعود وانس ابن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ومجاهد وإبراهيم ، وقد أجمع المسلمون عليه ولا يعتد بخلاف من خالف فيه لشذوذه . لان القول به أشتهر بين الصحابه فلم ينكره أحد ، فدل على صحته ، وأنهم اجمعوا عليه فخلاف من خالف فى ما بعد لا يلتفف اليه . ومن طعن فى إنشقاق القمر بأنه لو كان لم يخف على أهل الافطار فقد أبعد لانه يجوز ان يحجبه الله عنهم بغيم ، ولأنه كان ليلاً فيجوز ان يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا به ، لأنه لم يستمر ازمان طويل بل رجع فالتأم فى الحال ، فالمعجزة تمت بذلك .

وقوله « وإن يروا آية » احتمل ان يكون اخباراً من الله تعالى عن عناد كفار قريش بأنهم متى رأوامعجزة باهرة وحجة واضحة أعرضوا عن تأملها والانقياد لصحتها عناداً وحسداً ، وقالوا هو « سحر مستمر » أي يشبه بعضه بعضاً . وقيل « سحر مستمر » من الأرض إلى السماء . وقال مجاهد وقتادة معناه ذاهب مضمحل وقال قوم : معناه شديد من أمرار الحبل ، وهو شدة فتله .

وقوله « وكذبوا » يعني بالآية التي شاهدوها ولم يعترفوا بصحتها ولا تصديق من ظهرت على يده « واتبعوا » فى ذلك « أهواءهم » يعني ما تميل طباعهم اليه ، فالهوى رقة القلب بميل الطباع كرقة هواء الجو ، تقول : هوى يهوي هواً ، فهو هاو إذا مال طبعه إلى الشيء ، وهو هوى النفس مقصور ، فأما هواء الجو فممدود ويجمع على أهوية . وهوى يهوي إذا انحدر في الهواء ، والمصدر الهوى . والاسم الهاوي .

وقوله « وكل أمر مستقر » معناه كل أمر من خير او شر مستقر ثابت حتى يجازى به إما الجنة او النار ـ ذكره قتادة ـ ثم قال « ولقد جاءهم » يعني هؤلاء الكفار « من الانباء » يعني الاخبار العظيمة بكفر من تقدم من الامم وإهلاكنا إياهم التي يتعظ بها « ما فيه مزدجر » يعني متعظ ، وهو مفتعل من الزجر إلا ان التاء ابدلت دالا لتوافق الراء بالجهر مع الدال لتعديل الحروف فيتلاءم ولا يتنافر .

وقوله « حكمة بالغة » معناه نهاية فى الصواب ، وغاية في الزجر بهؤلاء الكفار وقوله « فما تغنى النذر » يجوز فى (ما) وجهان :

احدهما ـ الجحد ، ويكون التقدير : لا يغني التخويف .

والثاني ـ ان تكون بمعنى (أي) وتقديره أى شيء يغني الانذار . والنذر جمع نذير . وقال الجبائي : معناه إن الانبياء الذين بعثوا اليهم لا يغنون عنهم شيئاً من عذاب الآخرة الذى استحقوه بكفرهم ، لانهم خالفوهم ولم يقبلوا منهم .

قوله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ « خشعاً » على الجمع أهل العراق إلا عاصما . الباقون « خاشعا » على وزن (فاعل) ونصبوه على الحال . ومن قرأ « خاشعاً » بلفظ الواحد ، فلتقدم

الفعل على الفاعل . وقرأ ابن كثير وحده (نكر) بسكون الكاف . الباقون بالتثقيل وهما لغتان . وقال ابو علي النحوي : النكر أحد الحروف التي جاءت على (فعل ، وفعل) وهو صفة . وعلى ذلك حمله سيبويه وأستشهد بالآية • ومثله ناقة أحدو،شية سجح • ومن خفف جعله مثل رسل رسل وكتب وكتب ، والضمة فى تقدير الثبات•

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنه ليس ينفع فى وعظهم وزجرهم الحكمة البالغة ، ولا يغني النذر أمر النبي بالاعراض عنهم وترك مقابلتهم على سفههم • فقال « فتولى عنهم » أي اعرض عنهم« يوم يدع الداعي إلى شيء نكر »قيل فى معناه أقوال:

احدها ـ قال الحسن فتولى عنهم إلى يوم يدعو الداعي •

والثاني ـ فتول عنهم وأذكر يوم يدع الداعي إلى شيء نكر ، يعني لم يروا مثله قط فينكرونه استعظاماً له •

الثالث ـ ان المعنى فتول عنهم ، فانهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدعو الداعي وهو يوم القيامة ، لحذف الفاء من جواب الأمر • والداعي هو الذي يطلب من غيره فعلا • ونقيضه الصارف ، وهو الطالب من غيره أن لا يفعل بمنزلة الناطق بأن لا يفعل ، تقول : دعا يدعو دعاء فهو داع وذاك مدعو • والنكر : هو الذي تأباه من جهة نفور الطبع ، وهو صفة على وزن فعل ، ونظيره رجل جنب وارض جرز ، وهو من الانكار نقيض الاقرار ، لان النفس لا تقر بقبوله ، وإنما وصف بأنه نكر لغلظه على النفس ، وإنهم لم يروا مثله شدة وهؤلاء كأنهم ينكرونه لما قبح في عقولهم •

وقوله « خاشعا أبصارهم » فمعنى الخاشع الخاضع ، خشع يخشع خشوعاً ، فهو خاشع ، والجمع خشع ، ويخشع الرجل إذا نسك ، وخاشعاً حال مقدمة • والعامل فيها (يخرجون) وقيل « خاشعاً أبصارهم » لتقدم الصفة على الاسم ، كما قال الشاعر:

وشباب حسن أوجههم من اياد بن نزار بن معد (١)

وقال آخر :

ترى الفجاج بها الركبان معترضا أعناق أبزلها مرخى لها الجدل (٢)

والجديل هو الزمام ، ولم يقل مرخيات ولا معترضات « يخرجون من الاجداث » يعني من القبور واجدها جدث وحدف أيضاً لغة ، والالحد جانب القبر وأصله الميل عن الاستواء « كأنهم جراد منتشر » أي من جراد منتشر من كثرتهم

وقوله « مهطعين إلى الداعي » قال الفراء وابو عبيدة : مسرعين . وقال قتادة : معناه عامدين بالاهطاع والاهطاع الاسراع في المشي ، يقال : اهطع يهطع إهطاعاً ، فهو مهطع ، فهؤلاء الكفار يهطعون إلى الداعي بالالجاء والاكراه والاذلال ووصفت الابصار بالخشوع ، لان ذلة الذليل وعزة العزيز تتبين في نظره « يقول الكافرون هذا يوم عسر » حكاية ما يقوله الكفار يوم القيامة بأنه يوم عسر شديد عليهم

ثم قال مثل ما كذبك يا محمد هؤلاء الكفار وجحدوا نبوتك « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا » يعني نوحاً عليه السلام « وقالوا مجنون » أي هو مجنون قد غطي على عقله فزال بآفة تعتريه « وازدجر » قال ابن زيد : معناه زجر بالشتم والرمي بالقبيح . وقال غيره : ازدجر بالوعيد ، لانهم توعدوه بالقتل في قوله « لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » (٣) « فدعا » عند ذلك « ربه » فقال يا رب « اني مغلوب » قد غلبني هؤلاء الكفار بالقهر لا بالحجة « فانتصر » منهم بالاهلاك والدمار نصرة لدينك ونبيك . وقال مجاهد : معنى (ازدجر) استطار واستفز جنوناً ،

---

(١) تفسير القرطبي ١٧ | ١٢٩ والطبري ٢٧ / ٤٨ (٢) الطبري ٢٧ \ ٤٨

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٦

قولــه تعــالى :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١٦)

ست آيات .

قرأ ابن عامر « ففتحنا » بالتشديد أي مرة بعد مرة وشيئاً بعد شيء ، لانه كثر ودام لما فار التنور وانهمرت الارض والسماء بالماء . الباقون بالتخفيف لانه يأتي على القليل والكثير ، وفي الكلام حذف ، وتقديره ان نوحاً عليه السلام لما دعا ربه فقال إني مغلوب فانتصر يا رب وأهلكهم فأجاب الله دعاءه وفتح أبواب السماء بالماء ، ومعناه أجرى الماء من السماء ، فجريانه إنما فتح عنه باب كان مانعاً له ، وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه . وجاء ذلك على طريق البلاغة . والماء المنهمر هو المنصب الكثير قال امرؤ القيس :

راح تمر به الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر(١)

أي منصب مندفق ، انهمر ينهمر إنهماراً ، وفلان ينهمر في كلامه ، كأنه يتدفق فيه مع كثرته .

وقوله « وفجرنا الارض عيوناً » فالتفجير تشقيق الارض عن الماء ، ومنه انفجر العرق وأنفجر السكر ، ومنه قوله « وفجرنا خلالهما نهراً » (٢) وعيون الماء

(١) الطبري ٢٧ \ ٤٩ و القرطبي ١٧ \ ١٣٢ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

واحدها عين ، وهو ماء يفور من الأرض مستدير كاستدارة عين الحيوان ، والعين مشتركة بين عين الحيوان وعين الماء وعين الميزان وعين الذهب وعين السحابة وعين الركبة «فالتقى الماء على أمر قد قدر» معناه إن المياه كانت تجري من السماء ومن الأرض على ما أمر الله به وأراده وقدره . وإنما قال « فالتقى الماء » والمراد به ماء السماء وماء الارض ، ولم يثن ، لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير « على أمر قد قدّر » فيه هلاك القوم في اللوح المحفوظ . وقيل : معناه إنه كان قدر ماء السماء مثل ما قدر ماء الارض .

ثم قال تعالى « وحملناه » يعني نوحاً « على ذات ألواح ودسر » يعني السفينة ذات ألواح مركبة بعضها إلى بعض ، والدسر هي المسامير التي تشد بها السفينة - في قول ابن عباس وقتادة وابن زيد - واحدها دسار ودسير ، ودسرت السفينة ادسرها دسيراً إذا شددتها بالمسامير او نحوها . وقيل : الدسر صدر السفينة تدسر به الماء أي تدفع - عن الحسن - وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . وقال الزجاج : الدسر المسامير والشرط التي تشد بها الألواح .

وقوله « تجري باعيننا » معناه تجري السفينة بمرأى منا ، ونحن ندركها . وقيل: أعين الماء التي أنبعناها . وقيل : تجري بأعين أوليائنا والموكلين بها من الملائكة .

وقوله « جزاء لمن كان كفر » أي كفر به وهو نوح أي لكفرهم به ، كأنه قال غرقناهم لاجل كفرهم بنوح . وقيل : جزاء لنوح واصحابه أي نجيناه ومن آمن معه لما صنع به ، وكفر فيه بالله .

وقوله « ولقد تركناها آية » يعني السفينة تركناها دلالة باهرة « فهل من مدكر » بها ومتعظ بسببها فيعلم أن الذي قدر على ذلك لا يكون من قبيل الاجسام وانه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء . وقال قتادة : أبقى الله تعالى سفينة نوح حتى

ادركها أوائل هذه الأمة ، فكان ذلك آية (ومدكر) أصله متذكر ، فقلبت التاء دالا لتواخي الدال بالجهر . ثم أدغمت الدال فيها . وقيل : وجه كونها آية انها كانت تجري بين ما الارض وماء السماء ، وكان قدغطاها على ماء أمره الله تعالى به . وقوله « فهل من مدكر » قد بينا معناه . وقال قتادة : معناه فهل من طالب علم فيعان عليه .

وقوله « فكيف كان عذابي ونذر » تهديد للكفار وتنبيه لهم على عظم ما فعله بأمثالهم من الكفار الجاحدين لتوحيده . وإنما كرر « فكيف كان عذابي ونذر » لأنه لما ذكر أنواع الانذار والعذاب انعقد التذكير لشيء شيء منه على التفصيل ، والنذر جمع نذير ـ في قول الحسن ـ قال : وتكذيب بعضهم تكذيب لجميعهم . وقال الفراء : هو مصدر ، ومنه « عذراً او نذراً » (١) مخففة ومثقلة و « إلى شيء نكر » ويقال : أنذره نذراً بمعنى إنذاراً مثل أنزله نزلا بمعنى إنزالا .

قوله تعالى :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧) كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨) إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابي ونذر ﴾ (٢١) خمس آيات .

أقسم الله تعالى بأنه يسر القرآن للذكر ، والتيسير للشيء هو تسهيله، وأخذه بما ليس فيه كثير مشقة على النفس ، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بالحظ الجزيل

(١) سورة ٧٧ المراسلات آية ٦

منه ، لان التيسير أكبر داع اليه ، وتسهيل القرآن للذكر خفة ذلك على النفس لحسن البيان وظهور البرهان فى الحكم السنية والمعاني الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من الله تعالى ، وإنما صار الذكر من اجل ما يدعى اليه ويحث عليه ، لأنه طريق العلم ، لأن الساهي عن الشيء او عن دليله لايجوز أن يعلمه فى حال سهوة، فاذا تذكر الدلائل عليه والطريق المؤدية اليه فقد تعرض لعلمه من الوجه الذي ينبغي له .

وقوله « فهل من مدكر » معناه فهل من متعظ معتبر بذلك ناظر فيه .

ثم قال ﴿ كذبت عاد ﴾ يعني بالرسول الذي بعثه اليهم ، وهو هود عليه السلام فاستحقوا الهلاك فاهلكهم الله ﴿ فكيف كان عذابي ﴾ لهم و ﴿ نذر ﴾ أي وإنذاري إياهم . ثم بين كيفية إهلاكهم فقال ﴿ إنا ارسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي الشديدة الهبوب حتى يسمع في صوتها صرير ، وهو مضاعف صر مثل كب وكبكب ونه ونهنهه ، وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : كانت ريحاً باردة . وقال ابن زيد وسفيان : كانت شديدة .

وقوله ﴿ في يوم نحس ﴾ يعني يوم شؤم - في قول قتادة - ﴿ مستمر ﴾ أى استمر بهم العذاب إلى نار جهنم - في قول قتادة - وقوله ﴿ تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر ﴾ معناه تقتلع هذه الريح الناس ثم ترمي بهم على رؤسهم فتدق رقابهم فيصيرون كأنهم أعجاز نخل ، لان رؤسهم سقطت عن أبدانهم - في قول مجاهد - وقيل : استمرت بهم الريح سبع ليال وثمانية أيام حتى اتت عليهم شيئاً بعد شيء . وقيل ﴿ تنزع الناس ﴾ من حفر حفروها ليمتنعوا بها من الريح . وقال الحسن : فيه اضمار تقديره تنزع أرواح الناس ، واعجاز النخل أسافله . والنخل يذكر ويؤنث ، والمنقعر المنقلع من أصله ، لان قعر الشيء قراره المستقل منه ، فلهذا قيل للمنقطع من أصله : منقعر ، يقال : انعقر إنعقاراً ، وقعره تقعيراً ، وتقعر - في

كلامه ـ تقعراً إذا تعمق. ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ تعظيم للعذاب النازل بهم. والانذار في الآية هو الذي تقدم اليهم به. وفائدة الآية التحذير من مثل سببه لئلا يقع بالمحذر مثل موجبه.

قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (٣٠) تسع آيات.

قرأ « ستعلمون » بالتاء اهل الشام وحمزة، على الخطاب، الباقون بالياء على الغيبة، اللام في قوله ﴿ولقد﴾ جواب القسم فالله تعالى أقسم بأنه يسر القرآن للذكر، وقد بينا معناه. وقيل: الوجوه التي يسر الله بها القرآن هو أنه ابان عن الحكم الذي يعمل عليه، والمواعظ التي يرتدع بها، والمعاني التي يحتاج إلى التنبيه عليها والحجج التي تميز بها الحق من الباطل. وإنما أعيد ذكر التيسير لينبيء عن انه يسر بهذا الوجه من الوجوه كما يسر بالوجه الأول. وقد يسر بحسن التأليف للحفظ كما يسر بحسن البيان عما يخاف للوعظ. وقال الزجاج: إن كتب الأنبياء كانوا يقرؤنها نظراً ولم يحفظونها، والقرآن سهل الله تعالى عليهم حفظه فيحفظه الخلق الكثير، والتيسير

التمكين التام لأنه قد يمكن العمل بمشقة وبغير شقة ، فالذي تنتفي عنه المشقة للتمكين التام هو المسهل . وفائدة الآية تبيين ما ينبغي أن يطلب العلم من جهته . وإنما كرر لأنه حث على ذلك بعد حث ، وأنه ميسر بضروب التيسير .

وقوله ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ إخبار من الله تعالى أن ثمود ، وهم قوم صالح كذبت بالانذار . ومن قال : النذر جمع نذير قال لأن تكذيب واحد من الرسل في إخلاص توحيد الله كتكذيب جميعهم ، لانهم متفقون في ذلك وإن اختلفت شرائعهم. وفائدة الآية التحذير من مثل حالهم .

ثم حكى ما قالته ثمود فانهم ﴿ قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ والمعنى أنتبع بشراً منا واحداً انتبعه ؟ ! ودخلت عليهم الشبهة ، فظنوا أن الانبياء ينبغي أن يكونوا جماعة ، لان الاشياء ذووا نظائر تجري على حكم واحد ، وتركوا النظر في أنه يجوز ان يصلح واحد من الخلق لتحمل النبوة وإن لم يصلح له غيره ، فصار بمنزلة مدع لا دليل معه على صحة دعواه عندهم . وفائدة الآية تبيان شبهتهم الخسيسة الضعيفة وانهم حملوا أنفسهم على تكذيب الرسل لاجلها . وجوابهم أن يقال لهم : لأنه لا يصلح له سواه من جهة معرفته بربه وقيامه باداء رسالته وسلامة ظاهره وباطنه.

وقوله ﴿ إنا إذاً لفي ضلال ﴾ معناه إن اتبعناه مع انه واحد منا إنا إذا لفي ضلال عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ أي وعناء - في قول قتادة - والسعر جمع سعير كأنهم في ضلال وعذاب كعذاب السعير. وقال قوم : معناه وسعر جنون . واصله التهاب الشيء وهو شدة انتشاره ، يقال : ناقة مسعورة إذا كان لها جنون . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المراد وعذاب ، ويجوز جنون .

وقوله ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ استفهام من قوم صالح على وجه الانكار والجحود والتعجب ، ومعنى ﴿ أألقي الذكر ﴾ يعني الوحي ﴿ من بيننا ﴾ لما رأوا

أستواء حال الناس فى الظاهر لم يكن بعضهم أحق عندهم بانزال الوحي عليه من بعض . وقد وصفوا أنفسهم أن حاله مساوية لأحوالهم فجاء من هـذا ألا يكون أحق بالوحي الذي ينزل عليه منهم ، واغفلوا أن الله اعلم بمصالح عباده ومن يصلح للقيام برسالته ممن لا يصلح .

ثم حكى ما قالوه فى صالح ، فانهم قالوا ﴿ بل هو كذاب ﴾ فى دعواه أنه نبي أوحى الله اليه ﴿ أشر ﴾ أي بطر ، فالأشر البطر الذي لا يبالي ما قال . وقيل :هو المرح الطالب للفخر وعظم الشأن ، يقال : أشر يأشر أشراً كقولك: بطر يبطر بطراً وأشر واشر مثل حذر وحذر ، وعجل وعجل وفطن وفطن ونحس ونحس . فقال: الله تعالى على وجه التهديد لهم ﴿ ستعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وقرأ ابو قلابة (الكذاب الأشرّ) وهذا ضعيف ، لأنهم يقولون : هذا خير من ذا وشر من ذا ، ولا يقال : أشرّ ، ولا أخير إلا فى لغة ردية . ومن قرأ ﴿ ستعلمون ﴾ بالتاء على وجه الخطاب اليهم أي قل لهم ، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم . ومن قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب وهي قراءة الباقين ، لأن الكذاب الأشر يوم القيامة يعاقبه الله بعذاب النار ، فيعلم حينئـذ أي الفريقين هم . وقرب الله تعالى القيامة كقرب غد من اليوم . والفرق بين قوله ﴿ ستعلمون غداً من الكذاب ﴾ وبين قوله لو قال (ستعلمون غداً الكذاب الأشر) أن الأول يفيد فريقين التبس الكذب بكل واحد منهما فيأتي العلم منزلا لذلك الالتباس وليس كذلك الثاني .

ثم بين تعالى أنه ارسل الناقة وبعثها بأن أنشأها معجز لصالح ، لانه أخرجها من الجبل الأصم يتبعها ولدها . وقوله ﴿ فتنة لهم ﴾ نصب (فتنة) على انه مفعول له . ومعنى ذلك إبتلاءلهم ومحنة ، لأنه تعالى نهاهم ان ينالوها بسوء مع تضيق الشرب

عليهم بأن لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر . والشرب ـ بكسر الشين ـ الحظ من الماء ـ وبضم الشين ـ فعل الشارب .

ثم حكى تعالى ماقال لصالح فانه تعالى قال له ﴿ واصطبر ﴾ أي أصبر على أذاهم ﴿ ونبئهم ﴾ أي اخبرهم ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ يوم للناقة ويوم لهم ﴿ كل شرب محتضر ﴾ أي كل قسم يحضره من هو له . وقيل المعنى نبئهم أيّ يوم لهم وأيّ يوم لها إلا أنه غلب من يعقل ، فقال نبئهم . وقيل : كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة ويشربونه وإذا حضرت أحضروا اللبن وتركوا الماء لها ـ ذكره مجاهد ـ وقيل : كانت الناقة تحضر شربها وتغيب وقت شربهم . وكل فريق يحضر وقت شربه .

وقوله ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ يعني الذي وافقوه على عقر الناقة ، وهو أحمر ثمود ، والعرب تغلط فتقول : أحمر عاد . ويريدون بذلك ضرب المثل في الشؤم ، وإنما هو أحمر ثمود ـ ذكره الزجاج ـ وقال قوم : اسمه قدار بن سالف .

وقوله ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ قال ابن عباس تعاطى تناول الناقة بيده فعقرها ، وقال معناه تعاطى عقرها فعقرها فأهلكهم الله تعالى عقوبة على ذلك ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ

أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٤٠) عشر آيات .

لما اخبر الله تعالى عن قوم صالح أنهم عقروا الناقة وأنه تعالى أهلكهم بين كيف أهلكهم فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ وهي المرة من الصوت بشدة عظيمة هلكوا كلهم بها ، يقال : صاح يصيح صياحاً وصايحة ومصايحة وصيح به تصييحا . وإنها صيحة تخلع القلوب وتهدم الأبدان لعظمها وقوله ﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي صاروا كالهشيم ، وهو المنقطع بالتكسير والترضيض ، هشم أنفه يهشمه إذا كسره ومنه الهاشمة وهي شجة مخصوصة . والهشم ـ ههنا ـ يبس الشجر المتفتت الذي يجمعه صاحب الحظيرة و (المحتظر) المبتني حظيرة على بستانه أو غيره ، تقول احتظر احتظاراً ، وهو من الحظر ، وهو المنع من الفعل بحايط أو غيره ، وقد يكون الحظر بالنهي . وقرأ بفتح الظاء وهو المكان الذي يحتظر فيه الهشيم . وقيل : هشيم المحتظر قال الضحاك : هو الحظيرة تتخذ للغنم ييبس فتصير رميماً . وقيل : الهشيم حشيش يابس متفتت يجمعه المحتظر لمواشيه . وقيل : الهشيم اليبس من الشجر أجمع الذي يفتت . وقوله ﴿ ولقد يسرنا القرآن الذكر فهل من مدكر ﴾ قد فسرناه وقال قتادة : فهل من طالب علم يتعلم ؟ وفيها دلالة على بطلان قول المجبرة ، لأنه ذكر انه يسر القرآن ليتذكر العباد به ، ولو كان الأمر على ما يقولون لكان ليتذكر القليل منهم دون سائرهم .

وقوله ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ اخبار منه تعالى أن قوم لوط كذبوا الرسل بالانذار على ما فسرناه . وفائدة ذكر التحذير على ما بيناه من فعل مثله لئلا ينزل بهم مثل ما نزل باولئك ، وفي الكلام حذف وتقديره فأهلكناهم . ثم بين كيف أهلكهم فقال ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ والحاصب الحجارة التي يرمى بها القوم ، حصبوا بها إذا رموا ، ومنه الحصباء الارض ذات الحصى ، لانه يحصب بها وقيل: الحاصب سحاب رماهم بالحجارة وحصبهم بها قال الفرزدق :

مستقبلين رياح الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور (١)

ثم استثنى آل لوط ، وتقديره إنا أرسلنا عليهم حاصباً أهلكناهم به ﴿ إلا آل لوط ﴾ فانا ﴿ نجيناهم ﴾ وخلصناهم من العذاب ﴿ بسحر ﴾ أي بليل لا سحراً بعينه ، لان سحراً إذا اردت به سحر يومك لم تصرفه ، وإذا أردت به سحراً من الاسحار صرفته .

وقوله ﴿ نعمة من عندنا ﴾ قال الزجاج نصبه على انه مفعول له ، ويجوز ان يكون على المصدر ، وتقديره أنعمنا بها عليهم نعمة . ثم قال ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ أي مثل ما فعلنا بهم نفعل بمن يشكر الله على نعمه ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم للمنعم ، ونقيضه كفر النعمة ، ومثله الحمد على النعمة .

ثم اخبر تعالى عن لوط بأنه أنذر قومه بطشة الله وهي الأخذ بالعذاب بشدة فكذلك أخذ الله ـ عزوجل ـ آل لوط باشد العذاب بالائتفاك ورمي الاحجار من السماء .

وقوله ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ أي تدافعوا على وجه الجدال بالباطل ، يقال : تمارى القوم تمارياً وماراه مماراة ومراء ، ومراه يمريه مرياً إذا أستخرج ما عنده من العلم بالمري .

---

(١) مر في ٦ \ ٥٠٢ و ٨ \ ٢٠٩

وقوله ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ إخبار منه تعالى بأن قوم لوط حاولوا ضيفه وراودوهم على الفساد ، فالمراودة المحـاولة ، فكأن قوم لوط طالبوه بأن يخلي بينهم وبين ضيفه لما يرونه من الفاحشة . والضيف المنضم إلى غيره على طلب القِرى ، إذ كانوا أتوا لوطاً على هذه الصفة إلى ان تبين أمرهم وانهم ملائكة الله أرسلهم لاهلاكهم

وقوله ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فالطمس محو الاثر بما يبطل معه إدراكه ، طمس يطمس طمساً وطمس الكتاب تطميساً وطمست الريح الاثار إذا دفنتها بما تسفي عليها من التراب ، قال كعب بن زهير :

من كل نضاخـة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الاعلام مجهول(١)

وقال الحسن وقتادة : عميت أبصارهم . وقال الضحاك : إنهم دخلوا البيت على لوط ، فلما لم يروهم سألوا عنهم وإنصرفوا .

وقوله ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ معناه قالت لهم الملائكة ذوقوا عذاب الله ونذره أي وما خوفكم به من عذابه .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم ﴾ يعني قوم لوط ﴿ بكرة ﴾ نصبه على الظرف فاذا أردت بكرة يومك لم تصرفه . وإذا أردت بكرة من البكرات صرفته . ومثله غدوة وغدواة . وقوله ﴿ عذاب مستقر ﴾ أي استقر بهم حتى هلكوا جميعاً . وقوله ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ قيل : قالت لهم الملائكة ذلك . وقال قوم : القائل هو الله تعالى قال لهم فى تلك الحال يعني عند طمس أعينهم . والائتفاك بهم ورميهم بالحجارة ﴿ ذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن الذكر فهل من مدكر ﴾ وقد فسرناه وبينا الوجه فيه .

---

(١) مر في ٢ | ٢٢٦ و ٣ | ٢١٦

قولـه تعـالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٤٦) ست آيات .

قرأ روح وزيد ﴿ سنهزم ﴾ بالنون على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه الباقون بالياء على ما لم يسم فاعله .

اخبر الله تعالى عن آل فرعون انه جاءهم النذر . ويحتمل ان يكون جمع نذير ، وهو الرسول المخوف . ويحتمل ان يكون المراد به الانذار على ما بيناه ومعناه إنه جاءهم التخويف من معاصي الله والوعيد عليها .

ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ يعني حججنا وبراهيننا ﴿ كلها ﴾ وآل فرعون خاصته الذين كانوا ينضافون اليه بالقرابة . والموافقة في المذهب ، ويقال : آل القرآن آل الله ، لأنهم بمنزلة الآل في الخاصة والاضافة . والانذار الاعلام بموقع المخافة ليتقى . والنذر والانذار مثل النكر والانكار . وهو جمع نذير وهم الرسل . والداعي إلى تكذيب الرسل الشبهة الداخلة على العقلاء والتقليد والعادة السيئة وغير ذلك .

ثم اخبر تعالى انه اخذهم بالعذاب والاهلاك ﴿ أخذ عزيز مقتدر ﴾ وهو القاهر الذي لا يقهر ولا ينال ، مقتدر على جميع ما يريده لكثرة مقدوراته .

ثم قال ﴿ أكفاركم ﴾ يعني قريش وأهل مكة ﴿ خير من اولئكم ﴾ الكفار، والمعنى إنهم ليسوا بخير من كفار قوم نوح وعاد وثمود . وقوله ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ معناه ألكم براءة في الكتب المنزلة من عذاب الله .

وقوله ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ قال الزجاج : معناه أيقولون ذلك إدلالا بقوتهم . ويحتمل أن يكون أرادوا نحن جميع أي يد واحدة على قتاله وخصومته ﴿ منتصر ﴾ أي ندفعه عنا وينصر بعضنا بعضاً فقال الله تعالى مكذباً لظنونهم ﴿ سيهزم الجمع ﴾ معناه إن جميعهم سيهزمون ﴿ ويولون الدبر ﴾ ولا يثبتون لقتالك ، وكان كذلك فكان موافقته لما أخبر به معجزاً له لانه إخبار بالغيب قبل كونه ، وانهزم المشركون يوم بدر وقتلوا وسبوا على ما هو معروف .

ثم قال ﴿ بل الساعة ﴾ يعني القيامة ﴿ موعدهم ﴾ للجزاء لهم بأنواع العقاب والنيران وقوله ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ فالأدهى الأعظم في الدهاء . والدهاء عظم سبب الضرر مع شدة انزعاج النفس وهو من الداهية وجمعه دواه ، والداهية البلية التي ليس في إزالتها حيلة ، والمراد مايجري عليهم من القتل والاسر عاجلا لا يخلصهم من عذاب الآخرة بل عذاب الآخرة أدهى وأمر . والأمر الاشد في المرارة ، وهي ضرب من الطعم به يكون الشيء مراً . ويحتمل الأمر الاشد في استمرار البلاء ، لان الاصل التمرر . وقيل مرارة لشدة مرورها وطلبها الخروج بحدة . وقيل : الأمر الاشد مرارة من القتل والاسر .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

بِقَدَرٍ(٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٥٥) تسع آيات بلاخلاف.

هذا إخبار من الله تعالى بأن المجرمين الذين أرتكبوا معاصي الله وتركوا طاعاته في ضلال وسعر، ومعناه في ضلال عن الحق وعدول عنه ﴿وفي سعر﴾ يعني في عذاب النار تسعرهم ومعناه إنهم يصيرون اليه، وإنما جمع بين الضلال والسعر، لأنه لازم لهم ومنعقد بحالهم وإن كان الضلال بعصيانهم والسعر بالعقاب على الضلال، وكأنهم قد حصلوا فيه بحصولهم في سببه الذي يستحق به. وقيل معنى في ضلال يعني في ذهاب عن طريق الجنة والآخرة في نار مسعرة.

وقوله ﴿يوم يسحبون﴾ أي يوم يجرون في النار على وجوههم ﴿ذوقوا مسّ سقر﴾ أي يقال لهم مع ذلك ذوقوا مس سقر، وهو كقولهم وجدت مس الحمى وكيف ذقت طعم الضرب. وقيل: إن سقر جهنم وقيل: هو باب من ابوابها، ولم يصرف للتعريف والتأنيث. ولما وصف العقاب قال ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي العقاب على مقدار الاستحقاق الذي تقتضيه الحكمة وكذلك غيره في كل خصلة. وفي نصب (كل) ثلاثة أوجه:

أحدها - على تقدير إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر.

الثاني - انه جاء على زيداً ضربته.

الثالث - على البدل الذي يشتمل عليه، كأنه قال ﴿إن كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي هو مقدر في اللوح المحفوظ. وقوله ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح

بالبصر ﴾ فاللمح خطف البصر ، والمعنى وما أمرنا إذا أردنا ان يكون شيئاً إلا مرة واحدة إنما نقول له كن فيكون أي هذه منزلته في سرعته وإنطياعه .

ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش وغيرهم «ولقد أهلكنا أشياعكم» يعني اتباع مذهبكم في كفرهم بعبادة الأوثان تتابعوا قرناً بعد قرن في الاهلاك بعذاب الاستئصال . والشيعة أتباع القائد إلى أمر . وقيل : المعنى ولقد أهلكنا اشياعكم ممن هو منكم كما أخبر النبي ﷺ فهي لكل أمة فهل من متعظ . وقال الحسن : هو على الامم السالفة «فهل من مدكر» معناه فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار عن مثل ما سلف من أعمال الكفار لئلا يقع به ما وقع بهم من الاهلاك .

وقوله ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ يعني في الكتب التي كتبتها الحفظة . وقال ابن زيد في الكتاب . وقال الضحاك في الكتب وقوله ﴿ وكل صغير ، وكبير مستطر ﴾ قال ابن عباس معناه إن جميع ذلك مكتوب مسطور في الكتاب المحفوظ ، لانه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل ، وبه قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد .

ثم قال تعالى ﴿ إن المتقين ﴾ يعني الذين اتقوا معاصيه وفعلوا واجباته ﴿ في جنات ﴾ يعني بساتين تجنها الأشجار ﴿ ونهر ﴾ أي انهار ، فوضع نهراً في موضع أنهار ، لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والنهر المجرى الواسع من مجاري الماء ، وهو خلاف الجدول ، لانه المجرى الصغير الشديد الجرى من مجاري الماء ﴿ في مقعد صدق ﴾ معناه في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أي بالمكان الذي كرمه لأوليائه المليك المقتدر . وقيل : في مقعد صدق عند المليك المقتدر بما هو عليه من صدق دوام النعيم به . وقال الفراء : معنى ﴿ في جنات ونهر ﴾ أي في ضياء وسعة ، ويقال : أنهر دمه إذا سال وانهر بطنه إذا جاء بطنه مثل جرى النهر .

٥٥ ـ سورة الرحمن

قال قوم : هي مكية . وقال آخرون هي مدنية : وهي ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي وسبع وسبعون عند الحجازيين وست وسبعون فى البصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٣) .

ثلاث عشرة آية كوفى وشامي ، وإثنتا عشرة آية بصري وإحدى عشرة آية فى ما عداه ، عد الكوفى والشامي ﴿ الرحمن ﴾ ولم يعده الباقون ، وعدوا ﴿خلق الانسان ﴾ إلا أهل المدينة فانهم عدوا ﴿ البيان ﴾ آخر الآية . وقرأ ﴿ الحب ذا العصف﴾ بالنصب شامي ﴿ والريحان ﴾ خفض كوفى غير عاصم ، وعدّ الكوفيون

﴿الرحمن﴾ آية مع أنه ليس بجملة ، لأنه في تقدير الله الرحمن حتى تصح الفاصلة وهو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله ﴿ سورة أنزلناها ﴾(١) أي هذه أنزلناها ، و معنى (الرحمن) هو الذي وسعت رحمته كل شيء ، فلذلك لا يجوز أن يوصف به إلا الله تعالى ، فأما (راحم ورحيم) فيجوز ان يوصف به العباد .

وقوله ﴿ علم القرآن ﴾ فالتعليم تبين ما به يصير من لم يعلم عالماً . والاعلام إيجاد ما به يصير عالماً ، وفى قوله ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ تذكير بالنعمة فى ما علم من الحكم بالقرآن التي يحتاج اليها الناس فى دينهم ليؤدوا ما يجب عليهم وينالوا الفضل بطاعة ربهم و يستوجبوا به الثواب وينالوا الرضوان .

وقوله ﴿ خلق الانسان ﴾ معناه إنه الذي اخترع الانسان وأخرجه من العدم إلى الوجود ، وقيل :المراد بالانسان ـ ههنا ـ آدم عليه السلام . وقيل :محمد صلى الله عليه وآله . وقيل:جميع الناس وهو الظاهر وهو الأعم في الجميع . وقوله ﴿ علمه البيان ﴾ أى خلق فيه التمييز الذي بان به من سائر الحيوان . وقيل : معناه علمه الكلام الذى يبين به عن مراده ويتميز به عن سائر الحيوان ، فالبيان هو الأدلة الموصلة إلى العلم . وقيل : البيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره كتميز معنى رجل من معنى فرس ، ومعنى قادر من معنى عاجز ، ومعنى عام من معنى خاص ، ومعنى شيء من معنى هذا بعينه ، وفيه تنبيه على أنه تعالى خلق الانسان غير عالم ، ثم علمه البيان ، خلافاً لقول من يقول من الجهال : إن الانسان لم يزل عالماً بالاشياء ، وإنما يحتاج فيه إلى تذكير ، فكيف يكون عالماً من لم يخلق بعد لولا الغباوة وقلة التحصيل .

وقوله ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ أي يجريان بحسبان فاضمر يجريان وحذفه لدلالة الكلام عليه ، فيكون إرتفاع الشمس بالفعل المقدر . وقال قوم : إرتفعا بتقديرهما بحسبان أي بحساب ، والمعنى علمه البيان أن الشمس والقمر بحسبان

(١) سورة ٢٤ النور آية ١

وقيل : المعنى أن أمرهما يجري في الادوار على مقـدار من الحساب على ما وضعه حكيم عليم بتدبير صحيح ، قد كان يمكن وضعهما على خلافه غير انه اختار ذلك لاستغناء العباد بها في وجوه المنافع وما في ذلك من المصالح . وقال ابن عباس وقتادة وابن زيد : بحسبان ، ومنازل يجريان فيها ولا يعدوانها . وقيل : إن القمر يقطع بروج السماء في ثمانية وعشرين يوماً ، والشمس تقطع ذلك في ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وشيء . وقوله ﴿ بحسبان ﴾ خبر الشمس والقمر على قول من رفعهما بالابتداء (وحسبان) مصدر حسبته أحسبه حسباناً نحو السكران والكفران . وقيل : هو جمع حساب كشهاب وشهبان .

وقوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ فالنجم من النبات ما طلع ، يقال : نجم ينجم إذا طلع ، ونجم القرن والنبات إذا طلعا ، وبه سمي نجم السماء ، وهو الكوكب لطلوعه . والنجم ـ ههنا ـ النبت الطالع من الارض ، وهو النبات الذي ليس له ساق ـ في قول ابن عباس وسعيد وسفيان ـ وقال مجاهد : هو نجم السماء ، وبه قال قتادة ، والأول أقوى لمصاحبة الشجر . والشجر عند أهل اللغة النبات الذي له ساق وورق وأغصان يبقى ساقه على دور الحول من الزمان وأكثره مما له ثمار تجني على ما دبرها صانعها من الاتيان بها في أبانها .

وقوله ﴿ يسجدان ﴾ إخبار من الله تعالى بانهما يسجدان ، وسجودهما هو ما فيهما من الآية الدالة على حدوثهما وعلى وجوب الخضوع لله تعالى والتذلل له لما خلق فيهـا من الاقوات المختلفة في النبات للناس وغيرهم من الحيوان والاستمتاع بأصناف الثمار والفواكه والرياض اللذيذة ، فلا شيء أدعى إلى الخضوع والعبادة لمن أنعم بهذه النعمة الجليلة مما فيه مثل الذي ذكرنا في النجم والشجر . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : سجودهما ظلالهما الذي يلقيانه بكرة وعشياً ، فكل جسم له ظل

فهو يقتضي الخضوع بما فيه من دليل الحدوث الذي لا يقدر عليه إلا قادر لا يعجزه شيء .

وقوله ﴿ والسماء رفعها ﴾ أي رفع السماء رفعها فوق الأرض للاعتبار بها والتفكر فيها ، وأنه لا يقدر على رفعها غير القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء ولا يماثله موجود .

وقوله « ووضع الميزان » فالميزان آلة التعديل في النقصان و الرجحان ، والوزن يعدل في ذلك ، ولو لا الميزان لتعذر الوصول إلى كثير من الحقوق ، فلذلك نبه على النعمة فيه والهداية اليه .

وقوله « إلا تطغوا في الميزان » نهي كأنه قال أي لا تطغوا ، لأن (أن) تكون بمعنى أي ويجوز ان تكون علة ، وتقديره ووضع الميزان لأن لا تطغوا ، وإنما أعاد ذكر الميزان من غير أضمار لئلا يكون الثاني مضمناً بالأول ، وليكون قائماً بنفسه في النهي عنه إذا قيل ألا تطغوا في الميزان . وقيل : لأنه نزل في وقتين . والأول أحسن . وقيل : المراد بالميزان العدل لان المعادلة موازنة الاسباب ، والطغيان الافراط في مجاوزة الحد في العدل . وقيل : لا تطغوا فيه لان مالا يضبط في الوزن موضوع عنهم . وقال الزجاج : تقديره فعلت ذلك لئلا تطغوا . ويحتمل ان يكون نهياً مفرداً . ويجوز أن يكون بمعنى (أي) مفسرة

وقوله « واقيموا الوزن بالقسط » أمر من الله تعالى أن يقيموا الوزن إذا أرادوا الاخذ أو الاعطاء « بالقسط » أي بالعدل « ولا تخسروا الميزان » بمعنى لا تنقصوه . والخسران نقصان أصل المال ، وهو ذهاب ما كان من رأس المال : خسر يخسر خسراً وخسراناً ، وخسره تخسيراً ، فهو خاسر ومخسر . قال الزجاج : قولهم :

أخسرت الميزان وخسرت ، فعلى خسرت « لا تَخسر » بفتح التاء ، وقد قرأ به بعض المتقدمين شاذاً لا يؤخذ به ٠

وقوله« والارض وضعها للانام » ليستقروا عليها ٠ وقال ابن عباس : الانام كل شيء فيه روح ٠ وقال الحسن : الانام الانس والجن ٠ وقال قتادة : الانام الخلق ٠ ويجوز أن يكون الانام من ونم الذباب إذا صوت من نفسه ، ويسمى كل ما يصوت من نفسه أناماً ٠ وقلبت الواو من ونام همزة كقولهم : أناة من (وناة)٠

ثم بين وجه المنافع للخلق فوضع الارض « فيها فاكهة » وهي أنواع الثمار التي تؤخذ من الشجر فيها أنواع الملاذ وفنون الامتاع ، فسبحان الذي خلقه لعباده وأجرى فيه ضروب الطعوم بلطفه ، وكله يسقى بماء واحد في ارض واحدة من شجرة يابسة تنقلب إلى حال الغضاضة والنضرة ، ثم تحمل الثمرة الكريمة ، وكل ذلك بعين المعتبر وعلم المفكر ٠

وقوله « والنخل ذات الاكمام » اسم جنس يقع على القليل والكثير وواحده نخلة ، وهو يذكر ويؤنث ، والاكمام جمع (كم) وهو وعاء ثمر النخل ، تكمم في وعائه إذا اشتمل عليه ٠ وقيل : الأكمام ليف النخلة التي تكمم فيه - في قول الحسن وقتادة - وقال ابن زيد : الأكمام الطلع الذي فيه ثمر النخلة ٠ وقال الزجاج : كم القميص من هذا ، لانه يغطي اليد ٠

وقوله « والحب ذو العصف والريحان » قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : العصف التبن ٠ لان الرياح تعصفه أي تطيره بشدة هبوبها ومنه الريح العاصف ، قال علقمة بن عبدة :

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أتي الماء مطموم (١)

---

(١) ديوانه ١١١ واللسان (عصف) ومجاز القرآن ٢ /٢٤٢

وهو دقاق الزرع إذا يبس عصفته الريح . وقيل : العصف التبن . ويقال : له العصيفة . والحب حب الحنطة والشعير ونحوهما ، والريحان الرزق ـ في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك ـ وقال الحسن وابن زيد : الريحان هو الذي يشم . وفي رواية أخرى عن ابن عباس والضحاك : إن الريحان الحب . والعرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله أى رزقه ويقال : سبحانك وريحانك أى رزقك ، قال النمر بن تولب

سماء الاله وريحانه　　　وجنته وسماء درد (١)

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « والريحان » جراً على تقدير ، وذو الريحان . الباقون بالرفع عطفاً على (الحب) وقرأ ابن عامر وحـــده « والحب ذا العصف والريحان » بالنصب فيها كلها على تقـدير ، وخلق الحب ذا العصف وخلق الريحان الباقون بالرفع على تقدير فيها الحب ذو العصف وفيها الريحان .

وقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قال ابن عباس والحسن وقتادة : معناه فبأى نعمة من نعمه يامعشر الجن والانس تكذبان ؟ ! وريحان أصله ريحان ، فخفف . وتلخيصه ريوحان على وزن فيعلان ، فلما التقت الواو والياء والثاني ساكن قلبوا الواو ياء وأدغموا ثم خففوا كراهية التشديد كما قالوا : هين لين .

قولــه تعــالى :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٤٣ واللسان (روح)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٢١) ثمان آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى إنه « خلق الانسان » وأنشأه ويعني به آدم عليه السلام « من صلصال » وهو الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة - في قول قتادة - « كالفخار » أي مثل الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفاً « وخلق الجان من مارج من نار » فالمارج هو المختلط الأجزاء ، قال الحسن أبليس ابو الجن ، وهو مخلوق من لهب النار ، كما أن آدم ابو البشر مخلوق من طين . وصف الله تعالى الانسان الذي هو آدم ابو البشر انه خلقه من صلصال . وفي موضع آخر « من طين لازب » (١) وفي موضع آخر « من حمأ مسنون » (٢) وفى موضع آخر « خلقه من تراب » (٣) وإختلاف هذه الألفاظ لاتناقض فيها ، لانها ترجع إلى أصل واحد وهو التراب ، فجعله طيناً . ثم صار كالحمأ المسنون . ثم يبس فصار صلصالا كالفخار .

وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » معناه فبأى نعم ربكما يا معشر الجن والانس تكذبان ؟ ! وإنما كررت هذه الآية ، لانه تقرير بالنعمة عند ذكرها على التفصيل نعمة نعمة ، كأنه قيل بأى هذه الآلاء تكذبان . ثم ذكرت آلاء أخر فاقتضت من التذكير والتقرير بها ما اقتضت الأولى ليتأمل كل واحد فى نفسها وفى ما تقتضيه صفتها من حقيقتها التي تنفصل بها من غيرها .

وقوله « رب المشرقين ورب المغربين » تقديره هو رب المشرقين ، فهو خبر ابتداء ، ولو قرىء بالخفض رداً على قوله « فبأى آلاء ربكما » لكان جائزاً غير انه

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١١ (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٢٦، ٢٨، ٣٣

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

لم يقرأ به أحد . والمعنى انه الخالق لمشرق الشتاء ومشرق الصيف ، وهو عند غاية طول النهار فى الصيف وغاية قصره فى الشتاء « ورب المغربين » مثل ذلك - وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد - والمشرق موضع شروق الشمس ، وهو طلوعها تقول : شرقت الشمس تشرق شروقاً إذا طلعت واشرقت إذا أضاءت وصفت . والمغرب موضع غروب الشمس . والغروب مصيرها فى حد الغروب وهو المغيب ، غربت تغرب غروباً ، ومنه الغريب وهو الصابر فى حد الغائب عن النفس وأصله الحد ومنه الغروب مجاري الدموع لزوالها من حدها إلى الحد الآخر . وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أي فبأي نعمة ربكما معاشر الجن والانس تكذبان . وقد بينا الوجه فى تكراره . وواحد الآلاء ألى على وزن (معًا) و (ألا) على وزن (قفا) عن أبي عبيدة .

وقوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » معنى مرج أرسل - فى قول ابن عباس. وقال الحسن وقتادة و (البحران) بحر فارس والروم . وقال ابن عباس فى رواية أخرى هما بحر السماء وبحر الارض « يلتقيان » فى كل عام . وقيل البحران الملح والعذب . وقيل : مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتها « لا يبغيان » أي لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يقلبه إلى مثل حاله فى الملوحة والعذوبة . ومرج معناه أرسل باذهاب الشيئين فصاعداً في الأرض ، فمرج البحرين أرسلهما بالاجراء فى الارض يلتقيان ، ولا يختلطان ، ذلك تقدير العزيز العليم . والبرزخ الحاجز بين الشيئين ، ومنه البرزخ الحاجز بين الدنيا والآخرة . وقال قتادة : البرزخ الحاجز أن يبغي الملح على العذب أو العذب على الملح . وقال مجاهد : معناه لا يبغيان لا يختلطان ومعناه لا يبغيان على الناس . والنعمة بتسخير الشمس أنها تجري دائبة بمنافع الخلق فى الدنيا والدين ، فبأي آلاء

ربكما تكذبان معاشر الجن والانس .

قوله تعالى :

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٣٠) تسع آيات بلاخلاف .

قرأ « المنشئآت » بالكسر حمزة ، ويحيى وقرأ « يخرج » بفتح الياء أهل الكوفة ، وابن كثير وابن عامر أسندوا الفعل إلى اللؤلؤ والمرجان . الباقون ، على ما لم يسم فاعله . وإنما أجازوا اسناد الفعل إلى الجوار واللؤلؤ والمرجان ، كما قالوا مات زيد ومرض عمرو وما أشبه ذلك في ما يضاف الفعل اليه إذا وجد منه . وإن كان في الحقيقة لغيره ، وكان المعنى المنشئات السير فحذف المفعول وأضاف السير اليه إتساعاً ، لان سيرها إنما يكون بهبوب الريح . وقال الزجاج : من فتح الشين أراد المرفوعات الشرع ، وبالكسر الحاملات الرافعات الشرع .

لما ذكر الله تعالى النعمة على الخلق بمرج البحرين اللذين يلتقيان ، وإنهما مع ذلك لا يبغيان ، بين أيضاً ما فيهما من النعمة ، فقال يخرج منهما يعني من البحرين اللؤلؤ والمرجان . فاللؤلؤ معروف ، ويقع على الصغار والكبار . والمرجان ضرب من الجوهر كالقضبان يخرج من البحر . وقال ابن عباس : اللؤلؤ كبار الدر والمرجان

صغاره . وبه قال الحسن وقتادة والضحاك ، وسمي المرجان بذلك لأنه حب من الجوهر كبير مختلط من مرجت أي خلطت . وإنما جاز أن يقول يخرج منهما ، وهو يخرج من الملح دون العذب ، لان العذب والملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، كما يقال يخرج الولد من الذكر والانثى ، وإنما تلده الانثى . وقال قوم : لا يخرج اللؤلؤ إلا من الموضع الذي يلتقي فيه العذب والملح ، وذلك معروف عند الغواصين . وقال الزجاج : لانه إذا أخرجه من أحدهما فقد أخرجه من الآخر ، لأنه داخل فيهما وقال ابن عباس : إذا جاء القطر من السماء تفتحت الاصداف فكان من ذلك القطر اللؤلؤ . وقال قوم : المعنى من جهتهما ولا يجب إنه من كل واحد منهما ، والأول وجه التأويل .

وقوله « وله الجوار المنشآت » والجوار جمع جارية وهي السفينة لانها تجري في الماء بأمر الله تعالى . والجارية المرأة الشابة ، لأنه يجري فيها ماء الشباب ، والمنشآت المبتدآت للسير برفع القلاع . وقال مجاهد : ما رفع له القلاع ، فهو منشأ وما لم يرفع قلاعه فليس بمنشأ ، فجعل الانشاء برفع القلاع . والاعلام الجبال واحدها علم سمي بذلك لارتفاعه كارتفاع الاعلام المعروفة . وقال جرير :

إذا قطعن علماً بعد علم | حتى تناهين بنا إلى حكم (١)

وقيل كالاعلام في العظم . وقوله « كل من عليها فان » إخبار من الله تعالى أن جميع من على وجه الارض من العقلاء يفنون ويخرجون من الوجود إلى العدم . وإذا ثبت ذلك وكانت الجواهر لاتفنى إلا بفناء يضادها على الوجود ، فاذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلها ، لانها إختصاص له بجوهر دون جوهر ، فالآية دالة على عدم جميع الاجسام على ما قلناه ، لأنه إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٤٤ والقرطبي ١٧ / ١٦٤

عدم غيرهم ، لانه لا يفرق من الأمة أحد بين الموضعين .

وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » معناه ويبقى ربك الظاهر بأدلته كظهور الانسان بوجهه فالوجه يذكر على وجهين :

احدهما ـ بعض الشيء كوجه الانسان .

الثاني ـ بمعنى الشيء المعظم في الذكر كقولهم : هذا وجه الرأى ، وهذا وجه التدبير أي هو التدبير ، وهو الرأي . والاكرام والاعظام بالاحسان ، فالله تعالى يستحق الاعظام بالاحسان الذي هو في أعلى مراتب الاحسان . ومعنى ذو الجلال ذو العظمة بالاحسان .

وقوله « يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن » معناه يسأل الله تعالى من في السموات والارض من العقلاء حوائجهم ، ويضرعون اليه . ثم قال « كل يوم هو في شان » فالشان معنى له عظم ، وكذلك قال كل يوم هو في شان ، ويقال : لا يشغله شأن عن شأن . والمعنى إن كل يوم الله تعالى في شأن من احياء قوم وإماتة آخرين ، وعافية قوم ومرض غيرهم ، ونجاة واهلاك ورزق وحرمان وغير ذلك من الامور والنعمة . وقوله « كل من عليها فان » فى التسوية بين الخلق في الفناء « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد فسرناه .

قوله تعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ

وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (٣٦) .

سبع آيات حجازى وست في ما عداه ، عد الحجازيون « من نار » ولم يعده الباقون .

قرأ « شواظ » ـ بكسر الشين ـ أهل مكة . الباقون بضمها ، وهما لغتان مثل صوار وصوار . وقرأ « نحاس » بالجر أهل مكة والبصرة ، غير يعقوب عطفاً على (نار) . الباقون بالرفع عطفاً على « شواظ » وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « سيفرغ » على تقدير سيفرغ الله لكم . الباقون ـ بالنون ـ على وجه الاخبار من الله عن نفسه يعني قوله « سنفرغ لكم » من أبلغ الوعيد وأعظم التهديد . وقيل في معناه قولان :

أحدها ـ سنفرغ لكم من الوعيد وينقضي ويأتيكم المتوعد به فشبه ذلك بمن فرغ من شيء وأخذ في غيره .

الثاني ـ إنا نستعمل عمل من يتفرغ للعمل لتجويده من غير تضجيع فيه كما يقول : القائل : سأتفرغ لك . والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء ، لانه من صفات الاجسام ، وهو من أبلغ الوعيد لأنه يقتضي أن يجازى بصغير ذنبه وكبيره إذا كان مستحقاً لسخط الله . والفراغ انتفاع القاطع عنه من القادر عليه . والشغل والفراغ من صفات الاجسام التي تحلها الأعراض ، وشغلها عن الاضداد في تلك الحال ولذلك وجب ان يكون في صفة القديم تعالى مجازاً .

وقوله « أيها الثقلان » خطاب للجن والانس ، وإنما سميا ثقلين لعظم شأنهما بالاضافة إلى ما في الارض من غيرهما ، فهما أثقل وزناً لعظم الشأن بالعقل والتمكين

والتكليف لاداء الواجب في الحقوق ، ومنه قول النبي ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترني) يريد عظيمي المقدار ، فلذلك وصفهما بأنهما ثقلان .

وقوله « إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض » قال الضحاك : ان استطعتم أن تنفذوها ربين من العذاب يقال : لهم ذلك يوم القيامة . وقال قوم : معناه إن استطعتم أن تنفذوها ربين من الموت فاهربوا فانه حيث كنتم أدركم الموت . وقال ابن عباس: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والارض فاعلموا أنه لا يمكنكم ذلك .

وقوله « لا تنفذون إلا بسلطان » معناه إلا بحجة وبيان . وقيل معناه : إلا بملك وقهر ، وليس لكم ذلك . وقال الزجاج : المعنى « فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » أي حيثما كنتم شاهدين . ثم حجة الله وسلطانه الذي يدل على توحيده وواحد الاقطار قطر وهي الاطراف - في قول سفيان - فانفذوا في صورة الأمر والمراد به التحدي . ثم قال « لا تنفذون إلا بسلطان » وهو القوة التي يتسلط بها على الأمر « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وقد فسرناه . وفائدة الآية أن عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء كعجزهم عن النفوذ من الاقطار ، وفي ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه ، فلينظر امرء ما يختار لنفسه مما يجازى به .

وقوله « يرسل عليكما شواظ من نار » فالشواظ لهب النار - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - ومنه قول رؤبة :

إن لهم من وقعنا أيقاظاً ونار حرب تسعر الشواظا (١)

والنحاس الصفر المذاب للعذاب - فى قول ابن عباس ومجاهد وسفيان وقتادة - وفي رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد : النحاس الدخان قال النابغة الجعدي :

(١) اللسان (شوظ) ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٤ والطبري ٢٧ / ٢٣

يضيء كضوء سراج السليـ　　　ـط لم يجعل الله فيها نحاساً (١)

أي دخانا . والسليط دهن السمسم . وقال قوم : هو دهن السنام . وقال الفراء : هو دهن الزيت .

وقوله « فلا تنتصران » أي لا تقدران على دفع ذلك عنكما . ووجه النعمة في إرسال الشواظ من النار والنحاس على الثقلين هو ما لهم في ذلك من الزجر في دار التكليف عن مواقعة القبيح ، وذلك نعمة جزيلة ، فلذلك قال « فبأي آلاء ربكما » معاشر الجن والانس « تكذبان » .

قوله تعالى :

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٥) .

ثمان آيات بصرى وتسع في ما عداه ، عدّ الكل « يكذب بها المجرمين » ولم يعده البصريون .

يقول الله تعالى « فاذا انشقت السماء » ومعناه إن ينفك بعضها عن بعض ، فالسماء تنشق يومئذ وتصير حمراء كالوردة . ثم تجرى كالدهان قال الفراء : الوردة

(١) ديوانه ٧٥ ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٥

الفرس الوردة . وقال الزجاج : يتلون كما يتلون الدهان المختلفة أى فكان كلون فرس ورده ، وهو الكميت فيتلون في الشتاء لونه بخلاف لونه في الصيف ، وكذلك في الفصول فسبحان خالقها والمصرّف لها كما يشاء . والوردة واحدة الورد ، وإنما تصير السماء كالوردة في الاحمرار ثم تجري كالدهان ، وهو جمع دهن كقولك قرط وقراط عند انقضاء الأمر وتناهي المدة . وقال الحسن : هي كالدهان أى كالدهن الذى يصب بعضه على بعض بألوان مختلفة . وقيل : تمور كالدهن صافية . وقال قتادة: لونها حينئذ الحمرة كالدهان في صفاء الدهن وإشراقه . وقال قوم : إن السماء تذوب يوم القيامة من حرّ نار جهنم فتصير حمراء ذائبة كالدهن . قال الجبائي : وروي أن السماء الدنيا من حديد وليس في الآية ما يدل ما قاله . لاحتمال ذلك ما قاله المفسرون . والأقوال التي ذكرناها . وقال الفراء : الدهان الأديم الأحمر ووجه النعمة في إنشقاق السماء حتى وقع التقرير بها فى قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » هو ما فى الاخبار به من الزجر والتخويف بانشقاق السماء فوقع فى السبب ولا يصلح فى المسبب أن يكون منفعة ، ولكن لسبب النفع الذى هو الزجر فى دار الدنيا ، فلذلك وقع التقرير بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وقوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان » معناه لا يسأل فى ذلك الموطن لما يلحقه من الدهش والذهول الذى تحار له العقول ، وإن وقعت المسألة فى وقت غيره بدلالة قوله « وقفوهم إنهم مسؤلون » (١) وقال قتادة : يكون المسائلة قبل ثم يختم على الافواه عند الجحد فتنطق الجوارح . وقيل : معناه إن يومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان ليعرف المذنب من المؤمن المخلص ، لان الله تعالى قد جعل عليهم علامة كسواد الوجوه وقبح الخلق ولم يدخل فى ذلك سؤال المحاسبة للتوبيخ

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٤

والتقريع ، لأنه تعالى قال « وقفوهم إنهم مسؤلون » وتقدير الاية فيومئذ لا يسأل أنس عن ذنبه ولا جان عن ذنبه . وقيل : يجوز أن يكون المراد أنه لا يسأل احد من انس ولا جان عن ذنب غيره ، وإنما يسأل هو سؤال توبيخ عن فعل نفسه .

وقوله « يعرف المجرمون بسيماهم » معناه إن الله تعالى جعل للكفار والعصاة علامات تعرفهم بها الملائكة والسيماء العلامة . ومنه قوله « سيماهم فى وجوههم من اثر السجود » (١) وهو مشتق من السوم وهو رفع الثمن عن مقـداره ، ومنه « مسومين » (٢) أي معلمين بعلامة والعلامة برفع باظهارها لتقع المعرفة بها والمعرفة هي العلم عند المتكلمين . وقال بعض النحويين : إن متعلق المعرفة المفرد ومتعلق العلم الجملة كقولهم عرفت زيداً وعلمت زيد قائماً ولو جئت بقائم فى عرفت لكان حالا ولم يخرج عن معرفة زيد .

وقوله « فيؤخذ بالنواصي والاقدام » قال الحسن : يجمع بين ناصيته وقدمه بالغل فيسحب إلى النار . والناصية شعر مقـدم الرأس ، ومنه ناصية الفرس ومنه قوله تعالى « لنسفعا بالناصية » (٣) أي ليقترن بها ما سحقته النار إذلالا لها وأصله الاتصال من قول الشاعر :

في يناصيها بلادقي

أي يتصل بها فالناصية متصلة بالرأس و (الاقـدام) جمع قدم وهو العضو الذي يقدمه صاحبه للوطيء به على الأرض . وقيل : يأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى النار أى تأخذهم تارة بذا ، وتارة بذا . وقال الحسن وقتادة يعرفون بأنهم سود الوجوه زرق العيون ، كما قال تعالى « يوم تبيض وجوه وتسود

(١) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٩ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٢٥

(٣) سورة ٩٦ العلق آية ١٥

وجوه » (١) « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وجه النعمة بذلك ما فيه من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات وذلك نعمة من الله على العباد في الدين .

وقوله « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » معناه يقال لهم يوم القيامة إذا شاهدوا جهنم « هذه جهنم » ويحتمل أن يكون المراد هذه جهنم التي وصفتها هي التي يكذب بها المجرمون الكفار بنعم الله « يطوفون بينها وبين حميم آن » قيل : يطوفون بين أطباقها في عذاب النار ، وبين الحميم آن . والحميم الماء الحار . والآن الذي بلغ نهايته . والمراد - ههنا - هو الذي قد بلغ نهاية حرّه من آنى يأنى إنياً فهو آن ، ومنه قوله « غير ناظرين إناه » (٢) يعني نضاجه وبلوغه غايته « فبأي آلاء ربكما تكذبان » والاخبار بذلك لطف وزجر عن المعاصي فلذلك كانت نعمة اعتد بها وقرر بها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٥٥) عشر آيات بلا خلاف .

لما وصف الله تعالى ما أعد للكفار من أنواع العذاب ، بين بعد ذلك ما أعد

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦   (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٣

المؤمنين والمتقين ، فقال « ولمن خاف مقام ربه جنتان » والمعنى ولمن خاف المقام الذي يقفه فيه ربه للمسائلة عما عمل في ما يجب عليه مما أمره به أو نهاه عنه ، فيكفه ذلك عما يدعوه هواه اليه يصبر صبر مؤثر للهدى على طريق الردى . والمقام الموضع الذي يصلح للقيام فيه وبضم الميم الموضع الذي يصلح للاقامة فيه . والجنتان اللتان وعد الله من وصفه بهما قيل هما جنتان : إحداهما داخل قصره والأخرى خارج قصره على ما طبع الله تعالى العباد عليه من شهوة ذلك وجلالته فشوقوا إلى ما في طباعهم شهوة مثله .

ثم وصف الجنتين فقال « ذواتا أفنان » والافنان جمع (فن) وهو الغصن الفصن الورق ، ومنه قولهم : له فنون ، وهذا فن آخر أي نوع آخر أي ضرب آخر ، وفيه فنون أي ضروب مختلفة ، ويجوز أن يكون جمع فن . وقال ابن عباس: معناه ذواتا ألوان . وقال عكرمة . ظل الاغصان على الحيطان . وقال الضحاك : ذواتا ألوان يفضل بها على ما سواها « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد بيناه .

وقوله « فيهما عينان تجريان » اخبار منه تعالى أن فى الجنتين اللتين وعدتهما المؤمنين عينين من الماء تجريان بين أشجارها ، فالجاري هو الذاهب ذهاب الماء المنحدر ، فكل ذاهب على هذه الصفة فهو جار ، وصفت بالعين لصفائها أو بأنها جارية لأنه أمتنع لها « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قد فسرناه .

وقوله « فيهما من كل فاكهة زوجان » معناه إن فى تلك الجنتين من كل ثمرة نوعين وضربين متشاكلين كتشاكل الذكر والانثى ، فلذلك سماها (زوجين) وذلك بالرطب واليابس من العنب والزبيب والتين الرطب واليابس ، فكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابسه عن رطبه فى الفصل والطيب إلا أنه امتنع وأعذب بأن يكون على هذا المنهاج . وقيل : فيهما من كل نوع من الفواكه ضربان ضرب

معروف وضرب من شكله غريب ، وكل ذلك للاطراف والامتاع « فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من استبرق » فالاتكاء الاستناد للتكرمة والامتناع والمتكى هو ما يطرح للانسان في مجالس الملوك للاكرام والاجلال إتكا يتكي إتكاءاً ، فهو متكي ، ومنه وكاة السقاء إذا شددته ، ومنه قوله ﷺ (العين وكاء الجسد) والاتكاء شدة التقوية للاكرام والامتاع . وهو نصب على الحال ﴿ على فرش ﴾ وهو جمع فراش وهو الموطأ الممهد للنوم عليه بطائنها ، وهو جمع بطانة وهي باطن الظهار ، فالبطانة من اسفله والظاهرة من أعلاه .

وقوله ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾ فالجنى الثمرة التي قد أدركت في الشجرة وصلح أن تجنى غضه قال الشاعر :

هذا جناي وضياره فيه　　　إذ كل جان يده إلى فيه (١)

والاستبرق الغليظ من الديباج ـ في قول عكرمة وابن اسحاق ـ وقيل : ان ثمارها دانية لايرد يده عنها بعد ، ولا شوك ـ في قول قتادة ـ وقيل : الظواهر من سندس وهو الديباج الرقيق ، والبطاين من أستبرق وهو الديباج الغليظ . وقيل : الاستبرق المتاع الصيني من الحرير ، وهو بين الغليظ والرقيق . وقال الفراء : الاستبرق غليظ الديباج . وقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد تكرر تفسيره .

قوله تعالى :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا

(١) تفسير القرطبي ١٧ | ١٨٠

الْاِحْسَانُ(٦٠)فبأ يِّ آلآءِ رَ بكُمَا تُكَذِّ بان(٦١)وَمن دُونِهمَا جَنَّتَان(٦٢) فَبأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَا مَّتَانِ(٦٤) فبأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٦٥) عشر آيات بلاخلاف.

قرأ الكسائي ﴿ لم يطمثهن ﴾ بكسر إحداهما وضم الأخرى الباقون بكسرهما وهما لغتان ، يقال : طمثت المرأة تطمث وتطمث إذا حاضت . قال الزجاج وغيره: في الآية دلالة على أن الجن تنكح . وقال الفراء : لم ينكحهن إنس ولا جان نكاح تدمية أي لم يقتضهن ، والطمث الدم . والضمير في قوله ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ عائد على الفرش التي بطائنها من استبرق ، لأنه قد تقدم ذكره ، وكان أولى بالعود عليه ، ولو لم يتقدم هذا الذكر لجاز أن يرجع إلى الجنان وإلى الجنتين المذكورتين وغيرهما من الجنان لأنه معلوم ، لكن المذكور أولى ، لأن اقتضاءه له أشد . والقاصر المانع من ذهاب الشيء إلى جهة من الجهات ، فالحور قاصرات الطرف عن غير أزواجهن إلى أزواجهن . والطرف جفن العين ، لأنه طرف لها ، فيطبق عليها تارة وينفتح تارة ، ومنه الاطراف بالأمر لانه كالطرف الذي يليك بحدوثه لك . وقوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال مجاهد وابن زيد وعكرمة : لم يمسسهن بجماع من قولهم : ماطمث هذا البعير جمل قط أي ما مسه جمل .

الثاني ـ قال ابن عباس : لم يدمهن بنكاح من قولهم : امرأة طامث أي حائض كأنه قال هن أبكار لم يقتضهن أحد قبلهم . والأصل المس ، كأنه ما مسها دم الحيض . وقيل : إنما نفى الجان ، لأن للمؤمنين منهم هم أزواجاً من الحور ،

وهو قول ضمرة بن حبيب ، قال البلخي : المعنى إن ما يهب الله لمؤمني الجن من الحور العين لم يطمثهن جان ، وما يهب الله لمؤمني الانس لم يطمثهن إنس قبلهم ، على أن هذا مبالغـــة . وقال ضمرة بن حبيب فى : الآية دلالة على أن للجن ثواباً فالانسيات للانس والجنيات للجن ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى تفسيره .

وقوله ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال الحسن : هن على صفاء الياقوت فى بياض المرجان . وقيل : كالياقوت فى الحسن والصفاء والنور . وقال الحسن : المرجان أشد اللؤلؤ بياضاً وهو صغاره ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد بيناه .

وقوله ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ معناه ليس جزاء من فعل الاعمال الحسنة وأنعم على غيره إلا أن ينعم عليه بالثواب ويحسن اليه ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ معناه إن من دون الجنتين اللتين ذكرنا ﴿ لمن خاف مقام ربه ﴾ جنتين أخرتين دون الأولتين ، وإنهما أقرب إلى قصره ومجالسه فى قصره ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة على ما هو معروف فى طبع البشرية من شهوة مثل ذلك . ومعنى (دون) مكان قريب من الشيء بالاضافة إلى غيره ، مما ليس له مثل قربه ، وهو ظرف مكان . وإنما كان التنقل من جهة إلى جهة أنفع ، لأنه أبعد من الملل على ما طبع عليه البشر ، لأن من الاشياء ما لا يمل لغلبة محبته على النفس بالأمر اللازم ، ومنها ما يمل لتطلع النفس إلى غيره ، ثم الرجوع اليه .

وقوله ﴿ مدهامتان ﴾ معناه خضراوتان تضرب خضرتهما إلى السواد من الري على أتم ما يكون من الحسن ، لأن الله شوق اليهما ووعد المطيعين فى خوف مقامه بها ، فناهيك بحسن صفتهما وما يقتضيه ذكرها فى موضعهما . وقال ابن عباس

وابن الزبير وعطية وأبو صالح وقتادة : هما خضراوان من الري . وقال قوم : الجنان الأربع ﴿ لمن خاف مقام ربه ﴾ ذهب اليه ابن عباس . وقال الحسن : إلا وليان للسابقين والأخيرتان للتابعين .

قوله تعالى :

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨)

ثلاث عشرة آية .

قرأ اهل الشام ﴿ ذو الجلال ﴾ على الرفع ، على أنه نعت لـ (إسم) . الباقون ـ بالخفض ـ على أنه نعت لـ (ربك) .

وقوله ﴿ فيهما ﴾ يعني الجنتين اللتين وصفهما بأنهما ﴿ مدهامتان ﴾ ﴿ عينان نضاختان ﴾ فعين الماء المكان الذي ينبع منه الماء ، ومعنى ﴿ نضاختان ﴾ فوارتان بالماء . وقيل : نضاختان بكل خير . والنضخ ـ بالخاء ـ أكثر من النضح ـ بالحاء ـ لأن النضح غير المعجمة الرش وبالخاء كالبرك والفوارة التي ترمي بالماء صعداء ،

نضخ ينضخ نضخاً فهو ناضخ . وفي نضاخة مبالغة ، ووجه الحكمة في العين النضاخة أن النفس إذا رأت الماء يفور كان أمتع ، وذلك على ما جرت به العادة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ أخبار منه تعالى أن في الجنتين المتقدم وصفهما (فاكهة) وهي الثمار (ونخل ورمان) وإنما افرد ذكر النخل والرمان من الفاكهة ، وإن كان من جملتها تنبيهاً على فضلهما وجـلالة النعمة بهما ، كما أفرد ذكر جبرائيل وميكائيل في قوله ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ﴾ (١) وقال قوم : ليسا من الفاكهة بدلا الآية . وليس له في ذلك حجة ، لاحتمال ما قلناه . قال يونس النحوي : النخل والرمان من أفضل الفاكهة ، وإنما فضلا لفضلهما ، والنخل شجر الرطب والتمر . والرمان مشتق من رم يرم رماً ، لان من شأنه أن يرم الفؤاد بجلائه له ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال ابو عبيدة : إمرأة خيرة ورجل خير ، والجمع خيرات . والرجال أخيار قال الشاعر :

ولقد طعنت مجامع الربلات   ربلات هند خيرة الملكات (٢)

وقال الزجاج : أصل (خيرات) خيّرات ، وخفف . وفي الخبر المرفوع إن المعنى (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) وإنما قيل المرأة في الجنة : خيرة ، لانها مما ينبغي أن تختار لفضلها في أخلاقها وأفعالها ، وهي مع ذلك حسنة الصورة ، فقد جمعت الأحوال التي تجل بها النعمة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد بينا معناه .

وقوله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ فالحور البيض الحسان البياض ، ومنه

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٨ (٢) مر في ٥/٣١٩ وهو في مجاز القرآن الشاهد ٢٩٨

الدقيق الحواري لشدة بياضه، والعين الحورا اذا كانت شديدة بياض البياض ، وشديدة سواد ، السواد ، وبذلك يتم حسن العين . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد : الحور : البيض . وقوله ﴿ مقصورات ﴾ أي قصرن على أزواجهن ، فلا يردن بدلا منهم - في قول مجاهد والربيع - وقيل : معناه محبوسات في الحجال - في قول ابن عباس وأبي العالية ومحمد بن كعب والضحاك والحسن ، وعلى وجه الصيانة لهن والتكرمة لهن عن البذلة . وقال ابو عبيدة : مقصورات أي مخدرات و (الخيام) جمع خيمة وهو بيت من الثياب على الأعمدة ، والاوتاد مما يتخذ للاصحار ، فاذا اصحر هؤلاء الحور ، كانت لهن الخيام في تلك الحال وغيرها مما ينفي الابتذال . وقال الزجاج : يقال لاهوارج الخيام وقال عبد الله : الخيام درّ مجوف على هيئة البيت وقال ابن عباس : بيوت اللؤلؤ . وقيل : الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى بيانه .

وقوله ﴿ لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قد مضى تفسيره . قال البلخي في الآية دلالة على قول الحسن البصري : أن الحور العين هن أزواجهم في الدنيا إذا كن مؤمنات مطيعات لان الله قال ﴿ لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان ﴾ وقال : من نصر الحسن أن المراد لم يطمثهن بعد النشأة الثانية إنس قبلهم ولا جان . وإنما كرر قوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ في الآية للبيان على أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة القاصرات الطرف مع تمكين التشويق بهذه الحال الجليلة التي رغب فيها كل نفس سليمة .

وقوله ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ (متكئين) نصب على الحال ، وقد فسرنا معناه . والرفارف جمع رفرف ، وهي المجالس - في قول ابن عباس وقتادة والضحاك - وقيل : الرفرف هي فصول المجالس للفرش . وقال

الحسن : هي المرافق ، وقيل : الرفارف الوسائد . وقيل : الرفرفة الروضة . وأصله من رف النبت يرف إذا صار غضاً نضراً . وقيل : لما في الأطراف رفرف ، لانه كالنبت الغض الذي يرف من غضاضته . والخضر جمع أخضر (والعبقري) الزرابي - في قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة - وهي الطنافس . وقال مجاهد : هو الديباج : وقال الحسن : هو البسط . وقيل (عبقر) اسم بلد ينسج به ضروب من الوشي الحسن ، قال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً ان ينالوا ويستعلوا (١)

وقيل : الوشي من الديباج عبقري تشبيهاً بذلك ، ومن قرأ ﴿ عباقري ﴾ فقد غلط لانه لا يكون بعد الف الجمع أربعة احرف ولا ثلاثة إلا أن يكون الثاني حرف لين نحو (قناديل) .

وقوله ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ معناه تعاظم وتعالى إسم ربك ، لانه يستحق أن يوصف بما لا يوصف به أحد من كونه قديماً وإلهاً ، وقادراً لنفسه وعالماً حياً لنفسه وغير ذلك .

وقوله ﴿ ذي الجلال والاكرام ﴾ خفض ، لانه بدل من قوله ﴿ ربك ﴾ ومعنى الجلال العظمة والاكرام الاعظام بالاحسان والانعام . وقال الحسن : الاكرام الذي يكرم به أهل دينه وولايته . ومن قرأ ﴿ ذو الجلال ﴾ بالرفع أراد ان اسم الله فيه البركة ، وإذا قرئ بالخفض دل على أن اسم الله غير الله ، لأنه لو كان اسمه هو الله لجرى مجرى ذكر وجهه إلا ترى أنه لما قال ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ ورفعه ، لأنه أراد الله تعالى وههنا بخلافه .

---

(١) ديوانه ١٠٣ ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٦ واللسان (عبقر)

٥٦ ـ سـورة الواقعـة

هي مكية بلا خلاف وهي تسع وتسعون آية حجازي وشامي ، وسبع وتسعون بصرى ، وست وتسعون كوفي ، وسبع وتسعون في المدنيين . وروي عن مسروق أنه قال من أراد أن يعلم نبأ الأولين ونبأ الآخرين ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ونبأ الدنيا ونبأ الآخرة ، فليقرأ الواقعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَاقِعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ (١٦) .

ست عشرة آية كوفي ، وسبع عشرة آية بصري وشامي ، وثمان عشرة آية

حجازي ، عد الكل ﴿ وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ﴾ ولم يعده الكوفيون . وعد الحجازيون والكوفيون ﴿ موضونة ﴾ ولم يعده الباقون .

﴿ إذا ﴾ متعلقة بمحذوف ، وتقديره إذكروا ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ قال المبرد : إذا وقعت معناه إذا تقع ، وإنما وقع الماضي - ههنا - لأن (إذا) للاستقبال ومعناه إذا ظهرت القيامة وحدثت . والوقوع ظهور الشيء بالحدوث ، وقع يقع وقوعاً فهو واقع ، والانثى واقعة (وإذا) تقع للجزاء ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ معناه قال الفراء ليس لها مردودة ولا رد . وقيل : ليس لوقعتها قضية كاذبة فيها ، لاخبار الله تعالى بها ودلالة العقل عليها . وقال قوم : معناه ليس لها نفس كاذبة في الخبر بها . وقيل الكاذبة - ههنا - مصدر مثل العاقبة والعافية . وقال الضحاك : القيامة تقع بصيحة عند النفخة الثانية .

وقوله ﴿ خافضة رافعة ﴾ قيل : تخفيض قوماً بالمعصية وترفع قوماً بالطاعة ، لانها إنما وقعت للمجازاة ، فالله تعالى يرفع أهل الثواب ويخفض أهل العقاب ، فهو مضاف إلى الواقعة على هذا المعنى . وقال الحسن : تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة . والقراء : كلهم على رفع خافضة بتقدير هي خافضة رافعة . وقرأه الترمذي في اختياره بالنصب على الحال ، وتقديره إذا وقعت الواقعة تقع خافضة رافعة على الحال .

وقوله ﴿ إذا رجت الارض رجاً ﴾ معناه زلزلت الارض زلزالا - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - والزلزلة الحركة باضطراب واهتزاز ، ومنه قولهم : ارتج السهم عند خروجه عن القوس . وقيل : ترتج الأرض بمعنى أنه ينهدم كل بناء على الارض .

وقوله ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ معناه فتت فتاً - في قول ابن عباس ومجاهد

وابي صالح والسدى ـ وهو كما يبس السويق أى يلت . والبسيس السويق اوالدقيق يلت و يتخذ زاداً . وقال لص من غطفان:

لا تخبزاً خبزاً وبسا بسا ولا تطيلا مناخ حبسا (١)

وقال الزجاج : يجوز أن يكون معنى بست سيفت وأنشد :

وانبس حيات الكثيب الأهيل (٢)

وقوله « فكانت هباء منبثاً » فالهباء غبار كالشعاع فى الرقة ، وكثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة ، فسبحان الله القادر على أن يجعل الجبال بهذه الصفة . والانبثاث افتراق الاجزاء الكثيرة فى الجهات المختلفة ، فكل أجزاء أنفرشت بالتفرق فى الجهات فهي منبثة، وفى تفرق الجبال على هذه الصفة عبرة ومعجزة لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

وقوله « وكنتم أزواجاً ثلاثة » معناه كنتم أصنافاً ثلاثة ، كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة ، ولذلك قيل على هذه المزاوجة : قد زاوج بين الكلامين أي شاكل بينهما .

وقوله « فاصحاب الميمنة » يعني أصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى. وقوله « ما أصحاب الميمنة » بصورة الاستفهام ، والمراد تعظيم شأنهم فى الخبر عن حالهم « واصحاب المشئمة » معناه الشؤم والنكد وعقاب الابد . وقوله « ما أصحاب المشأمة » على تعظيم شأنهم فى الشر وسوء الحال . وقيل : أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وخبر (أصحاب الميمنة) ما أصحاب الميمنة ، كأنه قيل : أي

(١ ، ٢) الصحاح واللسان (بسس) والقرطبي ١٧ | ١٩٦

شيء هم ؟ وفيه تعجيب عن حالهم . وقيل : أصحاب اليمين هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ، وأصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمالهم .

وقوله « والسابقون السابقون » معناه الذين سبقوا إلى اتباع الانبياء فصاروا أئمة الهدى . وقيل : السابقون إلى طاعة الله السابقون إلى رحمته ، والسابقون إلى الخير إنما كانوا أفضل لأنهم يقتدى بهم فى الخير ويسبقوا إلى أعلى المراتب قبل من يجيء بعدهم فلهذا تميزوا من التابعين بما لا يلحقونهم به ولو اجتهدوا كل الاجتهاد والسابقون الثاني يصلح أن يكون خبراً عن الاول ، كأنه قال : والسابقون الأولون فى الخير ، ويصلح أن يكون « أولئك المقربون » وقوله « أولئك المقربون » معناه الذين قربوا من جزيل ثواب الله وعظيم كرامته بالأمر الأكثر الذي لا يبلغه من دونهم فى الفضل . والسابقون إلى الطاعات يقربون إلى رحمة الله فى أعلا المراتب وأقربها إلى مجالس كرامته بما يظهر لأهل المعرفة منزلة صاحبه فى جلالته ويصل بذلك السرور إلى قلبه ، وإنما قال « فى جنات النعيم » مع أنه معلوم من صفة المقربين ، لئلا يتوهم أن التقريب يخرجهم إلى دار أخرى ، وإنما هم مقربون من كرامة الله فى الجنة لأنها درجات ومنازل بعضها أرفع من بعض . والفرق بين النعيم والنعمة أن النعمة تقتضي شكر المنعم من أنعم عليه نعمة وانعاماً ، والنعيم من نعم نعيماً كقولك أنتفع انتفاعاً .

وقوله « ثلة من الأولين » فالثلة الجماعة . وأصله القطعة من قولهم : ثل عرشه إذا قطع ملكه بهدم سريره . والثلة القطعة من الناس ، وقال الزجاج : الثل القطع ، والثلة كالفرقة والقطعة . وهو خبر ابتداء محذوف ، وتقديره : هم ثلة من الأولين ، وهم قليل من الاخرين . وقوله « وقليل من الآخرين » إنما قال ذلك لأن الذين سبقوا إلى إجابة النبي ﷺ قليل من كثير ممن سبق إلى النبيين .

وقوله « على سرر موضونة » فالموضونة المنسوجة المداخلة كصفة الدرع المضاعفة قال الاعشى :

ومن نسج داود موضونة   تساق إلى الحي عيراً فعيرا (١)

ومنه (وضين الناقة) وهي البطان من السيور إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً وقيل : موضونة مشبكة بالذهب والجوهر ، وقال ابن عباس ومجاهد : موضونة بالذهب وقال عكرمة : مشبكة بالدر ، وقال ابن عباس ـ في رواية أخرى ـ موضونة معناه مظفورة ، والوضين حبل منسوج من سيور .

وقوله « متكئين عليها متقابلين » معناه مستندين متحاذيين كل واحد بازاء الآخر ، وذلك أعظم في باب السرور . والتقابل والتحاذي والتواجه واحد . والمعنى إن بعضهم ينظر الى بعض وينظر الى وجه بعض لا ينظر في قفاه ، من حسن عشرته وتهذيب أخلاقه .

قوله تعالى :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٢٦)

عشر آيات، كوفي ومدني الأخير ، وتسع فيما عداه ، عد المكي واسماعيل

(١) ديوانه ٧١ واللسان (وضن) ومجاز القرآن ٢ / ٢٤٨

«وأباريق» ولم يعده الباقون . وعد المدني والكوفي «وحور عين» ولم يعده الباقون.

قرأ ابو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصماً وخلفاً «وحور عين» خفضاً . الباقون بالرفع. فمن رفع حمله على : ولهم حور عين . واختاروا الرفع لأن الحور العين لا يطاف بهن ، وإنما يطاف بالكأس ، وعلى هذا يلزم أن يقرأ «وفاكهة» رفعاً وكذلك «ولحم طير» بالرفع لانهما لا يطاف بهما ، فما اعتذروا في ذلك فهو عذر من قرأ بالخفض . ومن خفض عطف على الاول لتشاكل الكلام من غير اخلال بالمعنى إذ هو مفهوم . وقال الزجاج : ويكون تقديره ينعمون بكذا وحور عين . وقال ابو علي تقديره وفي مجاورة حور عين أو معانقة حور عين ، لأن الكلام الاول يدل عليه وقال الشاعر :

اذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا (١)

والمعنى وكحلن العيون فرده على قوله (وزججن) ومثله :

(متقلداً سيفاً ورمحاً) (٢)

اي وحاملا رمحاً . وكان يجوز النصب على تقدير ويعطون حوراً عيناً كما قال الشاعر :

جئني بمثل بني بدر لقومهم او مثل اخوة منظور بن سيار (٣)

لما كان معنى جئني هات عطف او مثل على المعنى وقال الحسن الحور البيض . وقال مجاهد يحار فيهن البصر .

لما ذكر الله تعالى ان السابقين الى الخيرات والطاعات هم المقربون الى نعيم

---

(١) القرطبي ١٧ / ٢٠٥ (٢) مر في ٤ / ٢٣٢

(٣) مر في ٣ / ٤٥٥ و ٦ / ٣٠

الجنة وثوابها ، فانهم على سرر موضونة متقابلين ، اخبر انه « يطوف عليهم ولدان » يعني صبيان « مخلدون » فالطوف الزور بالتنقل في المكان ، ومنه الطائف الذي يطوف بالبلد على وجه الحرس. والولدان جمع وليد . ومخلدون قال مجاهد معناه باقون لهم لا يموتون ، وقال الحسن : معناه أنهم على حالة واحـــد لايهرمون ، يقال : رجـل مخلد اي باق زماناً أسود اللحية لا يشيب وقال الفراء : معناه مقرطون والخلد القرط . والاكواب جمع كوب وهي اباريق واسعة الرؤوس بلا خراطيم - في قول قتادة - قال الاعشى :

صليفيـــة طيباً طعمها لها زبد بين كوب ودن (١)

والاباريق التي لها عرى وخراطيم واحـدها إبريق و « كأس من معين » اي يطوفون عليهم ايضاً بكأس من خمر معين ظاهر للعيون جار « لا يصدعون عنها » اي لا يلحقهم الصداع من شربها « ولا ينزفون » اي لا تنزف عقولهم بمعنى لاتذهب بالسكر - في قول مجاهد وقتادة والضحاك - ومن قرأ « ينزفون » بالكسر ،وهو حمزة والكسائي وخلف ، حمله على أنه لا تفنى خمرهم قال الأبرد :

لعمري لئن أنزفتم او صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا (٢)

وقوله « وفاكهة مما يتخيرون » أي ويطاف عليهم بفاكهة مما يختارونه ومما يشتهونه ، وينعمون بفاكهة مما يشتهونه . وقوله« ولحم طير مما يشتهون » أي ويطاف عليهم او ينعمون بلحم طير مما يشتهون . وقوله « وحور عين » من رفعه حمله على معنى ولهم فيها حور عين ، لانهن لايطاف بهن وإنما يطاف بالكأس . ومن جر فعلى معنى وينعمون بحور عين او يحصلون في معانقة حور عين . والحور جمع حوراء والحور نقاء البياض من كل شائب يجري مجرى الوسخ. وقوله « كأمثال اللؤلؤ »

(١) مر في ٩ | ٢١٦ (٢) مر في ٨ | ٤٩٦

أي مثل هؤلاء الحور فى البياض والنقاء مثل اللؤلؤ « المكنون » يعني الدر المصون عما يلحق به من دنس كأنه مأخوذ من أن الدرة تبقى على حسنها اكثر مما يبقى غيرها لطبعها وصيانة الناس لها قال عمر بن أبي ربيعة :

وهي زهراء مثل لؤلؤ الغواص   ميزت من جوهر مكنون

« جزاء » أي يفعل ذلك بهم جزاء ومكافأة على ما عملوه فى دار الدنيا من الطاعات واجتناب المعاصي ثم قال « لا يسمعون فيها لغواً » أي لايسمع المثابون في الجنة لغواً يعني مالا فائدة فيه من الكلام ، لأن كل ما يتكلمون به فيه فائدة ﴿ولا تأثيما﴾ ولا يجري فيها ما يؤثم فيه قائله من قبيح القول ﴿ إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ يعني لكن يسمعون قول بعضهم لبعض على وجه التحية « سلاما سلاماً » إنهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب وكريم الأخلاق الذي يوجب التواد ، لان طباعهم قد هذبت على أتم الكمال . ونصب (سلاماً) على تقدير سلمك الله سلاماً بدوام النعمة وحال الغبطة . وجاز ان يعمل فيه سلام ، لانه يدل عليه ، كما يدل على قوله « والله أنبتكم من الارض نباتاً » (١) ويصلح أن يكون سلاماً نعتاً لقوله « قيلا » ويصلح أن ينتصب بـ (قيل) فالوجوه الثلاثة محتملة . وقيل « إلا قيلا سلاماً سلاماً » أي قولا يؤدي إلى السلامة .

قولـه تعـالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَاأَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ(٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ(٣٤)

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ (٤٠)

أربع عشرة آية كوفى وعدد اسماعيل وبصري ، وخمس عشرة آية فيما عداه عد المدني والمكي والبصري « وأصحاب اليمين » ولم يعده الباقون . وعد المدنيان والمكي والكوفى والشامي « انشاء » ولم يعده الباقون .

قرأ اسماعيل وحمزة وخلف ويحيى « عربا » مخففة . الباقون مثقلة ، وهما لغتان . وروي عن علي عليه السلام انه قرأ « وطلع منضود » بالعين . والقراء على الحاء وقال علي عليه السلام : هو كقوله « ونخل طلعها هضيم » (١) وقال كالمتعجب ! وما هو شأن الطلح ؟ ! فقيل : له ألا تغيره ؟ قال : القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول .

وقوله « وأصحاب اليمين » قيل فى معناه ثلاثة أقوال :

أولها ـ الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم .

الثاني ـ الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة .

الثالث ـ اصحاب اليمن والبركة . وقوله « ما اصحاب اليمين » معنا ومعنى « ما أصحاب الميمنة » سواء وقد فسرناه .

وقوله « فى سدر مخضود » فالسدر شجر النبق ، والمخضود هو الذي لاشوك فيه وخضد بكثرة جملته وذهاب شوكه ـ فى قول ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك ـ وأصل الخضد عطف العود اللين . فمن ههنا قيل : لاشوك فيه ، لان الغالب على الرطب اللين أنه لاشوك له .

وقوله « وطلح منضود » قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد :

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٨

الطلح شجر الموز . وقال ابو عبيدة : الطلح كل شجر عظيم كثير الشوك ، وقال الحارثي :

بشرها دليلها وقالا   غداً ترين الطلح والجبالا (١)

وقال الزجاج : الطلح شجر أم غيلان . وقد يكون على أحسن حال ، والمنضود هو الذي نضد بعضه على بعض من الموز ـ ذكره ابن عباس ـ وهو من نضدت المتاع إذا عبيت بعضه على بعض. قيل : فقنوا الموز منضود بعضه على بعض « وظل ممدود » معناه دائم لاتنسخه الشمس قال لبيد :

غلب البقاء وكنت غير مغلب   دهر طويل دائم ممدود (٢)

وروي في الخبر أن (في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة سنة) .

وقوله « وماء مسكوب » أي مصبوب على الخمر يشرب بالمزاج . وقال قوم : يعني مصبوب يشرب على ما يرى من حسنه وصفائه ، ولا يحتاجون الى تعب في استقائه .

وقوله « وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة » أي وثمار مختلفة كثيرة غير قليلة . وقيل الوجه في تكرار ذكر الفاكهة البيان عن اختلاف صفاتها فذكرت اولا بأنها مما يتخيرون ،وذكرت ـ ههنا ـ بأنها كثيرة و بأنهالا مقطوعة ولاممنوعة . ومعناه لامقطوعة كما تنقطع فواكه الدنيا في الشتاء في اوقات مخصوصة ، ولا ممنوعة بتعذر تناول او شوك يؤذي كما يكون ذالك في الدنيا .

وقوله « وفرش مرفوعة » أي عالية يقال : بناء مرفوع أي عال . وقيل : معناه ونساء مرتفعات القـدر فى عقولهن وحسنهن وكمالهن . وقال الحسن : فرش

(١) القرطبى ١٧| ٢٠٨ ومجاز القرآن ٢| ٢٥٠
(٢) القرطبي ١٧| ٢٠٩ والطبري ٢٧| ٩٤

مرفوعة بعضها فوق بعض ، والفرش المهاد المهيأ للاضطجاع ، فرش يفرش فرشاً فهو فارش والشيء مفروش ، ومنه قوله « الذي جعل لكم الارض فراشاً » (١) لانها تصلح للاستقرار عليها .

وقوله « إنا انشأناهن انشاء » معناه إن اخترعنا أزواجهم اختراعاً ، وهذا يقوي قول من حمل الفرش على النساء . وقيل : المعنى انا أنشأناهن من البنية « فجعلناهن أبكاراً » والبكر التي لم يفتضها الرجل ، ولم تفتض وهي على خلقتها الأولى من حال الانشاء . واصله الأول ، ومنه بكرة أول النهار . والابتكار عمل الشيء اولا . والباكورة أول ما يأتي من الفاكهة . والبكر من الابل الفتى في أول أمره وحداثة سنه . وقال الضحاك : ابكاراً عذارى . وفى الخبر المرفوع (انهن كن عجائز رمصا فى الدنيا) .

وقوله « عربا أتراباً » فالعرب العواشق لأزواجهن المتحببات اليهم ـ فى قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ـ وقال لبيد :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة ريّا الروادف يعشى دونها البصر (٢)

والعرب جمع عروب على وزن (رسول ، ورسل) وهي اللعوب مع زوجها انساً به راغبة فيه ، كأنس العربي بكلام العرب ، فكأن لها فطنة العرب وإلفهم وعهدهم . والاتراب جمع ترب وهو الوليدة التي تنشأ مع مثلها فى حال الصبى ، وهو مأخوذ من لعب الصبيان بالتراب أي هم كالصبيان الذين على سن واحد . قال عمر ابن ابي ربيعة :

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٥١ والقرطبي ١٧ / ٢١٦

ابرزوهـا مثل المهاة تهادي   بين عشر كواعب أتراب (١)

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك : الاتراب المستويات على سن واحد . وقوله « لاصحاب اليمين » أي جميع ما تقدم ذكره لهم جزاء وثواباً على طاعاتهم . وقوله « ثلة من الاولين وثلة من الآخرين » فالثلة القطعة من الجماعة ، فكأنه قال جماعة من الأولين وجماعـة من الآخرين . وإذا ذكر بالتنكير كان على معنى البعض من الجملة ، كما تقول رجال من جملة الرجال . وفائدة الآية أنه ليس هذا لجميع الأولين والآخرين . وإنما هو لجماعة منهم . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال (إني لأرجو ان تكون أمتي شطر أهل الجنة) ثم تلا قوله « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » وقال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا ، فلذلك قيل « وقليل من الآخرين » وفي التابعين وثلة من الآخرين .

قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ * مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٥٠) .

عشر آيات كوفي عند جميعهم . وأحدى عشر آية في المدني الأول . عـد

(١) مر في ٨ | ٥٧٣

الكل « وأصحاب الشمال » ولم يعده الكوفيون . وعد الكل « في سموم وحميم » ولم يعده الكوفيون ، وعد « المكنون » و « كانوا يقولون » ولم يعده الباقون . وعد الكل إلا اسماعيل والشاميين « الأولين والآخرين » وعد اسماعيل والشاميون « لمجموعون »ولم يعده الباقون .

قيل في معنى قوله « وأصحاب الشمال » ثلاثة اقوال :

أحدها ـ إنهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهنم .

الثاني ـ هم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم .

الثالث ـ الذين يلزمهم حال الشؤم والنكد . وكل هذا من أوصافهم .

وقوله « ماأصحاب الشمال » معناه معنى قوله « واصحاب المشأمة ما اصحاب المشئمة » وقد فسرناه .

وقوله « في سموم وحميم » فالسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن ، ومسام البدن خروقه ، ومنه أخذ السم ، لانه يسري في المسام . والحميم الحار الشديد الحرارة من الماء ، ومنه قوله « يصب من فوق رؤسهم الحميم » (١) وحم ذلك أي ادناه كأنه حرر أمره حتى دنا . وقيل : في سموم جهنم وحميمها .

وقوله « وظل من يحموم » فاليحموم الاسود الشديد السواد باحتراق النار ، وهو (يفعول) من الحم ، وهو الشحم المسود باحتراق النار . وأسود يحموم أي شديد السواد « وظل من يحموم » أي دخان شديد السواد ـ في قول ابن عباس وابي مالك ومجاهد وقتادة وابن زيد ـ وقوله « لا بارد ولا كريم » معناه لابارد كبرد ظلال الشمس ، لانه دخان جهنم، ولا كريم، لان كل ما انتفى عنه الخير ، فليس بكريم . وقال قتادة : لابارد المنزل ولا كريم المنظر .

(١) سورة ٢٢ الحج آية ١٩

وقوله « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » قال ابن عباس : معناه إنهم كانوا في الدنيا متنعمين . وقوله « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » قال قتادة ومجاهد كانوا يقيمون على الذنب العظيم ، ولا يتوبون منه ، ولا يقلعون عنه . وقال الحسن والضحاك وابن زيد : كانوا يقيمون على الشرك العظيم . وقيل : اصرارهم على الحنث هو ما بينه الله تعالى في قوله « واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت »(١) والاصرار الاقامة على الامر من جهة العزم على فعله ، فالاصرار على الذنب نقيض التوبة منه ، والحنث نقض العهد المؤكد بالحلف ، فهؤلاء ينقضون العهود التي يلزمهم الوفاء بها ، ويقمون على ذلك غير تائبين منه ، ووصف الذنب بأنه عظيم أنه اكبر من غيره مما هو أصغر منه من الذنوب .

وقوله « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون » ؟ ! ! حكاية من الله تعالى عما كان يقول هؤلاء الكفار من انكارهم البعث والنشور والثواب والعقاب وأنهم كانوا يقولون مستبعدين منكرين : أئذا متنا وخرجنا عن كوننا أحياء وصرنا ترابا وعظاما بالية أئنا لمبعوثون ؟ ! ولم يجمع ابن عامر بين الاستفهامين إلا ههنا ، أو يبعث واحد من آبائنا الذين تقدموا قبلنا ويحشرون ويردون إلى كونهم أحياء إن هذا لبعيد . والواو في قوله « او آباؤنا » متحركة ، لأنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله « قل إن الاولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أي قل لهم يا محمد إن تقدمكم من آبائكم او غير آبائكم ، والآخرين الذين يتأخرون عن زمانكم يجمعهم الله ويبعثهم ويحشرهم إلى وقت يوم معلوم عند الله ، وهو يوم القيامة .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٣٨

قولـه تعـالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِؤُنَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦١) احدى عشرة آية بلاخلاف

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وسهل ﴿ شرب الهيم ﴾ بضم الشين . الباقون بالفتح ، وهما لغتان . وقرأ ﴿ نحن قدرنا ﴾ خفيفة ابن كثير . الباقون بالتشديد وهما لغتان . يقال قدرت ، وقدرت ، وقد فرق بينهما فيما ذكره .

لما امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لمن انكر البعث والنشور قل لهم إنكم ومن تقدمكم وتأخر عنكم مبعوثون ومحشورون إلى يوم القيامة بين ما لهم في ذلك اليوم فقال ﴿ ثم أنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ يعني الذين ضللتم عن الدين وعن طريق الحق وحرمتم عن إتباع الصحيح المكذبون الذين كذبتم بتوحيد الله واخلاص العبادة له وجحدتم نبوة نبيه ﴿ لا كلون ﴾ يوم القيامة ﴿ من شجر من زقوم ﴾ فالزقوم ما يبتلع بتصعب ، يقال : تزقم هذا الطعام تزقماً إذا ابتلعه بتصعب . وقيل : هو طعام خشن مر كريه يعسر نزوله في الحلق .

وقوله ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ أي تملئون بطونكم من أكل هذا الزقوم

والشجر يؤنث ويذكر ، فلذلك قال ﴿ منها ﴾ وكذلك الثمر يذكر ويؤنث ، فالتذكير على الجنس ، والتأنيث على المبالغة . والبطون جمع بطن وهو خلاف الظهر ، وهو داخل الوعاء وخارجه ظهر ، وبطن الأمر إذا غمض ، ومنه الظهارة والبطانة ، وبطن الانسان ، وبطن الارض ، وبطن الكتاب .

وقوله ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ معناه إنكم تشربون على هذا الزقوم الذي ملأتم بطونكم منه ﴿ من الحميم ﴾ وهو الماء الحار الشديد الحرارة ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ أي تشربون مثل ما تشرب الهيم . فمن فتح الشين أراد المصدر ومن ضمه أراد الاسم ، وقيل هما لغتان . وروى جعفر بن محمد أن النبي ﷺ أمر بلالا ان ينادي بمنى إنها أيام اكل وشرب - بفتح الشين - و (الهيم) الابل التي لا تروى من الماء لداء يصيبها ، واحدها (أهيم) والأنثى (هيما) ومن العرب من يقول : هايم وهايمة ، وتجمعه على هيم كغايط وغيط . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة : معناه شرب الابل العطاشى التي لا تروى . وقيل: هو داء الهيام . وحكى الفراء : إن الهيم الرجل الذي لا يروى من الماء يشرب ما يحصل فيه .

وقوله ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ فالنزل الأمر الذي ينزل عليه صاحبه ، ومنه النزل وهو الجاري للانسان من الخير ، وأهل الضلال قد نزلوا على أنواع العذاب في النار ، وكل ما فصله الله تعالى من ذلك ففيه أتم الزجر واعظم الردع . وقيل : معنى الآية هذا طعامهم وشرابهم يوم الجزاء .

وقوله ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أي نحن انشأناكم وابتدأناكم في النشأة الأولى ﴿ فهلا تصدقون ﴾ أنكم تبعثون . ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحة ما ذكرناه فقال ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ومعناه الذي يخرج منكم من المني عند الجماع ، ويخلق منه الولد ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ وتنشئونه ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ فهم لا يمكنهم ادعاء إضافة ذلك

الى نفوسهم لعجزهم عن ذلك ، فلا بد من الاعتراف بأن الله هو الخالق لذلك ، واذا ثبت انه قادر على خلق الولد من النطفة وجب أن يكون قادراً على اعادته بعد موته لأنه مثله ، وليس بأبعد منه ، يقال : أمنى يمني ، ومنى يمني ، بمعنى واحد ، وكذلك أمذى ، ومذى ـ في قول الفراء .

وقوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ فالتقدير ترتيب الأمور على مقدار فالله تعالى أجرى الموت بين العباد على مقدار ما تقتضيه الحكمة ، فانما أجراه الحكيم على ذلك المقدار .

وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي لسنا بمسبوقين في تدبيرنا ، لأن الأمور كلها في مقدور الله وسلطانه على ما يصح ويجوز فيما مكن منه أو اعجز عنه . وقال مجاهد : تقدير الموت بالتعجيل لقوم والتأخير لغيرهم . وقيل ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ بأن كتبناه على مقدار ، لازيادة فيه ولا نقصان . ويقال : قدرت الشيء مخففاً ، وقدرته مثقلا بمعنى واحد .

وقوله ﴿ على ان نبدل امثالكم ﴾ فالتبديل جعل الشيء موضع غيره ، فتبديل الحكمة بالحكمة صواب وتبديل الحكمة بخلافها خطأ وسفه ، فعلى هذا ينشيء الله قوماً بعد قوم ، لأن المصلحة تقتضي ذلك ، والحكمة توجب إنشاءهم في وقت وإماتتهم في وقت آخر . وانشاؤهم بعد ذلك للحساب والثواب والعقاب . وقيل : إن معنى ﴿ على أن نبدل ﴾ التبدل أي لنبدل أمثالكم ، وبين (على) و (اللام) فرق ، لأنه يجوز أن يقال : عمله على قبحه ، ولا يجوز عمله لقبحه . وتعليم الاستدلال بالنشأة الاولى على النشأة الثانية فيه تعليم القياس .

وقوله ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ معناه فيما لا تعلمون من الهيآت والصور المختلفة ، لأن المؤمن يخلق على أحسن صورة ، والكافر على أقبح صورة . وقيل :

هذا على النشأة الثانية يكوّنها الله في وقت لا يعلمه العباد، ولا يعلمون كيفيته، كما علموا الانشاء الأول من جهة التناسل. وقيل: معناه لو أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم يعيينا ذلك، ولا سبقنا اليه سابق. ويجوز أن يقال: أمثال متفقة، ولا يجوز أن يقال اجناس متفقة، لان المثل ينفصل بالصورة كما ينفصل رجل عن رجل بالصورة، وما انفصل بالصورة يجوز جمعه، لان الصورة قد منعت أن تجري على الكثير منه صفة التوحيد، فلا يجوز أن يقال هؤلاء الرجال كلهم رجال واحد ويجوز هذا الماء كله ماء واحد، وهذه المذاهب كلها مذهب واحد، ولا يجوز هؤلاء الأمثال كلهم أمثال واحد، لأنهم ينفصلون بالصورة. وجرى مجرى المختلفة في انه لا يقع على صفة التوحيد.

قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ الْأُولىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧١) تسع آيات بلاخلاف.

قرأ ابو بكر « أإنا لمغرمون » على الاستفهام. الباقون على الخبر.

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين أنكروا النشأة الثانية، ومنبهاً لهم على قدرته عليها، فقال ﴿ ولقد علمتم النشأة الاولى فهلا تذكرون ﴾ وتفكرون وتعتبرون

بأن من قدر عليها قدر على النشأة الثانية . والنشأة المرة من الانشاء ، كالضربة من الضرب ، والانشاء إيجاد الشيء من غير سبب يولده ، ومثله الاختراع والابتداع . ثم نبههم على طريق غيره فقال ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ من الزرع ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أي أأنتم تنبتونه وتجعلونه رزقاً ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ فان من قدر على إنبات الزرع من الحبة الحقيرة وجعلها حبوباً كثيرة قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه . وقوله ﴿ لو نشاء لجعلناه ﴾ يعني ذات الزرع ﴿ حطاماً ﴾ أي هشيماً لاينتفع به في مطعم ولا غذاء لفعلنا .وقوله ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ معناه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ في رواية عنه ـ تعجبون. وقال الحسن وقتادة ـ في رواية ـ فظلتم تندمون أي لوجعلناه حطاماً لظلتم تندمون . والمعنى إنكم كنتم تتروحون إلى التندم ، كما تتروح الفكه الى الحديث بما يزيل الهم. وأصل التفكه تناول ضروب الفاكهة للاكل.

وقوله ﴿ إنا لمغرمون ﴾ المغرم الذي ذهب ماله بغير عوض عنه . وأصله ذهاب المال بغير عوض، فمنه الغريم لذهاب ماله بالاحتباس على المدين من غير عوض منه في الاحتباس ، والغارم الذي عليه الدين الذي يطالبه به الغريم . ومنه قوله ﴿ ان عذابها كان غراماً ﴾ (١) أي ملحاً دائماً كالحاح الغريم . وقال الحسن : هو من الغرم . وقال قتادة معنى ﴿ لمغرمون ﴾ لمعذبون ، قال الاعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعـ ط جزيلا فانه لا يبالي (٢)

أي يكن عقابه عذاباً ملحاً كالحاح الغريم . وقال الراجز :

يوم النسار ويوم الجفار كانا عذاباً وكانا غراماً(٣) .

أي ملحاً كالحاح الغريم ، وحذف يقولون إنا لمغرمون ، لدلالة الحكاية .

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ (٢ ، ٣) مر في ٧ / ٥٠٥

وقال : معنى لمغرمون محدودون عن الحظ . وقال قتادة محارفون . وقال مجاهد - في رواية أخرى - إنا لمولع بنا . وفي رواية غيره عنه معناه إنا لملقون في الشر . ومن قرأ ﴿ أإنا لمغرمون ﴾ على الاستفهام حمل على أنهم يقرعون ويقولون منكرين . أإنا لمغرمون ؟ ! ومن قرأ على الخبر حمله على أنهم مخبرون بذلك عن انفسهم . ثم يستدركون فيقولون لا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ مبخوسون بحظوظنا محارفون بهلاك زرعنا.

ثم قال لهم منبهاً على دلالة اخرى فقال ﴿ افرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ والمعنى إنه تعالى امتن عليهم بما انعم عليهم من انزال الماء العذب ﴿من المزن ﴾ يعني السحاب ليشربوه وينتفعوا به ، فقال لهم ﴿أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ له عليكم نعمة منا عليكم ورحمة بكم . ثم قال ﴿ لو نشاء جعلناه اجاجاً ﴾ قال الفراء : الأجاج المر الشديد المرارة من الماء . وقال قوم : الاجاج الذي اشتدت ملوحته ﴿ فلو لا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون على هذه النعمة التي لا يقدر عليها غير الله ، وعلمتم بذلك ان من قدر على ذلك قدر على النشأة الاخرى فانها لا تتعذر عليه كما لا يتعذر عليه هذه النعم .

قولـه تعـالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِؤُنَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠)

عشر آيات بلاخلاف ·

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً ﴿ بموقع ﴾ على التوحيـد · الباقون ﴿ بمواقع ﴾ على الجمع ·

هذا تنبيه آخر من الله تعالى على قدرته على النشأة الثانية ، وعلى وجه الدلالة على ذلك وعلى اختصاصه بصفات لا يشركه فيهـا غيره ، لانه قال ﴿ افرأيتم ﴾ معاشر العقلاء ﴿ النار التي تورون ﴾ فالنـار مأخوذ من النور ، ومنه قول الحارث ابن حلزة :

فتنورت نارها من بعيد بخزازي هيهات منك الصلاء (١)

وجمع النور انوار ، وجمع النار نيران · والنار على ضربين : نار محرقة ، ونار غير محرقة · فالتي لا تحرق النار الكامنة بما هي مغمورة به كنار الشجر ونار الحجر ونار الكبد · والتي تحرق هي النار الظاهرة فيما هي مجاورة له مما من شأنه الاشتعال ، وهي معروفة · ومعنى « تورون » تظهرون النار ، ولا يجوز الهمزة ، لأنه من اورى يورى إيراء إذا قدح ، فمعنى تورون تقدحون · وورى الزند يوري ، فهو وار إذا. أنقدحت منه النار،ووريت بك زنادي إذا اصابك أمري كما يضيء القدح بالزناد

ثم قال « أأنتم أنشأتم شجرتها » يعني الشجرة التي تنقدح منها النار أي انتم انبتموها وابتدأتموها « أم نحن المنشئون » لها ، فلا يمكن أحد ان يدعي ان الذي أنشأها غير الله تعالى والعرب تقدح بالزند والزندة ، وهو خشب معروف يحك بعضه ببعض فيخرج منه النار ـ ذكره الزجاج وغيره ـ وفي المثل (كل شجرة فيها نار واستمجد المرخ والعفار) فان قيل : لم لا يكون نار الشجر بطبع الشجر لا من

(١) اللسان (نور)

قادر عليه . قيل : الطبع غير معقول ، فلا يجوز أن يسند اليه الأفعال ، ولو جاز ذلك لزم في جميع افعال الله ، وذلك باطل ، لو كان معقولا لكان ذلك الطبع لابد ان يكون في الشجر والله تعالى الذي أنشأ الشجرة وما فيها ، فقد رجع الى قادر عليه وإن كان بواسطة ، ولو جاز ان تكون النار من غير قادر عليها لجاز أن يكون من عاجز ، لأنه إذا امتنع الفعل ممن ليس بقادر عليه منا ، لأنه فعل ، وكل فعل ممتنع ممن ليس بقادر عليه .

وقوله « نحن جعلناها » يعني تلك النار « تذكرة ومتاعاً للمقوين » أي جعلنا النار تذكرة للنار الكبرى ، وهي نار جهنم ، فيكون ذلك زجراً عن المعاصي التي يستحق بها النار - في قول مجاهد وقتادة - ويجوز ان يكون المراد تذكرة يتذكر بها ويتفكر فيها ويعتبر بها ، فيعلم انه تعالى قادر على النشأة الثانية ، كما قدر على إخراج النار من الشجر الرطب . وقوله « ومتاعاً للمقوين » يعني ينتفع بها المسافرون الذين نزلوا الأرض التي وهي القفر ، قال الراجز :

قيّ يناصيها بلاد قيّ (١)

وقال ابن عباس و مجاهدوقتادة والضحاك : للمقوين المسافرين . وقيل : هو من أقوت الدار إذا خلت من أهلها قال الشاعر :

اقوى واقفر من نعم وغيرها　　　　هوج الرياح بها في الترب موار (٢)

وقد يكون المقوي الذي قويت خيله ونعمه في هذا الموضع .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين بأن « سبح بحمد ربك العظيم » أي نزه الله تعالى عما لا يليق به وأدعه باسمه العظيم .

وقوله « فلا اقسم بمواقع النجوم » قال سعيد بن جبير : (لا) صلة والتقدير

---

(١) اللسان (قوا)　　　　(٢) تفسير الطبري ٢٧ / ١٠٤

أقسم . وقال الفراء : هي نفي بمعنى ليس الأمر كما تقولون . ثم استؤنف « اقسم »
وقيل (لا) تزاد قبل القسم ، كقولك لا والله لا افعل ، ولا والله ما كلمت زيداً
وقال امرؤالقيس :

لا وأبيك ابنـة العامري لا يدعي القوم أني أفر (١)

بمعنى وابيك و (لا) زائدة و « مواقـع النجوم » قال ابن عباس ومجاهد
أي القرآن ، لانه أنزل نجوماً . وقال مجاهـد ـ فى رواية أخرى ـ وقتادة : يعني
مساقط نجوم السماء ومطالعها . وقال الحسن : معناه إنكدارها وهو إنتشارها يوم
القيامة . ومن قرأ « بموقع » فلأنه يقع على الكثير والقليل . ومن قرأ على الجمع ،
فلا ختلاف أجناسه .

وقوله « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » اخبار من الله تعالى بأن هذا القسم
الذي ذكره بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمه لا نتفعتم بعلمه . والقسم
جملة من الكلام يؤكد بها الخبر بما يجعله فى قسم الصواب دون الخطأ على طريقة بالله
إنه لكذا . وقال ابو علي الجبائي : القسم فى كل ما ذكر فى القرآن من المخلوقات إنما
هو قسم بربه ، وهذا ترك الظاهر من غير دليل ، لأنه قد يجوز ذاـك على جهة
التنبيه على ما فى الاشياء من العبرة والمنفعة . وقد روي أنه لا ينبغي لأحد أن
يقسم إلا بالله ، ولله ان يقسم بما يشاء من خلقه ، فعلى هذا كل من اقسم بغير الله
او بشيء من صفاته من جميع المخلوقات او الطلاق او العتاق لا يكون ذلك يميناً
منعقدة ، بل يكون كلاماً لغواً . والعظيم هو الذي يقصرعن مقداره غيره فيمايكون
منه ، وهو على ضربين : احدهما ـ عظيم الشخص . والآخر ـ عظيم الشأن .

وقوله « إنه لقرآن كريم » معناه إن الذي تلوناه عليـكم لقرآن تفرقون به

(١) ديوانه (السندوبي) ٩٤

بين الحق والباطل « كريم » فالكريم هو الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير ، فلما كان القرآن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالادلة التي تؤدي إلى الحق في الدين كان كريماً على حقيقة معنى الكريم ، لاعلى التشبيه بطريق المجاز . والكريم في صفات الله من الصفات النفسية التي يجوز فيها لم يزل كريماً ، لأن حقيقته تقتضي ذلك من جهة ان الكريم الذي من شأنه ان يعطي الخير الكثير ، فلما كان القادر على التكرم هو الذي لا يمنعه مانع من شأنه ان يعطي الخير الكثير صح أن يقال إنه لم يزل كريماً .

وقوله « في كتاب مكنون » قيل : هو اللوح المحفوظ أثبت الله تعالى فيه القرآن والمكنون المصون .

وقوله « لا يمسه إلا المطهرون » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : لا يمس الكتاب الذي في السماء إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة - في قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وجابر وابن زيد وأبي نهيد ومجاهد . وقيل « لا يمسه إلا المطهرون » في حكم الله . وقد استدل بهذه الآية على أنه لا يجوز للجنب والحائض والمحدث أن يمسوا القرآن ، وهو المكتوب في الكتاب الذي فيه القرآن أو اللوح . وقال قوم : إنه لا يجوز لهم ان يمسوا الكتاب الذي فيه ، ولا أطراف او راقه ، وحملوا الضمير على انه راجع إلى الكتاب وهو كل كتاب فيه القرآن . وعندنا إن الضمير راجع إلى القرآن . وإن قلنا إن الكتاب هو اللوح المحفوظ ، فلذلك وصفه بأنه مصون ، ويبين ما قلناه قوله « تنزيل من رب العالمين » يعني هذا القرآن تنزيل من رب العالمين أنزله الله الذي خلق الخلائق ودبرهم على ما أراد .

قوله تعالى :

﴿ أَفَبِهٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ

أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (٩١).

إثنا عشرة آية شامي، واحدى عشرة فيما عداه، عد الشاميون « وروح وريحان » ولم يعده الباقون.

قرأ يعقوب « فروح وريحان » بضم الراء. الباقون بفتحها، وهما لغتان. وقال الزجاج: الروح بفتح الراء معناه الراحة وبالضم معناه حياة دائمة لاموت معها.

يقول الله تعالى مخاطباً المكلفين على وجه التقريع لهم والتوبيخ بصورة الاستفهام « أفبهذا الحديث » الذي حدثناكم به وأخبرناكم به من حوادث الامور « أنتم مدهنون » قال ابن عباس: معنى مدهنون مكذبون. وقال مجاهد: معناه تريدون أن تمالؤهم فيه وتركنوا اليهم لأنه جريان معهم فى باطلهم. وقيل: معناه منافقون فى التصديق بهذا الحديث وسماه الله تعالى حديثاً كما قال « الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً » (١) ومعناه معنى الحدوث شيئاً بعدشيء ونقيض (حديث) قديم، والمدهن الذي يجري فى الباطل على خلاف الظاهر، كالدهن فى سهولة ذلك

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٣

عليه والاسراع فيه ، أدهن يدهن إدهاناً وداهنه مداهنة مثل نافقه منافقة ، وكل مدهن بصواب الحديث مذموم .

وقوله « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » معناه وتجعلون حظكم من الخير الذي هو كالرزق لكم إنكم تكذبون ويجوز شكر رزقكم ، وقال ابن عباس : معناه وتجعلون شكركم،وروي انه كان يقرأ كذلك . وقيل : حظكم من القرآن-الذي رزقكم الله -التكذيب به - في قول الحسن - وقيل : إنهم كانوا إذا أمطروا وأخصبوا ، قالوا مطرنا بنوء كذا ، فأنزل الله تعالى الآية تكذيباً لهم . وكذلك قرأ المفضل عن عاصم « تكذبون » بفتح التاء خفيفاً .

وقوله « فلولا إذا بلغت الحلقوم » قال الحسن : معناه هلا إذا بلغت هذه النفس التي زعمتم أن الله لا يبعثها الحلقوم « وانتم حينئذ تنظرون » أي تنظرون ما ينزل بكم من امر الله قال الزجاج : قوله تعالى « وانتم حينئذ » خطاب لأهل الميت ، وتقديره إذا بلغت الحلقوم وانتم معاشر اهله ترونه على تلك الصورة . ويحتمل ان يكون المراد وأنتم حينئذ تبصرون على ضرب من المجاز . وقوله « ونحن اقرب اليه منكم » معناه إن الله تعالى يراه من غير مسافة بينه وبينه ، فلا شيء اقرب اليه منه ، واقرب من كل من يراه بمسافة بينه وبينه « ولكن لا تبصرون » معناه ولكن لا تعلمون ذلك لجهلكم بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز . ويحتمل أن يكون المراد ولكن لاتبصرون الله ، لأن الرؤية مستحيلة عليه . وقيل معناه : ولكن لا تبصرون الملائكة التي تتولى قبض روحه .

وقوله « فلولا ان كنتم غيرمدينين » معناه هلا إن كنتم غير مجزيين بثواب الله او عقابه على ما تدعونه من إنكار البعث والنشور « ترجعونها » أي تردون هذه النفس إلى موضعها « إن كنتم صادقين » في قولكم وإدعائكم . وحكى الطبري

عن بعض النحويين ان الكلام خرج متوجهاً الى قوم أنكروا البعث ، وقالوا نحن نقدر على الامتناع من الموت ، فقيل لهم : هلا رددتم النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين فيما تدعونه . وقال الفراء : جواب (لولا) (ترجعونها) وهو جواب « فلولا إن كنتم غير مدنيين » اجيبا بجواب واحد ، قال ومثله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب »(١) يعني إن الجواب والخبر في هذا على قياس واحد ، وإنما جاز ان يجاب معنيان بجواب واحـد ، لان كل واحد منهما يوجب ذلك المعنى ، والمعنى فلولا إذا بلغت الحلقوم على ادعائهم انه لا يصح ان يكون القادر على إخراجها قادراً على ردها يلزم ان يكون القادر على ردها غيره ، وكذلك يلزم من قولهم إنه لا يصح ان يقدر على ردها للجزاء ان يكون القادر غيره منهم ومن أشباههم . والرجع جعل الشيء على الصفة التي كان عليها قبل ، وهو إنقـلابه الى الحال الأولى ، ولو انقلب إلى غيرها لم يكن راجعاً . ووجه إلزامهم على إنكار الجزاء ورجوع النفس الى الدنيا ان إنكار ان يكون القـادر على النشأة الأولى قادراً على النشأة الثانية كادعاء ان القادر على الثانية انما هو من لم يقدر على الأولى ، لأن إنكار الاول يقتضي ايجاب الثاني كانكار ان يكون زيد المتحرك حركت نفسه في اقتضاء ان غيره حركه . ومعنى « غير مدنيين » غير مجزيين . وقيل : معناه غير مملوكين ، والدين الجزاء . ومنه قولهم : كما تدين تدان أي تجزي تجزى والدين العمل الذي يستحق به الجزاء من قوله « ان الدين عندالله الاسلام » (٢) ومنه دين اليهود غير دين النصارى ، وفلان يتدين أي يعمل ما يطلب به الجزاء من الله تعالى ، والعبد مدين ، لانه تحت جزاء

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩

مولاه ، وإنما يجوز الانقلاب من صفة الى صفة على ان يكون على احدها بجعل جاعل ومن استحق صفة النفس لا لمعنى ولا بالفاعل ، لايجوز ان ينقلب عنها الى غيرها .

وقوله « فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » اخبار من الله تعالى بما يستحقه المكلفون لمن كان منهم سابقاً الى الخيرات والى افعال الطاعات فله روح وريحان ، وهو الهوى الذي يلذ النفس ويزيل عنها الهم . وقيل : الروح الراحة والريحان : الرزق - في قول مجاهد وسعيد بن جبير - وقال الحسن وقتادة : هو الريحان المشموم ، وكل نبات طيب الريح ، فهو ريحان . وقيل الروح الفرح . وقيل : الروح النسيم الذي تستريح اليه النفس . واصل ريحان روحان ، لأنه من الواو إلا انه خفف ، وأهمل التثقيل للزيادة التي لحقته من الالف والنون - ذكره الزجاج - وقوله « وجنة نعيم » أي ولهذا المقرّب مع الروح والريحان « جنة نعيم » أي بستان ينعم فيها ويلتذ بأنواع الثمار والفواكه فيها .

وقوله « واما ان كان من اصحاب اليمين » وقد فسرنا معناه « فسلام لك من اصحاب اليمين » دخلت كاف الخطاب كما يدخل في ناهيك به شرفاً ، وحسبك به كرماً أي لا تطلب زيادة جلالة على جلالة ، وكذلك سلام لك منهم أي لا تطلب زيادة على سلامهم جلالة وعظم منزلة . وقال قتادة : معناه فسلام لك ايها الانسان الذي من اصحاب اليمين من عذاب الله وسلمت عليك ملائكة الله . وقال الفراء : وسلام لك إنك من اصحاب اليمين فحذفت إنك . وقيل معناه سلمت مما تكره لانك من اصحاب اليمين . وقال الزجاج : معناه وسلام لك إنك ترى فيهم ما تحب من السلامة ، وذكر اصحاب اليمين في اول السورة بأنهم « في سدر مخضود » وذكرهم في آخرها بأنهم يبشرون بالسلامة من كل ما يكرهون . وقيل : إنما كان التبرك باليمين ، لان العمل يتيسر بها ، واما الشمال فيتعسر العمل بها من

نحو الكتابة والتجارة والاعمال الدقيقة .

قولـه تعـالى :

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٩٦) خمس آيات بلا خلاف .

لما اخبر الله تعالى ما للسابقين من انواع الثواب والنعيم ، وبين ما لأصحاب اليمين من الخيرات والثواب الجزيل اخبر بما للكفار المكذبين بيوم الدين المنكرين للبعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب ، فقال « واما إن كان » هذا الانسان المكلف ﴿ من المكذبين ﴾ بتوحيد الله الجاحدين لنبوة نبيه الدافعين للبعث والنشور ﴿ الضالين ﴾ عن طريق الهدى العادلين عنه ﴿ فنزل من حميم ﴾ أي نزلهم الذي أعدلهم من الطعام والشراب من ماء من حميم ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي احراق بنار جهنم ، يقال صلاه الله تصلية إذا ألزمه الاحراق بها ، وتقديره فله نزل من حميم .

وقوله ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ أي هذا الذي اخبرتك به هو الحق الذي لا شك فيه بل هو اليقين الذي لا شبهة فيه وحق اليقين إنما جاز اضافته الى نفسه ، لانها إضافة لفظية جعلت بدلا من الصفة ، لان المعنى إن هذا لهو حق اليقين ، كما قيل هذا نفس الحائط ، بمعنى النفس الحائط ، وجاز ذلك للايجاز مع مناسبة الاضافة للصفة . واما قولهم ﴿ رجل سوء ﴾ فكقولك رجل سوء وفساد . وقيل معنى حق اليقين حق الأمر اليقين .

وقوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ان ينزه الله تعالى

عما لا يليق به ويذكره باسمه العظيم . وقيل : انه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ (ضعوها فى ركوعكم) وقولوا (سبحان ربي العظيم) والعظيم فى صفة الله معناه ان كل شيء سواه مقصر عن صفته بأنه قادر عالم غني إذ هو قادر لا يعجزه شيء ولا يساويه شيء فى مقدوراته ، وعالم لا يخفى عليه شي على كل وجوه التفصيل ، وغني بنفسه عن كل شيء سواه لايجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه ولا على حال من الاحوال .

٥٧ ـ سورة الحديد

مدنية بلا خلاف ، وهي تسع وعشرون آية فى الكوفي والبصري وثمان وعشرون فى المدنيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ ﴾ (٥) خمس آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً ان جميع ما في السموات والارض يسبح له . وقد بينا فى غير موضع معنى التسبيح وانه التنزيه له عن الصفات التى لا تليق به . فمن كان

من العقلاء عارفاً به فانه يسبحه لفظاً ومعنى ، وما ليس بعاقل من سائر الحيوان والجمادات فتسبيحها ما فيها من الآية الدالة على وحدانيته وعلى الصفات التي باين بها جميع خلقه ، وما فيها من الحجج على أنه لا يشبه خلقه وأن خلقه لا يشبهه، ذلك بالتسبيح . وإنما كرر ذكر التسبيح فى غير موضع من القرآن لانعقاده لمعان مختلفة لاينوب بعضها مناب بعض ، فمن ذلك قوله « وإن من شيء إلا يسبح بحمده »(١) فهذا تسبيح بحمد الله وأما « سبح لله ما فى السموات والارض » فهو تسبيح بالله « العزيز الحكيم » فكل موضع ذكر فيه فلعقده بمعنى لا ينوب عنه غيره منابه ، وإن كان مخرج الكلام على الأطلاق « والعزيز الحكيم » معناه المنيع بأنه قادر لا يعجزه شيء العليم بوجوه الصواب فى التدبير ، ولا تطلق صفة « العزيز الحكيم » إلا فيه تعالى ، لانه على هذا المعنى .

وقوله « له ملك السموات والارض » اخبار بأن له التصرف فى جميع ما فى السموات والارض وليس لاحد منعه منه ولا أن احداً ملكه ذلك وذاك هو الملك الاعظم ، لان كل ما عداه فما يملكه ، فان الله هو الذي ملكه إياه ، وله منعه منه .

وقوله « يحيي ويميت » معناه يحيي الموات ، لأنه يجعل النطفة وهي جماد حيواناً ويحييها بعد موتها يوم القيامة ، ويميت الاحياء إذا بلغوا آجالهم التي قدرها لهم « وهو على كل شيء قدير » أي كل ما يصح ان يكون مقدوراً له ، فهو قادر عليه .

وقوله « هو الاول والآخر » قيل فى معناه قولان :

احدها - قال البلخي إنه كقول القائل : فلان اول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه أي عليه يدور الأمر وبه يتم .

الثاني - قال قوم : هو أول الموجودات لانه قديم سابق لجميع الموجودات وما

(١) سورة ١٧ الاسري آية ٤٤

عداه محدث . والقديم بسبق المحدث بما لا يتناهى من تقدير الاوقات . والآخر بعد فناء كل شيء ، لانه تعالى يفني الأجسام كلها وما فيها من الاعراض ، ويبقى وحده ففي الآية دلالة على فناء الاجسام .

وقوله « الظاهر والباطن » قيل فى معناه قولان :

احدهما ـ انه العالم بما ظهر وما بطن .

الثاني ـ انه القاهر لما ظهر وما بطن من قوله تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين » (١) ومنه قوله « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) وقيل : المعنى إنه الظاهر بادلته الباطن من أحساس خلقه « وهو بكل شيء عليم » ما يصح ان يكون معلوماً ، لانه عالم لنفسه .

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال « هو الذي خلق السموات والارض » أي اخترعها وانشأها « فى ستة ايام » لما فى ذلك من اعتبار الملائكة بظهور شيء بعد شيء من جهة ولما فى الاخبار به من المصلحة المكلفين ولو لا ذلك لكان خلقها فى لحظة واحدة ، لأنه قادر على ذلك من حيث هو قادر لنفسه .

وقوله « ثم استوى على العرش » أي استولى عليه بالتدبير قال البعيث .

ثم استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق (٣)

وهو بشر بن مروان ، لما ولاه اخوه عبد الملك بن مروان . وقيل : معناه ثم عمد وقصد الى خلق العرش ، وقد بينا ذلك فيما تقدم . ثم قال « يعلم ما يلج في الارض » أي ما يدخل في الارض ويستتر فيها ، فالله عالم به لا يخفى عليه منه شيء « وما يخرج منها » أي ويعلم ما يخرج من الارض من سائر النبات والحيوان والجماد

(١) سورة ٦١ الصف آية ١٤ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٨٨

(٣) مر في ١/ ١٢٥ ، و ٢ /٣٩٦و٤ \ ٤٥٢ و٥ \ ٣٨٦

ولا يخفى عليه شيء « وما ينزل من السماء » أي ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وغير ذلك من أنواع ما ينزل منها لا يخفى عليه شيء منها « وما يعرج فيها » أي ويعلم ما يعرج في السماء من الملائكة وما يرفع اليها من أعمال الخلق « وهو معكم » يعني بالعلم لا يخفى عليه حالكم وما تعملونه « والله بما تعملون بصير » من خير وشر أي عالم به .

ثم قال « له ملك السموات والارض » أي له التصرف فيهما على وجه ليس لاحد منعه منه « واليه ترجع الامور » يوم القيامة . والمعنى أن جميع من ملكه شيئاً في دار الدنيا يزول ملكه ولا يبقى ملك أحد ، ويتفرد تعالى بالملك ، فذلك معنى قوله « واليه ترجع الامور » كما كان كذلك قبل أن يخلق الخلق .

قوله تعالى :

﴿ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ

دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٠) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ ابو عمرو وحده ﴿ وقد اخذ ميثاقكم ﴾ بضم الألف ، على ما لم يسم فاعله . الباقون ـ بالفتح ـ بمعنى واخذ الله ميثاقكم . وقرأ ابن عامر ووحده ﴿ وكل وعد الله الحسنى ﴾ بالرفع ، وهي في مصاحفهم بلا الف جعله مبتدءاً وخبراً وعدّى الفعل الى ضميره ، وتقديره : وكل وعده الله الحسنى ، كما قال الراجز :

قد اصبحت أم الخيار تدعي   عليّ ذنباً كله لم أصنع

أي لم اصنعه ، لحذف الهاء . الباقون بالنصب على أنه مفعول ﴿ وعد الله ﴾ وتقديره وعد الله كلاً الحسنى ، ويكون (الحسنى) في موضع نصب بأنه مفعول ثان وهو الأقوى .

معنى قوله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي إن ما ينقص من الليل يزيده في النهار ، وما ينقص من النهار يزيده في الليل حسب ما قدره على علم من مصالح عباده . وقيل : إن معناه إن كل واحد منهما يتعقب صاحبه ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ ومعناه هو عالم بأسرار خلقه وما يخفونه في قلوبهم من الضمائر والاعتقادات لا يخفى عليه شيء منها .

ثم امر تعالى المكلفين فقال ﴿ آمنوا بالله ﴾ معاشر العقلاء وصدقوا نبيه وأقروا بوحدانيته واخلاص العبادة له ، وصدقوا رسوله ، واعترفوا بنبوته ﴿ وانفقوا ﴾ في طاعة الله والوجوه التي أمركم الله بالانفاق فيها ﴿ مما جعلكم مستخلفين

فيه) قال الحسن : معناه ما استخلفكم فيه بوراثتكم اياه عمن كان قبلكم .

ثم بين ما يكافيهم به إذا فعلوا ذلك ، فقال (فالذين آمنوا منكم) بما أمرتهم بالايمان به (وانفقوا) مما دعوتهم الى الانفاق فيه (لهم مغفرة) من الله لذنوبهم (واجر كبير) أي وثواب عظيم .

ثم قال الله تعالى على وجه التوبيخ لهم (وما لكم) معاشر المكلفين (لا تؤمنون بالله) وتعترفون بوحدانيته واخلاص العبادة له (والرسول يدعوكم) إلى ذلك (لتؤمنوا بربكم) أي لتعترفوا به وتقروا بوحدانيته (وقد اخذ ميثاقكم) معناه إنه لما ذكر تعالى دعاء الرسول الى الايمان بين انه قد اخذ ميثاقكم ايضاً به ، ومعنى اخذ ميثاقكم انه نصب لكم الأدلة الدالة الى الايمان بالله ورسوله ورغبكم فيه وحثكم عليه وزهدكم في خلافه ، ومعنى (إن كنتم مؤمنين) اي إن كنتم مؤمنين بحق فالايمان قد ظهرت أعلامه ووضحت براهينه :

ثم قال (هو الذي ينزل على عبده) يعني ان الله تعالى هو الذي ينزل على محمد صلى الله عليه وآله (آيات بينات) أي حججاً وادلة واضحة وبراهين نيرة (ليخرجكم من الظلمات الى النور) ومعناه فعل بكم ذلك ليخرجكم من الضلال الى الهدى - في قول مجاهد وغيره - وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة : إن الله تعالى خلق كثيراً من خلقه ليكفروا به ويضلوا عن دينه . وإنما اخرجهم من الضلال الى الهدى بما نصب لهم من الأدلة التي إذا نظروا فيها افضى بهم الى الهدى والحق ، فكأنه اخرجهم من الضلال ، وإن كان الخروج من الضلال الى الهدى من فعلهم ، وسمى الدلالة نوراً ، لانه يبصر بها الحق من الباطل ، وكذلك العلم ، لانه يدرك به الامور كما تدرك بالنور ، فالقرآن بيان الاحكام على تفصيلها ومراتبها .

وقوله (إن الله بكم لرؤف رحيم) اخبار منه تعالى أنه بخلقه رؤف رحيم .

والرأفة والرحمة من النظائر .

وقوله « وما لكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله » استبطأهم فى الانفاق فى سبيل الله الذي رغبهم بالانفاق فيها .

وقوله « ولله ميراث السموات والارض » قد بينا أن جميع ما يملكونه فى الدنيا يرجع الى الله ، ويزول ملكهم عنه ، فان أنفقوه كان ثواب ذلك باقياً لهم .

وقوله «لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل . . . » بين الله تعالى أن الانفاق قبل الفتح فى سبيل الله إذا انضم اليه الجهاد فى سبيله أكثر ثواباً عند الله ، والمراد بالفتح فتح مكة وفي الكلام حذف ، لأن تقديره لا يستوى هؤلاء مع الذين أنفقوا بعد الفتح ، والكلام يدل عليه . وإنما امتنع مساواة من انفق بعده لمن انفق قبله ، لعظم العناية الذي لا يقوم غيره مقامه فيه ، فى الصلاح فى الدين وعظم الانتفاع به ، كما لا يقوم دعاء غير النبي ﷺ الى الحق مقام دعائه ولا يبلغه أبداً ، وليس في الآية دلالة على فضل انسان بعينه ممن يدعى له الفضل ، لأنه يحتاج أن يثبت ان له الانفاق قبل الفتح ، وذلك غير ثابت . ويثبت أن له القتال بعده. ولما يثبت ذلك ايضاً فكيف يستدل به على فضله .

فأما الفتح فقال الشعبي : أراد فتح الحديبية . وقال زيد بن اسلم ، وقتادة : أراد به فتح مكة . ثم سوى تعالى بين الكل فى الوعد بالخير والجنة والثواب فيها ـ وإن تفاضلوا فى مقاديره ـ فقال « وكلا وعد الله الحسنى » يعني الجنة والثواب فيها « والله بما تعملون خبير » لا يخفى عليه شيء من ذلك من انفاقكم وقتالكم وغير ذلك فيجازيكم بحسب ذلك ،

قوله تعالى :

﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ

أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْامَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥) .

خمس آيات كوفى وأربع فيما عداه، عد الكوفيون « من قبله العذاب » ولم يعده الباقون

قرأ ابن كثير « فيضعفه » بالتشديد وضم الفاء ، وبه قرأ ابن عامر إلا انه فتح الفاء . وقد مضى تفسيره في البقرة ، وقرأ حمزة وحده « الذين آمنوا انظرونا » بقطع الهمزة وكسر الظاء . الباقون بوصلها وضم الظاء . وقرأ ابو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل « فاليوم لا تؤخذ » بالتاء لتأنيث الفدية . الباقون - بالياء - لان التأنيث ليس بحقيقي . وقد فصل بين الفعل والفاعل بـ (منكم) .

قال الحسن : معنى قوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ هو التطوع في جميع الدين . وقال غيره : معناه من ذا الذي ينفق في سبيل الله إنفاقاً كالقرض

والقرض اخذ الشيء من المال باذن صاحبه بشرط ضمان رده ، وأصله القطع ، فهو قطعه عن مالكه باذنه لانفاقه على رد مثله . والعرب تقول : لي عندك قرض صدق وقرض سوء إذا فعل به خيراً او شراً قال الشاعر :

ونجزي سلامان بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم وازلت (١)

وقوله ﴿ فيضاعفه له ﴾ فالمضاعفة الزيادة على المقدار مثله او أمثاله ، وقد وعد الله بالحسنة عشر امثالها ، والانفاق في سبيل الله حسنة فهو داخل في هذا الوعد ومن شدد العين ، فلان الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . ومن ضم الفاء جعله عطفاً على من ذا الذي يقرض فيضاعفه او على تقدير فهو يضاعفه . ومن نصب فلأنه جواب الاستفهام .

وقوله ﴿ وله أجر كريم ﴾ معناه إن له مع مضاعفة ما أنفقه اجراً زائداً كريماً ، فالكريم الذي من شأنه ان يعطي الخير العظيم ، فلما كان الأجر يعطي النفع العظيم ، كان الأجر كريماً ، لانه يوجد شرف النفع بما لا يلحقه ما ليس بأجر .

وقوله ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم ﴾ فـ (يوم) يتعلق بقوله ﴿ لهم اجر كريم ... يوم ترى ﴾ قال قتادة : معناه إنه يسعى نورهم أي الضياء الذي يرونه ﴿ بين ايديهم و بأيمانهم ﴾ وقال الضحاك : نورهم هداهم . قال ﴿ وبأيمانهم ﴾ كتبهم . وقيل ﴿ وبأيمانهم ﴾ معناه وعن أيمانهم . وقيل : وفي أيمانهم . وقوله ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ أي تجري تحت اشجارها الانهار ، أي يقال لهم : الذي تبشرون به اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أى مؤبدين لا يفنون .

ثم قال ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فعظم الفوز والفلاح يتضمن اجلال النعمة

---

(١) قائله الشنفري ، تفسير الطبرى ٢٧ / ١١٥

والاكرام مع الحمد بالاحسان على طريق الدوام ، فكل ما فعل من أجل الثواب فالنعمة به أجل والاحسان به اعظم .

وقوله ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ يجوز أن يتعلق (يوم) بقوله ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ... يوم ﴾ أي في يوم . ويجوز ان يكون على تقدير واذكر يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴿ الذين آمنوا ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ انظرونا ﴾ فمن قطع الهمزة اراد أخرونا ولا تعجلوا علينا واستأخروا نستضيء بنوركم . ومن وصلها اراد ينظرون . وقيل : انظرني ايضاً بمعنى انتظرني ، قال عمرو ابن أم كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا (١)

ويقال : انظرني بمعنى أخرني . وقوله ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ فالنور الضياء ، وهو ضد الظلمة ، وبالنور يستضاء في البصر وفي الامور ، وفي البصر نور وكذلك في النار . ومعنى ﴿ نقتبس ﴾ نأخذ قبساً من نوركم ، وهو جذوة منه فقالوا لهم ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ أي ارجعوا الى خلفكم فاطلبوا النور فانه لانور لكم عندنا ، فاذا تأخروا ضرب الله بينهم بسور . ومن وصلها أراد انتظرونا .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ فضرب بينهم ﴾ يعني بين المؤمنين و بين المنافقين ﴿ بسور ﴾ والباء زائدة وهو المضروب بين الجنة والنار ﴿ له باب باطنه فيه الرحمة ﴾ لأن فيه الجنة ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ يعني من قبل المنافقين العذاب ، لكون جهنم هناك .

ثم حكى الله تعالى أنهم ﴿ ينادونهم ﴾ يعني المنافقون فيقولون لهم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ في دار الدنيا ومخالطين لكم ومعاشرين ، فيجيبهم المؤمنون فيقولون ﴿ بلى ﴾ كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أى تعرضتم للفتنة وتربصتم بالمؤمنين

(١) تفسير القرطبي ١٧ | ٢٤٥ والطبري ٢٧ | ١١٦

الدوائر ﴿ وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ أى شككتم فيما اخبركم به رسولنا وغركم ما كنتم تمنون حتى طمعتم في غير مطمع ﴿ حتى جاء امر الله ﴾ في نصرة نبيه والمؤمنين معه وغلبته إياكم ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان وسمي بذلك لكثرة ما يغر الناس. ومن غر غيره مرة واحدة فهو غار . وقرىء بالضم ، وهو كل ما غر من متاع الدنيا ـ ذكره الزجاج . والغرور بضم الغين المصدر . ثم يقول لهم الملائكة او المؤمنون ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أى ما تفدون به أنفسكم لا يقبل منكم ﴿ ولا ﴾ يؤخذ ﴿ من الذين كفروا ﴾ الفداء ﴿ ومأواكم ﴾ أى مقركم وموضعكم الذى تأوون اليه « النار هي مولاكم » أى هي اولى بكم « وبئس المصير » أى بئس المأوى والموضع والمرجع اليه قال لبيد :

قعدت كلا الفرجين تحسب انه ... مولى المخافة خلفها وأمامها (١)

أى تحسب أن كليهما اولى بالمخافة .

قولــه تعــالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ

(١) مر في ٥ | ١٤٢

وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢٠) خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ﴿ وما نزل من الحق ﴾ بتخفيف الزاي نافع وحفص عن عاصم، لانه يقع على القليل والكثير، ويكون النزول مضافاً الى الحق. الباقون بالتشديد بمعنى أن الله هو الذى نزل الحق شيئاً بعد شيء. وقرأ ابن كثير وابو بكر عن عاصم وابن زيد ﴿ المصدقين والمصدقات ﴾ بتخفيف الصاد يذهبون إلى التصديق الذى هو خلاف التكذيب، ومعناه إن المؤمنين والمؤمنات. الباقون - بتشديد الصاد - يذهبون أن الأصل المتصدقين، فادغمت التاء في الصاد لتقارب مخرجها وشدد.

ومعنى قوله ﴿ الم يأن ﴾ ألم يحن ﴿ للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أى تخضع اسماع ذكر الله ويخافون عقابه، وينبغي ان يكون هذا متوجهاً الى طائفة مخصوصة لم يكن فيهم الخشوع التام حثوا على الرقة والرحمة. وأما من كان ممن وصفه الله بالخشوع والرحمة والرقة فطبقة فوق هؤلاء المؤمنين، ويقال أنى يأني أنا إذا حان، ومنه قوله ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ (٢) أى منتهاه. والخشوع لين القلب

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٣

للحق بالانقياد له ، ومثله الخضوع وضده قسوة القلب . والحق ما دعا اليه العقل وهو الذى من عمل به نجا ومن عمل بخلافه هلك ، والحق مطلوب كل عاقل في نظره وإن اخطأ طريقه ، والقسوة غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحق ، قسا قلبه يقسو قسوة ، فهو قاس .

﴿ وما نزل من الحق ﴾ من خفف اضاف النزول إلى الحق ومن شدد اراد ما نزله الله من الحق ﴿ ولا يكونوا ﴾ أى وألا تكونوا ﴿ كالذين اوتوا الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ من قبل ﴾ أى من قبلهم فيكون موضعه نصباً . ويحتمل ان يكون مجزوماً على النهي ﴿ فطال عليهم الامد ﴾ يعني المدة والوقت ، فان أهل الكتاب لما طال عليهم مدة الجزاء على الطاعات ﴿ فقست قلوبهم ﴾ حتى عدلوا عن الواجب وعملوا بالباطل . وقيل : معناه طال عليهم الأمد ما بين زمانهم وزمن موسى . وقيل :طال عليهم الامد ما بين نبيهم وزمن موسى . وقيل طال أمد الآخرة ﴿ فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالى الى معصيته فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم .

ثم قال ﴿ اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها ﴾ بالجدب والقحط فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الايمان بعد موته بالضلال بأن يلطف له مايؤمن عنده .

ثم قال ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ يعني الحجج الواضحات والدلائل البينات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكي تعقلوا وترجعوا إلى طاعته وتعملوا بما يأمركم به .

وقوله ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ من شدد أراد المتصدقين إلا انه ادغم التاء في الصاد ، ومن خفف اراد الذين صدقوا بالحق ﴿ واقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى انفقوا مالهم في طاعة الله وسبيل مرضاته . ثم بين ما أعد لهم من الجزاء فقال

﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يجازون بأمثال ذلك . ومن شدد العين اراد التكثير ، لأن الله تعالى يعطي بالواحد عشراً إلى سبعين إلى سبع مئة . ثم قال « ولهم أجر كريم » أي لهم جزاء وثواب مع إكرام الله إياهم وإجلاله لهم . ثم قال ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ يعني الذين صدقوا بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وأقروا بنبوة رسله ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ الذين صدقوا بالحق . ثم قال مستأنفاً ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ قال ابن عباس ومسروق وابو الضحى والضحاك : هو منفصل مما قبله مستأنف والمراد بالشهداء الانبياء عليهم السلام ويجوز ان يكون معطوفاً على ما تقدم وتقديره أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء ، ويكون لهم أجرهم ونورهم للجماعة من الصديقين والشهداء ، فكأنه قال : كل مؤمن شهيد على ما رواه البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وآله وعن عبد الله بن مسعود ومجاهد ، فيكون التقدير أولئك هم الصديقون عند ربهم والشهداء عند ربهم.

ثم قال ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ أي لهم ثواب طاعاتهم ونور إيمانهم الذي يهتدون به إلى طريق الجنة . ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بالله وجحدوا توحيده وكذبوا رسله « وكذبوا بآياتنا » يعني حججه وبيناته « أولئك اصحاب الجحيم » يعني إنهم يلزمهم الله الجحيم فيبقون فيها دائمين . ثم زهد المؤمنين في الدنيا والسكون إلى لذاتها ، فقال ﴿ اعلموا ﴾ معاشر العقلاء والمكلفين « إنما الحياة الدنيا » يعني في هذه الدنيا « لعب ولهو » لانه لا بقاء لذلك ولا دوام وإنه يزول عن وشيك كما يزول اللعب واللهو « وزينة » تتزينون بها في الدنيا « وتفاخر بينكم » يفتخر بعضكم على بعض « وتكاثر في الاموال والأولاد » أي كل واحد يقول مالي أكثر وأولادي اكثر . ثم شبه ذلك بأن قال مثله في ذلك « كمثل غيث » يعني مطراً « اعجب الكفار نباته » أي اعجب الزراع ما نبت بذلك الغيث فالكفار الزراع . وقال الزجاج : ويحتمل ان يكون المراد الكفار

بالله لأنهم اشد إعجاباً بالدنيا من غيرهم «ثم يهيج» أي ييبس فيسمع له لما تدخله الريح صوت الهائج «فتراه مصفراً» وهو إذا قارب اليبس ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي هشيما بأن يهلكه الله مثل افعال الكافر بذلك، فانها وإن كانت على ظاهر الحسن فان عاقبتها الى هلاك ودمار مثل الزرع الذي ذكره. ثم قال وله مع ذلك «وفي الآخرة» ﴿عـــذاب شديد﴾ من عذاب النار للعصاة والكفار «ومغفرة من الله ورضوان» للمؤمنين المطيعين. ثم قال «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» معناه العمل للحياة الدنيا متاع الغرور وإنها كهذه الاشياء التي مثل بها في الزوال والفناء، والغرور - بضم الغين - ما يغر من متاع الدنيا وزينتها.

قولـــه تعـــالى:

﴿سَابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللهِ وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيكُمْ وَٱللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) أَلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو « بما أتاكم » مقصور يعني بما جاءكم . الباقون بالمد يعني بما اعطاكم وقرأ اهل المدينة واهل الشام « فان الله الغني الحميد » بلا فصل لانهم وجدوا في مصاحفهم كذلك ، والباقون بأثبات (هو) ، كذلك هو في مصاحفهم فمن اسقط (هو) جعل (الغني) خبر (ان) و (الحميد) نعته ومن زاد (هو) احتمل شيئين :

احدهما - ان يجعل (هو) عماداً أو صلة زائدة .

والثاني - أن يجعله ابتداء ، و (الغني) خبره ، والجملة في موضع خبر (إن) مثل قوله « ان شانئك هو الابتر » (١) يقول الله تعالى آمراً للعقلاء المكلفين وحاثاً لهم على الطاعات « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » والمسابقة طلب العامل التقدم في عمله قبل عمل غيره بالاجتهاد فيه فعلى كل مكلف الاجتهاد في تقديم طاعة الله على كل عمل كما يجتهد المسابق لغيره والمسابقة الى المغفرة بأن يتركوا المعاصي ويفعلوا الطاعات

وقوله « وجنة » معناه سابقوا إلى جنة أي الى استحقاق ثواب جنة « عرضها كعرض السماء والارض » في السعة . وقال الحسن : ان الله تعالى يفني الجنة ويعيدها على ما وصفه في طولها وعرضها ، فبذلك صح وصفها بأن عرضها كعرض السماء والارض . وقال غيره إن الله تعالى قال « عرضها كعرض السماء » الدنيا « والارض » والجنة المخلوقة في السماء السابعة فلا تنافي بين ذلك ، وإذا كان العرض بهذه السعة فالطول اكثر منه او مثله .

وقوله « اعدت » اشتقاقه من العدد والاعداد ، وضع الشيء لما يكون في

(١) سورة ١٠٨ الكوثر آية ٣

المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الذي له ، والمعنى أن هذه الجنه وضعت، وادخرت للذين آمنوا بالله ورسوله ، فيوحدوا الله ويصدقوا رسله . ثم قال « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أي هذا الذي ذكره بأنه معد للمؤمن فضل من الله يؤتيه من يشاء اي يعطيه من يشاء « والله ذو الفضل العظيم » فالفضل والافضال والتفضل واحد وهو النفع الذى كان للقادر ان يفعله بغيره وله ان لا يفعله .

ثم قال تعالى « ما أصاب من مصيبة » اى ليس يصيب احداً مصيبة « في الأرض» في ماله « ولا في إنفسكم إلا » وهو مثبت مذكور « في كتاب » يعني اللوح المحفوظ « من قبل ان نبرأها » ، فالضمير راجع الى النفس كأنه قال : من قبل أن نبرء النفس ويحتمل أن يكون راجعاً الى المصائب من الأمراض والفقر والجدب والغم بالثكل .

ثم قال « ان ذلك » يعني اثبات ذلك على ما ذكره « على الله يسير » أى سهل غير عسير . بين تعالى لم فعل ذلك فقال ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أى لا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من لذات الدنيا وزينتها ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ منها على وجـه البطر والاشر ، فمن قصر أراد بما جاءكم ، ومن مد اراد بما اعطاكم . ثم قال ﴿ والله لا يحب كل مختال ﴾ أى متجبر ﴿ فخور ﴾ على غيره على وجه التكبر عليه ، فان من هذه صفته لا يحبه الله . وفرح البطر مذموم . وفرح الاغتباط بنعم الله محمود . كما قال تعالى ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ والتأسي تخفيف الحزن بالمشاركة فى حاله .

ثم بين صفة المختال الفخور ، فقال ﴿ الذين يبخلون ﴾ بما اوجب الله عليهم من الحقوق فى أموالهم ﴿ ويأمرون الناس بالبخل ﴾ ايضاً . وقيـل : نزلت فى اليهود الذين بخلوا بذكر صفة النبي على ما وجدوه فى كتبهم وأمروا غيرهم بذلك . والبخل والبخل لغتان ، وقرىء بهما . وهو منع الواجب .

ثم قال ﴿ ومن يتول ﴾ يعني ومن يعرض عما ذكره الله وخالف ﴿ فإن الله

هو الغني الحميد ﴾ ومعناه إنه تعالى الغني عن جميع خلقه محمود في جميع افعاله ، فمنع هؤلاء حقوق الله لا يضره ، وإنما ضرر ذلك عليهم .

ثم اقسم تعالى فقال ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ يعني الدلائل والحجج الواضحة ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أي مكتوباً فيه ما يحتاج الخلق اليه كالتوراة والانجيل والقرآن ﴿ والميزان ﴾ أي وانزلنا الميزان وهو ذو الكفتين . وقيل : المراد به العدل ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ يعني بالعدل في الامور ﴿ وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ إخبار من الله تعالى انه الذي انزل الحديد . وروي ان الله تعالى أنزل مع آدم العلاة ـ يعني السندان والمطرقة والكلبتين ـ من السماء ، وهذا صحيح ولا بد منه ، لان الواحد منا لا يمكنه أن يفعل آلات من حديد وغيرها إلا بآلات قبلها ، وينتهي إلى آلات يتولى الله صنعها تعالى الله علواً كبيراً .

وقوله ﴿ فيه بأس شديد ﴾ أي يمتنع به ويحارب به ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي وفيه منافع للناس كأدواتهم وآلاتهم وجميع ما يتخذ من الحديد من آلات ينتفع بها كالسكين وغيرها ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله ﴾ أي فعلت ذلك لما لهم فيه من النفع به ، وليعلم الله من ينصره بنصرة موجودة ، ومن يجاهد مع نبيه جهاداً موجوداً ﴿ بالغيب ﴾ أي ينصر الله ورسله ظاهراً وباطناً ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي قادر على ما يصح أن يكون مقدوراً له لا يقدر احد على قهره ولا على منعه . وقيل : في جواب قوله ﴿ الذين يبخلون ﴾ قولان :

أحدهما ـ إنه محذوف كما حذف في قوله ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ (١) وتقديره الذين يبخلون فهم يستحقون العذاب والعقوبة .

وقيل : أيضاً جوابه جواب قوله ﴿ ومن يتولى ﴾ فعطف بجزاءين على جزاء

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٣٣

واحد، وجعل جزاءيهما واحد، كما تقول: إن تقم وتحسن آتك إلا انه حذف الجواب

قولــه تعــالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٩) .

خمس آيات بصرى وأربع فيما عداه، عد البصريون «وآتيناه الانجيل» ولم يعده الباقون .

يقول الله تعالى مقسما إنه ارسل نوحاً نبياً الى قومه، وإبراهيم ايضاً أرسله إلى قومه وذكر انه تعالى جعل فى ذريتهما - يعني فى ذرية نوح وإبراهيم أيضاً بعد ما أرسلهما الى قومهما «النبوة والكتاب» لان الانبياء كلهم من نسلهما . وعليهم أنزل الكتاب .

ثم أخبر عن حال ذريتهما فقال « فمنهم مهتد » إلى طريق الحق واتباعه « وكثير منهم فاسقون » أي خارجون عن طاعة الله إلى ذل معصيته. ثم اخبر تعالى إنه قفى على آثار من ذكرهم برسل أخر الى قوم آخرين. والتقفية جعل الشيء في أثر الشيء على الاستمرار فيه: ولهذا قيل لمقاطع الشعر قوافي إذا كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه، فكأنه قال: وأنفذنا بعدهم بالرسل رسولا بعد رسولهم « وقفينا بعيسى بن مريم » بعدهم « وآتيناه » أي اعطينا عيسى ابن مريم « الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » وقيل في معناه قولان:

أحدها ـ إنه جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة بالأمر به والترغيب فيه. ثم أخبر انه رزق الرأفة والرحمة. قال ابو زيد: يقال رؤفت بالرجل ورأفت به رأفة ـ بفتح الهمزة، وسكونها ـ.

الثاني ـ إنه خلق في قلوبهم الرأفة والرحمة. وإنما مدحهم على ذلك، لانهم تعرضوا لهما.

وقوله « ورهبانية ابتدعوها » يعني ابتدعوا الرهبانية ابتدعوها وهي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إما في لبسه أو إنفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الامور التي يظهر فيها نسك صاحبها. ومعنى الآية ابتدعوا رهبانية لم تكتب عليهم. ثم قال « ما كتبناها عليهم » الرهبانية « إلا ابتغاء رضوان الله » فالثانية غير الأولى إلا انه لما اتفق الاسمان فيهما كنى عنها بما تقدم، وقام إعادة لفظها مقامها كما قال حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء (١)

فالتقدير ومن يمدحه. والابتداع ابتداء أمر لم يجد فيه على مثال، والبدعة

(١) مر في ١ | ٤١٠ و ٨ | ١٩٨

إحداث أمر على خلاف السنة . وقال قتادة : الرهبانية التي أبتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع . وقال قتادة وابن زيد : تقديره ورهبانية ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله « فما رعوها حق رعايتها » وقال قوم : الرهبانية التي ابتدعوها لحاقهم بالبراري والجبال ـ في خبر مرفوع عن النبي ﷺ فما رعاها الذين بعدهم حق رعايتها ، وذلك لتكذيبهم بمحمد ﷺ ، وقيل : الرهبانية الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة .

وقوله « ما كتبناها عليهم » معناه ما فرضناها عليهم أي تلك الرهبانيـة البتة. وقال الزجاج : معناه ما كتبناها عليهم البتة ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فيكون بدلا من (ها) التي يشتمل عليه المعنى ـ ذكره الزجاج ـ وقيل : كان عليهم تتميمها كما على المبتدىء بصوم التطوع أن يتمه . وقال الحسن : فرضها الله عليهم بعـد ما أبتدعوها ، وقوله « فما رعوها حق رعايتها » معناه فما حفظوها حق حفظها .

ثم قال « فآتينا الذين آمنوا » معناه فأعطينا من آمن بالله ورسوله من جملة المذكورين « أجرهم » أي ثوابهم على إيمانهم . ثم قال « وكثير منهم فاسقون » أي خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به .

وقوله « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » معناه يا أيها الذين اعترفوا بتوحيد الله وصدقوا بموسى وعيسى وأعترفوا بنبوتهما اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ ـ ذكره ابن عباس ـ « يؤتكم كفلين من رحمته » قال ابن عباس: معناه يعطكم أجرين أجراً لايمانكم بمحمد ﷺ وأجراً لايمانكم بمن تقدم من الرسل. وأصل الكفل الحظ ـ في قول الفراء ـ ومنه الكفل الذي يكتفل به الراكب ، وهو

كساء أو نحوه يحويها على الابل إذا أراد أن يرتدف فيه فيحفظه من السقوط ، ففيه حظ من التحرز من الوقوع « ويجعل لكم نوراً تمشون به » قال مجاهد : ويجعل لكم هدى تهتدون به . وقال ابن عباس : النور القرآن ، وفيه الادلة على كل حق وبيان لكل خير ، وبه يستحق الضياء الذي يمشي به يوم القيامة « ويغفر لكم » أي يستر عليكم ذنوبكم « والله غفور رحيم » أي ستار عليكم ذنوبكم رحيم بكم منعم عليكم

وقوله « لئلا يعلم أهل الكتاب ان لا يقدرون على شيء من فضل الله » معناه ليعلم اهل الكتاب الذين يتشبهون بالمؤمنين منهم « أن لا يقدرون » أي انهم لا يقدرون « على شيء من فضل الله » فى قول ابن عباس . و(ان) هي المخففة من الثقيلة . وقيل : معناه ليعلم أهل الكتاب الذين حسدوا المؤمنين بما وعدوا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فيصرفوا النبوة عن محمد ﷺ إلى من يحبونه و (لا) فى (لئلا) صلة وتوكيد . وقيل : إنما تكون (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أواخره جحد ، وإن لم يكن مصرحاً به نحو « ما منعك ان لا تسجد » (١) « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٢) وقوله « وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون » (٣) .

وقوله « وإن الفضل بيد الله » معناه ليعلموا أن الفضل بيد الله « يؤتيه من يشاء » أي يعطيه من يحب « من عباده » ممن يعلم انه يصلح له .

ثم قال « والله ذو الفضل العظيم » معناه ذو تفضل على خلقه واحسان على عباده عظيم لا يحصى كثرة ولا يعد .

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٠٩
(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٥

٥٨ ـ سورة المجادلة

مدنية بلا خلاف، وهي إثنا وعشرون آية في الكوفي والبصري والمدني الأول وإحدى وعشرون في المدني الأخير.

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱلَّلائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) خمس آيات بلاخلاف .

قرأ المفضل عن عاصم « ماهنّ أمهاتهم » على الرفع على لغة بني تميم . الباقون بنصب « أمهاتهم » على لغة أهل الحجاز ، وهي لغة القرآن ، كقوله « ماهذا بشراً » (١) وقرأ عاصم « يظاهرون » بضم الياء بألف . وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو « يظهرون » بغير الف مشددة الظاء والهاء . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي « يظاهرون » بتشديد الظاء والف ، وفتح الياء . وقال ابو علي النحوي : ظاهر من امرأته وظهر مثل ضاعف وضعف وتدخل التــاء على كل واحد منهما ، فيصير تظاهر وتظهر ، ويدخل حرف المضارعة ، فيصير تتظاهر ، ويتظهر . ثم يدغم التاء في الظاء لمقاربتها ، فيصير يظاهرون ويظهرون ـ بفتح الياء ـ التي هي للمضارعة ، لأنها المطاوعة ، كما تفتحها في (يتدحرج) الذي هو مطاوع (دحرجته ، فتدحرج) واختار عاصم أن المظاهرة من المضارعة ، لان المفاعلة لا يكون إلا من نفسين . والظهار يكون بين الرجل وامرأته . ومن قرأ (يظاهرون) فأصله يتظاهرون فأدغم التاء في الظاء .

والظهار قول الرجل لامرأته : انت عليّ كظهر أمي ، وكان أهل الجاهلية إذا قال الرجل منهم هذا لامرأته بانت منه وطلقت . وفي الشرع لاتبين المرأة إلا انه لا يجوز له وطؤها إلا بعد ان يكفر . وعندنا ان شروط الظهار هي شروط الطلاق سواء من كون المرأة طاهراً طهراً لم يقربها فيه بجماع ، ويحضره شاهدين ويقصد التحريم فان اختل شيء من ذلك لم يقع به ظهار . ويقال فيه ظاهر فلان من امرأته ظهاراً ومظاهرة وإظهاراً ، فلان ظاهر وتظاهر تظاهراً إلا انه ادغم واظهر إظهاراً .

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٣١

وأصله تظهر تظهراً إلا انه ادغمت التاء في الظاء ·

وقيل : إن هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس ابن الصامت ـ في قول قتادة ـ وكان مجادلتها إياه مراجعتها في أمر زوجها · وقد كان ظاهر منها ، وهي تقول : كبرت سني ودق عظمي ، وان اوساً تزوجني وانا شابة ، فلما علت سني يريد أن يطلقني · ورسول الله ﷺ يقول بنت منه ـ على ما رواه ابو العالية ـ وفي رواية غيره انه قال لها : ليس عندي في هذا شيء ، فنزلت الآية · وقال ابن عباس : نزلت الآية في أوس بن الصامت · وكانت تحته بنت عم له ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، فهو اول من ظاهر في الاسلام · وقيل كان يقال للمرأة خولة بنت خويلد · وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته: انت عليّ كظهر أمي حرمت عليه ، فأنزل الله تعالى في قصة الظهار آيات · ولا خلاف أن الحكم عام في جميع من يظاهر ، وإن نزلت الآية على سبب خاص ·

فقال الله تعالى لنبيه « لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » فالجدال والمجادلة هي المخاصمة · وقد يقال : للمراجعة والمقابلة المعنى بما يخالفه مجادلة · واصل الجدال الفتل · ومن قابل المعنى بخلافه طلباً للفائدة فليس بمجادل · فمجادلة المرأة لرسول الله كان مراجعتها إياه في أمر زوجها ، وذكرها أن كبرت سني ودق عظمي ، والنبي ﷺ يقول بنت منه ـ على ما رواه ابو العالية ـ لأنه لم يكن نزل عليه في ذلك وحي ولا حكم ·

وقوله « وتشتكي الى الله » أي تظهر ما بها من المكروه ، تقول : اللهم إنك تعلم حالي فارحمني ، فالاشتكاء إظهار ما بالانسان من المكروه · والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه ·

وقوله « والله يسمع تحاوركما » أي مراجعة بعضكما لبعض · والتحاور التراجع

وهو المحاورة، تقول : تحاورا تحاوراً وحاور محاورة أي راجعه في الكلام، قال عنترة :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

و « إن الله سميع بصير » أي على صفة يصح معها ان يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت .

ثم قال « الذين يظاهرون منكم من نسائهم » أي الذين يقولون لنسائهم : أنت علي كظهر أمي، ومعناه إن ظهرك عليّ حرام كظهر أمي، فقال الله تعالى « ما هن أمهاتهم » أي ليست أزواجهم امهاتهم على الحقيقة « إن امهاتهم » أي وليست امهاتهم في الحقيقة « إلا اللائي ولدنهم » من الأم وجداته . ثم اخبر « إنهم ليقولون» أي ان القائل لهذا يقول قولا « منكراً من القول » قبيحاً « وزوراً » أي كذباً، لأنه اذا جعل ظهرها كظهر أمه وليست كذلك كان كاذباً في قوله .

ثم قال تعالى « وإن الله لعفو غفور » أي رحيم بهم منعم عليهم متجاوز عن ذنبهم . وفى ذلك دلالة على ان الله رحمها وغيرها من النساء لرغبتها فى زوجها بالتوسعة من جهة الكفارة التي تحل بها .

ثم بين تعالى ما يلزمه من الحكم، فقال « والذين يظاهرون من نسائهم » يعني الذين يقولون هذا القول الذي حكيناه « ثم يعودون لما قالوا » واختلفوا فى معنى العود، فقال قتادة العود هو العزم على وطئها . وقال قوم : العود الامساك عزم او لم يعزم وقال الشافعي : هو أن يمسكها بالعقد، ولا يتبع الظهار بطلاق . وحكى الطبري عن قوم انهم قالوا : فيه تقديم وتأخير وتقديره : والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ثم يعودون لما قالوا . وقال قوم : معناه ثم يعودون لنقض

ما قالوا وإرتفاع حكمه . وقال قوم : لا تجب عليه الكفارة حتى يعاود القول ثانية . وهو خلاف اكثر اهل العلم .

والذي هو مذهبنا أن العود المراد به إرادة الوطىء او نقض القول الذي قاله ، فانه لا يجوز له الوطىء إلا بعد الكفارة ولا يبطل حكم القول الأول إلا بعد ان يكفر .

وقال الفراء : يحتمل ان يكون المراد ثم يعودون إلى ما قالوا ، وفيما قالوا ، وفي نقض ما قالوا ، أي يرجعون عما قالوا ، ويجوز في العربية أن تقول : إن عاد لما فعل، تريد ان فعله مرة أخرى ، ويجوز إن عاد لما فعل أي نقض ما فعل ، كما تقول: حلف ان يضربك بمعنى حلف ألا يضربك ، وحلف ليضربنك .

وقوله « فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » بيان لكيفية الكفارة ، فان أول ما يلزمه من الكفارة عتق رقبة فالتحرير هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرة بالعتق بأن يقول المالك انه حر . والرقبة ينبغي ان تكون مؤمنة سواء كانت ذكراً او انثى صغيرة او كبيرة إذا كانت صحيحة الاعضاء . فان الاجماع واقع على انه يقع الاجزاء بها . وقال الحسن وكثير من الفقهاء : إن كانت كافرة أجزأت . وفيه خلاف وتفاصيل . ذكرناه في كتب الفقه . وتحرير الرقبة واجب قبل المجامعة لظاهر قوله « من قبل ان يتما سا » أي من قبل ان يجامعها فيتماسا . وهو قول ابن عباس ، فكان الحسن لايرى بأساً ان يغشى المظاهر دون الفرج . وفي رواية اخرى عنه أنه يكره للمظاهر أن يقبل . والذي يقتضيه الظاهر ألا يقربها بجماع على حال ولا بمماسة شهوة وقوله « ذلكم توعظون به » ان تظاهروا . ثم قال « والله بما تعملون خبير » أي عالم بما تفعلونه من خير وشر ، فيجازيكم بحسبه .

ثم قال « فمن لم يجد » يعني الرقبة وعجز عنها « فيصام شهرين متتابعين من

قبل ان يتماسا » والتتابع عند أكثر العلماء ان يوالي بين أيام الشهرين الهلاليين او يصوم ستين يوماً . وعندنا انه إذا صام شهراً ومن الآخر ولو يوماً ، فقد تابع ، فان فرق فيما بعد جاز . وعند قوم : ان يصوم شهراً ونصف شهر لا يفطر فيما بينهما فان افطر لا لعذر استأنف . وان افطر لعذر من مرض اختلفوا ، فمنهم من قال يستأنف من عذر وغير عذر . وبه قال إبراهيم النخعي ورواه جابر عن ابي جعفر عليه السلام وقال قوم : يبني ، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء والشعبي . واجمعوا على ان المرأة إذا افطرت للحيض فى الشهرين المتتابعين فى كفارة قتل الخطأ او فطر يوم انها تبني فقاسوا عليه الظهار . وروى اصحابنا انه اذا صام شهراً ومن الثاني بعضه ولو يوماً ثم افطر لغير عذر ، فقد اخطأ إلا انه يبني على ما قدمناه . وإن افطر قبل ذلك استأنف . ومتى بدأ بالصوم وصام بعضه ثم وجد العتق لا يلزمه العتق وإن رجع كان افضل . وقال قوم : يلزمه الرجوع الى العتق .

ومتى جامع فى ليالي الصوم وجب عليه الاستئناف وبطل حكم التتابع ، لانه خلاف الظاهر . ومتى جامع قبل الكفارة لزمته كفارة ثانية عند اصحابنا ، وكلما وطأ لزمته كفارة بعدد الوطيء

وقوله « فمن لم يستطع » يعني من لم يقدر على الصوم « فاطعام ستين مسكيناً » يعني ـ عندنا ـ لكل مسكين نصف صاع ، فان لم يقدر أعطاه مداً . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه اعطى المظاهر نصف وسق ثلاثين صاعاً . وقال أطعم ستين مسكيناً وراجعها وذلك انه كان فقيراً عاجزاً عن جميع الكفارات. وقال الحسن : اعانه رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة عشر صاعاً . والعدد مراعى ، فان لم يجد العدد كرر على الموجودين تمام الستين .

وإن جامعها قبل ان يتم الاطعام ، فظاهر المذهب يقتضي انه يلزمه كفارة

اخرى ، لأنه وطأ قبل الكفارة . وقال قوم: لا يلزمه. وقال آخرون : يستأنف الكفارة

وقوله « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » معناه إنا شرعنا لكم ما ذكرناه في حكم الظهار لما علمناه من مصلحتكم لتؤمنوا بالله ورسوله ، فتصدقوها وتقروا بتوحيد الله ، وبنبوة نبيه .

ثم قال « وتلك حدود الله » يعني ما ذكرناه من حكم الظهار .

ثم قال « وللكافرين » أي للجاحدين لصحة ما قلناه « عذاب اليم » ومتى نوى بلفظ الظهار الطلاق لم يقع به طلاق . وفيه خلاف بين الفقهاء ، والاطعام لايجوز إلا للمسلمين دون اهل الذمة . وفيه خلاف . ومسائل الظهار وفروعها ذكرناها في كتب الفقه .

ثم قال «إن الذين يحادون الله ورسوله » والمحادة المخالفة في الحدود أي من خالف الله ورسوله فيما ذكراه من الحدود « كبتوا » أي اخذوا ـ في قول قتادة ـ وقال غيره : اذلوا . وقال الفراء : معناه اغيظوا واحزنوا يوم الخندق « كما كبت الذين من قبلهم » يعني من قاتل الانبياء من قبلهم .

ثم قال تعالى « وقد انزلنا آيات بينات » اي حجج واضحات من القرآن وما فيه من الادلة . ثم قال « وللكافرين » أي للجاحدين لما انزلناه من القرآن والآيات « عذاب مهين » أي يهينهم ويخزيهم .

قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَيهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة وحده « ويتنجون » بغير الف . الباقون « يتناجون » بألف . وقرأ ابو جعفر ﴿ ما يكون ﴾ بالياء . الباقون بالتاء ، لان تأنيث نجوى ليس بحقيقي

لما قال الله تعالى ان الكافرين لحدود الله لهم عذاب مهين ، بين متى يكون ذلك ، فقال ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم الى ارض المحشر ويعيدهم احياء ﴿ فينبئهم ﴾ أي يخبرهم ويعلمهم ﴿ بما عملوا ﴾ في دار الدنيا من المعاصي وإرتكاب القبائح . ثم قال ﴿ احصاه الله ونسوه ﴾ أي احصاه الله عليهم واثبته في كتاب اعمالهم

ونسوه ﴿ والله على كل شيء شهيد﴾ ومعناه انه يعلم الاشياء كلها من جميع وجوهها لا يخفى عليه شيء من ذلك وإن كان كثيراً من الاشياء لا يصح مشاهدتها ولا إدراكها ، ومنه قوله ﴿ شهد الله انه لا إله إلا هو ﴾ (١) أي علم ذلك .

ثم بين فقال ﴿ ألم تر ﴾ ومعناه الم تعلم ، والخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين ﴿ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض﴾ من الموجودات لا يخفى عليه شيء منها ، لانه عالم لنفسه يجب ان يكون عالماً بما يصح أن يكون معلوماً . وقيل التقدير ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض مما ترى من تدبيرهما من مسير الشمس والقمر ومجيء الحر والبرد والزرع والثمار وسائر صنوف الاشجار على ما تقتضي الحكمة عالماً دبر ذلك وجعل كل شيء منه في وقته ولما يصلح له ، وذلك يقتضي انه عالم بكل نجوى ، لأنه عالم لنفسه لا بحدوث علم . واذا ثبت انه عالم لنفسه وجب ان يكون عالماً بكل معلوم .

وقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم اينما كانوا ﴾ والمعنى انه عالم بأحوالهم وجميع متصرفاتهم فرادى وعند الاجتماع ، لا يخفى عليه شيء منها ، فكأنما هو معهم مشاهد لهم . وعلى هذا يقال : إن الله تعالى مع الانسان حيث ما كان ، لانه عالم لا يخفى عليه شيء من أمره حتى انه ظاهر له اتم الظهور لمن شاهده ممن هو معه في المكان ، وحسن هذا لما فيه من البيان ، فأما ان يكون معهم على طريق المجاورة فمحال ، لأن ذلك من صفات الاجسام ، والله تعالى ليس بجسم . ويقولون : فلان رابع أربعة إذا كان احد اربعة ورابع ثلاثة اذا جعل ثلاثة اربعة بكونه معهم . ويجوز على هذا ان يقال : رابع ثلاثة ولا يجوز رابع أربعة ، لانه ليس فيه معنى

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨

الفعل . ويجوز في (ثلاثة) الجر باضافة النجوى اليها ، ويجوز بأنها صفة النجوى . ويجوز النصب بأنها خبر(يكون).

وقوله ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ معناه يعلمهم بما عملوه من المعاصي في الدنيا والاعمال ، ويخبرهم بها ، لأن الله بكل شيء عليم ، لايخفى عليه خافية .

ثم قال لنبيه ﷺ والمراد به جميع الأمة ﴿ الم تر ﴾ بمعنى المتعلم ﴿ إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ قال مجاهد : كان النبي ﷺ نهى اليهود عن النجوى بينهم لأنهم كانوا لا يتناجون إلا بما يسوء المؤمنين . وقال الفراء : نزلت في المنافقين واليهود ، ونهوا أن يتناجوا اذا اجتمعوا مع المسلمين في موضع واحد . والنجوى هي الاسرار ،والنجوةالارتفاع من الارض ، وهو الاصل ، ومنه النجا الارتفاع في السير ، والنجاة الارتفاع من البلاء .

وقوله ﴿ ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ معناه يعودون فيتناجون ويخالفون نهي النبي ﷺ ﴿ ويتناجون بالاثم العدوان ومعصيت الرسول ﴾ والتناجي والمناجاة تكون بين اثنين فصاعداً ، ويقال : انتجوا بمعنى تناجوا ، كما يقال اختصموا وتخاصموا وكذلك انتجوا وتناجوا بمعنى .

وحجة حمزة قول النبي ﷺ في علي عليه السلام (ما انا انتجيته ، ولكن الله انتجاه) وحجة الباقين قوله ﴿ اذا تناجيتم ﴾ وكلاهما حسان .

قال قتادة : كان المنافقون يتناجون بينهم فيغيظ ذلك المؤمنين . وقال ابن زيد : كانوا يوهمون انه قد حدثت بلية على المسلمين من حرب او نحوه ، فأخبر الله عنهم انهم كانوا يتناجون بالاثم يعني بالمعاصي . والعدوان التعدي الى غير الواجب ومعصيت الرسول أي ما يعصون به الرسول النبي ﷺ .

وقوله ﴿ وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال قتادة ومجاهد ـ وهو

المروي عن عائشة ـ انه كانت تحيتهم السام عليكم يابا القاسم . وقال ابن عباس : كان المنافقون يقولون ذلك . وقيل : كان النبي ﷺ يرده على من قال ذاك ، فيقول: وعليك ، وقال ابن زيد : السام الموت . وقال الحسن : كانت اليهود تقول : السام عليكم أي انكم ستسأمون دينكم هذا أي تملونه فتدعونه . ومن هذا سئمت الأمر اسأمه سأماً وسأماً . ومن قال : السام الموت فهو سام الحياة بذهابها .

وقوله ﴿ ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ قال كانوا يقولون : إن كان نبياً صادقاً هلا يعذبنا الله بما نقول من النجوى وغيره . فقال الله تعالى لهم ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي كافيهم جهنم ﴿ يصلونها ﴾ يوم القيامة ويحترقون فيها ﴿ وبئس المصير ﴾ أي بئس المرجع والمآل لما فيها من أنواع العقاب .

ثم امر المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ انتم فيما بينكم أي تشاورتم ﴿ فلا تتناجوا بالاثم ﴾ يعني بالمعاصي ولا بـ ﴿ العدوان ﴾ ولا بـ ﴿ معصية الرسول ﴾ ومخالفته ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي بافعال الخير والخوف من عذاب الله . ثم قال ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه ﴿ الذي اليه تحشرون ﴾ يعني يوم القيامة .

ثم قال ﴿ انما النجوى من الشيطان ﴾ يعني نجوى المنافقين والكفار بما يسوء المؤمنين ويغمهم ﴿ من الشيطان ﴾ أي بدعاء الشيطان واغوائه يفعل ذلك ﴿ ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا باذن الله ﴾ معناه إلا بعلم الله وتمكينه إياهم لان تكليفهم إيمانهم بذلك ، وقيل معناه إلا بفعل الله الغم والحزن في قلوبهم لان الشيطان لا يقدر على فعل ذلك . ثم قال تعالى ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي يجب علي المؤمنين ان يتوكلوا في جميع امورهم عليه تعالى دون غيره .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيٰكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥)

خمس آيات بلاخلاف .

قرأ عاصم وحده «تفسحوا فى المجالس» على الجمع لاختلافها . الباقون فى «المجلس» على التوحيد ، لأنهم ذهبوا مذهب الجنس ، لانه مصدر يدل على القليل والكثير . لأنهم ارادوا مجلس النبي صلى الله عليه وآله فعلى هذا الوجه الافراد . ومن جمع أراد كل جالس مجلساً أي موضع جلوس . وقرأ «انشزوا» بضم الشين نافع وابن عامر وعاصم إلا حماداً ويحيى عن ابي بكر . الباقون بكسر الشين وهما لغتان مثل

(يعرشون ويعرشون ، ويعكفون ويعكفون) .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وآمراً لهم بأنه إذا قيل لهم تفسحوا فى المجالس بمعنى اتسعوا فيها ، يقال : تفسح تفسحاً وله فى هذا الأمر فسحة أي متسع . والتفسح الاتساع فى المكان ، وفسح له فى المجلس يفسح فسحاً . ومكان فسيح وفسح . والتفسيح والتوسيع واحد . قال قتادة : كانوا يتنافسون فى مجلس النبي صلى الله عليه وآله فقيل لهم تفسحوا وقال ابن عباس : أراد به مجلس القتال « فافسحوا » أي وسعوا « يفسح الله لكم » أي يوسع عليكم منازلكم فى الجنة « وإذا قيل انشزوا فانشزوا » أي إذا قيل لكم ارتفعوا فى المجلس فارتفعوا ، والنشوز الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه . ومنه نشوز المرأة عن زوجها ، يقال : نشز ينشز نشوزاً ونشزاً . قال قتادة ومجاهد والضحاك : معناه إذا قيل قوموا الى صلاة او قتال عدو أو أمر بمعروف أي تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقوموا .

وقوله « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » معناه متى ما فعلتم ما أمرتم به رفع الله الذين آمنوا منكم ، ورفع الذين أوتوا العلم درجات ، لأنهم احق بالرفعة . وفى ذلك دلالة على ان فعل العالم اكثر ثواباً من فعل من ليس بعالم « والله بما تعملون » من التفسح والنشوز وغير ذلك ﴿ خبير ﴾ أي عالم .

ثم خاطبهم ايضاً فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ أي شاورتموه ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قال الزجاج : كان سبب نزول الآية ان الاغنياء كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وآله فيشاورونه بما يريدون ، والفقراء لا يتمكنون من النبي تمكنهم ، ففرض الله عليهم الصدقة قبل النجوى ليمتنعوا من ذلك ، وتعبدهم بأن لا يناجي احد رسول الله إلا بعد ان يتصدق بشيء ما قل او كثر ، فلم يفعل احد ذلك على ما روي ، فاستقرض أمير المؤمنين علي عليه السلام ديناراً وتصدق به ، ثم ناجى

النبي ﷺ ، فنسخ الله تعالى ذلك الحكم بالآية التي بعدها .

وقوله ﴿ ذلك خير لكم واطهر ﴾ أي ذلـك التصدق بين يدي النبي ﷺ خير لكم واطهر ومعناه إن فعل ذلك ادعى الى مجانبة المعاصي من تركه . ثم قال قل لهم ﴿ فان لم تجدوا ﴾ يعني ما تتصدقون به ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يستر عليكم ترك ذلك ويرحمكم وينعم عليكم .

ثم قال ناسخاً لهذا الحكم ﴿ ا اشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ وظاهر هذا الكلام توبيخ على ترك الصدقة ، وانهم تركوا ذلك اشفاقاً وخوفاً على نقصان المال ، فقال ﴿ فاذ لم تفعلوا ﴾ ذلك ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ في تقصيركم في فعل الصدقة ﴿ فأقيموا الصلاة التي اوجبها الله عليـكم ﴾ وادموا فعلها وادوا شروطها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي افترضها عليكم ﴿ واطيعوا الله ورسوله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بما تعملونه من طاعة لله او معصية وحسن وقبيح ، فيجازيكم بحسبه .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ ألم تر ﴾ يا محمد ﴿ الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ والمراد به قوم من المنافقين ، كانوا يوالون اليهود ويفشون اليهم أسرارهم ويجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي ﷺ والمؤمنين - وهو قول قتادة وابن زيد - ثم قال ﴿ ما هم منكم ﴾ أى ليسوا مؤمنين ﴿ ولا منهم ﴾ أي ولا هم يهود ، فيكونوا منهم بل هم قوم منافقون .

ثم قال ﴿ ويحلفون ﴾ يعني هؤلاء المنافقون ﴿ على الكذب ﴾ يعني يقولون إنا معكم ونحن نتوب ، وليسوا كذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ انه كذلك . ثم بين تعالى ما لهم من العقاب فقال ﴿ اعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي لأنهم كانوا يعملون المعاصي والقبائح .

قوله تعالى :

﴿ ٱتَّخَذُوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) .

خمس آيات عراقي وشامي ، والمدني الاول . واربع آيات وبعض آية مكي والمدني الآخر ، عد العراقي والشامي والمدني الأول « في الاذلين » ولم يعده الباقون .

لما ذكر الله تعالى المنافقين بأنهم تولوا قوماً من اليهود الذين غضب الله عليهم وذكر ما أعده لهم من العقاب ، وذكر انهم يحلفون على الكذب مع علمهم بأنهم كاذبون قال انهم ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ التي يحلفون بها ﴿ جنة ﴾ أي سترة وترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة والظنة إذا ظهرت منهم الريبة . والاتخاذ جعل الشيء عدة ، كما يقال : اتخذ سلاحاً ، واتخذ كراعاً ورجالا واتخذ داراً لنفسه إذا اعدها لنفسه ، فهؤلاء جعلوا الأيمان عدة ليدفعوا بها عن نفوسهم الظنة . والجنة السترة وأصله التستر ومنه الجنة لاستتارهم عن العيون ، والجنة لاستتارها بالشجر ، والمجن الترس لستره صاحبه عن ان يناله السلاح .

وقوله ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي صدوا نفوسهم وغيرهم عن سبيل الله التي هي الحق والهدى . وقيل : فصدوا عن سبيل الله من قبلهم بكفرهم . ثم بين تعالى مالهم على ذلك فقال ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ يهينهم ويذلهم والاهانه الاحتقار يقال : اهانه يهينه إهانة ، ومثله أذله يذله إذلالا واخزاه يخزيه إخزاء ، ونقيضه الاكرام . ثم قال ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ التي جمعوها ﴿ ولا اولادهم ﴾ الذين خلفوهم ﴿ من الله شيئاً) يدفع عقابه عنهم ، أغنى يغني عنى اذا دفع عنه دفعاً يستغنى عنه . ثم قال ﴿ اولئك ﴾ مع هذا كله ﴿ اصحاب النار ﴾ أي الملازمون لها ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ مؤبدون لا يخرجون عنها ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ و (يوم) يتعلق بـ ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً ... يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿ فيحلفون له ﴾ أى يقسمون لله ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في الدنيا بأنهم كانوا مؤمنين في الدنيا في اعتقادهم وظنهم ، لانهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق ﴿ ويحسبون انهم على شيء ﴾ معناه يظنون أنهم على شيء في هذه الأيمان . فقال الله تعالى ﴿ ألا انهم هم الكاذبون ﴾ فيما يذكرونه من الأيمان والمعنى إنهم لم يكونوا مؤمنين على الحقيقة ، وإنما كان اعتقادهم اعتقاد جهل . وقيل : معناه انهم ﴿ هم الكاذبون ﴾ في الدنيا . وقيل : معناه ألا إنهم هم الخائبون ، يقال كذب ظنه اذا خاب أمله . وقال قوم ﴿ ويحسبون انهم على شيء ﴾ يعنى في دار الدنيا ، ولا يحسبون ذلك في الآخرة لانهم يعلمون الحق اضطراراً ، وهم ملجئون الى الافعال الحسنة وترك القبيح .

قال الرماني : وهذا غلط ، لانه مخالف لظاهر القرآن بغير دليل ، قال والصواب ما قال الحسن في أن الآخرة مواطن يمكنون في بعضها من فعل القبيح ، ولا يمكنون في بعض ، ويكون كذبهم ككذب الصبي المدهش الذى يلحقهم .

وقال قوم : ان قوله ﴿ ألا انهم هم الكاذبون ﴾ اخبار عن حالهم في الدنيا بأنهم كاذبون في الدنيا في قولهم :انا مؤمنون ، وهم منافقون ، لان الكذب لايجوز ان يقع منهم في الآخرة على وجه .

ثم قال تعالى « ان الذين يحادون الله ورسوله » أي يخالفونه في حدوده . وقال مجاهد: معناه يشاقون الله ورسوله بأن يحصلوا في حد آخر عادلين عن حدود الله.

وقوله « اولئك في الاذلين » اخبار منه تعالى ان الذين يحادونه ويحادون رسوله اولئك في الاحقرين المهانين عند الله . وقال الزجاج : معناه في المغلوبين .

وقوله « استحوذ عليهم الشيطان » معناه استولى عليهم ، فالاستحواذ الاستيلاء على الشيء بالاقتطاع . واصله من حاذه حوذاً مثل جازه يجوزه جوزاً « فانساهم ذكر الله » حتى لايذكرون الله ، ولا يخافونه ثم قال « اولئك » يعني الذين « استحوذ عليهم الشيطان » جنود الشيطان وحزبه . ثم قال « ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون » لانهم يخسرون الجنة ويحصل لهم بدلها النار وذلك هو الخسران المبين

قوله تعالى :

﴿ كَتَبَ ٱللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢) .

آيتان و بعض آية في المكي والمدني الأخير ، وآيتان فيما عداه ،عد المكي والمدني الأخير إلى « قوي عزيز » تمام التي قبلها .

قرأ الاعشى ﴿ عشيراتهم ﴾ على الجمع ، الباقون ﴿ عشيرتهم ﴾ على الافراد.

قوله ﴿ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ﴾ معناه إنه كتب في اللوح المحفوظ وما كتبه فلا بد من ان يكون . وقال الحسن : ما أمر الله نبياًقط بحرب الا غلب إما في الحال او فيما بعد . ويحتمل ان يكون المراد ﴿ كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ﴾ بالحجج والبراهين ، وان جاز ان يغلب في الحرب في بعض الأوقات . والغلبة قهر المنازع حتى يصير في حكم الذليل للقاهر ، وقد يقهر ما ليس بمنازع ، كقولهم قهر العمل حتى فرغ منه . والله تعالى غالب بمعنى انه قاهر لمن نازع أولياءه . وقوله ﴿ ان الله قوي عزيز ﴾ اخبار منه تعالى انه قادر لا يمكن احداً من قهره ولا غلبته لان مقدوراته لانهاية لها ومن كان كذلك لا يمكن قهره . والعزيز المنيع بكثرة مقدوراته.

وقوله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ معناه ان المؤمن لا يكون مؤمناً كامل الايمان والثواب يواد من خالف حدود الله ويشاقه ويشاق رسوله ومعنى يواده يواليه ، وان كان ذلك الذي يواده أباه او ابنه او اخاه او عشيرته ، فمن خالف ذلك ووالى من ذكرناه كان فاسقاً ، لايكون كافراً ، وكل كافر فهو محاد لله ولرسوله . والموادة الموالاة بالنصرة والمحبة ، فهذا لا يجوز إلا للمؤمن بالله دون الكافر ، والفاسق المرتكب للكبائر ، لانه يجب البراءة منها ، وهي منافية للموالاة . والآية نزلت في حاطب بن ابي بلتعة حين كتب إلى اهل مكة يشعرهم بأن النبي صلى الله عليه وآله عزم على ان يأتي مكة بغتة يفتحها . وكان النبي صلى الله عليه وآله أخفى ذلك ، فلما عوتب على ذلك ، قال أهلي بمكة احببت ان يحوطوهم بيد تكون لي عندهم ، فانزل الله تعالى فيه الآية .

ثم قال تعالى « اولئك » يعني الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر « كتب في قلوبهم الايمان » ومعناه انه جعله بحكمه ، فكأنه مكتوب فيه . وقيل : معناه إنه جعل في قلوبهم سمة تدل من علمها أنهم من اهل الايمان . وقال الحسن : معناه انه ثبت الايمان في قلوبهم بما فعل بهم من الالطاف « وايدهم بروح منه » أي قواهم بنور البرهان بالحجج حتى اهتدوا للحق وعملوا به ، وقيل : أيدهم بجبرائيل من أمر الله في كثير من المواطن ينصرهم ويدفع عنهم « ويدخلهم جنات » أي بساتين « تجري من تحتها الانهار » أي من تحت أشجارها الأنهار . وقيل : ان أنهارها أخاديد في الارض ، فلذلك قال « من تحتها الانهار » . والانهار جمع نهر « خالدين فيها » أي مؤبدين لا يفنون ولا يخرجون منها ، وهو نصب على الحال « رضى الله عنهم » باخلاص الطاعة منهم « ورضوا عنه » بثواب الجنة . ثم قال « اولئك حزب الله » يعني جنده وأولياؤه ، ثم قال « ألا » وهي كلمة تنبيه « إن حزب الله » يعني جنوده واولياءه « هم المفلحون » والمفلح هو المنجح بادراك ما طلب . وقال الزجاج : حزب الله هم الذين اصطفاهم الله. وقرأ المفضل عن عاصم « كتب في قلوبهم الايمان » على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح الكاف بمعنى إن الله كتب ذلك عليهم .

٥٩ ـ سورة الحشر

مدنية بلا خلاف . وهي أربع وعشرون آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَيهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ ابو عمرو وحده « يخربون بيوتهم » بالتشديد قال الفراء : وهي قراءة ابي عبد الرحمن السلمي والحسن . الباقون بالتخفيف . قال قوم : معناهما واحد مثل اكرمته وكرمته . وقال بعضهم : معنى التخفيف انهم ينتقلون عنها فيعطلونها ، وبالتشديد يهدمونها .

قد مضي تفسير « سبح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم » فلا معنى لاعادته .

وقوله « هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم » معناه ان الذي وصفه بأنه عزيز حكيم هو الله الذي أخرج الكفار من اليهود من ديارهم « لأول الحشر » قال قتادة ومجاهد : هم بنو النضير ، لما نزل النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة عاقده بنو النضير على ان لا يكونوا عليه ولا له . ثم نقضوا العهد وأرادوا أن يطرحوه حجراً حين مضى النبي صلى الله عليه وآله اليهم يستعين بهم في تحمل بعض الديتين اللتين لزمتا صاحب النبي صلى الله عليه وآله حين انقلب من بئر معونة فقتل نفسين ، كان النبي صلى الله عليه وآله أجرهما ، ومالوا المشركين على النبي صلى الله عليه وآله فأجلاهم الله عن ديارهم على ان لهم الذرية وما حملت إبلهم والباقي لرسول الله فأجلاهم النبي صلى الله عليه وآله على هذا عن ديارهم ومنازلهم ، فمنهم من خرج إلى خيبر ، ومنهم من خرج إلى الشام .

وقوله تعالى « لاول الحشر » قال قوم : أول الحشر هو حشر اليهود من بني النضير إلى ارض الشام ، وثاني الحشر حشر الناس يوم القيامة إلى ارض الشام أيضاً . وقال البلخي : يريد أول الجلاء ، لان بني النضير أول من أجلي عن ارض العرب . والحشر جمع الناس من كل ناحية ، ومنه الحاشر الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج ، والجمع حشار « ما ظننتم أن يخرجوا » أي لم تظنوا خروجهم منها « وظنو » هم « انهم مانعتهم حصونهم من الله » أي حسبوا ان الحصون التي هم

فيها تمنعهم من عذاب الله وإنزاله بهم على يد نبيه ، فجعل تعالى امتناعهم من رسوله امتناعاً منه .

وقوله تعالى « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » أي اتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا مجيئه منه « وقذف » أي ألقى « في قلوبهم الرعب » وهو الخوف « يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين » معناه إنهم كانوا يهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا ويخرب المؤمنون من خارج ـ على ما ذكره الحسن ـ ثم قال تعالى « فاعتبروا يا أولي الابصار » معناه اتعظوا وفكروا فلا تفعلوا كما فعل هؤلاء فيحل بكم ما حل بهم . والحصون جمع حصن ، وهو البناء العالي المنيع ، يقال : تحصن فلان إذا امتنع بدخوله الحصن .

ومن استدل بهذه الآية على صحة القياس في الشريعة فقد أبعد . لان الاعتبار ليس من القياس في شيء ، وإنما معناه الاتعاظ على ما بيناه ، ولا يليق بهذا الموضع قياس في الشرع ، لانه لو قال بعد قوله «يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين » فقيسوا الأرز على الحنطة ، لما كان كلاماً صحيحاً ولا يليق بما تقدم . وإنما يليق بما تقدم الاتعاظ والانزجار عن مثل افعال القوم من الكفر بالله .

وقوله تعالى « ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء » معناه لولا ان الله كتب في اللوح المحفوظ بما سبق في علمه أنهم يجلون عن ديارهم يعني اليهود ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ بعذاب الاستئصال . والجلاء الانتقال عن الديار والأوطان البلاء . وقيل : هو الفرار عن الأوطان يقال : جلا القوم عن منازلهم جلاء ، وأجليتهم إجلاء . ثم قال ﴿ ولهم في الآخرة ﴾ مع الجلاء عن الاوطان في الدنيا ﴿ عذاب النار ﴾ يعذبون بها . ثم بين لم فعل بهم ذلك فقال ﴿ ذلك ﴾ أي فعلنا بهم ذلك ﴿ بانهم شاقوا الله ورسوله ﴾ وخالفوهما وعصوهما . ثم توعد من يسلك مسلكهم في المشاقة لله

ورسوله ، فقال « ومن يشاق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » يعاقبهم على مشاقتهم باشد العقاب .

وقوله « ما قطعتم من لينة » فاللينة كل نخلة لينة سوى العجوة ـ في قول ابن عباس وقتادة ـ وهي لغة أهل المدينة . وقال بعضهم : إلا البرني والعجوة ، قال مجاهد وعمرو بن ميمون وابن زيد : كل نخلة لينة ولم يستثنوا . وقال سفيان : اللينة كرام النخل . وأصل اللينة اللونة فقلبت الواو ياء للكسرة . ويجمع ليانا ، قال ذو الرمة :

طراق الخوافي مشرق فوق ريعة ندى ليلة في ريشه يترقرق (١)

فكأنه قال لون من النخل أي ضرب منه . وقيل : يجوز أن تكون من اللين للين ثمرتها ، وقوله « او تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله » أي قطعتموها او تركتموها بحالها كل ذلك سائغ لكم ، وهو بعلم الله وإذنه في ذلك وأمره به . وقوله « وليخزي الفاسقين » أي فعل ذلك ليذل به الكفار الفاسقين من اليهود ويهينهم به لا أنهم يفعلونه على وجه الفساد في الارض ، لأن فيما فعلوه إذلال اهل الشرك وعز أهل الاسلام .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) مر في ٨\ ٤٤

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ ابو جعفر « كيلا تكون » بالتاء « دولة » بالرفع أضاف الفعل الى (دولة). الباقون بالياء « دولة » نصب أرادوا الفيء والمال .

قوله « وما أفاء الله على رسوله منهم » يعني من اليهود الذين أجلاهم من بني النضير ، وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفار إذا كان حكمهم ، فالفيء ردّ ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك ، على ما شرط فيه ، يقال : فاء يفيء فيئاً إذا رجع وأفأته عليه إذا رددته عليه . وقال عمر بن الخطاب ومعمر : مال الفيء

هو مال الجزية والخراج . والفيء كل ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين ، سواء كان غنيمة او غير غنيمة ، فالغنيمة ما اخذ بالسيف ، فأربعة أخماسه للمقاتلة وخمسه للذين ذكرهم الله فى قوله « واعلموا أنما غنمتم ....» الآية (١) .

وقال كثير من العلماء : ان الفيء المذكور فى هذه الآية هو الغنيمة . وقال قوم : مال الفيء خلاف مال الصدقات ، لأن مال الفيء اوسع ، فانه يجوز ان يصرف فى مصالح المسلمين ، ومال الصدقات إنما هو فى الاصناف الثمانية . وقال قوم : مال الفيء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول الله ﷺ باجماع الصحابة فى زمن عمر ابن الخطاب ، ولم يخالفه فيه احد إلا الشافعي ، فانه قال : يأخذ منه الفقراء والاغنياء ، وإنما ذكروا فى الآية لانهم منعوا الصدقة ، فبين الله أن لهم فى مال الفيء حقاً . وقال عمر بن الخطاب : مال بني النضير كان فيأ لرسول الله ﷺ خاصة « ولذي القربى » قرابة رسول الله ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطلب . وقيل : جعل ابو بكر وعمر سهمين : سهم رسوله وسهم قرابته من الاغنياء في سبيل الله ، وصدقة عن رسول الله ﷺ ذكره قتادة . والباقي في اهل الحاجة من اطفال المسلمين الذين لا أبا لهم ، وابن السبيل المنقطع به من المسافرين في غير معصية الله . وقال يزيد ابن رومان : الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقتال عنوة . وقيل : كانت الغنائم في صدر الاسلام لهؤلاء الاصناف . ثم نسخ بما ذكره في سورة الانفال : بالخمس . والباقي للمحاربين ـ ذكره قتادة ـ .

والذي نذهب اليه أن مال الفيء غير مال الغنيمة ، فالغنيمة كل ما اخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الاسلام ، وما لا يمكن نقله إلى دار الاسلام ، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام ويصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١

المسلمين . والفيء كل ما اخذ من الكفار بغير قتال او انجلاء اهلها وكان ذلك للنبي ﷺ خاصة يضعه في المذكورين في هذه الآية ، وهو لمن قام مقامه من الأئمة الراشدين . وقد بين الله تعالى ذلك . ومال بني النضير كان للنبي خاصة ، وقد بينه الله بقوله « وما أفاء الله » يعني ما رجعه الله ورده « على رسوله منهم » يعني من بني النضير . ثم بين فقال « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » أي لم توجفوا على ذلك بخيل ولا ركاب . والايجاف الايقاع ،وهو تسيير الخيل والركاب وهو من وجف يجف وجيفاً ، وهو تحرك باضطراب ، فالايجاف الازعاج للسير ، والركاب الابل « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » من عباده حتى يقهروهم ويأخذوا ما لهم ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ .

ثم قال مبيناً من استحق ذلك ، فقال ﴿ ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى ﴾ يعني بني النضير ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ يعني اهل بيت رسول الله « واليتامى والمساكين وابن السبيل » من أهل بيت رسول الله لان تقديره ولذي قرباه ويتامى أهل بيته ، وابن سبيلهم ، لان الألف واللام تعاقب الضمير ، وظاهره يقتضي أنه لهؤلاء سواء كانوا أغنياء او فقراء . ثم بين لم فعل ذلك فقال « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » فالدولة ـ بضم الدال ـ نقلة النعمة من قوم إلى قوم وبفتح الدال المرة من الاستيلاء والغلبة . ثم قال « وما أتاكم الرسول فخذوه » أي ما اعطاكم رسوله من الفيء فخذوه وارضوا به . وما أمركم به فافعلوه « وما نهاكم عنه فانتهوا » عنه فانه لا يأمر ولا ينهى إلا عن أمر الله .

ثم قال « واتقوا الله » في ترك معاصيه وفعل طاعاته « إن الله شديد العقاب » لمن عصاه وترك أوامره .

ثم قال « للفقراء » يعني الذين لا مال لهم « المهاجرين » الذين هاجروا من

مكة إلى المدينة او هاجروا من دار الحرب إلى دار الاسلام « الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم » الذي كان لهم بمكة فأخرجوا منها « يبتغون فضلا » أي طالبين بذلك فضلا « من الله ورضوانا » فالجملة فى موضع الحال « وينصرون الله ورسوله » يعني ناصرين لدين الله ورسوله « اولئك هم الصادقون » عند الله فى الحقيقة العظيموا المنزلة لديه . وقيل : تقدير الآية « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » بل للفقراء المهاجرين .

ثم وصف الانصار فقال « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم » أي جعلوا ديارهم موضع مقامهم وآمنوا بالله من قبلهم نزلت فى الانصار ، فانهم نزلوا المدينة قبل نزول المهاجرين . وقيل ان كل من نزل بالمدينة قبل هجرة النبي ﷺ فهو من الانصار .

وقوله « والايمان من قبلهم » يعني إن الانصار آمنوا قبل هجرة المهاجرين وإن كان فى المهاجرين من آمن قبل إيمان الانصار « يحبون من هاجر اليهم » من اهل مكة « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » قال الحسن يعني حسداً ، قال الزجاج : معناه لا تجد الانصار فى نفوسهم حاجة مما يعطون المهاجرين . وقال البلخي : لا يجدون حاجة فى نفوسهم مما يؤتون المهاجرين من الفضل فى الدين ، وقال الطبري: معناه لايجدون فى نفوسهم حاجة فيما أعطي المهاجرين من مال بني النضير ، فان النبي خص به المهاجرين إلا رجلين من الانصار : أبادجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف أعطاهما لفقرهما . وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لان مال بني النضير كان له خاصة . والمهاجرين بهم حاجة خصهم بذلك . والانصار كانوا فى غنى فرضوا بذلك ، ومدحهم الله على ذلك ـ ذكره ابن زيد ـ

وقوله « ويؤثرون على أنفسهم » أي يختارون على أنفسهم من يولونه من مالهم

من المهاجرين « ولو كان بهم خصاصة » يعني حاجة . والخصاصة الحاجة التي يختل بها الحال . والخصاص الفرج التي يتخللها البصر ، والواحد خصاص . قال الراجز :

والناظرات من خصاص لمحا

وأصله الاختصاص بالانفراد بالامر والخصاص الانفراد عما يحتاج اليه والخصوص الانفراد ببعض ما وضع له الاسم ،والخص إنفراد كل قصبة من أختها فى الاشراج ، والخاصة إنفراد المعنى بما يقوله دون غيره .

وقوله « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » أي من منع شح نفسه. والشح والبخل واحد . وفى أسماء الدين هو منع الواجب « فاولئك هم المفلحون » يعني المنجحين الفائزين بثواب الله ونعيم جنته .

ثم قال « والذين جاؤا من بعدهم » يعني بعد المهاجرين والانصار ، وهم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة ـ فى قول الحسن ـ وهو كل من أسلم بعد العصر الأول . وقال الأصم : يعني من جاءك من المهاجرين أي بعد انقطاع الهجرة وبعد إيمان الانصار « يقولون ربنا » الجملة فى موضع الحال ، وتقديره قائلين « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا » أي حقداً وغشاً « للذين آمنوا » ويقولون« ربنا إنك رؤف رحيم » أي متعطف على عبادك منعم عليهم .

وقسمة الغنيمة عندنا للفارس سهمان والراجل سهم . وقال قوم : للفارس ثلاثة أسهم والراجل سهم إلا ما كان من الارض والاشجار ، فانه للامام أن يقسمها إن شاء ، وله ان يجعلها أرض الخراج ويردها إلى من كانت في أيديهم قبل ، على هذا الوصف بحسب ما يرى ، كما فعل عمر بأرض السواد . وقيل : إن النبي ﷺ فتح مكة عنوة ولم يقسم أرضها بين المقاتلة . وقال قوم : فتحها سلماً . وقسم كثيراً

من غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم دون المقاتلة حتى وقع من نفر من الانصار في ذلك ما وقع ، فقال رسول الله ﷺ اما ترضون ان يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ، فرضوا وسلموا لله ورسوله في قصة مشهورة ،

قولـه تعـالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٥) خمس آيات

قرأ ابن كثير وابو عمرو « من وراء جدار » على التوحيد . الباقون « جدر » على الجمع .

لما وصف الله تعالى المهاجرين الذين هاجروا من مكة وما لهم من الفضل ، وذكر الانصار وما لهم من جزيل الثواب ، وذكر التابعين باحسان وما يستحقونه من النعيم في الجنان ، ذكر المنافقين وما يستحقونه وما هم عليه من الاوصاف . فقال

« ألم تر » يا محمد « إلى الذين نافقوا » فأظهروا الايمان وأبطنوا الكفر « يقولون لاخوانهم » في الكفر وهم « الذين كفروا من أهل الكتاب » يعني يهود بني النضير ﴿ لئن أخرجتم ﴾ من بلادكم ﴿ لنخرجن معكم ﴾ مساعدين لكم ﴿ ولا نطيع فيكم أحداً ابداً ﴾ يعني في قتالكم ومخاصمتكم ﴿ ولئن قوتلتم ﴾ معاشر بني النضير ﴿ لننصرنكم ﴾ ولندفعن عنكم . فقال الله تعالى ﴿ والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ فيما يقولونه في مساعدتهم والخروج معهم والدفاع عنهم . وظاهره يدل على انهم لم يخبروا عن ظنهم ، لانهم لو أخبروا عن ظنهم وعن نيتهم لما كانوا كاذبين . ويحتمل : ان يكونوا كاذبين في العزم ايضاً بأن يقولوا إنهم عازمون ولا يكونوا كذلك . ثم قال تعالى ﴿ لئن أخرجوا ﴾ يعني بني النضير ﴿ لا يخرجون معهم ﴾ يعني المنافقون الذين قالوا لهم إنا نخرج معكم ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ﴾ أي ينهزمون ويسلمونهم ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ الجميع . قال الزجاج : فيه وجهان :

احدهما ـ إنهم لو تعاطوا نصرهم .

الثاني ـ ولئن نصرهم من بقي منهم لولوا الأدبار ، فعلى هذا لا ينافي قوله ﴿ لا ينصرونهم ﴾ قوله ﴿ ولئن نصروهم ﴾ .

ثم خاطب المؤمنين ، فقال ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي أنتم أشد خوفاً في قلوب هؤلاء المنافقين يخافونكم ما لا يخافون الله ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لانهم قوم لا يفقهون الحق ولا يعرفونه ولا يعرفون معاني صفات الله ، فالفقه العلم بمفهوم الكلام في ظاهره ومتضمنه عند إدراكه ، ويتفاضل أحوال الناس فيه . وقيل : إن المنافقين الذين نزلت فيهم هذه الآية عبد الله بن ابي سلول وجماعة معه بعثوا إلى بني النضير بهذه الرسالة ـ ذكره ابن عباس ومجاهد ـ

ثم عاد تعالى إلى ذكر الخبر عن أحوال بني النضير ، فقال ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ معاشر المؤمنين ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ يعني ممتنعة جعل عليها حصون ﴿ أو من وراء جدر ﴾ أي من وراء الحيطان ، فالجدار الحائط . فمن قرأ على التوحيد فلأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير ، ومن قرأ على الجمع ، فلاختلاف الجدران . ثم قال ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ معناه عداوة بعض هؤلاء اليهود لبعض شديدة وقلوبهم شتى بمعاداة بعضهم لبعض أي ظاهرهم على كلمة واحدة وهم متفرقون في الباطن ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ يعني ما فيه الرشد مما فيه الغي . وقال مجاهد ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ يعني المنافقين وأهل الكتاب ، وإنما كان قلوب من يعمل بخلاف العقل شتى لاختلاف دواعيهم وأهوائهم ، وداعي الحق واحد ، وهو داعي العقل الذي يدعو إلى طاعة الله والاحسان في الفعل .

وقوله ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ معناه مثل هؤلاء كمثل الذين من قبلهم يعني بني قينقاع - في قول ابن عباس - وقال مجاهد : هم مشركوا قريش ببدر ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ من الشرك والكفر بالله فان عاقبة أمرهم كان القتل او الجلاء

وفي الآية دلالة على النبوة من جهة علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى وقوله ﴿ ولئن نصروهم ليولن الادبار ﴾ جاء على تقدير المستقبل كما يجيء في الماضي بـ(لو) لتبين خورهم وضعف قلوبهم ، واللام في قوله ﴿ لئن اخرجوا ﴾ و ﴿ لئن قوتلوا ﴾ و ﴿ لئن نصروهم ﴾ كلها لام القسم . واللام في قوله ﴿ ليولن الادبار ﴾ جواب القسم.

قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ

أَنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) خمس آيات .

معنى قوله ﴿ كمثل الشيطان ﴾ أي مثل هؤلاء المنافقين فيما قالوا لليهود ، مثل قيل الشيطان ﴿ إذ قال للانسان اكفر ﴾ واغواه به ودعاه اليه ﴿ فلما كفر ﴾ يعني الانسان ﴿ قال ﴾ الشيطان ﴿ إني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين ﴾ بمعنى أخاف عقابه . وإنما يقول الشيطان للانسان اكفر بأن يدعوه اليه ويغويه به ويقول له : التوحيد ليس له حقيقة والشرك هو الحق وأمره بجحد النبوة ، ويقول لا أصل لها ، وإنما هي مخرقة . والبراءة قطع العلقة إلى ما تقتضيه العداوة فهذه البراءة من الدين ، وقد تكون البراءة قطع العلقة بما يدفع المطالبة كبراءة الدين ، وبراءة الطلاق ، وبراءة الذمي إذا أخذت منه الجزية . والاصل قطع العلقة التي يقع بها مطالبة في نقيض الحكمة ، فالتقدير في الآية إن مثل المنافقين في وعدهم لبني النضير مثل الشيطان في وعده للانسان بالغرور ، فلما أحتاج اليه الانسان أسلمه للهلاك . وقيل : إن ذلك في إنسان بعينه كان من الرهبان فاغواه الشيطان بأن ينجيه من بلية وقع فيها عند السلطان ، فقال له : اسجد لي سجدة واحدة ، فلما احتاج اليه أسلمه حتى قتل ـ روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ـ وقال مجاهد:

هو عام في جميع الكفار ، فقال الله تعالى ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ يعني عاقبة الفريقين الداعي والمدعو من الشيطان ومن أغواه والمنافقين واليهود ﴿ أنهما في النار ﴾ معذبان فيها ، والعاقبة نهاية العمل في البادية ، فعاقبة الطاعة لله تعالى الجنة ، وعاقبة معصيته النار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين فيها معذبين ثم قال ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ لانفسهم بارتكاب المعاصي .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي تنظر وتفكر ما الذي تقدمه من الافعال ليوم القيامة من طاعة او معصية ﴿ واتقوا الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب . وقيل معناه ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ فيما تقدم نفس لغد ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما يعلمه منكم ، وليس ذلك بتكرار

ثم قال ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي كالذين تركوا أداء حق الله فانهم نسوه فأنساهم أنفسهم بأن حرمهم حظوظهم من الخير والثواب ، وقال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حظ أنفسهم . وقيل : نسوا الله بترك ذكره والشكر والتعظيم فأنساهم انفسهم بالعذاب الذي نسي به بعضهم بعضاً ، كما قال تعالى ﴿ فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على انفسكم ﴾ (١) أي يسلم بعضكم على بعض ثم اخبر عنهم فقال ﴿ اولئك هم الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من طاعته إلى معصيته .

وقوله ﴿ لا يستوي أصحاب النار واصحاب الجنة ﴾ أي لا يتساويان ، لان هؤلاء مستحقون للنار وأولئك مستحقون لثواب الجنة ، ثم قال ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ بثواب الله . ولا يدل على أن من معه إيمان وفسق لا يدخل الجنة ،

(١) سورة ٢٤ النور آية ٦١

لأنه تعالى قسم أصحاب الجنة وأصحاب النار الذين يستحقون ثواباً بلا عقاب اوعقاباً بلا ثواب، لانهما لا يتقاربان، ولم يذكر من يستحق الامرين. وعندنا أن الفاسق المسلم يستحق الأمرين فليس هو داخلاً فيه.

قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

أربع آيات.

يقول الله تعالى معظماً لشأن القرآن الذى انزله عليه مكبراً لحاله فى جلالة موقعه بأنه لو أنزل القرآن على جبل لرئي الجبل خاشعاً، والمراد به المثل، وتقديره لو كان الجبل مما ينزل عليه القرآن ولو شعر به - مع غلظه وجفاء طبعه وكبر جسمه - لخشع لمنزله تعظيماً لشأنه ولتصدع من خشيته، فالانسان أحق بهذا لو عقل الأحكام التي فيه. والتصدع التفرق بعد التلاؤم، ومثله التفطر يقال: صدعه يصدعه صدعا فهو صادع وذاك مصدوع ومنه الصداع فى الرأس وهو معروف، وتصدع تصدعا

وانصدع إنصداعاً فبين انه على وجه المثل بقوله ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ ومعناه ليتفكروا ، لان (لعل) بمعنى الشك ، والشك لا يجوز على الله .

وقوله ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ معناه هو المستحق للعبادة الذي لا تحق العبادة إلا له ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ معناه عالم بما يشاهده العباد ، وعالم بما يغيب عنهم علمه . وقيل : معناه ﴿ عالم الغيب ﴾ مالا يقع عليه حس من المعدوم او الموجود الذي لا يدرك مما هو غائب عن الحواس كأفعال القلوب وغيرها ﴿ والشهادة ﴾ أي وعالم بما يصح عليه الادراك بالحواس . وقال الحسن : الغيب ما اخفاه العباد ، والشهادة ما أعلنوه ، ففي الوصف بها بين كونه عالماً بجميع المعلومات ، لأنها لا تعدو هذين القسمين .

وقوله ﴿ هو الرحمن ﴾ يعني المنعم على جميع خلقه ﴿ الرحيم ﴾ بالمؤمنين ، ولا يوصف بالرحمن سوى الله تعالى . وأما الرحيم ، فانه يوصف به غيره تعالى . ثم اعاد قوله ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك ﴾ يعني السيد المالك لجميع الاشياء الذي له التصرف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه ﴿ القدوس ﴾ ومعناه المطهر فتطهر صفاته عن ان يدخل فيها صفة نقص ﴿ السلام ﴾ وهو الذي يسلم عباده من ظلمه ﴿ المؤمن ﴾ الذي أمن العباد من ظلمه لهم إذ قال ﴿ لا يظلم مثقال ذرة ﴾ (١) ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس معناه الأمين . وقال قوم : معناه المؤمن إلا انه أشد مبالغة فى الصفة ، لانه جاء على الأصل فى المؤمن ، فقلبت الهمزة هاء ، وفخم اللفظ به لتفخيم المعنى . وقال قتادة : معناه الشهيد كأنه شهيد على إيمان من آمن به أو الشهيد على الأمن فى شهادته ﴿ العزيز ﴾ يعنى القادر الذي لا يصح عليه القهر

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٩

﴿ الجبار ﴾ العظيم الشأن في الملك والسلطان ، ولا يستحق ان يوصف به على هـذا الاطلاق إلا الله تعالى ، فان وصف بها العبد ، فانما هو على وضع لفظة في غير موضعها ، فهو ذم على هذا المعنى ﴿ المتكبر ﴾ يعني في كل شيء . وقيل : معناه المستحق لصفات التعظيم .

وقوله ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ تنزيه لله تعالى عن الشرك به كما يشرك به المشركون من الاصنام وغيرها .

ثم قال ﴿ هو الله الخالق ﴾ يعني للاجسام والاعراض المخصوصة ﴿ البارىء ﴾ المحدث المنشيء لجميع ذلك ﴿ المصور ﴾ الذى صور الاجسام على اختلافها من الحيوان والجماد ﴿ له الاسماء الحسنى ﴾ نحو الله ، الرحمن ، الرحيم ، القادر ، العالم ، الحي وما اشبه ذلك . ثم قال ﴿ يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد مضى تفسيره .

٦٠ ـ سورة الممتحنة

مدنية بلا خلاف وهي ثلاث عشرة آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾(١) آية بلاخلاف.

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين عزم النبي ﷺ على ان يدخل مكة بغتة ، فسأل الله أن يعمي اخبارهم على قريش ومنع احداً ان يخرج من المدينة إلى مكة فكتب حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة يعلمهم بذلك ، فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ بذلك ، فدعا علياً عليه السلام والزبير ، وقال لهما : اخرجا حتى تلحقا جارية سوداء متوجهة إلى مكة معها كتاب ، فخذاه منها ، فخرجا حتى لحقاها فسألاها عن الكتاب ، فأنكرت ففتشاها ، فلم يجدا معها شيئاً ، فقال الزبير : ارجع بنا فليس

معها شيء ، فقال علي عليه السلام يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : خذ الكتاب منها ، وتقول : ليس معي شيء !!! ثم اقبل عليها ، وسل سيفه . وقال : والله لئن لم تخرجي الكتاب لاضربن عنقك فقالت له أعرض بوجهك عني ، فلما أعرض عنها أخرجت الكتاب من بين ضفيرتين لها ، وسلمته اليه ، فلما عادا سلماه إلى النبي فأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمع الناس ، فصعد النبي صلى الله عليه وآله المنبر وخطب . ثم قال : (أما إني كنت سألت الله ان يعمي اخبارنا عن قريش حتى ندخل مكة بغتة ، وإن رجلا منكم كتب اليهم ينذرهم خبرنا ، وهذا كتابه فليقم صاحبه) فلم يقم أحد فأعاد ثانياً ، فلم يقم احد ، فأعاد ثلاثاً ، ثم قال : فليقم وإلا فضحه الوحي ، فقام حاطب ، وهو يرعد ، وقال يا رسول الله : والله ما نافقت منذ اسلمت ، فقال ما حملك على ذلك ، فقال إن لي بمكة أهلا وليس لي بها عشيرة ، فأردت ان اتخذ بذلك عندهم يداً ان كانت الدائرة لهم ، فقام عمر بن الخطاب وقال : يا رسول الله مرني بأن أضرب عنقه ، فانه نافق ، فقال رسول الله : إنه من أهل بدر ، ولعل الله تعالى أطلع إطلاعة فغفر لهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية يخاطب فيها المؤمنين وينهاهم أن يتخذوا عدو الله من الكفار وعدو المؤمنين أولياء يوالونهم ويلقون اليهم بالمودة . والباء زائدة وتقديره ويلقون اليهم المودة ، وهي المحبة ، كما قال الشاعر :

ولما زجت بالشرب هز لها العصا   شحيح له عند الازاء نهيم (١)

أي زجت الشرب ، ويجوز أن يكون المراد يلقون اليهم ما يريدون بالمودة ﴿ وقد كفروا ﴾ يعنى الكفار الذين يلقون اليهم المودة ﴿ بما جاءكم ﴾ به النبي صلى الله عليه وآله ﴿ من الحق ﴾ يعنى من التوحيد والاخلاص لله فى العبادة والقرآن وشريعة الاسلام ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ يعنى إخراجهم لهم من مكة ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾

(١) مر في ٧ / ٣٠٧

ومعناه كراهة ان تؤمنوا بالله وقال قوم : اخرجوكم لا يمانكم بالله ربكم الذي خلقكم ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ أي وطلباً لمرضاتي فلا تلقوا اليهم بالمودة ان كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله وطالبين مرضاته . قال الزجاج وهو شرط جوابه متقدم وتقديره إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . و (جهاداً ، وابتغاء) منصوبان على المفعول له .

وقوله ﴿ تسرون اليهم بالمودة ﴾ فتكاتبونهم باخبار النبي ﷺ ﴿ وأنا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي بسركم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم ، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء ، فكيف تسرون بمودتكم إياهم مني .

وقوله ﴿ ومن يفعله منكم ﴾ يعني من ألقى اليهم المودة والقى اليهم اخبار النبي ﷺ منكم جماعة المؤمنين بعد هذا البيان ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي قد عدل عن الحق وجار عن طريق الرشد . وفي الآية دليل على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الايمان ، لان حاطب بن أبي بلتعة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قد فعل ذلك ، ولا يقول أحد انه أخرجه ذلك من الايمان .

قولـه تعـالى :

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣)

آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ﴿ يفصل ﴾ بضم الياء وفتح الصاد وسكون الفاء خفيفة . وقرأ ابن عامر – بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد وفتحها – على ما لم يسم فاعله . وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة. وقرأ عاصم ويعقوب وسهل بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة : أربع قراءات ، يقال : فصلت بين الشيء أفصله فصلا اذا ميزته ، وفصلته تفصيلا ، بمعنى واحد . فمن قرأ بفتح الياء أراد إن الله يفصل بينهم ويميز بعضهم عن بعض . ومن ضم الياء جعله لما لم يسم فاعله ومعلوم أن الله هو المفصل بينهم .

وقوله ﴿ ان يثقفوكم ﴾ معناه إن يصادفوكم هؤلاء الكفار الذين تسرون اليهم بالمودة ، يقال : ثقفته أثقفه ثقفاً فأنا ثاقف ، ومنه سمي ثقيف ، ومنه المثاقفة ، وهي طلب مصادفة العزة في المسابقة ، وما يجري مجراها من المصادفة بالشطب ونحوه و﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ أي يعادونكم ولا ينفعكم ما تلقون اليهم « ويبسطوا اليكم أيديهم » بما يقدرون عليه من الاذى والقتل ويبسطوا ﴿ ألسنتهم ﴾ ايضاً ﴿ بالسوء ﴾ فيذكرونكم بكل ما تكرهونه وجميع ما يقدرون عليه من السوء ويحثون على قتالكم ﴿ وودوا ﴾ مع هذا كله ﴿ لو تكفرون ﴾ بالله كما كفروا وتجحدون كما جحدوا .

ثم قال ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ الذين جعلتموهم علة في القاء المودة اليهم والافشاء اليهم بسر النبي ﷺ يوم القيامة ﴿ والله يفصل بينكم ﴾ ذلك اليوم ويميز بعضكم عن بعض إذا كانوا كفاراً وكنتم مؤمنين ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ لا يتعذر عليه تمييز بعضكم عن بعض فيأمر بالمؤمنين الى الجنة وبالكفار إلى النار

قوله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ

قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥) آيتان بلا خلاف.

قرأ عاصم ﴿ أسوة ﴾ بضم الهمزة في جميع القرآن . الباقون ـ بكسرها ـ وهما لغتان .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين وحاثاً لهم على ترك موالاة الكفار ومبيناً لهم ان ذلك غير جائز بأن قال ﴿ قد كانت لكم ﴾ في ترك موالاة الكفار وترك الركون إلى جنابتهم ﴿ اسوة حسنة ﴾ أي اقتداء حسن ﴿ في إبراهيم ﴾ خليل الرحمن عليه السلام ﴿ والذين معه ﴾ قال ابن زيد : يعني الانبياء . وقال غيره : يعني الذين آمنوا معه ﴿ إذ قالوا ﴾ أي حين قالوا ﴿ لقومهم ﴾ من الكفار الذين كانوا يعبدون الاصنام ﴿ إنا برآؤ منكم ﴾ على وزن فعلاء ، ومثله ظريف وظرفاء وكريم وكرماء وفقير وفقراء الهمزة الأولى لام الفعل والثانية المنقلبة من الف التأنيث والالف التي قبله الهمزة زيادة مع علامة التأنيث ، وهو جمع بريء وبراؤ منكم ﴿ ومما تعبدون من دون الله ﴾ أي وبريئون من الاصنام التي تعبدونها ، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية ويكون المعنى وبريئون من عبادتكم للاصنام ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي يقولون لهم : جحدنا ما تعبدون من دون الله وكفرنا به ﴿ وبدأ بيننا ﴾ أي ظهر بيننا ﴿ وبينكم العداوة

والبغضاء ابداً ﴾ لا يكون بيننا وبينكم موالاة فى الدين ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ أي حتى تصدقوا بوحدانيته وإخلاص العبادة له .

وقوله ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن الك ﴾ استثناء لقول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن أي فلا تقتدوا به فيه . فان إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه على ﴿ موعدة وعدها إياه ﴾ لأن اباه كان وعده بالايمان ، فوعده إبراهيم بالاستغفار ، فلما اظهر له الايمان استغفر له إبراهيم فى الظاهر ﴿ فلما تبين له انه عدو لله ﴾ وعرف ذلك من جهته ﴿ تبرأ منه ﴾ (١) قال الحسن : إنما تبين ذلك عند موت أبيه ، ولو لم يستثن ذلك لظن إنه يجوز الاستغفار للكفار مطلقاً من غير موعدة بالايمان منهم . وقيل : إنه الاستثناء راجع الى قوله ﴿ وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ لأنه لما كان استغفار إبراهيم لأبيه مخالفاً لما تضمنته هذه الجملة وجب استثناؤه وإلا توهم بظاهر الكلام انه عامل أباه من العداوة والبراءة بما عامل به غيره . وقال البلخي : هذا إستثناء منقطع . ومعناه لكن قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن الك كان لأجل موعدة أبيه بالايمان . ثم قال إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك الك من الله من شيء ﴾ إذا اراد عقابك ، فلا يمكن دفع ذلك عنك ،

وقوله ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون ربنا ﴿ عليك توكلنا ﴾ فالتوكل على الله تفويض الأمور اليـــه ثقة بحسن تدبيره فى كل ما يدبره به ﴿ واليك أنبنا ﴾ أي رجعنا وتبنا اليك أي رجعنا إلى طاعتك ﴿ واليك المسير ﴾ معناه واليك مرجع كل شيء يوم القيامة ، وقال ايضاً وكانوا يقولون ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ ومعناه لا ترهم فينا ما يشمتون بجهلهم بنا . وقال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا ببلاء من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما اصابهم هـذا ﴿ واغفر لنا ذنوبنا

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٥

إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ في جميع افعالك . وفي ذلك تعليم انه ينبغي ان يدعو الانسان بهذا الدعاء . وقال الحسن : كان استغفار إبراهيم لأبيه صغيرة ، وقال عمرو ابن عبيد ، واصل دعاء إبراهيم لأبيه بشرط الايمان بأنه إن آمن يستغفر له

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) آيتان بلاخلاف .

إنما أعيد ذكر الاسوة في الآيتين ، لان الثاني منعقد بغير ما انعقد به الاول فان الثاني فيه بيان أنه كان أسوة في إبراهيم والذين معه ، وهو لرجاء ثواب الله وحسن المنقلب في اليوم الآخر ، والاول فيه بيان ان الاسوة في المعاداة للكفار بالله حسنة وإذا انعقد الثاني بغير ما انعقد به الأول صارت الفائدة في الثاني خلاف الفائدة في الاول .

ووجه الجواب في قوله ﴿ ومن يتول فان الله هو الغني الحميد ﴾ أي من يذهب عما يحتاج اليه دون الداعي له ، لان الداعي له غني حميد ، فجاء على الايجاز . والحميد هو المستحق للحمد على إحسانه ، والمحمود الذي قد حمد ، فان الله تعالى حميد محمود .

وقوله ﴿ عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ بالاسلام وقال ابن زيد : وكان ذلك حين أسلم كثير منهم . وقيل معنى ﴿ عسى الله ان

يجعل ﴾ أي ليجعل بينكم مودة . وقيل معناه كونوا على رجاء من ذلك وطمع فيه وهو اوجه ، لأنه الأصل في هذه اللفظة . ثم قال ﴿ والله قدير ﴾ أي قادر على كل ما يصح ان يكون مقدوراً له ﴿ والله غفور ﴾ لذنوب عباده ساتر لمعاصيهم « رحيم » بهم أي منعم عليهم .

قوله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٩) آيتان بلا خلاف .

قال الحسن : إن المسلمين استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله في أن يبروا قرباتهم من المشركين ، وكان ذلك قبل أن يؤمروا بالقتال لجميع المشركين ، فنزلت هذه الآية وقال قتادة : هي منسوخة بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (١) وبه قال ابن عباس : يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ « عن » مخالطة « الذين لم يقاتلوكم في الدين » من الكفار « ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم » وتحسنوا اليهم « وتقسطوا اليهم » معناه تعدلوا إليهم « إن الله يحب المقسطين » يعني الذين يعدلون في الخلق . وقيل معناه إن الله يحب الذين يقسطون قسطاً من أموالهم على وجه البر .

وقوله « إن تبروهم » في موضع خفض ، وتقديره : لا ينهاكم الله عن أن

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦

تبروهم ، وهو بدل من (الذين) بدل الاشتمال . وقال مجاهد : عنى بالذين لم يقاتلوكم من آمن من أهل مكة ولم يهاجروا ، وقال ابن الزبير : هو عام في كل من كان بهذه الصفة ، والذي عليه الاجماع والمفسرون بأن بر الرجل من شاء من أهل دار الحرب قرابة كان او غير قرابة ليس بمحرم ، وإنما الخلاف في اعطائهم الزكاة والفطرة والكفارات ، فعندنا لا يجوز . وفيه خلاف . وقال الفراء الآية نزلت في جماعة كانوا عاقدوا النبي ﷺ ألا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر رسول الله ﷺ ببرهم والوفاء لهم إلى مدة اجلهم . ثم بين تعالى على من يتوجه النهي ببره وإحسانه فقال «إنما ينهاكم الله عن » مبرة « الذين قاتلوكم في الدين » من اهل مكة وغيرهم « واخرجوكم من دياركم » يعني منازلكم وأملاككم « وظاهروا على اخراجكم » أي تعاونوا على ذلك وتعاضدوا ، والمظاهرة هي المعاونة ليظهر بها على العدو بالغلبة . وقوله « أن تولوهم » اي ينهاكم عن ان تنصروهم وتوادوهم وتحبونهم ثم قال « ومن يتولهم » أي ومن ينصرهم ويواليهم « فاولئك هم الظالمون » لانفسهم ، لانهم يستحقون بذلك العقاب والكون في النار .

قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا

ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) آية بلاخلاف

قرأ ابو عمرو واهل البصرة « ولا تمسكوا » بالتشديد . الباقون «تمسكوا» خفيفة وهما لغتان .

يقولون امسكت به وتمسكت به . قيل كان سبب نزول هذه الآية إن النبي ﷺ كان صالح قريشاً يوم الحديبية على ان يرد عليهم من جاء بغير أذن وليه ، فلما هاجر النساء وقيل : هاجرت كلثم بنت أبي معيط فجاء أخواها فسألا رسول الله ﷺ أن يردها ، فنهى الله تعالى ان يرددن الى المشركين ، ونسخ ذلك الحكم ، ذكره عروة بن الزبير .

فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا » بالله ورسوله « إذا جاءكم المؤمنات » بالله ورسوله « مهاجرات » من دار الحرب إلى دار الاسلام « فامتحنوهن » وقيل فى كيفية الامتحان أربعة اقوال :

قال ابن عباس : كانت امتحان رسول الله إياهن أن يحلفن بالله ما خرجت من بغض زوج وبالله ما خرجت رغبة عن ارض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله - وفى رواية أخرى - عن ابن عباس قال : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وروي عن عائشة انه كان امتحانهن بما فى الآية التي بعدها « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ... » الآية . وقال ابن عباس وقتادة : كان امتحانهن ما خرجن إلا للدين ، ورغبة فى الاسلام وحباً لله ورسوله كقول ابن عباس الأول .

ثم قال « الله أعلم بإيمانهن » لأنه يعلم باطنهن وظاهرهن وانتم لا تعلمون باطنهن

ثم قال « فان علمتموهن مؤمنات » يعني في الظاهر « فلا ترجعوهن إلى الكفار » أي لا تردوهن اليهم « لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » قال ابن زيد : وفرق بينهما النبي ﷺ وإن لم يطلق المشرك . وقيل : إن النبي ﷺ كان شرط لهم رد الرجال دون النساء ، فعلى هذا لانسخ في الآية . ومن قال كان شرط رد النساء والرجال قال : نسخ الله حكم رد النساء .

وقوله « وآتوهم ما أنفقوا » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: اعطوا رجالهم ما انفقوا من الصداق . وقال الزهري : لولا الهدنة لم يرد إلى المشركين صداقاً كما كان يفعل قبل . وقيل نسخ رد المهور على الأزواج من المشركين ثم قال « ولا جناح عليكم » معاشر المؤمنين « ان تنكحوهن » يعني المهاجرات لانهن بالاسلام قد بن من أزواجهن « إذا آتيتموهن أجورهن » يعني مهورهن التي يستحل بها فروجهن .

وقوله « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فالكوافر جمع كافرة ، والعصمة سبب تمنع به من المكروه وجمعه عصم . وفي ذلك دلالة على انه لايجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمية او حربية او عابدة وثن ، وعلى كل حال ، لانه عام في جميع ذلك وليس لاحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم ، لان المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب .

وقوله « واسألوا ما انفقتم » يعني إذا صارت المرأة المسلمة إلى دار الحرب عن دار الاسلام فاسألوهم عن ان يردوا عليكم مهرهن ، كما يسئلونكم مهر نسائهم إذا هاجرن اليكم . وهو قوله « وليسألوا ما انفقوا » ثم قال « ذلكم » يعني ما تقدم ذكره وشرحه « حكم الله يحكم بينكم والله عليم » بجميع الاشياء « حكيم » فيما يفعله ويأمركم به . وقال الحسن : كان في صدر الاسلام تكون المسلمة تحت الكافر والكافرة تحت المسلم

فنسخت هذه الآية ذاك . والمفسرون على ان حكم هذه الآية منسوخ ، وعندنا أن الآية غير منسوخة ، وفيها دلالة على المنع من تزوج المسلم اليهودية والنصرانية ، لانهما كافرتان والآية على عمومها فى المنع من التمسك بعصم الكوافر ، ولا نخصها إلا بدليل .

قولــه تعــالى :

﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (١٣) ثلاث آيات .

معنى قوله « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » أي إن أعجزكم ومضى شيء من أزواجكم إلى كفار أهل مكة ومعنى شيء أحد ، فكأنه قال وإن فاتكم احد منكم « فعاقبتم » بمصير أزواج الكفار اليكم إما من جهة سبي او مجيئهن مؤمنات « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم » إلى الكفار « مثل ما انفقوا » من المهور كما عليهم أن يردوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم . قال

الزجاج : وقد قرىء « فعقبتم » بلا الف مشدداً ومخففاً ، وجاء في التفسير فغنمتم ومعناه في اللغةفكانت العقبى لكم أي كانت لكم الغلبة حتى غنمتم، قال « وعقبتم » مشددة أجودها في اللغة ، ومخففة جيدة أيضاً أي صارت لكم عقبى ، والتشديد أبلغ ومعنى « فعاقبتم » أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم أي ان مضت امرأة منكم إلى من لا عهد بينكم وبينه « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » يعني في مهورهن ، وكذلك إن مضت الى من بينكم وبينه عهد فنكث في اعطاء المهر ، فالذي ذهبت زوجته يعطى المهر من الغنيمة ولا ينقص شيئاً من حقه بل يعطى حقه كاملا بعد إخراج مهور النساء . وقال الزهري : فآتوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين مثل ما أنفقوا من مال الفيء . وقال ابن عباس من مال الغنيمة ـ وفي رواية عن الزهري ـ عليهم أن يعطوهم من صداق من لحق بهم وقال قوم : يعطونهم من جميع هذه الاموال . وقال قتادة : معنى الآية « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » الذين ليس بينهم وبين أصحاب رسول الله ﷺ عهد « فعاقبتم » يعني الغنيمة يقول :فاذاغنمتم فاعطوا زوجها صداقها الذي كان قدساقهاليها من الغنيمة ثم نسخ هـذا الحكم في براءة ، فنبذ إلى كل ذي عهد عهده . ثم قال « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أي اجتنبوا معاصي الله الذي أنتم مصدقون بثوابه وعقابه ومعترفون بنبوة نبيه.

وقوله « يا أيها النبي »خطاب للنبي ﷺ يقول الله« إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » ووجه بيعة النساء مع أنهن لسن من أهل النصرة في المحاربة هو أخـذ العهد عليهن بما يصلح شأنهن في الدين للأنفس والأزواج ، فكان ذلـك في صدر الاسلام لئلا ينفتق بهن فتق لما صيغ من الاحكام ، فبايعهن النبي ﷺ حسماًلذلك وقيل : إنه كان يبايعهن من وراء الثوب . وروى أنه استدعى ماء فوضع يده فيه

ثم أمر النساء ان يضعن أيديهن فيه ، فكان ذلك جارياً مجرى المصافحة بأخذ العهد « على أن لا يشركن بالله شيئاً » من الاصنام والاوثان « ولا يسرقن » لامن أزواجهن ولا من غيرهم « ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن » على وجه من الوجوه لا بالوأد ، ولا بالاسقاط « ولا يأتين ببهتان » يعني بكذب « يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » أي لا يأتين بكذب بكذبنه في مولود يوجد بين أيديهن وأرجلهن . وقال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير اولادهم . وقال الفراء : كانت المرأة تلتقط فتقول لزوجها: هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى . وقال قوم : البهتان الذي نهوا عنه في الآية قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد إلى الازواج على البطلان في الحاضر والمستقبل من الزمان ، ولا يعصينك في معروف ، فالمعروف نقيض المنكر ، وهو ما دل العقل والسمع على وجوبه او ندبه ، وسمي معروفاً لان العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه . وقال زيد بن أسلم : فيما شرط ألا يعصينه فيه أن لا يلطمن ولا يشققن جيباً ولا يدعون بالويل والثبور ، كفعل أهل الجاهلية . وقال ابن عباس : فيما شرط ألا يعصينه فيه النوح .

وقوله « فبايعهن » والمعنى إذا شرطت عليهن هذه الشروط ودخلن تحتها فبايعهن على ذلك « واستغفر لهن الله » أي اطلب من الله ان يغفر لهن ذنوبهن ويستر عليهن « إن الله غفور رحيم » أي صفوح عنهن منعم عليهن . وقال الحسن : إذا جاءت المرأة اليوم من غير أهل العهد لم ترد إلى زوجها ، ولم تمتحن وهـذه الآية منسوخة .

ثم قال « يا ايهـا الذين آمنوا » يخاطب المؤمنين بالله ورسوله « لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » أي لا توالوا اليهود ، ولا من يجري مجراهم من الكفار الذين غضب الله عليهم بأن يريد عقابهم « ولعنهم الله » ثم وصف الكفار ، فقال

« قد يئسوا من الآخرة » جملة في موضع الحال أي بإياسهم من الآخرة ، فان اليهود ييأسون من ثواب الجنة على ما يقوله المسلمون من الأكل والشرب وغير ذلك من أنواع الملذات كما يئس من لم يؤمن بالبعث والنشور أصلا « كما يئس الكفار من اصحاب القبور » قال الحسن الذين يئسوا من الآخرة أي اليهود مع الاقامة على ما يغضب الله ، كما يئس كفار العرب أن يرجع أهل القبور أبداً ، وقيل هم أعداء المؤمنين من قريش قد يئسوا من خير الآخرة ، كما يئس سائر الكفار من العرب من النشأة الثانية . وقيل « كما يئس الكفار من أصحاب القبور » من حظ الآخرة . وقيل : قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من النشأة الثانية ذكره ابن عباس ، وقال مجاهد : قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس منه أصحاب القبور ، لانهم قد ايقنوا بعذاب الله .

٦١ ـ سورة الصف

مدنية بلا خلاف ، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لله مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) خمس آيات

قد مضى تفسير « سبح لله ما فى السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم » في أول الحشر ، وقد مضى تفسيره في اول الحديد ، وإنما أعيد ـ ههنا ـ لانه استفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما سبح له بالآية التي فيه ، كما يستفتح بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا جل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به ، لأن المقصد به حسب دلالته والفائدة في تعظيم ما ينبغي أن يستفتي به على جهة التعظيم لله ، والتيمن بذكره .

وقوله «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» قال الحسن: نزلت في المنافقين. يقول الله لهم «لم تقولون» بألسنتكم ما لا تفعلونه، فسماهم بالايمان على الظاهر. وقيل: نزلت في قوم كانوا يقولون إذا لقينا العدوّ لم نفر، ولم نرجع عنهم ثم لم يفوا بما قالوا، وقال قتادة: نزلت في قوم: قالوا: جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا. وقال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قوم قالوا: لو علمنا احب الاعمال إلى الله لسارعنا إليها، فلما نزل فرض الجهاد تثاقلوا عنه، فبين الله ذاك. وقال قوم: هو جار مجرى قوله «يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود» (١) فان القول الذي يجب الوفاء به هو القول الذي يعتقد بفعل البر على طريق الوعد من غير طلب.

وقوله «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» إنما اطلق ذلك مع انه ليس كل قول يجب الوفاء به. لانه معلوم انه لا عيب بترك الوفاء فيما ليس بواجب الوفاء به، وإن الذم إنما يستحق بترك ما هو واجب أو ما أوجبه الانسان على نفسه بالنذر والعهد. والمقت البغض وهو ضد الحب، وهو على ضربين: احدهما ـ يصرف عنه العقل. والآخر يصرف عنه الطبع إلا انه جرى على صيغة واحدة للبيان أن صارف العقل في التأكيد كصارف الطبع، كما أنه في الحب على داعي العقل او داعي الطبع، وحذف الألف من «لم تقولون» لشدة الاتصال، ووضع حرف الاعتلال، لانه حرف تغيير في موضع تغيير.

وقوله «مقتاً» نصب على التمييز، وتقديره: كبر هذا القول أي عظم مقتاً عند الله، وهو أن تقولوا مالا تفعلون. ويحتمل أن يكون تقديره كبر ان تقولوا ما لا تفعلون مقتاً عند الله.

قوله «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً» معناه إنه تعالى يحب

(١) سورة ٥ المائدة آية ١

من يقاتل في سبيله ويجاهد أعداء دينه ويزيد ثوابهم ومنافعهم . وقوله « صفاً » أي يقاتلونهم مصطفين ، وهو مصدر في موضع الحال . وقوله « كأنهم بنيان مرصوص » قيل في معناه قولان :

احدهما - كأنه بني بالرصاص لتلاؤمه ولشدة اتصاله .

الثاني - كأنه حائط ممدود على رص البناء أي احكامه وإتصاله واستقامته والمرصوص المتلائم الذى لاخلل فيه ومثل مرصوص شديد اللصوق في الاتصال والثبوت

ثم قال للنبي ﷺ واذكر « إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم » ، لأنه مع العلم بنبوته لا يجوز إيذاءه ، وكانوا يؤذونه ، فيقولون : هذا ساحر كذاب ، ويرمونه بالبرص وغير ذلك . وقوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » فالزيغ الذهاب عن الشيء باسراع فيه والاظهر فيه الذهاب عن الحق ، والمعنى إنهم لما ذهبوا عن طريق الحق ، ومالوا إلى طريق الباطل « أزاغ الله قلوبهم » بمعنى انه حكم عليها بالزيغ والميل عن الحق ، ولذلك قال « والله لا يهدى القوم الفاسقين » ومعناه لا يحكم لهم بالهداية . وقيل : معناه فلما زاغوا عن الايمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب ، ولا يجوز ان يكون المراد أزاغ الله قلوبهم عن الايمان لأن الله لا يزيغ أحداً ولا يضله عن الايمان ، وايضاً فانه لا فائدة في الكلام على ما قالوه ، لانهم إذا زاغوا عن الايمان فقد حصلوا كفاراً ، فلا معنى لقوله ازاغ الله

قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٩) أربع آيات .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف « متم نوره » مضافاً . وقرأ الباقون « متم نوره » منصوباً . والقراءتان متقاربتان إلا أن اسم الفاعل إذا كان لما مضى لا يعمل، ولا يجوز إلا الاضافة، وإذا كان للحال والاستقبال جاز فيه التنوين والاضافة .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله إذكر يا محمد « إذ قال عيسى بن مريم » لقومه الذين بعث اليهم « يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقا » نصب على الحال ﴿ لما بين يدي من التوراة ﴾ إنما سماه لما بين يديه وهو قد تقدمه وهو خلفه بمضيها لانها متقدمة . وهو متوجه اليها بالأخذ بها ، فلها جهتان : جهة المضي وجهة التقدم ﴿ ومبشراً برسول ﴾ عطف على قوله ﴿ مصدقاً ﴾ وهو ايضاً نصب على الحال ﴿ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ يعني نبينا محمد صلى الله عليه وآله .

وقوله ﴿ اسمه أحمد ﴾ فأحمد عبارة عن الشخص . والاسم قول ، والقول لا يكون الشخص . وخبر المبتدأ ينبغي ان يكون هو المبتدأ إذا كان مفرداً . والوجه فيه ان يقدر فيه (قول) فكأنه قال إسمه قول أحمد ، كما تقول : الليلة الهلال ، وانت

تريد الليلة طلوع الهلال فتحذف المضاف وتقيم المضاف اليه مقامه .

وقوله ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قيل فيه قولان :

احدهما ـ إن محمداً لما جاء كفار قومه بالبينات أي المعجزات ، قالوا هذا سحر واضح بين .

وقال قوم : معناه فلما جاء عيسى قومه بالبينات والمعجزات قالوا له هذا القول . ومن نسب الحق إلى السحر فقد جرى في ذلك مجرى الجحد لنعم الله في أنه قد كفر ، فان كان دون ذلك كان جاهلا وفاسقاً ، لو لم يكفر . والسحر حيلة توهم امراً ليس له حقيقة كايهام انقلاب الحبل حية .

وقوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التبكيت . ومعناه لا أحد أظلم لنفسه ممن افترى على الله الكذب وخرص عليه ، وهو يدعى إلى الاسلام يعني الاستسلام لأمره والانقياد لطاعته ، وهو متوجه إلى كفار قريش وسائر في جميع الكفار .

ثم قال ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ومعناه لا يحكم بهداية القوم الظالمين الذين هم الكفار . وقيل : معناه لا يهدي الكفار إلى الثواب ، لانهم كفار ظالمون لأنفسهم بفعل الكفر والمعاصي التي يستحق بها العقاب ، وكل كافر ظالم لانه أضر نفسه بفعل معصية استحق بها العقاب من الله تعالى ، فكفره ضرر قبيح .

ثم وصف الكافرين الذين عناهم بالآية فقال ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ ومعناه إنهم يريدون إذهاب نور الاسلام والايمان بفاسد الكلام الذي يجري مجرى تراكم الظلام . وقيل : معناه هم كمن أراد اطفاء نور الشمس بفيه .

وقوله ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ معناه إن الله يتم نور الاسلام ويبلغ غايته وإن كره ذلك الكفار الجاحدون لنعم الله .

ثم قال ﴿ هو الذي ﴾ يعني الله الذي اخبر عنه بأنه يتم نوره ﴿ أرسل رسوله ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿ بالهدى ودين الحق ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة لله ودين الاسلام وما تعبد فيه الخلق ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ بالحجج القاهرة والدلائل الباهرة ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك . وفي الآية دلالة على صحة النبوة ، لأنه تعالى قد أظهر دينه على الاديان كلها بالاستعلاء والقهر ، كما وعد في حال القلة والضعف.

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١٤) خمس آيات .

قرأ ابن عامر ﴿ تنجيكم من عذاب اليم ﴾ مشددة الجيم . الباقون بالتخفيف وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابو جعفر ﴿ أنصاراً لله ﴾ منوناً . الباقون بالاضافة

لقولهم في الجواب ﴿ نحن أنصار الله ﴾ وقرأ نافع وحده ﴿ انصاري إلى الله ﴾ بفتح الياء . الباقون باسكانها وهما جميعاً جيدان .

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله واعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وصدقوا رسوله ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ صورته صورة العرض والمراد به الامر . والتجارة طلب الربح في شراء المتاع . وقيل اطلب الثواب بعمل الطاعة تجارة تشبيهاً بذلك ، لما بينهما من المقاربة ﴿ تنجيكم ﴾ أي تخلصكم ﴿ من عذاب أليم ﴾ أي مؤلم ، وهو عذاب النار . ثم فسر تلك التجارة فقال ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ أي تعترفون بتوحيد الله وتخلصون العبادة له وتصدقون رسوله فيما يؤديه اليكم عن الله . وإنما قال ﴿ تؤمنون ﴾ مع أنه قال ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ لان ذلك جار مجرى قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا آمنوا ﴾ (١) وقد بيناه فيما مضى (٢) ﴿ وتجاهدون في سبيل الله ﴾ يعني قتال اعدائه الكفار ﴿ بأموالكم ﴾ فتنفقونها في ذلك ﴿ وأنفسكم ﴾ فتحاربون بنفوسكم . ثم قال ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ أي ما ذكرته لكم ووصفته أنفع لكم وخير عاقبة إن علمتم ذلك واعترفتم بصحته . وإنما قال ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ مع أن تركه قبيح ومعصية لله ، لان المعنى ذلكم خير لكم من رفعه عنكم ، لان ما أدى إلى الثواب خير من رفعه إلى نعيم ليس بثواب من الله تعالى . والتكليف خير من رفعه إلى الابتداء بالنعم لكل من عمل بموجبه ، وقيل : إيمانكم بالله خير لكم من تضييعه بالمشتهى من أفعالكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ مضار الاشياء ومنافعها وإنما جاز (تؤمنون بالله) مع أنه محمول على التجارة وخبر عنها ، ولا يصلح أن يقال التجارة تؤمنون . وإنما يقال التجارة أن تؤمنوا بالله ، لانه على طريق ما يدل على خبر التجارة لاعلى نفس الخبر إذ الفعل يدل على مصدره وانعقاده بالتجارة في المعنى

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ (٢) انظر ٣ / ٣٠٧ ، ٣٥٩

لا في اللفظ . وفي ذلك توطئة لما بني على المعنى من الايجاز . والعرب تقول : هل لك في خير تقدم إلى فلان ، فتعوده وأن تقدم اليه .

وقوله ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي متى فعلتم ذلك ستر عليكم ذنوبكم ، وجزمه لانه جواب ﴿ تؤمنون ﴾ لأنه في معنى آمنوا يغفر لكم . وقال الفراء : هو جواب (هل) وإنما جاز جزم (يغفر لكم) لانه جواب الاستفهام . والمعنى هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم يعلمكم بها ، فانكم إن عملتم بها يغفر لكم ذنوبكم وكان ابو عمرو يدغم الراء في اللام في قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ ولا يجوز ذلك عند الخليل وسيبويه، لان في الراء تكرار ، ولذلك غلبت المستعلي في طارد . ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ عطف على قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ فلذلك جزمه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي ولهم في الجنة مساكن طيبة مستلذة ﴿ في جنات عدن﴾ أي في بساتين إقامة مؤبدة . ثم قال ﴿ذلك الفوز العظيم ﴾ يعني الذي وصفه من النعيم هو الفلاح العظيم الذي لا يوازيه نعمة . وقيل : الفوز النجاة من الهلاك الى النعيم .

وقوله ﴿ واخرى تحبونها ﴾ معناه ولكم خصلة أخرى مع ثواب الآخرة ﴿نصر من الله ﴾ في الدنيا عليهم ﴿ وفتح قريب﴾ لبلادهم . ثم قال﴿ وبشر المؤمنين﴾ بذلك أي بما ذكرته من النعيم والنصر في الدنيا والفتح القريب .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ ومعناه كونوا أنصار دين الله الذي هو الاسلام بأن تدفعوا اعداءه عنه وعن دينه الذي جاء به ﴿ كما قال عيسى بن مريم للحواريين ﴾ أي مثلكم مثل قول عيسى للحواريين ، وهم خاصته ، وسمي خاصة الانبياء حواريين ، لانهم أخلصوا من كل عيب - في قول الزجاج - وقيل : سموا حواريين لبياض ثيابهم . وقال ابن عباس : كانوا صيادين

للسمك . وقال الضحاك : كانوا غسالين .

وقوله ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ يعني من أنصاري مع الله ، و (الى) تكون بمعنى (مع) ومثله ﴿ ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ﴾ (١) يعني مع أموالكم . وقيل سمي النصارى نصارى لقولهم ﴿ نحن انصار الله ﴾ وقيل : لانهم كانوا من الناصرة وهي قرية في بلاد الروم ، فأجابه الحواريون بأن قالوا ﴿ نحن انصار الله ﴾ وإنما قيل لهم ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ مع أن المراد به دين الله ، تعظيماً للدين وتشريفاً له . كما يقال الكعبة بيت الله ، وحمزة اسد الله ، وما أشبه ذلك ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ يعني صدقت بعيسى عليه‌السلام طائفة من بني اسرائيل ﴿ وكفرت ﴾ به ﴿ طائفة ﴾ اخرى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي قوينا المؤمنين على عدوهم ﴿ فاصبحوا ظاهرين ﴾ أي غالبين لهم وقال ابراهيم : معناه أيد الذين آمنوا بعيسى بمحمد ، فاصبحوا ظاهرين عليهم . وقال مجاهد : بل أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى عليه‌السلام وقال بعضهم لم يكن من المسيح قتال . والتأويل أنهم أصبحوا ظاهرين على مخالفيهم بالحجة . وقال قوم : كانت الحرب بعد المسيح لما اختلف أصحابه اقتتلوا فظفر أهل الحق ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يكن من دينهم بعده القتال . وقال ابن عباس قاتلوا ليلا فاصبحوا ظاهرين .

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٢

تم المجلد التاسع من التبيان ويليه المجلد العاشر وأوله اول سورة الجمعة

طبع في محرم الحرام سنة ١٣٨٣ هـ - حزيران سنة ١٩٦٣ م

فهرس المجلد التاسع من الشيعة

١ ـ فهرس الاحاديث

٢ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

٣ - فهرس المباحث اللغوية

صفحة

٤ ـ فهرس السور

تم فهرس المجلد التاسع من التبيان